كتاب الضفاف

نصوص الغربة نصوص الولع

أحمد المديني

كتاب الضفاف

نصوص الغربة نصوص الولع

تأليف
أحمد المديني

هنداوي

كتاب الضفاف

أحمد المديني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩ ٣٧٨٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٢.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٥.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور أحمد المديني.

المحتويات

عتبة	١١
حلاوة الغرباء	١٥
من هموم بوعلام الجيلالي	١٩
قرنفل بقلب مثقوب	٢٣
تبعات الهوى	٢٧
عن الحزن، والبحر، وأشياء أخرى	٢٩
بيت الأرواح القلقة	٣٣
البيان الأخير لذبول الورد	٣٥
سيد القصيدة	٣٧
شذرات من ذكرى العيطة	٣٩
إعادة تأسيس الحداثة	٤٣
الجمعة الحزينة	٤٧
من حياة بوعلام الجيلالي	٥١
سرير من ماء	٥٧
سرير من ماء ٢	٦١
كشف الحجاب عن وردة الغياب	٦٣
الموسيقى ... الموسيقى ... الموسيقى ...	٦٩
لا أملك غير موتي لأعبر عن حياتي	٧٥
نوستالجيا الورد الفائت	٨١
خلل في الحاسوب ليس إلَّا ...	٨٥

ملح على بشرتنا ٨٩
النهر لا يكفي لأشواقنا ٩٥
أنقِذْني أيها الغائب من كل هذه القسوة ... ٩٩
ازدهار البحر ١٠٣
ضربة شمس في المانش ١٠٥
«السين» يخطب وُدَّ أبي رقراق ١١١
بين بن بركة وفاليري ١١٥
يا لسعادتكم، إنكم تحترقون! ١١٩
«... يا مطرا يا شاشا» ١٢٣
«ماذا يقول مولاي؟» ١٢٩
تحليق فوق شرفتها ١٣٣
قبلات لنهاية العام ١٣٥
في انتظار أفق المحبوب ١٣٩
وردة واحدة تكفي ١٤٣
الكتابة بالبندير ١٤٩
لحم أم مجاز؟ ١٥٥
طانغو في ليلة حمقاء ١٦١
نصف واقف، نصف غريق ١٦٧
لقالق شالة ١٧٣
ضياع في الأندلس ١٧٧
هي الأرض حول القمر ١٨٣
شذرات صحو ١٨٩
«(...) ودمعٌ لا يُكَفكفُ يا دمشق» ١٩٣
«خذني بعينيك واغرب» ١٩٩
جدولة لديون الحب ٢٠٣
باريس حتى الجمام ٢٠٩
أنا الكتاب الذي ... ٢١٥
سِرُّ تلك الكلمة ٢٢١
في حب مصر وحبنا ٢٢٥

صَعْقَة حب في «أكدال»	٢٢٩
في الحاجة إلى الذاكرة	٢٣٣
أصدقاء الفجر	٢٣٧
آخر نداء في سان جرمان	٢٤٣
خلاءٌ باريس بعدك ... باهي	٢٤٩
إرهابي في مطار Gatwick	٢٥٥
بهلوانيات في بلاد لا شيء	٢٦١
هذا الكاتب أعرفه	٢٦٥
التناوب والحب أيضًا	٢٧١
تداعيات كاتب عمومي	٢٧٥
«يتوالدون كالأرانب!»	٢٧٩
ضياع في الأوداية	٢٨٥
ضياع في Châtelet	٢٩١
ما أجمل «أحبك» باللغة العربية	٢٩٧
الديمقراطية في ... يوم مشمس	٣٠٣
غزال المسك	٣٠٩
«اسْطيحة» راشيل وأحـ...	٣١٣
سبب آخَر للحنين	٣١٥
لما تَبَقَّى من شرف الكلمات	٣١٩
وقت من رماد	٣٢٣
البنيوية في غرفة دافئة	٣٢٧
«يا صلاة الزين»	٣٣١
زفرات فوات الأوان	٣٣٣
زبد آخر للأيام	٣٣٩
قُبُلات كالفَرَاشات	٣٤٣
تعالَ معي إلى جبل الحبيب	٣٤٩
فيل يزحف على ماتنيون	٣٥٣
أوان عتق الروح	٣٥٩
لو فاس عادت إليَّ!	٣٦٣

تباريح مؤجَّلَة ٣٦٧
عسل سوس، لو ذُقتَه! ٣٧١
رسالة من الآخرة ٣٧٥
استهلال الغائب ٣٧٧
استهلال الغياب ٣٨١
استهلال الرؤيا ٣٨٥
استهلال المحبوب ٣٨٩
استهلال الاسم الجريح ٣٩٣
استهلال دجلة ٣٩٩
آخر استهلال وَرَدَ على البال ٤٠٥
سُرَّ مَن رأى هذا الخريف ... خريفي ٤١١
بِرَسْم الختام: رماد سيرة ٤١٩

إلى لمياء سلمان ... زوجتي
رحيلي ... وملاذي في الضفاف.

عتبة

لو جاز لمؤلِّف هذا الكتاب أن يُوجِد له عنوانًا آخَر لسمَّاه «مُقتطَفات من عمر/كتابة»؛ لأنه وضع فيه حقًّا جزءًا من عمره، ومادَّةً بتصاوير من التعبير الأدبي الذي تأتَّى له به تَفريد الذات وتجميع الحياة، أو بعض ما عاشه من الحياة.

وهو يقصد بهذا البعض جزءًا من إقامة له في فرنسا، وباريس في قَلْبها، ومنها انطلق إلى آفاق شتَّى من الدنيا، ابتدأت الإقامة منذ سنة ١٩٨٠م، واسترسلت مُنتظِمة إلى ١٩٩٥م، لينقطع انتظامها، ثم لتُسْتأنَف بعد ذلك في ذهاب وإياب بين الغرب والمغرب (والمشرق منه) حتى إن صاحبها لَيتساءل أحيانًا أين هو هنا وهناك؟ وأين يقع بينهما؟

لذلك، وبسبب هذا التراوح، ليس بين جغرافِيَّتَين، بل بين بلدان وجغرافيات، وتواريخ، وثقافات ومشاهَدات وأحداث وبشر بالأساس، من كل الأجناس، آثر أن يختار العنوان المثبت على الغلاف «كتاب الضفاف». يقع في القلب منها ضفة المتوسط الشمالية؛ حيث فرنسا، عاش فيها قلبًا وقالبًا، وضفة المغرب الجنوبية، بلده الذي وُلِد فيه وهو تُربته ونبضه ومصيره، ويُمثِّل المشرقُ العربي ضفةً ثالثة، تَنْدَعم في الاثنين وتتنفس خلالهما بالحب والصداقة والأُلفة والإيمان، والملاذ الآمن حين يطلب. والروح ضفة رابعة منها ينبثق العمر وإليها يأوي في نهاية المطاف؛ يَنِزُّ بجراحه أو يتهادى بلا بَطَر في أفراحه، والروح منهما صحراء وواحتها في آنٍ، ولا يُشْفى لها غليل. والكتابة، أولًا وأخيرًا، هي أُمُّ الضفاف، مبتدؤها ومنتهاها، تبني الكائن والمُتكوِّن، وتعيد صياغة الوجود، وتفتق في اللغة طاقتها المُحْتَبَسة لتصنع لغتها، وهي تقدح زناد الأجناس والصور والتعابير.

منذ التحق المؤلِّف بالمدينة التي سمَّاها قَبْله جدُّه عميد الأدب العربي طه حسين بـ«عاصمة النور» وهو مواظب على نوع من التفاعل النصي معها، دشَّنه في سلسلة مذكرات

نُشِرَت بجريدة «المحرر» (المغربية) في النصف الأول من العقد الثمانيني، قبل أن تتعرَّض هذه اليومية للمنع، وتطبع كل مذكرة بالعنوان العام: «من الضفة اليسرى». وباريس مُقسَّمة فعلًا إلى ضفتين بسبب نهر السين الذي يخترقها من الوسط تقريبًا، ولقد كان المؤلِّف يَقطُن باليسرى؛ حيث أغلب العالم الجامعي والطلابي، والأحياء والعناوين التاريخية الشهيرة، ومَرافق الأجناس المختلطة، فتعايَش مع هذه الأجواء ومع غيرها، وكتب عنها على الأغلب عفو الخاطر، وهو يحس فيها بانجذابه إلى جنوبه أكثر من الشمال الذي انتقل إليه.

بعد انقطاع دام زمنًا عاد صاحبنا لِيجَدِّد الصلة بالتعبير عن تفاعُله مع المحيط الغربي، والمجتمع الباريسي الإنساني والثقافي، في مقالات ومُذكِّرات حملت عنوان «من الضفة الأخرى»، نُشِرَت متقطعة في صحيفة «الاتحاد الاشتراكي» خلف «المحرر». لقد أمضى الآن عشر سنوات من الإقامة خارِج وطنه، وحصل على الشهادة الجامعية التي اتَّخذَها ذريعة للهجرة، بل وأصبح يدرس في الجامعة الفرنسية؛ لِيَلْقى نفْسَه من غير قَصْد مهاجرًا حقيقيًّا، مُقنَّن الإقامة، بعلاقات وعادات وأجواء مألوفة؛ ما ولَّد وضعًا نفسيًّا؛ أي إنسانيًّا، سيدفعه للتعبير عن مَشاعره، وتَحوُّلاته، ومُثاقفته مع محيطه الجديد، ثم مع المحيط الآخَر الذي ظنَّ واهمًا أنه انفصل عنه وهو به مقيم، ثم بين هذا وذاك في المسافة المُترقْرِقة كَسراب خادع لذات هي كوكبها الخاص.

لقد أعطى هذا كلُّه ثماره في قصص موجودة في مظانِّها لمن يريدها، ولكنَّه عبَّر عنها بالخصوص في المنحى المَعنِي هنا، خلال سَنتَي ١٩٩٤م و١٩٩٥م، كتابةً تبغي التعبير عن جوارِ محيطه ونفسه، بزواج الموضوع والذات، والانتقال من الفرد إلى المجموع، وهي تتلوَّن لغةً وأسلوبًا واضحًا ومستغلقًا، شفافًا ومكثَّفًا، كتابةً واحدةً أو باحثةً في كل مرَّة عن الطراز الذي يبلغ مادتها؛ ولذلك تراها متراوحة بين المذكِّرات، والخاطرة، والمَقالة الصِّرْف، وحتى القطعة الأدبية، وصولًا إلى الشعر الصافي أحيانًا.

وها إن ظروف الحياة تشاء أن يحزم صاحبنا متاعه ليعود إلى وطنه، حاملًا معه «ورطة» و«عُصاب» المهاجر، وحيث سَيتيقَن أن من هاجَر لا يعود، وإذا عادَ فَجسدًا وأوهامًا فقط، وهو ما يمكن للقارئ أن يقف عليه في الكتابة الأخرى التي بعنوان «بين الضفتين»؛ أي الشمال (الغربي) دوَّنها، والجنوب (المغربي) اللَّذين بقي بينهما مُوزَّع اللُّب والمركب. وعلى امتداد ثلاث سنوات أخرى؛ أي إلى نهايات ١٩٩٨م، لن يخلف الكاتب موعده كل

سبت، تقريبًا، مع القراء الذين أَلِفُوا هذه المادَّة وتَجاوَبوا معها، وحين اضطرته ظروف قاهرة إلى التوقُّف عن النشر في المنبر المذكور ظل هؤلاء الخُلَصاء يسألون مطالبينه إن التقَوا به، أو مُتسائلين، بينما وجَعٌ بين الضلوع يمنعه من البوح بِسِرِّه الضميم.

وهو يرى أنهم كانوا مُحِقِّين في طلبهم لزعمه أنه سطَّر لهم ولنفسه صفحات مَشبُوبة عن وضع الهجرة في القِيَم والسلوك والمستقبَل. ورسم ملامح للغربة الجسدية والغربة الروحية بوصفها إطارًا لوجود الكائن وتعيين مَصِيره، غَوَتْه باريس فشَخَّصها في صور ومَشاهد في قلبها الإنسان وفضاؤه الحيوي، والطبيعة بِلغتها وفصولها وألوانها وانجذب إلى ثقافة الغرب فتقبَّلها، نَهِل منها في نماذجها ومُكوِّناتها العديدة ما أمكنه ذلك، ثم حاوَرها وناوَشها دون أن يُسْتَلَب إليها قط.

وما من شك في أن «صدمة الغرب» التي تَحوَّلت لدى عديدٍ مناسبةً لجلد الذات أو التنفيس عن المكبوت، قد مَسَّته ببعض شراراتها، لكنها لم تُلهِه عن تعميق سؤال الذات في جوهرها وتاريخيتها، جاعلة الكتابة مُتمَحْوِرة على قاعدة الوجدان.

إن كل مقالة أو حكاية أو مقارَبة أو نص، هنا، هو مناسبة لفتح شغاف هذا الوجدان ليتولَّى إرسال الخطاب، وإعادة تأسيس كل ما حوله وينبثق منه، مثل مصفاة تَمُر منها الكائنات والمرئِيَّات والأشياء لتتوَجْدَن، فتكتسب من ثمة ماهِيَّتها المبتغاة، ما يُؤهِّل المادة للاصطباغ بالأدبية، لا بل تُحوِّلها كينونةً لها، ولعل الإمعان في الحنين، واشتعال هذا الحنين باستمرار جذوة مُتوقِّدة، هو بعض ما خط مسار الكاتب، وصنع قدره/قدر النص، الذي ليس منه بُد. وإن القارئ لَواجِد ومشدود إلى حَسَرات وانكسارات، مُهتَز بين مدن آفلة وأزمنة ووجوه راحلة، وأخرى باذخة، مُتأجِّجة، وإنه لَمُتقَلِّب بين المَواجع والمَسرَّات.

وصاحب هذا المسار يرى أن الوسط مُمكِن في كل شيء إلا في الشِّعر والحب والجنون، ومن ضربها المنفى والغربة، كما يؤمن بأن الكتابة مهاجِرة دومًا، حلَّت أو ارتحلت. والكلمات طالبة لنزوح دائم، لا يُفكِّر واضعها في شيء قَبْلها، ولا يريد أن يفكر في شيء بعدها. فما إن يوشك النص على الاستقرار في المكان الذي يظن أنه موطنه، وبستان أحلامه؛ حتى تنتشر فوق أديمه ظلال المنفى، وعندئذٍ فإن المنفى ليس هو المكان الذي نُجْبَر على الإقامة فيه، بل هو ذلك المَلاذ الذي ينبغي أن نَستحِقَّه. وهكذا، كلما عاش صاحبنا يومًا أو شهرًا، أو مع نفسه دهرًا، جلس في غُربة ما بين الضفتين، ما بين ضِفاف أوطان وأزمنة ورُؤًى؛ ليكتب كلماته؛ لنسمع لسانَ حاله يقول تارة: ها أنا ذا أَكْرع من ثُمالة قدح قديم

معصورة من بقاياي، وتارة أخرى يُردِّد بإيقاع مَنغوم مع مُغنِّيه الأثير، ليوفيري Léo Ferré:

ينبغي أن أكون قادرًا على الرجوع إلى الوراء
تمامًا كما نفعل حين نرقص التانغو.

من هذه الكتابة كلها، وفي المراحل المختلفة التي عَبَرتْ بها، عمد الكاتب إلى نصوصه يُحصيها؛ لِيطَّلع عليها مجتمعةً؛ فوجدها كثيرةً، مزدحمةً، مشحونةً بالحنين، فسلاها وقتًا وآخر. ولمَّا اشتدَّ طَرْق القراء القُدامى والجُدد أيضًا على باب ذكرياته، مطالبِين، مُلِحِّين، يريدون استعادة بضاعتهم واستئناف شَجَنهم في زمن عمَّ فيه الابتذال المادي والشُّح الروحي، لم يَجِد بُدًّا من العودة إلى النصوص، لكنْ بخُطَّة النَّخْل، والغربلة، والترتيب، والتشذيب.

والحق أنه أمام ضخامة المادة التي لا تُسعف الظروف المادية للطباعة في بلادنا على نشرها كاملة، عمد إلى تقليص ما بين يديه إلى النِّصف فما دونه، مُزيحًا ما هو أقرب إلى الظَّرْفِي العابر أو الخَبَري أو السِّجالِي، صارفًا النظر عن أعوام الانطباعات الأولى والشوارد، مُبقيًا، لو جاز له أن يقول هذا، على ما عدَّه جديرًا بالبقاء والانتظام في كتاب مُنسجِم ومُستساغ، لكنه عدا هذا فإنه لم يحذف ولم يَزِد كلمة، ولا حسَّن عبارة، ولا مطَّط موضوعًا: أراد أن تبقى النصوص، إجمالًا على صورتها الأصل تشهد على تاريخها، في تسلسلها الأول، وفي صياغتها، تنطق بإحساس صاحبها في الظروف التي نشأت فيها وتتواشج بهذه الاستعادة، وهي عنده استعادة ليست للتكرار، بل لتجديد العهد بما هو تَليد وطَريف في آنٍ، تُبتَغى صحبته ويستأنس بقراءته. ولعل للنَّفس فيه شفاء، وللعين مُتعة، ما دام إنشاء الجمال وتقصِّي الجميل من مقاصده، لا بل إن صاحب هذه السطور لَيزعم أن ما بين دَفَّتَي هذا الكتاب، وإن صدَر أولًا في صحف سيَّارة، لَهو أدب في أدب، له آلاته ووجهه مبتغاه. وعنده أن من شأن المُزاوَجة بين الإعلام اليومي والحس الأدبي تَوليد نكهة مُحبَّبة لعلها تجذب إلى فلك الأدب قطاعًا جديدًا من القراء.

حلاوة الغرباء[1]

استيقظ الصباح ونهض، لا لم ينهض، ظل في الفِراش ممدَّدًا كعادته، متكاسلًا لنوم لا يغادر إلا بمشقة، أو إثر تسلل ضوء حذر لا يأتي، أو طَرْق على باب الشقة حتمًا آتٍ.

في الصباح يستيقظ الصباح بصعوبة؛ أي يكون في بقية غفوة وهو شِبْه مُفتح العينين، أو مفتحهما والغفوةُ لا تُفارقه، يحاول عبثًا رَتْق أحلام النوم المتقطعة، يرفع بصره إلى السقف قليلًا؛ لكيلا يرى لونه إلا في مخيلته، مستعيدًا رسومًا تَموَّجَت على أديمه طوال ليالٍ مصبوغةٍ بالسُّهاد والتذكُّر، بحركة آلية يمد يده اليسرى إلى الترانزستور المحشور، كالعادة، بين ثنايا البطانية. يضغط على زِر فيه فَيَنْثال الكلام مِدرارًا مثل مطر فرنسا الذي لم يتوقَّف منذ عامين. لا ينتظر أبدًا أخبارًا مفرحة فذاك عهدٌ ولَّى من قديم، وربما لم يُوجَد إلا في رحلة الحنين. هي الحكايات أفخاخها منصوبة، وبوعي حادٍّ يرفض لها أن تستدرجه، والشروخ عندئذٍ ستَتعدَّد وتتَّسع لتُضيِّع عليه يومًا آخَر من زمن يلهث بفنائه. سَيتركُها لِيُجدِّد الصلة بها إن أمكن في رواية أخرى تَقُض المضاجع وتأكل قلوب الحاسدين.

يتوقع من المذياع أخبارًا مَطيرة، زلازل، انفجارات، انقلابات، أحداثًا مُروِّعة تهزُّ هذا البشر المعتاد على حياته ومَوته سواء، ما قد يُعطي لهذا الصباح الآخَر نكهة الخطر المُحدق وبالوبال الضروري لكسر سُلطة الرتابة، وجَعْلي مُتحمِّسًا للنهوض لمواجَهة عالَم بأكمله، إلا أن العالَم ما زال ملفوفًا في سدف ظلام ليل طويل مدافعًا اختراق الضوء المُتقطِّع، مُدوِّمًا طعم تَبغ حارٍّ على شَفتَي بينما جسدي لا يعرف الارتواء أبدًا. هكذا تتدافع الكلمات مشحونة في الصور، مجدولة بالذكريات تُعبِّئها احتمالات مفتوحة على ألْف سؤال مَطلبه

---

[1]* إلى «العياشية» و«التولالية» صديقَيَّ الحبيبين.

المُلِح دوام يقين الدهشة. أين أنتِ أيَّتها الدهشة المرغوبة في زمن تَلَف الأحباب وتَخَثر العُمر بالعادة؟ وحْدَها الخراتيت تَتنطَّع على ملاءة أيام صار بياضها كامدًا وألوان البهاء فيها سرقها شعراء مَخصِيُّون بلا وزن ولا إيقاع، ولا ذاكرة.

يستجمع الصباح أعضاءه، يتذكَّر حلول وقته ولزوم تجاوُز هذا الكدر. لا مناصَ منه مع كل استيقاظ، لكن لا بُدَّ من النهوض للدخول في إفراط الحياة. اترك التداعيات جانبًا وإلا واجهك الحرج مرة أخرى حين ستسمع باب الشقة يطرق خافتًا، أولًا ومتصاعدًا، ثانيًا. وهنا لن تقول «اشكون» كما في المغرب. انهَض سريعًا قبل أن يهجم طَرْقُهما، كلَّا لا بُدَّ له من مقدمة، من استهلال، كما في كل سمفونية أو قصة شَيِّقة، إنه النشيد، النشيد الصباحي كأنه مُهدًى إلى الصَّباح يصدر عن حنجرتين طريتين لم يلوثهما تَبْغ ولا كحول. يبدأ الإيقاع الأول بحركة أقدام صغيرة كأنها تدغدغ السقف ليسمع بعده صوت اصطفاق وخَشْخَشة هي صدى ما يصل من الغرفة التي تعلو غُرفَتك. إنهما العِفْريتان قد استيقظا لا شك: «تيبو» و«داميان»، وهذه السادسة والنصف صباحًا فقط، وهما في ملء النشاط والحيوية بعد نوم طويل بدأ منذ البارحة في السابعة والنصف مساءً، فقط، لا غير! وما ذنبي أن أستيقظ معهما أنا الذي لا يبدأ رحلة الكوابيس إلا بعد منتصف الليل، لا عذر لك؛ فالنشيد لا يرحم، إيقاعه الآن يعلو ليسقط دفعة واحدة ضاجًّا تحت سقفك يَستحِثُّك للقيام أيها الخامل والأطفال قد نهضوا، بعد قليل سيُسْمَع بالباب طَرْق، بل إنك تسمعه، تَهُبُّ من الفِراش مُخلِّلًا أصابعك على شعرك المنفوش، قافزًا رأسًا إلى المطبخ، الطَّرْق يتواصل ... تُخاطِب مَن في الخارج بصوت مسموع: لحظة، لحظة واحدة وسأفتح، وبينئذٍ تسحب من على الرَّف لوحة الشوكولاتة، وفي ثانية تكون قد فتحت الباب وجهًا لوجه أمامهما بل أمامه هو الأول «تيبو»، مُلحِّن النشيد وعازفُه الأول، يستبق «داميان» خلفه في الكلام، بل في المطالبة على عجل: Bonjour, je veux ma part de chocolat pour aujourdhui، ويتبعه العفريت: !Moi aussi, moi aussi. والحق أنهما يخطفان الشوكولاتة خطفًا ويتدحرجان نحو مَخرج العمارة بجسديهما الصغيرين، المُكوَّرَين، قاصدَين مدرسة الحي برفقة «ستيفاني» التي تشاركهما في قَضْم غنيمة الصباح، رغم أن أمها التي ترافق الجميع لا تستسيغ كثيرًا هذا الأمر، ولا يستبعد في أن تشك — وعلى ذِمَّة ما نقلَتْه حارسة العمارة البيَّاعة — بأن تكون حلاوة الغرباء مَسمومة!

قلتُ للصباح: عِمْ صباحًا، لنُقِم هدنة، هذا اليوم على الأقل، أوَلا ترى أننا نستحق أن نعيش رغم كل نَكَد الدنيا، رغم الهزائم والخسارات، والاستبداد الخانق والأوهام الضائعة؟

حسنًا، سأتشبث بهذه الأخيرة على الأقل؛ بها سأقارع الرجال الجوف مواصلًا نزيفي المُرهَف بين ضفتين. انتقلتُ إلى الغرفة الأخرى حيث مكتبي ومكتبتي. فكرت كيف أن مصائر عدة تتقرر هنا وأرواحًا تخفق ومعها فراديس من الغواية. ضَحكتُ وحزنتُ في سري على حزني المُتدَرِّن فوق جِلدي. في كلا الحالتين لا شيء سينقذني من الهاوية، ولا أحد يستطيع فَهْم الآخر قبل أن يفهم نفسه. هي حكمة بالية وهذا اليوم أريده جديدًا وسأُدشِّنه بعصيان كل الالتزامات، كل الأعمال القسرية سأنبذها لبعض الوقت. البيت فارغ تمامًا، والأطفال غادرُوا إلى المدارس، والعمارة سُكانها رحلوا أو أُصِيبوا جميعًا بالسكتة، وهذا أفضل؛ ولذا من الملائم أن أزيح الغطاء عن فم البئر وأهبط إلى القاع، رويدًا رويدًا، قريبًا من الهاوية، لم أجد الرغبة لذلك، وهزني الصباح بصباحه المُفعم بأريج تَذكُّرتُه من بلد بعيد، دفعني نحو النافذة ساحبًا الستارة مُلصقًا بها صدري وبصري سيَيْنَع فوق عُشب حديقة البيت ليقفز خطوتين أو خطوات فوق الشارع كي يحط أخيرًا عند هذا المجرى القريب من نهر السين، ولا ترى العين دائمًا ما تراه بل تحتاج إلى الوعي بحلولها الحاضر كي تبدأ آلية النظر. عيناي كانتا بعدُ هناك عند الضفة المغربية تتقاطعان بين كثبان السحاب تحجب لحين شمسًا تأبى الغياب وتحتها ملايين الوجوه السمر تُحدِّق في السماء برجاء، بنظرات نافذة ولا جواب، تَجمَّعت الوجوه كلها أمامي دفعة واحدة، رأيتُني وسطها وجهي القديم وبلدي المغلول يسبح في السديم. رأيتني في أزقَّة الطفولة وشوارع الفتوة ومَضارب الشباب، وأخيرًا مُعلَّقًا على حبل الغياب، رأيت هذا وأكثر، وكدتُ أسترسل لولا أني تراجعتُ فجأة، ووجهي مُجمَّد على النافذة دَهشًا في سمعي يَترقرق ماء دَفين، الآن فقط استعاد بصري وعيه، فأنا هنا ولست هناك، فمِن السماء تنزل نُدَف الثلج حبيباتٍ فَكُرات تتلألأ ببياض لا يشبه أي أبيض، العشب في الحديقة يصير نحو الأبيض يفترش الأخضر متعلقًا بالغصون الفرعاء للسياج. كل ما في الخارج أبيض، لون واحد تتماهى فيه الأشياء والكائنات. بعد ساعات كنت أُحدِّث الكاتب إدريس الخوري عن هذا الجمال المعجز، وصوتي يتحشرج عَبْر الهاتف، أنا في وادٍ وهو في وديان! جاءني صوته مشروخًا بكمد الأيام، قائلًا: اكتب، اكتب عن هذه الأشياء، نريد قليلًا من الفرح، من الجمال، قَتلُونا بالالتزام وتَركُونا في الزلط، والمروك كي يَتساخف، منه منك عندي عندك، هاك وارى، ومن الصباح للعشية ما كاين غير اطحن، اطحن! ولكن يا أبا إدريس، أنت المُجرِّب للكتابة والفجائع، كيف السبيل للكتابة عن هذا الذهول؟ كيف تصف المُحال؟! وشأن كل الفنون يطمح الأدب ليكتب الجمال، ليصفه وليعليه أكثر فأكثر، ما هو قبيح يملك جماله كذلك، قوانين تناسقه، لكن ما يمتد أمامي

إفراط في الجمال؛ لذلك لا أملك إلا أن أسلم لهذا الإفراط كما تسلمون أنتم هناك لرجال البلاد ... أولئك، كما تعلم، يحتكرون كل شيء لأنفسهم ولو أسعفهم الحال لقلبوا الوقت وحولوا الناس جميعًا عبيدًا رغم أنهم يفعلون. وكلما حاولتُ تكسير مرآة القُبح ودَفْع رشح الهوان حين أسعى لكمال الأشياء رمتني المرآة بشظاياها فيقترب البعد، وتصيبني قشعريرة من أشباحهم تغلق في وجوهنا كل الآفاق، وأن تمنع الإضراب فهذا بسيط، أما الأشباح فتمنع حق الوجود أو تهبه بكل تقتير.

وفي الداخل دائمًا — أين الداخل من الخارج؟ — تنتشر الدهشة من حولي وأتساءل، كما للمرة الأولى، ماذا أستطيع بالكلمات؟ ماذا سأفعل بالكلمات والوحش يكبر هناك فيما هنا مماشي الذهول مترامية؟ آه أيها الصخب البعيد! الكلمات ليست في القواميس، والألَم ليس في الشوارع وحدها، بل هو عندي الآن مُتراوح بين شَكلَين، واحد قوامه تَجريد العالَم في بؤرة قَلَق الوجود الإنساني لن يصل أبدًا إلى أي ضفَّة، والشكل الثاني مناطه رغبة التجسيد الأقصى لما هو واقع في وهم التجسد ... أن تفكك وتفتت، إلى حد الذَّرَّة الأخيرة، لا، إلى قيامة الغبار وعندئذٍ تبدأ الخلق تعلن الدنيا والمجرات، لن تكون مهمومًا بوصف الواقع، لا، ستجعل الواقع يَحدُث للمرَّة الأولى، وسَتكتُب بحرية دائمة. قدماك على الأرض ورأسك في المتاهة، هذه هي العقيدة المُطلَقة.

قبل عامين على كتابة هذه السطور كنتُ تحت نوبة عصبية، وأنا على وعي شديد بها، ذهبت إلى غابة بولونيا في عمق الليل وطفقتُ أُلاكم الأشجار وأصرخ في وجه السماء ولا من مجيب ... ثم اقتادتني خطواتي نحو مجرًى متدافِع لنهر السين قائلًا: الآن وليس غدًا. وما كدتُ أن خرجَت إليَّ أسماكٌ وملائكة وجنِّيَّات مُترجِّيات لا تفعل هذا، ابقَ حيث أنت، إننا نراك دائمًا تهرول قريبًا منا ... التراب في حاجة إليك، والثلج في حاجة لمن يَصِفه، والجنون لمن يسكنه، والدهشة لمن يفتح بابها طُرًّا كي تهب تلك الريح العاتية التي طال انتظارها وتصل أخيرًا إلى هناك ... بعد عامين أتذكَّر الآن أني على موعد مع افتتاح معرض الرسامة الأمريكية السوداء ماري أونيال، هناك في الدائرة الرابعة، عند «جسر ماري» وقد قدَّمت لنا قَتامة الألوان الحاملة لحركة «البلاك آرت»، وحين غادرتُ المعرض إلى الشارع رأيتُ خطوطًا سوداء وبنفسجية تخترق بياض الثلج، وكان الظلام يهبط أيضًا. وهنا تَذكَّرت أن الشوكولاتة نفدَت في البيت، فقلتُ: لا بُدَّ من دكان؛ فغدًا سيطرق النشيد الباب مطالبًا بحقه في حلاوة الغرباء، ومضيتُ ... إني أمضي ...

باريس في ١ / ٣ / ١٩٩٤م

من هموم بوعلام الجيلالي

قبل ثلاثة أشهر بالعد والتحديد على بدء عطلته السنوية يتغَيَّر نظام حياة بوعلام الجيلالي رأسًا على عقب؛ يستعيد الأمل قليلًا قليلًا، أولًا؛ فعودته إلى الوطن قريبة ولقاؤه بالأهل والأصحاب يُمسي مرقوبًا وسيغطس في المَسرَّة العائلية، ويرى دربه القديم وأولاد الدَّرب الذين اكتهلوا مثله، ويجلس الساعات الطوال في المقهى يُثَرْثر ويبرقق معهم دون أن يكترث للساعة، وفي الليل يَتبرَّع على الجميع لقضاء سهرة فاعلة تاركة عند الشيخات.

قبل ثلاثة أشهر يبدأ بوعلام في حساب الفلس وأخيه، من الخدمة للدار أو الغار ومنه إلى الخدمة، لا نزهة، ولا مقهى، ولا أي إنفاق خارج عن المعقول، لعبة اللوطو وحدها يحافظ عليها عسى أن يأتي معها الفرج ويَتخلَّص من عيشته المُرَّة وسط هؤلاء البيض الخنازير وسمائهم المُلَبَّدة، الباكية. طوال العام يستعد ويشتري حقائب جديدة؛ فحقائب العام الماضي بَقيَت هناك ويبدأ في ملئها إلى أن تنتفخ بكل ما هو رخيص: سراويل، قمصان، بلوزات، مناديل، سبرديلات، صحون، ملاعق، سكاكين، طناجر، وهناك من يريد آلات لِعَصْر التفاح والقهوة، وهو لا يملك أي معصرة ويفتح فاه ليشرب الماء مباشرة من الأنبوب.

تهل طلعة العطلة فيستدين يمينًا وشمالًا؛ لملء أكياس إضافية، يصبح أسعد إنسان في العالَم مع قرب الوقوف تحت السماء الزرقاء ولا يحفل بالطريق المُهلِك، ولا مَشاقِّ السَّفَر، ولا غطرسة مَن كان المغاربة يسمونهم بالأمس القريب «السبنيول الحازق!» إذ ستطلع عليه الشمس غدًا في بلاده، ويُشفى مؤقتًا من داء الغربة العُضال، لن يَتفحَّص أحد وجهه؛ لأنه أسمر وشعره أسود وشارباه كَثَّان، لن يَتوجَّس منه العابرون لأنه يمشي بمُفرده دون رفقة حميمة لكلب أو كلبة، يعرف مسبقًا أنه سيزهو مؤقتًا وسعادته مُعلَّقة بورقة تافهة في مكتب الباطرون، وبأيام مَعدودة هي عمره، كل عمره في عام كامل.

ويعرف، أيضًا، أن عليه التَّحلِّي بكثير من الصبر وكَبْت أي غضب قبل الفوز بهذه السعادة؛ ففي الحدود سينتصبون أمامنا كالعفاريت والمَرَدة، نحن نريد أن نعبر من الغربة إلى الوطن العزيز وهم يَنقضُّون على حقائبنا وأمتعتنا كما لو أننا مُهرِّبون أو مشبوهون.

افتح وافتح، طلِّع هذه، نَزِّل هذه، هذه غالية، هذه ممنوعة، هذا القانون، هذا المَخْزَن، نحن نعيش في الميزيرية وأنتم تبارك الله عليكم، أحم، أحم. هذه جهنم وليس عبورًا. هذا اسمه الصراط والأولاد يحترقون في الصهد ويَتصوَّرون أن آباءهم يلعبون في السيرك، والواحد لا يعرف إن كان لحمه سيبقى فوق عظامه إلى أن تصل به السيارة إلى الدرب، بعد ألف تحية ولمزة وغمزة، ويكاد يندم لولا أن الوالدة الجريحة تَهُب من قاع الدار فتكسو وجه ابنها العائد بدموع الفرحة والحنين.

في اليوم التالي يكون الدرب كله قد عَرف أن بوعلام وصل من فرنسا، وأن سيارته وقفتْ أمام الدار مُختَنِقة بالحقائب، والجارات والعمَّات والخالات وبنات الخالات وكل من هب ودَب، يتهافت على العياشية؛ لِيُباركن لها وصول ابنها بالسلامة، يَشرَبْن الشاي ويتطلعن حولهن مُترقِّبات متى تقوم العياشية لتشرع في توزيع كَنْز وليدها العزيز الذي يعمل رئيسًا كبيرًا في شركة كبيرة للتراكتورات، والنصارى أنفسهم يخافون منه، وصاحب الشركة يريد أن يُزوِّجه ابنته ولكني أنا قلتُ لا، بوعلام لن يتزوج إلا بنت بلاده وعندي له فاطنة التولالية!

أما أنا فأمرُّ على الخَضَّار والجَزَّار والنَّجَّار والشيخ والمقدم، أموت في السلام والكلام والأحضان والجميع يريد كارو مريكان. في المقهى أمد رِجلًا على رجل ونثرثر الساعات، أسمع الكثير؛ فأفهم ولا أفهم، أشرب القهوة الرديئة وأتاي المعسل ولا أفهم، أعود إلى الدار فتقول الوالدة لا بُدَّ أن أرسلها في العام القادم لزيارة قبر سيدنا النبي فأفهم، وفي العشية أنزل إلى المدينة راكبًا سيارتي، لا أعرف كيف يسوق البشر هنا ويستوقفني الشرطي الذي يصرخ في وجهي: آالسي، راك في المغرب ماشي في فرنسا، واش كتفهم؟! أبتعد قليلًا فأرى نظرات تخزر إلى لوحة السيارة وأحس كأني أسمع وشوشة الجالسين في حوالي عشرين ألف مقهًى على جنبات الطريق، فأكاد أفهم ولا أفهم، جيبي بدأ يفرغ، جيبي وصل مثقوبًا من اليوم الأول. جميع الذين التقيتُ بهم، من العاطلين والعاملين والمُعطلين، يبكون يَلعنون الدنيا وما فيها ولكن كلهم يضحكون ولا واحد منهم يمد يده إلى جيبه، فبوعلام في الذِّمَّة وإلا مِن أين له هذه السيارة، والساعة والكسوة وانظروا فهو يصرف بلا حساب، ليس مثلنا نحن الذين بقينا هنا ننش الذبان؟ وعلى كل حال فهو وأمثاله يفعلون هذا قصدًا، هؤلاء «الفاكانسية» الذين كانوا يُسرِّحون الماعز وأصبح لهم اليوم شأن ومرشان!

تنفَدُ نقودي نهائيًّا فأذهب إلى القيسارية فأبيع الساعة والخاتم من أجل مصاريف العودة، أغادر الدرب المحبوب تحت جنح الظلام وشهقات أمي أمام باب الدار تفضح هروبي. ومن الآن عليَّ أن أدبر مصروف زيارتها إلى للامكة وأنا لا أعرف إن كان المعمل سيبقيني أو يرميني إلى الشارع مع جيش المطرودين؟

وكيف كان العبور آلسي؟ مزيان، وكيف وجدت البلاد؟

مزيان، كل شي مزيان. ومن بعد ما قضيت مدة مع الأهل والأحباب بلا شك أنت فرحان؟ فرحان ... مزيان كل شي مزيان.

بعد ثلاثة أيام بالعد والتحديد على انتهاء عطلته السنوية تَغَيَّر نظام حياة بوعلام الجيلالي رأسًا على عقب، بقي البحر هناك، والسماء الزرقاء، والشمس الساطعة من الصباح إلى المساء، الأم هناك والتربة الحمرية والمرارة في قهوة الصباح الأولى نظر إلى السماء فرآها ملبدة وقال: هكذا ستبقى إلى الصيف القادم، دخل إلى المعمل مَحنِي الرأس يرتجف، في الخارج بحث عن الضحك فلم يجد أحدًا، جرَّب تحية جار عابر فكشَّر فيه.

وضع رأسه على الوسادة أخيرًا وحين لم يعثر على أي حلم هنا فكَّر في الوطن العزيز الذي كل شيء فيه فرحان سعدان ... ومزيان.

باريس في ١٠/٨/١٩٩٤م

قرنفل بقلب مثقوب

بالأمس البعيد أسماها الروائي الأمريكي الشهير إرنست همنغوي «باريس، عيد دائم»، وهو يطوف بدراجته الهوائية بين شوارعها وميادينها في فترة الشباب الزاهي. وبالأمس القريب جدًّا، على امتداد شهر أغسطس هذا الذي يسلس أيامه للنهاية، عاشت المدينة تحت الوطء الثقيل لقوات الأمن، تزيد وحشة المدينة المقفرة كل صيف وحشة حضورها الكثيف، في الشوارع والمنعطفات، ممعنة في تفتيش العابرين، مترصدة أشباح «الأصوليين الإسلاميين» ومُحتجِزة البشر بالعشرات كل ليلة دفعًا لمحذور إرهاب مفترَض، جاثم بإنذاره أو وهمه على مدينة وقعت خلال ساعات في قبضة وزير الداخلية. في ١٤ يونيو من سنة ١٩٤٠م كان العالم شاهدًا على سقوط باريس في يد قوات الاحتلال الألماني (ويرماخت)، وأعلنتها السُّلطات «مدينة مفتوحة». وفي ٢٥ أغسطس من سنة ١٩٤٤م اصطف الباريسيون عن بَكرة أبيهم على جنبات الشانزليزيه، أجمل جادَّة في العالم، يَهتفون ويصفقون لدخول الجنرال ديغول إلى العاصمة المُحرَّرة ببنادق مُقاوَمتها، ومتاريس أبنائها، وأقلام الكُتَّاب والشعراء.

واليوم تنسحب قوات أمن شارل باسكوا تدريجيًّا، وتنكفئ عيون أجهزته مؤقتًا نحو زنزانة «كارلوس» لتخلي الفضاء للزمن المستحق، تعلو فوق سمائه الرمادية، شبه المزمنة، سماء ذِكرى أبهجَت قلب شعب بأكمله ودقَّت ساعة إضافية في ميلاد تاريخ جديد، سيعنينا نحن المغاربة أيضًا، ويسجل بداية نضال ما يزال مستمرًّا في تاريخنا. تتكلم الذاكرة من الذكرى لتقول إن خمسين سنة مرَّت الآن، بدءًا من هذا الأسبوع على تحرير الحاضرة التي مَجَّدها طه حسين الكفيف باسم «مدينة النور»، ويعود الباريسيون تباعًا من عطلتهم، مُذهَّبي البشرة من الجنوب؛ لِيتطلَّعوا نحو سماء الرماد في الشمال تعلوها شمس تحرير وهَّاجة أشرقَت منذ نصف قرن.

حدث كل شيء في ظرف أسبوع وابتداءً من ١٩ من أغسطس ١٩٤٤م. ولم يكن ما حدث ممكنًا قبل نزول الحلفاء بشاطئ النورماندي في ٦ يونيو ١٩٤٤م؛ أي بداية النهاية للاحتلال النازيِّ لفرنسا، ولانهيار النازية بالتدريج، عُيِّن «روول تانغي» رسميًّا قائدًا للقوات الفرنسية الداخلية، وكان فيلق الجنرال «لوكلير» قد نزل بثقله في النورماندي. في ١٨ أغسطس سيدعو العقيد «تانغي» إلى التعبئة العامَّة في وقت واحد مع توجيه الشيوعيين نداء التمرد في باريس وتُقرِّر النقابات الإضراب العام، وفي اليوم الموالي تنطلق الشرارة الأولى لتحرير المدينة بدل انتظار الأمريكيين، الذين رجَّحوا اختيارات أسبق أظهرها جدل حادٌّ بين ديغول وأيزنهاور. في السابعة صباحًا يحتل ألفان من رجال الشرطة الفرنسية مَقرَّ الولاية وتشتعل النيران حول ساحة سان ميشال، وتستمر المعركة طيلة النهار، إلى حين توقيع هُدنة. في يوم ٢٠ أغسطس تَتمتْرَس فرقة من المُقاوِمين داخل مبنى البلدية، وفي الوقت نفسه يتم احتلال مباني الصحف العميلة.

مساء يوم ٢٢ تُقام المتاريس الأُولى، وفي الغداة يصدر رئيس القوات الداخلية الأمر إلى كل الباريسيين بالتوجه إلى المتاريس التي بلغ تعدادها ستمائة متراس. في اليوم الموالي يهجم الألمان على «القصر الكبير Le grand palais» وتشتعل الحرائق فيه. في يوم ٢٥ يبدأ استسلام القيادة العسكرية الألمانية وانسحابها من كبريات مواقع الإدارة والقيادة والقصور الرسمية، بعدها تَصل قُوات الجنرال لوكلير إلى أبواب باريس، وبعد أربع وعشرين ساعة يتم دخول ديغول الشهير إلى الشانزليزيه، وفي ٣١ أغسطس تستقر الحكومة المُؤقَّتة للجمهورية الفرنسية في العاصمة.

إنه الجدول الزمني لتسلسل تحرير مدينة باريس، أما الأحداث نفسها فهي ملحمة كاملة عاشها وشارَك فيها السكان، بمختلف أعمارهم، وبمقادير مختلفة، وهي تُمثِّل قسمًا ذهبيًّا من تاريخ المقاوَمة الفرنسية للاحتلال النازي، ما يصعب الوقوف هنا حقًّا على تفاصيله، وهو ما يستعيد الإعلام الفرنسي حاليًّا لحظاته؛ إنعاشًا للذاكرة الوطنية في زمن خفَتَ فيه حِس المواطَنة إلى حدٍّ بعيد، وتذكيرًا بأن ألف قتيل سقط في معركة الأيام الستة التي تقود إلى التحرير.

وقد كان كُتَّاب وفلاسفة المستقبل في خِضَم هذه المعركة، نقَلوا بأقلامهم الصحفية مقاطع مُتوهِّجةً ولحظات داميةً منها، ويكفي أن نذكر منهم: ألبير كامي، جان بول سارتر، فرانسوا مورياك، والشاعرين بيير سيغرس وكلود روا. لنقرأ، وعلى سبيل المثال، ما كتبه كامي في صحيفة «كومبا» (٢٤ / ٨ / ١٩٤٤م) في مقالة بعنوان: «دم الحرية»:

«ها هي باريس تشعل النار بكل طلقاتها في ليل أغسطس، في هذا الديكور الهائل من الحجارة والمياه، وحول هذا النهر المتدفِّق بثقل التاريخ، مرةً أخرى نصبت متاريس الحرية. مرة أخرى ينبغي شراء العدالة بدم الرجال. سيشهد الزمن أن رجال فرنسا ما أرادوا القتل، وأنهم دخلوا بأيادٍ طاهرة إلى حرب لم يختاروها (...) إن باريس تقاتل اليوم لكي تستطيع فرنسا أن تتكلم غدًا، والشعب مُسلَّح هذا المساء؛ لأنه يأمل في العدالة غدًا (...) إن باريس السوداء والحامية، بالرعد المُدوِّي في المساء والطرقات، لتظهر لنا أكثر إشعاعًا من المدينة المضيئة التي يغبطها عليه العالَم.»

وهذا جان بول سارتر يصف لقطةً مثيرةً في تحقيق أنجزه خلال الأحداث، يُبرِز من خلاله صورةً دمويةً وسلوكًا بشريًّا. وقفَتْ فرقة ألمانية أمام بيت الكاتب وبدأتْ تُطلق النار، ولا خيار أمام الناس إما الفرار أو الرَّدى «وحْدَه، بقي رجل مُسِن عاجز عن الجري، فاتكأ على باب موارب لعمارة مجاوِرة، دقَّ البابَ بِجُمْع يديه ولم يفتح أحد، وأطلق الألمان الرصاص فخَرَّ الرجل صريعًا.» ينصرف القتلة وتُحْمَل جثته «أمام العمارة تبقى لطخة دم شاهدةً كتُهمة، ثم يُفْتَح الباب فجأةً ليطل منه رأس شخص خرع، إنَّه الحارس الذي رفض فتح الباب ينظر إلى اللطخة بإحساس توبيخي ثم يختفي ليعود حاملًا سطلًا ومكنسةً ويشرع في غسل الدم، وهنا ينطلق غضب الحشد، إنها مظاهرته الجماعية الأولى، وهي المرة الأولى منذ الصبح التي سيعي فيها الناس وَضْعَهم، ويهمون بالحارس مُوبِّخِين: آه، تستطيع تنظيف الدم الآن! هذا الدم سال بسببك أنت (...) وقرأتُ الخوف خلال أربعة أيام في عيون كل باريسي.»

بيير سيغرس وكلود روا كانا معًا، مفتونَين بالزهور، وبهذا الافتتان، من وحيه، سجَّلَا في خِضَم المعركة وأوج النصر الذي قادَت إليه شهادتهما التي نَقتَطِف منها، عند الأول: «غدًا سأتحدث عن الزهور، أما الزهور الحقيقية لباريس اليوم فهي التي ستفتحها طلقات البنادق على زجاج الواجهات: القرنفل بقلب مثقوب.» فيما يكتب كلود روا: «أكتب مقالي من متجر بائع ورود، وهذا أجمل من كتابته في قاعة تحرير، وبالطبع فإن الطلقات قد رسمَت في الواجهة دوائر مُحدَّدة تَفرَّعت عنها شروخ، ولم يَخلُ المكان من بضعة نباتات خضراء، بل هناك أص لزهرة الهرطنسية، وأص آخر للزنبق. قالت البائعة: إنه لِساكن في الطابق الثاني، لقد قُتِل صباح البارحة برصاصة ألمانية وهو يفتح شُبَّاك النافذة.»

بعد خمسين سنةً على تحرير باريس رحل أغلب رجال جيل المقاوَمة، وجُل الكُتَّاب والشعراء المناضلين، ومعهم رحَلَت وتَرْحل تباعًا العهود المجيدة لمدينة صنعَت الثوار والفكر الحر والتعبير الطليق والفن المُتفتِّح، وظلَّت لزمن طويل «مربط خيل للعرب» وأبناء العالم الثالث ... وتبقى الذكرى ينظر إليها القدامى بحنين وفَخَار، أما الجيل الجديد فهو يحس، تحت هلَع شبح البطالة وضغط الاستهلاك وغموض المستقبل، أن المدينة تُفْلِت منه هو الذي تناسَل من آباء ثورة ٦٨، ويرى الأرض اليوم تميد تحت أيديولوجية اليمين، وهيمنة النظام العالمي الجديد، ومع هذا فلو بُعِث همنغوي لَبَقِي عند قولته: أجل «باريس، عيد دائم».

٢٢/ ٨/ ١٩٩٤م

تبعات الهوى

(١) لغة المحال

يكفي أن ألتفتَ لأراها عبر زجاج النافذة تسلبني بالنظر، هي حديقة بيتي، بعدها يَمتَد الشارع السيَّار يجري وراءه نهر السين في دورته الأبدية، فجأةً سمعتُ ما يشبه الحزَّ أو آلة تنشر خشبًا.

حين احتدَّ الصوت مِلتُ بجسمي كله جهة الحديقة، بعد أن بدَت سمحاء وقد جاء البستاني أمس وهذَّب عُشبها وشذَّب شجيرات وردها. فوق ترابها تبعثرت أوراق خريف هطلت من شجرة علياء في زاوية الحديقة بدت ممعنة الصفرة، يابسة، في انتظار مطر المساء ولِتَذْرُوها الريح مِثلَما تَذْرُوني أعوام الغربة من فصل لفصل ... فجأةً رأيتُهم. إنهم هم، قتلة الأشجار، عند ضفة النهر تَتسلسل الأشجار بفروعها تَمِيس في ارتفاعها مثل أيدٍ متضرِّعة، الغصون منها هشة والأوراق لَهْفَى تُناوِشها ريح رعناء لإسقاطها، بينما يتناوب التماع الأخضر والأصفر تحت شمس حيية على وشك الانسحاب، هنا كان رجال ضئيلو الأجسام قد أحكَمُوا الطوق حول الأشجار بمناشيرهم الكهربائية يعملون بها قطعًا في الفرع وغصنه.

تتوالى اللحظات وها هي الأشجار صلعاء وهُم يقهقهون بين تشابكاتها بغباء، والطيور التي تأوي إليها عادةً تهجر هذا الموسم، أما أنا فباقٍ أشهد المَجزرة ولا قُدْرَة لي على البقاء، بعد أن نَشر الفصل الآخَر أجنحته لنحَلِّق فوق السحاب مُخترِقِين سدف الغياب، مشتعلين في حريق، مَن يقول لي اسم ناره؟!

الحاضر يأخذ الآن شكل أشجار مَحزوزة الرأس وفي جنبي يرتعش البَرْد القاضم لفصل يهجم، وفصْلِي الجديد معي، هو نار وبَرْد، حُمَّى ورفيف، الليل مسكون به والنهار

منه في ذهول، وأترك الآخَرِين خلفي يَتسقَّطون فُتات الدَّس والإشاعة، يا للبؤس! أما جوهر الحكاية فليس سرد أخبار، إنه السر الضميم لا يشاع إلا في صوفية كتمانه، في سريرة اغتدائه بهمسه.

والحكاية مَجاز، ومن معانيه لغة العبور، نحو خيال، نحو جسد أو كلمة، أقف أمام الكلمة، الكلمات، نختلس النظر لبعضنا. يُدَمْدِم فينا الوجيب مرةً وأبدًا للوجه الرغيب، هي مقبلة وأنا ذاهب وثَمَّة مرج راعف بالنظر مثلما يعتلي الموج البحر فيكون بحره، لو قالها اختفى المرج، ستُقال، ستَتبَدَّد، تُمسي كانت لا كائنة لتكون، أَقِف تحت شُرفتها وأنا أُطِل منها لا يدري بصري أين يذهب سوى لسماع انهمارها حين يأتي، أَتلقَّف كل ما ينحدر منها لأصعد بها إلى فوقي، وَيْحِي، أنا الذي يعجز عن قولها؛ إذ كيف تكون توءم الجمر وتَتهَدَّج بلغة المحال؟!

(٢) لون الحريري

السماء فوق الرأس ذات لون رمادي قاتِم، سماء رصاصية مثقلة بالغيم ولا مطر، الصديقان محمد عابد الجابري وإدريس الخوري يُحبان اللون الرمادي هنا وأنا أعشق الأزرق هناك.

هناك لا أفعل شيئًا سوى اختزان الأزرق في عيني، لا بل أحتسيه احتساءً، حين أعود إلى هنا أخفض بصري بحثًا عن الأخضر والحجل يُحلِّق في عيون خفية، لا فكاك لي الآن من هذا التقاطع، هنا وهناك، نحن جميعًا نتراوح بين مكانين بحثًا عن المكان واللون المُفْتقَد.

سأسميه لون عبد الله الحريري، الفنان قادر على اختراع الألوان، فيا عبد الله هَبْ لي لونًا بين الأزرق والرمادي يُخفِّف عني ... عنَّا بعض تبعات ... هذا الهوى.

٣ / ١٢ / ١٩٩٤م

عن الحزن، والبحر، وأشياء أخرى

(١) آخِر مرثية لفلسطين

لعلَّ الموت هو المناسبة الوحيدة التي بَقيَت أمامنا، نحن عرَب آخِر الزمان لنلتقي حولها أو نَفتَرِق، ومن تداعياته الحزن، والألم، وفرط المرارة، نحن مُؤهَّلون للقاء الموت، في بكاء جماعي أو انفرادي، أكثر من أي شيء آخر، وقد دُبِغْنا بالخيبات والانكسارات والهزائم تَجرُّنا إثرها جرًّا.

بالأمس، مثلًا، أنشَدْنا وصَهَلْنا طويلًا: ستعود فلسطين، فلسطين عربية، وتتمة اللازمة تعرفونها. واليوم نقول، ربما بلا حسرة أو تنهد: كانت فلسطين، وينصرف كلٌّ منا إلى حالِ أهواله القادمة.

وبما أن من حق الموتى على الأحياء أن يقيموا لهم مأتمًا هو آخِر اعتراف بوجود لهم كان، أو إلى الإلغاء النهائي، كما هو حق الحياة على الموت كي تسترجعَ يقين سيرورة الوجود، فإننا نحن عرب آخِر الزمان، وآخر الأبجدية، أقمنا لفلسطين، أو لفلسطين أحلامنا وقومِيَّتنا المرذولة، مآتِم عديدة، بمناسك تراوحت بين الغناء الفاجِر وهَزِّ الأرداف أو الأكتاف، وبين نَعيب الغِربان والنحيب القبيح. لكن ماذا يفعل الشاعر العربي، وخاصَّةً إذا كان من هذه الـ«فلسطين» الموعودة والموءودة، حين يعرف أو لا يعرف بأي ذنب قُتِلَت، وكلُّ شِعْره، منذ اغْتُصِبَت تلك الأرض ووُلِدَت من ومَع اغتصابها القصيدة الحديثة، كلُّ هذا الشِّعْر لم يكنْ إلا ضربًا من «البروفة» تمرينًا لمأتم مؤجَّل؟ الشاعر الحقيقي لا يكتب إلا من غياب، والقصيدة البِكْر لا تُنْسَج إلا مِن فَقْد أو رَجْع افتقاد، وهل بوسعه، وقد اكتملَت طقوس الجنازة، أن ينسحب ببساطة من تاريخ البكاء والجمهور أمامه واقف، جالس ومُقَرْفِص

يَتضرَّع، جفَّف مِدْرار الدموع بمزيد من بكاء؟ ماذا يفعل حقًّا، وهو الذي لم يَعُد يعرف أين يمضي بحزنه، بثُكله، بكل الغياب الذي لا يتسع لشبر من حضور جسده.

في تلك الليلة بإحدى القاعات الكبرى لِمَقر منظمة اليونسكو: الليلة النوفمبرية بلا مطر ولا عويل رياح، إلا عويل متأخر سيصدر عن «ثوار مغتربين» ومسحوقين بنوستالجيا شعار فات أوانه، سيفد إلى القاعة العرب الوافدون إلى باريس؛ ليلقوا النظرة الأخيرة على الجثمان قبل تشييعه إلى مثواه الأول والأخير. جاءوا رجالًا، ونساءً، فتيانًا، وأطفالًا رُضَّعًا، وأيضًا، وسيدات تَزيَّنَّ، تَفَرْوَوْن وتَضَمَّخْنَ بعطر فوَّاح خصوصًا لهذه المناسبة التي لا يخطر اسمها على البال ... بمعطفها الأخضر الصارخ بدَت السيدة الإوزة تخطر في الفناء البراني للقاعة كما لو أنها تَتهادى في «بركة المتوكل» والآنسات يَطُفْن حواليها، وأنا أطوف ببصري في ذاكرتي المشروخة بالإعلام وأسماء الأعلام وما تبقَّى من رماد تحت «ثالثة الأثافي» ثم أطوف ببصري كَرَّتَين مُتضرِّعًا من أجل حضور الشاعرين يَمرُقان من الكواليس إلى الخشبة كطَيْفَين، لا نسمع وقعًا لأقدامهما كأنهما يَنتعلان خُفَّين، كلاهما: محمود درويش وجمال الدين بن الشيخ يغمران القاعة بقامَة الشِّعر البهية. الشعر لا يُوصَف والحزن كذلك، وأحسب أن درويش لم يكن يرثي فلسطين، ولكن يرثي نفسه، فماذا يبقى، إذن؟ ومَن يدلني على عنوان فلسطين، على شاهدة المُتَنَبِّي ... بدونك يا محمود؟!

(٢) حين لا «حتمل»

في الليلة الموالية كان الموعد مع الموت، أيضًا، مع الحزن دائمًا، ألم أقُل لكم بأنها المناسَبة الوحيدة التي بقيت أمامنا، وهذه المرة، نحن بعض عرب آخِر الزمان لنلتقي كي نَفترِق. تدفعنا اليونسكو من أحشائها المثقلة بالكلام لتَذْرُونا في إحدى قاعات البناية الصَّمَّاء لمعهد العالَم العربي، الجدير بإقامة المآتم. وكُنَّا فِعلًا، نحن بعض العرب، على موعد مع مأتَم آخَر، أو مع ذكراه، قُل مع احتمال وجوده، هو جَميل حتمل، القاصُّ والصحفي والمناضل السوري، كأنه وُجِد ولم يُوجَد، حط كالرذاذ وتَبخَّر كالنَّدى، مات جميل وفي نفسه شيء من فلسطين ومن الشام ومن قلبه الذي لم يُمْهِله كي يعانق قلبه المهجور، الهارب، الضائع في «لا بَلَد». كَتَب حتمل مجموعته القصصية «حين لا بَلَد» وأسدل قلبه، جَفْنَيه في رقدة أخيرة. فتيًّا، طَريًّا، شَجيًّا رحل، مِلء سَمْعِنا وبَصرِنا نحن عرب الشَّتات، قصصه مُقتضَبة ومُتنزَعة انتزاعًا من موت الأدب والعرب مثل حياته، لم أكن أستطيع أن أُمْسِك به حيثما الْتَقيْنا في المؤتمرات، في الندوات، وفي وطَن المَهْجَر أو الأوطان المهجورة، فهو دائمًا يلاحِق

قضية أو أحدًا أو توقيعًا يُسانِد به السياسيين والمُثقَّفِين المُعتقَلِين في بلدان الزنازن العربية، يُسانِد به منفاه القَسْري في باريس التي كانت أرض مَلاذٍ.

تستطيع الشام الآن أن تَرتاح، وكل وزراء الداخلية العرب أن يُوقِّعوا أدناهم على بياض موت النَّدى الذي لن يَجْمَع بعدُ أيَّ توقيع لُمسانَدة الحياة.

وفي لحظة ما خطَر لي أن هذا كله رغم فضاضته مُحتمَل إلا أن يقوم بَغْل في قاعة البناية الصَّمَّاء؛ ليرثيك أنت بالتحديد يا حَتْمَل، بكلام منهوب من شهداء سابقين، ماذا لو تركنا المَنفيين لموتهم موقوف التنفيذ، والموتى لأسرار رحلتهم الأبدية، أفٍّ للرثاء، وعم مساء جميل، وإلى اللقاء، فقد تَعدَّدت المواقيت والموت واحد.

(٣) شفاه البحر

والحزن بالحزن يُذْكر، كلَّا، هو الفرح والدهشة عينها، وقبل ذلك لأعترف بأني بهذا العنوان الفرعي لا أطمح لُمجاراة الروائي الأمريكي هيرمان ملفيل في شيء حين كتب روايته الشهيرة «موبي ديك» (١٨٥١م)، ذات البرنامج الميتافيزيقي والتراجيدي، تلك التي أخذت في صيغتها السينمائية اسم «أسنان البحر»، فما عندي أنا ليس سوى شذرة من حكاية قد أَكتُبها ذات يوم حين يقترب مد روحي من ضفافه الأخيرة. وكل ما هنالك أنِّي وجدتُني في الدار البيضاء ذات مساء تائهًا أو كالتَّائِه لا ترشدني خطواتي إلى أي مكان معلوم، وفي لحظة بارقة حدَستُ أني أسير في المماشي النخلية لشارع مولاي يوسف المحبوب.

ومن عَياء أو سهو أسندتُ ظهري إلى نخلة ما لَبِث سعفها أن نزلت إلى مستوى قامتي فطَوَّقتْني من خلف وأمام، وطَفِقَت تَتغنَّج قدامي مثل الأيدي الشمعدانية للراقصات التايلانديات. أردتُ أن أقبض على الأصابع واحدًا واحدًا لأمصها كقصب السُّكر أو العرقسوس فإذا هي تختفي ثم تعود لتَتجلَّى كلها وقد شَملتْنِي بجسدها وجسدي المترامي تحت انسدال خُصَلها أو سوالفها هي الجنية، الحورية، أو ما لم يخطر على قلب بشر. قالت: أغويتُك يا الفتى الذي كان، يا المغترب حيثما حللتَ إلا أن ترتعَ في حياضي ويسَّاقَط عليكَ من نخلتي الرُّطَب الجَنِي، ولكن لي قبل ذلك شرط لا بُدَّ لك من الوفاء به أو فيك هلاكي، أن تأخذني إلى البحر وتَجلِب الموج إلى أعطافي.

أخذْنا الطريق إلى البحر، البحر هناك، كان هناك، والعنق هو «العنق» الذي لم يَعُد يعرفه ساكنة الدار البيضاء الجُدد، لم يعرفه إلا الذين احتَكُّوا بتاريخ تامسنا، الشاوية. في مدخل مطعم البحر هبَّ المستخدمون وعيونُهم لاهثة يتنازعون الجِنِّيَّة، الحورية، إلى

طاولاتهم وهي تَنظُر من عَلٍ حيث تُصوِّب إسفينها بتحديد، بيننا وبين الخارج زجاج سميك طاولتنا لصقه ولا يَشفُّ إلا عن ظلام دامس.

وربما ترجرج خلفه ماء هارب، قلت: يا ورطتي، كيف أَجلِب ما وعدتُ به والليلةُ جَزْر، والتفَتُّ مخاطبًا النادِل بلهجة المازح، سألتُه: أوَتراها؟ أجاب مرتبكًا: بل أوَتَراني؟!

– فهل تملك أن تَحمِل إليها البحر إلى شَرْشَف المائدة؟

– بل المحيطات كلها يا سيدتي، أنت تأمرني.

ونهر «أم الربيع» سيقود موكب الشموع ليضيء بعينيك بحر الظلمات! وبين قولي: البحر، وإكمالي: هناك، وكما تستفيق إغماضة، يفترق هدب أعلى عن هدب أسفل، أو تُورق شفاهٌ مُقبِلَة من شِفاهٍ لِتُصيبَ الضربةُ مُخِّي ... فهل رأيتم بحرًا نائمًا، مستغرقًا في شغاف التجاويف، والضفاف المشغوفة في عيون البحارة وضرب المجاديف، يترك نومه، يُؤجِّل حلمه، يعيد للبحر زَبد وقته ويهب نحوها رمحًا من بعيد، سَلسًا من قريب، واهبًا لها شفتيه؟ أنا رأيتُه، صحَّ لي ذلك، رأيتُ البحر يبايع المَلِكة النخلة في أرض المملكة. طَيِّعًا يركب موجه، مُعتليًا الصخر، أَيادي الملح والمحار تفتح النافذة فيدخل شاهرًا وهبه ومَواهبه؛ ليغمُرَها، يغمرنا والمكان. بقيت هي فوق وأنا في أعطافها. وسَمِعتُها والماء يُشقْشِق بيننا: أنتَ على وشك الرُّطَب الجَنِي، ولكن قبل ذلك أمامك امتحان آخَر، لا بُدَّ أن يَنزاح الضَّباب. فكَّرْت: بين سحابٍ وضَباب، على أي جانِبَي أميل، في الخارج كانت المدينة مُغطَّاة كلها بالضَّباب، والطرقات الخارجة منها، المؤدِّية إليها، والبلاد ضَباب، ومن وقتها وأنا أخوضُ في هذا العُباب.

باريس في ٧/ ١٢/ ١٩٩٤م

بيت الأرواح القلقة

(بخصوص معرض للحريري ورحول)

قبل أن أركب السحاب إلى بيت الغربة الأليفة أخذَني كل من الصديقين الفنانين عبد الله الحريري، وعبد الرحمن رحول، إلى بيتيهما وأطلعانَنِي على نماذج من أعمالهما التشكيلية المُعدَّة لمعرضهما المنتظم حاليًّا بفضاء الواسطي بالدار البيضاء، وهذا فضلًا عن أعمال أخرى لهما أَقْتَنِي بعضها، وطلبَا منِّي حينها أن أُعَبِّر عن رأْيٍ أو انطباع، وطلبتُ بدوري مهلة للتأمُّل أمام كونهما الشاسع، ثم كتبتُ قائلًا:

أعترف بدايةً أنَّ لغة الأدب لا يمكن بأي حال أن تَعْدِل لغة التشكيل أو أن تنطق فعلًا بقولها ... لِتَكُنْ، إذن، وسيطًا مُحتمَلًا ومجازفًا يقتحم بفضولٍ عالَمًا يملك سَلفًا لغته، تكوينه، مجازه وأَمْداءه، دَعْك من اللون فهو النُّسغ والشجرة.

وبالفعل، فإن عبد الله الحريري يصوغ للوحته، لأعماله، لغةً بأبجدية جديدة هي نتاج تَعالُق وزواجِ أبجديَّات ولُغات مُتعدِّدة، وحين يغمرها باللون، أو تَستحِمُّ هي تحت دَفْق الألوان تَكتسِب كينونة الرَّمْز الذي يُحِيلُ بدوره إلى البحث في بدء التكوين بأدوات الحرف والحفر والتحريف التي تَخلُق كل شيء تقريبًا من عدم، من غياب. وفي مكانٍ ما شمسُ الإبداع، الوجود، لا مُشرِقة، لا غارِبَة، هذه روح الفنان المرتعشة قبل اللوحة وبَعْدَها. وفي انتظار ما قبل الولادة وما بعد الزوال يَزفُّنا الحريري إلى عرائس ألوانه الزاهية تحت سمع وأنظار قُبَّة خلق جديد.

عبد الرحمن رحول يضرب في الأرض لِيصعَد إلى السماء، يعجن التراب، الطين والنار والرماد؛ ليصنع آدم الفنَّان الخاص، ويصوغ تجربة آدم الخَزَفي؛ لِيُجسِّد الكينونة في

شموخها، قَلقها وشَغَف بحثها عن كمال الإنسان المستحيل عن إعادة خلق التشكُّل بالتشكيل. لا يكون الفنان إلا بالخلق، هذا رهانه أو لا يكون.

في لوحاته، يبقى رحول لصيق شاغله الأم، فِعْل الخلق والكينونة، إنه يصنع، يبني سكنًا لكائناته، والمُفارَقة أنه لا يَصلُح لسكناها؛ فهذا السكن، هذه اللوحة مشغولة سلفًا؛ لأنها ببساطة بيتُ الأرواح القلقة، والمأوى المُعَد للظلال الهاربة، هكذا ترى ألوان رحول شبحية، باحثة عن لونها، الأزرق والبني والأخضر يُؤسِّس السيرة اللونية للأزرق، الأخضر والقاني. والخط فوق الخط تحته، علوه، مُنْحَناه، أُفقِيُّه، عَمودِيُّه، هو انضمام لمُغامَرة الفن في إعادة التكوين الكلية التي بها يُوجَد أو لا يُوجَد.

تجربة الحريري ورحول واضحة الاختلاف، ظاهرة التَّمايُز لكل ذي عين فَنِّية وحسٍّ تشكيلي مُجرَّب، لكننا نستطيع أن نزعم أنه ذلك الوضع المختلف، القادر على بلورة نسق مُؤتَلِف إذا بدتْ فيه موادُّ العمل وطرائق الأداء متغايرة؛ فإن رؤية التكوين ورؤيا نَحْت الوجود من جِبِلَّة الغياب تُثْبِت فيه جوهرًا ومرتكزًا؛ ولذا فإن هذه الشراكة في معرض واحد ليست بتاتًا اعتباطية بل يَفرضها، يُؤنِسها انشداد فردانية إلى جاذبيتها وتجربة جيل متلاقح في سياق الفضاء التاريخي والثقافي والإنساني، تقولها لغة التشكيل وزغاريد الألوان فيما لغة الأدب تظل مجرَّد تَطفُّل عليها، حَيْرى بين الغياب الدائم والحلم القادم.

باريس في ١٤/ ١٢/ ١٩٩٤م

البيان الأخير لذبول الورد

(١) ذكرى الماء

في غابة بولونيا أسلمتُ جسمي لساقيَّ، مهرولًا بأقصى نَفَسي، أبتَلِع الهواء، وأشرب الأخضر وبقايا أصفر راحل تحت سماء مُثقَلة حتى الطلق، والمطر المِدْرار يغسل وجهي ممتزجًا بعَرَقي، وعَرَقي يكسوني أنا العاري إلا من حزني سربالًا من ماء آخَر يهبط رأسًا إلى رَحِم الأرض، كان حَرِيًّا بالسَّيَّاب أن يقول بيتَه الشهير ذاك عن هذه الأرض، فما مرَّ عام وفرنسا ليس فيها مطر، إلى حد يدفع إلى القول بأن المطر هنا مظهر من مظاهر السيادة، وغير ذلك الماء يموج فوق سُرر مُعلَّقة بذكرى الشَّبَق الناري، انطفأ لُهاث الخصب في عيني، احتبس النَّفَس وخارت سيقان الهرولة، فدفعتُ أصابعي في طين الغابة المرتوية ورحتُ أستخرج العجين وأرمي به جزافًا كما لو أني سكنتُ بـ «المسلمين». كل هذا الجمال، كل هذا الارتواء لا يغريني بالجرح يمتد في أضلعي، يَغور من هناك إلى هنا، المطر المِدْرار يغسل وجهي ليس مَطري، والخُصوبة ليستْ لبلادي المُتقلِّبَة على نار جَفافها الحارق، بين الدار البيضاء والرِّباط لم أَحتسِ الأزرق، الأزرق، كما فعلتُ دائمًا كي أقاوم به استبداد الرَّمادي؛ بدا لي الأزرقُ طامَّةً كبرى، تأفَّفتُ منه، قلتُ أنا الذي يُضرِب عن العمل كلما تَبرَّجت الشمس في باريس: هذا كثير ... اكسفي يا شمس ولْتَتكَبَّد سماء بلادي بالغيوم، فهذا كثير!

في جلسة تقليدية «بأكاديمية مرس السلطان» للمُتعَبِين مثلي، جلستُ على كرسي ذي ظهر عمودي، وهبطتُ على سلالم نَفْسِي إلى داخلي حاملًا بعض الدِّلاء بحثًا عن المياه الجوفية، وهالني أن أجد آخَرين غيري يحملون الدِّلاء ويضربون بالفئوس في القاع ولا ماء. كانت دواخلنا جميعًا جافَّة خلافًا لما تَوهَّمت، أيُّنا يتطابق مع الطبيعة، هي أم نحن؟ تيبس حلقي فوضعتُ قدمي على السلالم كي أصعد فلم أجد لها أثرًا، أردتُ أن أصرخ

فاكتشفتُ أني بلا صوت، كنا، صِرنا جميعًا بلا صوت، وأظن أننا سنبقى كذلك وقتًا آخَر إلى أن يدركنا الله بشآبيب رحمته ويرفع عنا هذا الجفاف.

(٢) موت كاتب

مات جَبْرا إبراهيم جَبْرا هناك في البعيد، أسلم الروح في مَيتَتَين؛ واحدة اسمها الموت الطبيعي، وثانية اسمها الموت في الحِصار، عجبتُ لكل الذين كتبوا عن موت هذا الأديب العملاق كيف نَسوا وتناسَوا أنه أمضى كل حياته وأعطى أعظم إبداعه في العراق. قرأتُهم، هؤلاء كُتَّاب وصحفيُّو السُّخرة، يكتبون عن وجود الرجل في «المُطلَق»، كأن شطَط الحصار الذي يعاني منه العراق اليوم ينبغي أن يضرب الماضي والذاكرة الجمالية والإبداعية. وجَبْرا، كما عرفتُه، كان يسكن حي المنصور في بغداد، ويعتني بحديقته، ويفرح بالقدَّاح البغدادي حين يشتعل حُمْرَة، وبعد أن يأخذك بالأحضان في دارته يُبادرك محتفيًا «اشلونك عيني ... الله بلخير ... هلَا ... هلَا.» يقدم بعدها الشاي بالاستكان العراقي، وتحمل زوجته طبقًا من المَنِّ اشترَتْه من الأعظمية، وبين حديثٍ جِدِّي وآخر فَكِه يُسمعك وصلتين غنائيتين؛ واحدة من يوسف عمر وأخرى من زهور حسين، كان ذلك قبل أن ترحل هي وأحضر الفاتحة على روحها، وقد اتَّفق لي أن أُوجَد قبل عامين في بغداد احتضنَني وبكى. تَصوَّروا نخلةَ شِعر وبيان وأخْيِلَة تبكي، كأني سمعتُه يهمس محاولًا التَّشبُّث بجلد الأنبياء: الآن وقد رحلَت ... آه، لم يبقَ لي إلا أنْ أرحلَ، وقد فعل، وفي العراق الأرض كلها تَتَّسع لبهائه وإبداعه، وبقي مع المحاصَرين في الحصار إلى أن أسلم الرُّوح لباريها، يا كُتَّاب وصحفِيِّي السُّخرة، يا أنذال.

لأمر ما أرى في موت الكاتب دائمًا حدثًا استثنائيًّا، حدثًا خارقًا في طبيعة الموت نفسها، كأن قسمًا من الحياة، من الزمن يُطوَى في رفاته، حين يموت الكاتب لا تنكس الأعلام، لا تُطلِق المدافع ٢١ طلقة، لا يُعْلَن أي حداد، يستمر الناس في مشاغلهم اليومية، ويواصل الأدب الرديء جَرَّ ذيوله، لكن نجمة ما في السماء تنطفئ، ضوء القمر يَشحب في لحظة بارقة، بينا مساحة الأرض تضيق والحزن منتشر من دمع المحيط إلى نحيب الخليج، والملائكة تعبر فوقه، معه، وأنا تحت أراني أتلو البيان الأخير لذبول الورد.

باريس في ٢٩ / ١٢ / ١٩٩٤م

سيد القصيدة

يُخيَّل إليَّ أحيانًا أني ما كتبتُ إلا عن هذه المدينة مِن خلف كل المدن، سواء في اجتراح الكلام عنها أو الصَّمت دون كل ما تمسُّه العين فيها مرتعشًا وغافيًا. إنني عندئذٍ أكتُبُني ضامًّا شَتاتي بين اندثارها وانبعاثها، واضعًا بصمات الشوق على أديم الشوارع الراحلة، أما ما تبقَّى فهو يهجع في خاطر الحسرات. وسِيَّان كل شيء، سِيَّان الوجوه، الجُثث، القامات، الحجارة، لون السماء، انتشار البحر، الدَّجَل العابر والافتراء المزمن إلا ذلك العمر الفريد علَّمْتَنا يا صديقنا أحمد المجاطي وسيد قصيدتنا المحبوبة كيف نقطف فيه وردة التهلكة ونمضي بها بعيدًا إلى منافينا، وفي لحظات الشجن، وما أكثرها، نتلو ما تَيَسَّر من قصيدة «الدار البيضاء» بعد طقوس أنت تعرفها:

بيوتك ترحل من ذكرياتي.
أمُد سَواد عيوني جسرًا.
وأنت على الضفة الألف،
مبحرة في السعال،
وفي عثرات الرجال.
ومبحرة،
يسقط النهر فيك.
وتسقط كل البنادق
قتلى.
وتدخل كل الدواوين في زمن الصمت والدمعة المالحة.

باريس في ٢٨/ ٣/ ١٩٩٥م

شذرات من ذكرى العيطة

جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة عيط:

«عيط: العيط: طول العنق، رجل أَعْيَط وامرأة عَيْطاء طويلة العنق، وفي حديث المُتعة: فانطلقتُ إلى امرأة كأنها بَكْرة عَيطاء، العَيْطاء: الطويلة العنق في اعتدال، وناقة عَيْطاء كذلك، والذَّكَر أَعْيَط، والجمع عِيط.»

قد يسعفني القاموس لإنعاش الذاكرة وإن كنتُ موقنًا بالتجربة، أن الشجن هو الطاقة الولود في مثل هذا الحال، ما هجرني منذ عهد فكيف أسترجعه لأسترجع ذكراها، العيطاء من العيطة أقنع بها وإلا فإن موج السنابل في تلك الشاوية سيغطي الجهات الأربع، وأحذركم، فإن الفتنة، بفيض القلب، سترُجُّ الأرض رجًّا.

كانت «حادَّة» تمسك ذلك الطفل القديم بين يديها، وبالهُوَينَى تضمُّه إلى صدرها الثامر مثل كريمبوش، تعطيه صدرها وقد جاوَز الفطام، وفيما هي تلهث يَتحسَّس هو العنق الأملس المغمور بالسوالف. ثم تأخذُه ثانيةً، تذهب به وتجيء في لعبة الأرجوحة الطائرة، فتَعتريه رعشات غامضة في أطرافه، ودفء لا يعرف له اسمًا بين فخذيه، ولا يفهم شيئًا وهي بين فوق، تحت، هو فوقها وهي تزفر كالمنفاخ وتتأوه، بل يسمع أحأحاتها إلى أن ترميه بعيدًا وتنتشر بجسدها العريض على السداري كتلةً هامدة، هي نفسها تنتقل بعد هُنَيْهات إلى المراح، فأسمعه يهتز على وقْع القدم تحت القدم بإيقاع محسوب، صاعد هابط مع العيطة التي تَشرَّبتُها منذ تلك الطفولة الندية وصِرتُ مع الزمن كلما سمعتُها على استعداد، شأن كل أولاد حريز، رجال الزهو والإباء، أن «أحرق» موسم حصاد كامل في الأشواق: والعياشية! وفي شَتات أيامك يا حادَّة!

في تلك الزنقة التي كان يقع فيها بيتُ المرناني، من المالكين الأوائل للكيران في برشيد، وقريبًا من سينما كاميرا – يا حسرة! — في ذلك الزمان من منتصف الخمسينيَّات، في تلك

الدار التي كانت تأوي حَفْلَ عُرْس أو ختان، لم أعُد أذكر، وماذا أذْكُر والقصبةُ وقْتَها كلُّها نشاط وخير عميم. رافقتُ خالي إلى الحفل و هو الذي أغواني خفيةً عن أبي: «سآخذُك معي أيها الشويطن الذي يموت على الشيخات من هذا العمر.» دخلنا إلى الدار تتقدَّمنا خنشة من السكر، ومن الباب سمعنا ترجيع الطعريجة يرافقه صوت يحسك القلب، ونساء فارعات عامرات، قيل هي فرقة من سطات، يغنين كالجَرِيحات وهنَّ فَرِحات، وبين الفينة والأخرى رأيتُهن يلتفِتْن إلى الخلف وهنَّ يُقدِّمن إلى الجوق شيئًا ثم يُعاوِدْن الكرَّ والفرَّ على جرة الكمنجة.

استَبْقاني خالي في المراح بين أقراني؛ أي نحن «البزاقيل» الذين كنا نتقردن في تقليد الشيخات ونستمع إلى ترجيعهن في غير فَهْم، هن اللواتي كُن يَفْتِكن بالمُهج أو كما تعلمتُ فيما بعد «يَصرَعْن ذا اللُّب حتى لا حراكَ به.» استَبْقاني عالق السمع والبصر بِعَيْطاء أخرى صورت لي في هيئة «حادَّة» فيما تَسلَّل هو إلى البيت الداخلاني مع عُصبة من رجال أشداء رأيتُ كأسًا واحدة تدور بينهم، بينما ضيوف الخارج كلٌّ بيده كأس اديال أتاي، هم فتية برشيد قلَّ أنْ يجود الزمان بمثلهم، كانوا يخرجون من خلوتهم وأيديهم مَدفوعة أمامهم كالسابحين فتَراهم وهم يَعزِفون يَغرَمون على الشيخة ورَقَة الألف ريال التي كانت تخلع في تلك الأيام، والخالُ يعلق الورقة تلو الأخرى وهو يَتكاتَف ويتفاخَذ مع وردة الشيخات، كان اسمها «الشعيبية» وعلمتُ في الكِبَر أنه كان مولعًا بها إلى حدٍّ ... وفيما «هي هي جاية تَصفار وتخضار، هيشادة السالف عاليزار» جاء من يَحتَكُّ بها عَنوة، وهو سلوك مَمْجوح في هذا الطقس، وعند لحريزيين الذين يغتبطون بالنظر لا بالبطر، فرأيتُ الخال من بعيد وهو يصطبر ويُكوِّر قبضته كما يفعل في حال الغضب، ولا أعرف كيف خرج ولا كيف عاد، ولا أذكر إنْ كان هو بالذات أو غيره، وأستعيد الآن الطلقة، كأني أسمعها، صدرَت من مكحلة الصيد ورمَت بالمُستفِز جريحًا من ذراعه على الأرض، وأظنه تحامَل على نفسه وغادر الدار بمساعدة آخَرين، دون أن يشفق أحد على مصيره بينما بقينا نحن الصغار فاغِرِي الأفواه مُرتعبِين، لا نفهم حقًّا لماذا سال الدم، وسمعتُ أن مَن يفسد العيطة وطقوس مجلسها يُعرِّض نفسه للهلاك، وأما التهلكة فهي لا محالةَ مآلُ العاشق الولهان.

أما خالي فهو في رحمة رب العالمين منذ أسلم الروح في رباط الفتح، تلك، قبل أعوام، ولا نفد حبه لهديل «الشعيبية» يُغرِّدان معًا هي وهو، ولد القاضي الحاج صالح، يا مَن لا يعرفه في ربوع الشاوية.

بعد أيام، بعد أعوام، بعد أن اشتعل الرأس شَيبًا، سمعتُها تَطرُق الباب أصبعًا بأصبع مع عبد الرحيم الجلدي ولد العلوة، قادمًا من قصبة بن أحمد إلى مرقدي الصالح عند نهر السين، عبورًا بسوق ثلاثاء الأولاد مُتحيِّرًا فيها «وجاية من فيني واشحال عجبتيني» وأنا (من أنا؟) أفتح لها باب الحنين بلا عتاب لسماع الشجن بعد طول غياب: «وأسير يا وليدي آ ... آه! أجيني حمدون لهواوي آ ... آه وكله يزهى مع قرينوا آ ... آه ونوبة نوبة يهزني بالغمزة يسحابني نسيتو آ... آه».

باريس في ١٢/ ٤/ ١٩٩٥م

إعادة تأسيس الحداثة

كيف تأسَّس الأدب الحديث وتبلوَرت تباعًا تاريخيته؟ وكيفَ تبلور مفهوم الحداثة، في صِيَغ منظومة معرفية ونصية وحضارية مركَّبة؟ وأين يمكن التعرُّف على التمظهرات الكبرى لحركات الطليعة الأدبية — من بين أخرى — لفهم الولادة العسيرة لما قد يعتبره البعض مجرَّد مَوجات عابرة في إطار الثقافة الغربية، بينما يحدث فعل التأسيس والترسيخ لما سيرسب ويأتي بعده؟

هذه الأسئلة، ولها نظائر عديدة، تُناوِش باستمرار لدى قراءة نصوص الأدب الغربي، والمعرفة النظرية المقترنة بها، ويفترض أننا نستحضرها لدى قراءتنا للنصوص الأدبية العربية، الجديرة باسم التحديث والنزوع الحداثي، وأهمية هذه المناوشة التي تلزم بعد ذلك الانتقال إلى التأمل العالم، تكمُن في كونها تعيد تأسيس وعينا بمفاهيم وقضايا تُؤخَذ أحيانًا بكثيرٍ من الخفة والتَّبدِيه المُبسَّط، وتدفعها لتقويم ما أنجز أنساقًا ومراتب واستكشافات في المَجالين الإبداعي والنقدي عندنا وعند غيرنا، وهو ما يُؤهِّل حقًّا لقياس مسافة التحديث طرح أسئلة الحداثة على ضوء تاريخية النصوص وحركية الفعل الإبداعي، فردية وجماعية، والمناخ العام للتَّحوُّلات الثقافية والسوسيو تاريخية، حيث يتداخل المحلي والكوني، لتتوارى خلفهما وتَبهَت اعتبارات الظرف والمكان، بما يزكي الأصيل، المشحوذ، المُصفَّى بلا زعيق أو طلاء عابرين. هذا فعل قَلَّ أن نقوم به في حياتنا الأدبية، وإن تم فتراه معزولًا، أكاديميًّا أو نشرًا، وإما يحدث بلا صدًى يذكر، أو يجري عند البعض مَجرى نفخ الأشداق بالتفاخر والاعتداد بريادة مزعومة وإلغاء الكل بالذات، هكذا بضربة لازب، والحال أن الحداثة ظاهرة غربية أولًا وأخيرًا.

في مطلع هذا الشهر توقَّفَت الصحافة الأدبية الفرنسية، جرائد ومجلات وبرامج، وقفة استثنائية وممتازة عند ما اعتبرته حدثًا أدبيًّا يستحق العرض والتحليل، نعني

صدور ثلاثة كتب في مطلع هذا الشهر خُصِّصت مُجتَمِعة لدراسة، تاريخ ظاهرة مجلة tel Quel الفرنسية، والمُمثِّلة لإحدى أهم حركات الطليعة الأدبية بفرنسا بدءًا من مطلع العقد الستيني. أكثر هذه الكتب شموليةً وانغراسًا في الحدث مُصنَّف فليب فورست، المعنون «تاريخ تيل كيل» «لوسوي»، والذي يُعَد بحق مرجعًا لا غنى عنه لفهم الظاهرة المَعنية، ومراحل تكوينها، ودورها الإبداعي الطليعي على امتداد عقدين من الزمن بما جعل منها منارة اخترقت كل الحدود.

صدر العدد الأول من مجلة Tel Quel في شهر مارس من سنة ١٩٦٢م وطوت آخر أعدادها في شتاء ١٩٨٢م، ونجحت في أن تظل على امتداد هذه السنوات — والأولى منها خصوصًا — مركزَ استقطابِ ألمع الأسماء المُجدِّدة في الشعر والرواية، وأخصَب التأمُّلات والمداخلات النظرية للنقد الجديد والعلوم الإنسانية. لقد مرَّت من هنا أغلب الأسماء التي أَسَّست أو عمَّقت النظر في مناهج تحليل النص الأدبي من سيميائية وبنيوية وتأويلية، وكذلك في اتجاهات الدراسات اللسانية والأنثروبولوجية والتحليل النفسي إلى جانب نصوص أدبية ستصبح رمزًا حداثيًّا لمرحلة بأكملها.

سيُدَشِّن المشروعَ في بدء انطلاقه فيليب سوليرس (وسوليرس هو اللقب الأدبي الذي سيحل مَحَلَّ اسمه الأصلي: جوابو)، وكان قد أصدر رواية أولى ضَمِنَت له شهرةً سريعة، ويلتقي مع جان إيدرناليي الذي كان معروفًا بمقالاته النَّقدية اللاذعة، ويبقى إلى اليوم كاتبًا حاذقًا من طراز استثنائي. وهما معًا من مواليد ما قبل الحرب (١٩٣٦م) وسيلتقيان للمرة الأولى سنة ١٩٥٢م وينخرطان في حوار سيُتَوَّج بصدور المجلة بإشراف دار لوسوي وستة من المؤسِّسين برئاسة إيدرناليي. وبذا ضمت المجموعة الأولى، علاوة على المذكورين، «جان بييرفاي، جاك كودول، بواسروفراي، رونوماتنيون، وجان روني هوغنان» واسم المجلة الذي عَنى حرفيًّا «كما هو» مُستوحًى من مقولة لنيتشه كانت تَتصدَّر كل عدد، وتقول: «أريد العالَم وأبغيه كما هو، وأريدُه أيضًا، أريدُه أبدًا، وأصرُخ بِنَهَم: مرةً أخرى وليس من أجْلِي وحدي، بل من أجل كل القاعة وكل العرض. وليس من أجل كل العرض وحده، بل في العمق، من أجلي لأن العرض ضروري لي؛ لأني ضروري له. ولكوني أجعله ضروريًّا.» وتَضمَّن العددُ التدشيني تصريحًا يعطي الأولوية للقيمة الأدبية فوق اعتبارات الوعظ والالتزام، وداعيًا إلى إزاحة الهيمنة الأيديولوجية عن كاهل الأدبي. في هذا العدد تستضيف المجلة أسماء لامعة؛ فرجينا وولف، جان كايرول، فرانسيس بونج الذي سيتحول إلى شِبْهِ أبٍ روحيٍّ للمجلة، يأتي بعد ذلك كلود سيمون، وجان تيبودو، وهما من المُعلِّمين الأوائل

لمدرسة الرواية الجديدة Le nouveau Roman. وهو مظهر للاهتمام الذي ستُولِيهِ المجلة لهذه الرواية باعتبارها رمزًا للإقلاع نحو الحداثة، وهكذا سينضم إليها جُلُّ كُتَّاب المدرسة؛ مشيل بوتور، كلود أولييه، بانجي، ناتالي ساروت، جان ريكاردو، كلود سيمون، وآلان روب غرييه. إنها، إذن، مرحلة الرواية الجديدة التي ستبلغ القطيعة في صيف ١٩٦٤م كجزء من سلسلة قطائع ستطبع تاريخ «تيل كيل» سواء من جهة تخلُّص سولرس من مخالِفيه ومنافسِيه ليبقى بمفرده في النهاية، أو من ناحية المرحلة النظرية والأيديولوجية التي تَقلَّب فيها هذا المشروع الطليعي.

بعد القطيعة مع روب غرييه ستنتقل المجلة إلى حقل الاستثمار النظري الهام الذي سيَنْصَبُّ على مَيدانَي الأدب والعلوم الاجتماعية، خاصَّة وأن المرحلة عَرفَت إشعاع أعمال كلود ليفي ستراوس البنيوية، وتأسيس «لاكان» للمدرسة الفرويدية، وإعادة قراءة ألتوسير لماركس، بينما كان مشيل فوكو يستعدُّ لإصداره مؤلَّفه العظيم: «الكلمات والأشياء». وسط الخصوبة العلمية والتجديدية لهذا المناخ انصرف مشروع المجلة إلى الأعمال والتحليل في اتجاهين: أوَّلُهما، اكتشاف الشكلانية واللسانية، وثانيهما التحليل البنيويُّ للأدب، وتَحَمَّل رأيَهما الأسماء الرائدة آنذاك؛ كجيرار جنيت، تزفتان تودوروف، رولان بارث، وجاك دريدا. إن هذه الزُّمرة التي خاضَت صراعاتٍ نقديةً حاسمةً، وخاصَّةً بارث في مواجهة السوربون بانضمام جوليا كرستيفا التي ستدفع بالمجموعة إلى طريق «الكتابة النصية» بوصفها تُمثِّل عنفًا يخضع له الكلام من منطَلَق حسٍّ نقدي، وينتقل صداه إلى الحقل الاجتماعي. وربما كان هذا التصور أحد تعابير نقلةٍ نوعية أخرى ستعرفها المجلة، وذلك باتجاه الاقتناعات الأيديولوجية، والمقصود فترة العلاقة مع الحزب الشيوعي الفرنسي بكل ما طبَعها من انقسامات في الرأي وتَشدُّد، ثم ارتخاء في خِضَم الهزة الكبرى لأحداث مايو ١٩٦٨م، هذه السنة ستعرف صدور أهم بيان نظري لجماعة «تيل كيل» من خلال كتاب «نظرية المجموع» (لوسوي) الذي اشتمل على مُساهَمات أبرز الأسماء التيلكيلية، وطُرِحَت فيها القضايا الجوهرية التي شغلَتْها، وستستمر محور كل دراسات النقد الجديد، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: موضوع الأدب، النص، الذات والتشخيص، العلامة، المعنى، الكلام، العمل الأدبي بين المؤلِّف والقارئ وسوى ذلك مما عُولِج في أفق الانتقال من الأيديولوجية «الأدبية» إلى علم هذه الأيديولوجية، أو كما يقول سولرس: «إنه الوعي الحادُّ بالقدرات الممكنة للأدب، ليس الأدب في خدمة النظرية — كما اعتقد البعض خطأ — بل العكس تمامًا.»

نصل بعد هذا، أي بدءًا من ١٩٧٠م إلى المرحلة الماويَّة في تاريخ المشروع الطليعي حين كان سولِيرس أكثر من غيره مُفْتَتِنًا بماوية على طرازه. هنا سيبتعد عنه دريدا وألتوسير ويتركانه وحده يذوق خيبة أمل تلك الرحلة التي قام بها إلى الصين برفقة كرستيفا وبارث وآخَرِين. ثم يبدأ العدُّ التنازلي للمجلة وهي تعرف انسحابات متلاحقةً وتأخذ موضوعاتُها في التهافت والتشرذم، من مهاجمة السورياليين، مَثلًا، إلى التقارب مع «الفلاسفة الجُدد» وصولًا إلى المحاضرة الشهيرة في المركب الثقافي «بوبور» بباريس (١٩٧٧م) حيث سيتساءل عن «أزمة الطليعة» ويعلن نعي الماركسية أولًا، والتحليل النفسي ثانيًا، ويعزو إليهما تراخي الإنتاج الطليعي، مندِّدًا بمن يعتقدون بأن الفن الحديث خطوة متقدِّمة بإلحاح إلى الإمام. لقد كان سولِيرس (مع من تبقَّى معه) يَتخلَّى هنا عن أوهام أسطورة، وعن رفاق طريق عديدين متراوحِين بين شكلانية مُتحجِّرة وطهرانية آفلة. وفي الوقت نفسه، وليُفْلِت من التهميش، يقلب ظَهْر المِجَنِّ بإصدار روايته femmes ذات الشهرة الصاخبة، ومتنقلًا من دار لوسوي إلى دار غاليمار بعد صدور العدد الأخير (٩٤) من «تيل كيل» (١٩٨٢م) ليصدر بعد عام مجلة l'infini وهو ما يطوي مرحلةً كاملةً من تاريخ الحداثة الأدبية الفرنسية، ولا أعرف حقًّا إن كان دشن مرحلةً جديدة. والمؤكد أن هذا المشروع الطليعي، الجماعي–الفردي يُعَد قُطب الرحى في مُجْمَل الإنتاجات والمنظومات الإبداعية والنقدية والتحليلية التي سمحت، هنا، بتطوير مفهوم الأدب والعلوم الإنسانية. وكتابة هذا التاريخ اليوم إذ تمثل إعادة تأسيس لوعي الحداثة، تعتبر ضمنيًّا تساؤلًا مشروعًا عن حضارتها وآفاقها، ما أجدَرَنا نحن، أيضًا، بعمل من هذا القبيل؛ أولًا تُمَثِّل مجلات «أقلام»، «آفاق»، «الثقافة الجديدة» سجلاتٍ حيةً ينبغي أن نعيد فيها قراءة بعض ملامح «حداثتنا»؟!

في ١٣ / ٤ / ١٩٩٥م

الجمعة الحزينة

(١) بيت الله

كان ذلك حلقة من غياب يتَّسِع، فلا أملك دفعًا له ولا مهرب لي غير أن أنكفئ على كَمَدِي تاركًا حالي لأعطاف الوقت تطويني تحتها، ولشارع السان جرمان يعبثُ بوحدتي المُطْلَقة، وشمس العَشِي مُغَيَّبة بين رمادين: واحد في السماء وآخَر يرشح من المسام بعد فوات دم المسيح. أنا كنت هنا، في مقهى Le flore أتذوَّق بجرعات قهوتي المُقدَّسة، أمامي ورقة بيضاء أبحث فيها عن العبارة المستحيلة ولا أنتظر أحدًا، مطلقًا، لا أذهب إلى الكلام، وهو يجيء إليَّ حين يجمح فيه الشجن، أو نلتقي عند منعطف أوجاعنا المشبوبة، بقيتُ هناك إلى أن غادرني المكان فحَملتُ ما تَبقَّى من جاذبية الأرض إلى جسدي وخرجنا، معًا، إلى الشارع وبين الشفتين فيض مرارة.

فجأة، كَمَن هو في صحراء وترقرق أمامه سراب، أو اشتعل بالحَنين وقد خطر في زحام العابرين إلى حَتْفهم وجه الحبيبة، وجدتني وجهًا لوجه قُبالة «الجمعة الحزينة» واقفةً تنتظرني في ساحة السان جرمان، على بُعد خطوات من الكنيسة، اليوم صَلبوا المسيح، في ذلك العهد البعيد، وتَركوا روحه ترحل في عراء الوجود، فصحَّ أن تحزن الجمعة وأن يأسى الخلق، وأنا منهم ولستُ من دينهم، وهم عشية عيد الفِصْح، وأعيادي كلها نجوم آفلة. إنما هذه الجمعة لي أيضًا، هي للإنسان قبل الأديان، فالشفاعة يا حُبِّي القاصي، وها أنا ذا في الساحة أحبني، أراني مصلوبًا، والخلق يرحلون مع الدبيب الأخير لرفاتي متروكًا في المَنافي وتَطلُّعي لله، عندئذٍ، ما أرهبه! ما أفسحه! تركوني وحدي، إذن، ومضَوا، وبي ظمأ للسكينة ما أظمأه! احتجتُ لسماع صوت المؤذن، عبثًا، احتجتُ إلى مسجد أدخله، أتنقل قليلًا في صمته الهادر وأُصلِّي ركعتين، عبثًا، اشتقتُ إلى مؤمن فقير لا أعرفه يسكن في حي

التشارك، بحزام الدار البيضاء، به ظمأ لسماع «الله أكبر» من مئذنةِ مسجد لم يَبْنِه أحد؛ لأنه لا يُدِرُّ مالًا، مؤمن فقير يخاف على ابنه من أن يكبر بلا إيمان.

كانت الكنيسة على مرمى القلب فراودَتْني عن نفسي، فقلتُ: وهذا، أيضًا، بيت الله، والله في كل مكان، وما هي إلا خطوات جلست فيها روحي مضطربة في صفٍّ خَلْفِي ولا أعرف، أَمِن الأعالي أم مِن أفواه الأنام كان يُتْلى قُدَّاس «الجمعة الحزينة»، ولم أعرف أيهما كان يُضَمِّد جراحه بنشيد الشجن، رُوحي أم جسدي، ولا أيُّهما غادَر المكان أو تَلبَّث فيه ينتظر بعد التراتيل اختتام طقس المناوَلة. وما أنا على يقين منه ارتعاشي في الصف الخلفي بصوتها يشدو عند سمعي أراه ستائر من عقيق، بلورًا يعكس وجهها الأبيض مُضرجًا بدم المسيح، وسَرى الحياء بيننا حين تضامَمْنا في نظرة مُنفَلِتة وأخرى مُشْتَبكة هي التي قادتْ خطوتي لصق خطوتها، وحين أصبحْنا في الخارج اكتشفْنا أنَّا عبَرْنا الجحيم والمطهر بلا انتباه، وأن السماء الرمادية تنكمش خلف حجاب الظلام تُفْسِح لنا رِواقًا من ضوء وتمد لنا حبل نجاة لِوَلَهنا المُباغِت. قلتُ لها: تَعالَي نصعد إليه، أسلمَت يدها ليدي، ورحنا نرتقي وما نزال ... ومن لم يحب منكم — وإلا كيف يعيش؟! فَلْيَرمِنا بحَجر، أو لِيَترك لنا في لُجَّة هذا الوقت الداكن فُسحةً من غياب عَسانا نُصادف وطن السكينة.

(٢) مولاتي الشجرة

كلما كبرتَ أنت صغرنا نحن، وكلما امتدَّ بك الزمن تَقلَّصت أعمارنا لتذهب بددًا. كان الأمر محض صدفة، وأنا أُنهِك جسدي بالهرولة لأكبتَ فيه صُراخه: التقيتُ بها، بل استوقَفني شموخها وكانت لسوالفها ظلال إليها العشب يفيء، هل سمعتُها تخاطبني أم إن صوتها انبثق من داخلي يقول: أنا بنتُ مائة وخمسين سنة، وسأبقى ولا أزهو كما تفعلون، مَن أجملُ مِنِّي وأَعْرَق وأنتم تتبخترون؟ وأنت ما بك هنا وكأنك تُهتَ عن الديار؟ فأجبتُها بقول الشاعر:

ولِي كبد مَجروحة قد بدا بها   صدوع الهوى لو أنَّ قينًا يقينها

فمدَّت لي ذراعيها وأخذَتْني إلى علياء أخضرها، تحتنا الأرض في الأسفل ببشر سافلين. مَن رأى منكم شجرة فَلْينحَني لها، لِيُقبِّل الأرض بين يديها، ويكتفي منها بالنَّظر فهي

للرؤية والرؤيا ... إنما أحذره من الغواية فهي من أعطافها سكوب ... بُورِكت مولاتي الشجرة.

باريس في ٢٠/ ٤/ ١٩٩٥م

من حياة بوعلام الجيلالي

(١) سيد الورقة البيضاء

أعترف، بداية، بحيرتي من جديد أمام الورقة البيضاء؛ إذ كلما اقترب منها القلم ألفاها مُحبَّرة، مشغولة بالسطور.

ومصدر الحيرة أني لم أكتبها وهي لي، فمَن كتبها، إذن؟ يَحدُث عندي أن أكتب قصائد كاملة في النوم، وفي مطلع الصبح أعزو ما حدث لثلج تنفَّس في قدح البارحة، أقول هذا هو الشعر في مظانِّه الحقيقية لا في الكلام يطلق على عواهنه، بعد قليل يعلو التغريد ومعه يصفو ذهني تدريجيًّا وأنا أسمع خطوات الأخضر قادمةً من الحديقة لِتتنَقَّل برشاقة في أرجاء البيت، تلثم بالغصن والورقة والبرعم المُتفتِّح أشياءه وبعضي، وقبل أن تستأذن بالانصراف تأخذ مني مطلبها البسيط: صباح الخير أيتها الحياة.

هذه العبارة مكتوبة في صفحة النهار وأرحب من ضميم الكلام؛ ولذا بَدَت الورقة مكتفيةً لا حاجة لها بي، ولكي أكتشف أن حاجتي تبدأ من تلك التحية، وسُترافقها إلى الخارج حيث الحياة، وستذهب من عيون الصبايا، أو تَتخَدَّد تحت طرقات هذه المدينة اللعوب، أو تُسْحَق في الأنفاق، تَدوسُها أقدام العابرين «يا لها وحشًا ضريرًا!» لها أن تقود مُظاهرةً في الشارع أو في فنجان قهوة، غير آبِهَة لا يأبه بها أحد، وهي في ذلك كله مِلْك أمرها، طليقة من أَسْر الورقة، تملأ قُفَّتها، كما شاءت ويشاء لها اختيارها؛ هي لا تقنع بما يأتي إليها، ولكن بما تذهب إليه، ومن اللمحة البارقة، وبالصُّدفة العاصفة تحيا، كأن تقصد البحر، وبينما أنت مأخوذ بشَساعة الأزرق تُتابع ترادُف الموج يطول بعضُه بعضًا، وبينما أنت في تلك الضفة، فتخرج لك من المحيط امرأة لا هي من الإنس ولا من الجان،

تَمدُّ يدها لتقبض على يدك تَضمُّهما إلى صدرها دُون النحر قليلًا وفوق انسكاب الكثبين، تقول: أنتَ لي، ويَسْدِل عليكما الموج أستاره، والبحر على ما أقول أشهد.

كذلك أخطأتُ الظنَّ وما أخطأتُ الطريق حين ذهبتُ إلى مكتب الجريدة بالرباط، أبحث عن القاصِّ إدريس الخوري؛ لأطلب منه مشورةً قصصيةً ولِنفِشَّ القلوب. صعدتُ الطوابق الثلاثة المهلكة، وإذ فتح في وجهي الباب وجدْتُني أمام مواطنين، نساءً ورجالًا، جاءوا ليعرضوا شكاياتٍ وأحوال ظلم لا تخطر على بال أي ابن امرأة في نهاية هذا القرن العشرين. قلتُ للسي إدريس، وقد نسيتُ طلبي: سعداتك، اشكون بحالك، ها هي المادة القَصصية تَطرُق بابك يوميًّا ولا تحتاج إلى البحصصة في وجوه الناس ولا الانحشار في حياتهم كي يفتح الله عليك بـ ... أنت الذي يشتكي من هذا المكتب، ويُشَبِّهُه بالمقاطَعة، بدا كأنَّه لا يفهم وهو يراني أدخل كالعادة، بنفي وعجاجي، فأردفتُ: شوف أسيدي إدريس، ها هي المادَّة القصصية طوع أنامِلك كما تحب وتشتهي، تقول لك: خُذْني، أدخِلْني في شي كتاب، قد تَشتهر بها، وقد تُدِرُّ عليك ما تفتح به مكتبًا للخبرة في شئون الحبكة، وتصبح من أقطاب المجتمع المدني. بعد أن ضحك القاصُّ بلا ادِّعاء، وقال: «أنا عيت من الكتبة، آش اطلع لنا من هذا الـ...» نهض من فوق كرسيه المتداعي حاملًا حقيبته وسبقني إلى الأمام بصوته الداعي: «هيا بنا إلى مدينة التراب أو إلى مدينة الجسد أو إلى السلخانة لتسلخ ما بقي فينا من جلد على عظم.»

كان الكاتب محقًّا؛ فهو في حاجة إلى هوائه الخاص، في طلب للسماء زرقاء أو رمادية، كما يحلو لها، يراها بعينيه كما يسمع الدبيب البشري وضجيج الحافلات متقاذفًا في غابة الأسمنت أو أدغال اليومي الحافي. وسواء رغب أو امتعض فلا غنى له عن لحظته الخاصة، وحده يعرف كيف يستقطرها من ضروع الجفاف والغباء العام. وحين لا يرتوي أبدًا من الأحزان الكبيرة والمَسرَّات الصغيرة سيعود إلى بيته حاملًا هموم الخارج إلى الداخل، في غرفته يشوف في المنضدة بنص عين، وهنا يتقاطع بصره مع ورقة بيضاء مسترخية تختلس إليه النظر بغَزَل حَيِي، يُدرِك خَطْبها وفي نفسه غَليان مثل تلك الرَّغبة في الجماع، هي بيضاء غير مشغولة، وهو مَن سيكتبها، حرفًا حرفًا، سطرًا سطرًا، سينفخ فيها من روحه، بعد يوم، بعد أسابيع، بعد شهور سيتكون «يوسف في بطن» ثم يفرح الكاتب ويسعد، ومثل كل الناس البسطاء سينسى لبعض الوقت الحزن والفقر ومغَص الأيام ويحس بغنًى فريد لا يعدله غِنَى كل هؤلاء السفهاء؛ فهي ذي الحياة صنو الكتابة، تلدها وهو يملك ما لا يملكون، الكاتب سيد الورقة البيضاء يأخذها بشهوة، بقوة، بحنو، فما أبهجها هي الحياة! وما أغناه!

(٢) نص لا يحتمل التأجيل

طمعًا في بعض هذا الغنى تركتُ الكتاب عِوَضَ أن آخذه بقوة، فقد وصل ميشال شارل يحمل كتابه الجديد «مدخل لدراسة النصوص»، وأراد أن يسمرني أيامًا إلى مكتبي. قرأتُ صفحة، فصفحتين، وأدركتُ أني سأخوض في بحر البلاغة اللجب، وهو ما أحتاج معه إلى نباهة فائقة ووقت مستفيض، وعندي أكثر من ذلك، إلحاح نص عاجل لا يحتمل التأجيل، فاعتذرتُ لصاحب «الشجرة والينبوع» مؤجِّلًا اللقاء به إلى أسبوع آخَر، منصرفًا إلى كتابة مَقاطع من حياة بوعلام الجيلالي، كما طلبَ مني ذلك، في يوم هو عادي واستثنائي في آنٍ:

يوم الأحد، وهو أحد وحيد في يوم الأحد، فيه ينام زيادة؛ إذ لا يستيقظ في الخامسة صباحًا، كما في باقي الأيام، يرفع رأسه عن الوسادة قرابة الثامنة وهو يتململ بكسل في الفِراش، لا شيء يدعو إلى العَجَلة، والأعمال التي سيقوم بها خلال الصبيحة على الأقل محدَّدة ومعروفة سلفًا لديه، يعرف أنه بعد قليل سينهض متثاقلًا، سيفتح النافذة المُطِلَّة على الفِناء السفلي للعمارة؛ لِيتسرَّب مع لغط الأطفال السنغاليين بعض هواء منقوع بالتوابل، يَعترك مع رائحة الغرفة الفاسدة وما هو منتشر فيها من روائح سهرة البارحة. كان الدراري قد حضروا كلهم هنا؛ بوعزة، لحرش، الحيمر، الحطاب، كسكس لهم، ولما شبعت الكرش قالتْ للرأس غَنِّ، فبَكَوا غربتهم في بلاد النصارى وتحسروا على غرق لبليدة في امزاب وأولاد سعيد، وقالوا: رجانا فلعالي ... سيغسل الصحون، ينكس الغرفة، يسوي الفراش، يغتسل في الدش الوحيد بالطابق في يوم وحيد بالأسبوع، يحلق ذقنه، يرتدي قميصًا أبيض وسترة مكوية، يلمع حذاءه حسب الأصول، وقبل مغادرة الغرفة يُمشِّط شعره بعناية أمام المرآة وهو يُهَمهِم: حمدتك يا ربي وشكرتك، عند مخرج العمارة يقول، بونجور للحارسة الإسبانية العجفاء، والسلام عليكم للسَّحَّار السنغالي الذي يَبْتزُّ غفلة المهاجرين الأفارقة.

في مقهى Les amis يشرب القهوة ويعاف الكرواصة اليابسة التي يجلبها حميد لقبايلي الذي يسأله: «سافا، راك بيان أمون فرير ...» يغادر المقهى خِلْسة قبل أن يصطاده إلى بحر من الجعة، فالوقت مُبكِّر والطقس اليوم جميل على غير العادة، وإذا كان محظوظًا سيصادف الضاوية تتسوق كعادتها، وربَّما تطلع له معها الباهية. سيَستعْجِل الخطى نحو السوق بعد أن يكون قد نسي الموضوع؛ ليفكر فيما هو أهم، فالصيف يقترب،

وعليه أن يبدأ من الآن في تجميع الشراوط والصبابط ولقزادر لكل أولئك الذين ينتظرون وصوله هناك، مثل أوناسيس سيُغادر السوق، مُحملًا برزمة حَوَت كل شيء ولا شيء. في الطريق سَيعفط على رِجْل كلب أو بالأحرى أن الكلب سيتبَوَّل على سرواله، فينهال عليه صاحبه بالشتائم وعلى العرب الجائعين والمسلمين الإرهابيين كافَّة أجمعين. سيضربها بسكتة ويدلف إلى أول حانة ليطفئ غضبه، في الخارج يُسَلِّم على هذا، يُسَلِّم عليه ذاك، لا يُسلِّم على أحد ورأسه مُنحنٍ وراء شُبَّاك يانصيب الخيل لعل وعسى، وفي انتظار النتائج سيُحلِّق عاليًا في الأحلام والآمال ويُقْسِم بكل الأيمان أنه لن يبيت ليلة أخرى في أرض هؤلاء «الكفرة بالله»، سيركب المترو ويصعد في «بيل فيل»؛ حيث سيتناول في مطعم موريس صحنه المفضَّل من اللوبيا بالكرعين، ومن هناك، سينزل مُجدَّدًا إلى المترو ليقصد شارع «سان دوني» ليتفرج على أفخاذ النساء وصدورهن العارية، كلَّا، لن يستسلم للغواية، حقيقة هو ... ولكن الصيف قريب وربع ساعة مع واحدة منهن هي على الأقل قيمة أربعة أقفاف في المغرب، مائها ومرعاها. ومع ذلك، سيطلع وينزل ثم يطلع أخيرًا من هذا الشارع قبل طلوع روحه بعد أن يَتحلَّب ريقه ألف مرة، سيُعزِّي نفسه بالشوف الذي لا يبرد الجوف، بالدخول إلى واحد من المخادع الثاوية خلف دكاكين مُضاءة بالأحمر، ومنها يخرج ليدخل إلى أقرب مقهى عساه يسكت فحيحه المتدلي بلا طائل، وستكون الشمطاء البيضاء جالسة في ركنها، وسيَلْعَن اليوم الذي ركب فيه البحر إلى هذا البلد، ومن ذاكرته الغنائية سيُدندن بحرقة «والغادي، ردني لبلادي»، وسيعرف في الحين، أنه حلم مُحال فلا شيء ينتظره هناك غير الزلط والقحط، سيفكر في الرواح إلى غرفته ثم ما يلبث أن يُؤجِّل العودة، هناك سيُقَفْقِف من الوحدة، وستهجم عليه خيالات أمه وإخوته وأصحابه القدامى، ويشعر بالضيم في بكائه الصامت، سينتقل إلى أماكن أنقى من هذه العامرة بالسود والعربان والبرطقيز، وهناك سيرى الجدران تحمل صور رجال شاهدهم في التلفزيون، صور، صور، ثم يرى المدارس والمباني الإدارية مفتوحة، والنساء والرجال يدخلون إليها أنيقين، مَرِحِين، الشباب والكهول والشيوخ. سينتبه أن يوم الأحد هذا، يوم استثنائي في حياة هؤلاء الناس، هو يوم الانتخابات وسيصوتون، سيأخذ كل منهم الأوراق فوق الطاولة ويدخل إلى المعزل ويضع ما يشاء منها في غلاف، وكما يشاء، ويدفعه في صندوق زجاجي، ويغادر وهو مطمئن البال على ورقته، سيتخَيَّل أنه واقف مثلهم مَزهُوًّا بحريته بيده بطاقة الناخب، وسيختار بملء إرادته، يُصوِّت كما يشاء و ... ثم ... ثم ماذا؟ Vos papiers على سماع هذا الطلب العاجل سيستيقظ من غفلته، والشرطي طالع،

هابط في سحنته، وعندئذٍ فقط سيفهم أنها مجرَّد لحظة شرود، وأنه مجرَّد يوم عادي من حياته، ومُستسلمًا يسأل نفسه هل هذه حياة؟!

٢٩ أبريل ١٩٩٥م

سرير من ماء

سيرة طيفية لشهيد الغرباء

للذين يتابعون أوضاع السرد، أدعوهم لمغادرة «مختبراتهم»، مؤقتًا؛ لمعاينة وضع مسرود بلا سارد. عجبًا، أين يحدث هذا؟ وكيف؟ إذا كنت جادًّا فيما تقول، مَن أنت، أولًا؟ فلا بُدَّ أن نجد إحالةً تُعَضِّد كلامك عند واحد من جهابذة النحو السردي، فإنْ عَدمناها فاعلم أن قولك مردود سلفًا، ولا يُعْتَد بعد هذا بما ستكتب.

للذين يجلسون في باحات المقاهي بأجساد مستنفرة، وعيون ملتهبة، وهم يُحدِّقون بغيرة وحسد في سيارات تنزل من بلاد الشمال صيفًا، عابرة صهد الجنوب، مختنقة بغباره، معمورة برجال مُجهَدين، ونساء مُنهكات، وأطفال ذاهلين، باتجاه فسحة مؤقَّتة بين أحضان الأهل ولامتصاص الأزرق تَحسُّبًا لشهور الرماد، لأولئك دعوة أخرى كي يَتبيَّنوا مَن العابر الآن في موكب ثقيل بالصمت، أهو العاشق المُتوَلِّه بعشقه الموءود أم رُفاته محمولًا على سرير من ماء، من دمع، قاصدًا شاهدته المكتوبة قَبْلًا في تفراوت؟

للذين يعبدون عمليات حسابات تحويلات اليد العاملة المغربية بالخارج، ويدققون بالمجهر في خطوط رسمها البياني بين الشهور والأعوام، ويدرسون على ضوئها مستوى العائدات الوطنية من العملة الصعبة، لهم أن يتثبتوا لحظة واحدة فقط قبالة الحاسوب؛ لِيرَوا أن ثمة رقمًا قد اختلَّ، بل انسحب من شاشة باتت مغمورة ببقعة دم، وليقوموا بعد ذلك بعملية طرح على شاكلة «– إبراهيم من تحويل الخارج لعام ١٩٩٥م = + جثة في تمازيرت».

للمُترَفين تحت سماء تلك البلاد، للمضارِبِين بالوقت المغربي، للمَنذورين لنزواتهم الضحلة، مُترَنِّحين بعُصاب الأوهام، السالكين عنوة المدارج العَصِيَّة نحو قَمَر نخبئه في

الصدور كما الماء الزلال في تجاويف الصخور، لهم ولغيرهم نرسل الإشارة إلى رحيلٍ فات هو الآتي الصحيح، في موكب رجالٍ أُخْرِجوا من ديارهم وطُرِدوا إلى ديار الأعاجم؛ بحثًا عن اللقمة لا عن الهوى، ورصيدهم للغد موت يومي بالتقسيط، فهل تراهم يَعودون إلا من أَجْل دَين الوالدين أو حامِلِين جثمانًا جديدًا في جنازة هم جثمانها ولها اليوم اسم إبراهيم بوعرام، صَلُّوا من أجْلِه لعلكم ترحمون.

أجَل فلي في هذا الاسم «أسوة حسنة» — أيُّ مفارَقة هي؟ ولكني مُولَع بالأضداد وإلا لَما كتبتُ لهناك المنتشرة في جغرافيا الفراغ، من هنا السابحة في حمأة القتلى والقتلَة، مع المنذورين لمصير الأطياف — لا أنتم تعرفونه ولا أنا عرفتُه، غير أن له في كل أرضنا أكثر من شبيه.

منذ الطفولة البعيدة وإلى اشتعال الحزن شيبًا رأيتُه، رأيناه، في الحانوت الذي نسميه «البيسري» ونشتري عنده بالطَّلق والرزق على الله، كم كنا أغبياء وجهلة ونحن نلقبه «الشلح لقروفي»، يا لعارنا ونحن نَتندَّر بدمنا وأرومتنا، أما هو فلا يَرد. لم يكن شبعان، ريَّان، مثلنا، ولا أخلاقه البيضاء تسفل لأخلاقنا، وهو الذي لم يكن سوى بائع إضافي أو مساعد في هذا الحانوت، اكتشف ذات يوم أنه لا يعيش إلا لبطنه، أن ما يُرسِله من حاجته إلى جنوبه الداخلي لا يكاد يسد الرمق، هو الذي لم أعرفه وعرفتُ تصور الجنَّة مثل الآلاف، لا تحت أقدام الأمهات ولكن في شمال الخيرات، فشدَّ الرحال إليه مُفعمًا بالآمال وكأني بلسان حاله يقول: ما الذي يُبقيني في وطن لا يُطعِم من جوع ولا يُؤَمِّن من خوف؟! وما أكثر ما سمعت هذا اللسان طليقًا هنا بهذه العبارة المريرة رغم أن الحنين إلى الديار لا يبرح النفس، ولها معه موعد كلما أفْلَت ظِلُّ الغريب من الغريب!

إلى حيث أعرف وصل إبراهيم ليعمل ويؤسِّس شيئًا، في شارع سان مارتان بالدائرة الثالثة بباريس بقي كما كان، بقالًا، إنما بأمل جديد ويد على القلب لتبرد ناره، وروح مُكتوية بغربتها في رطوبة البقالة الداخلية وبرودة السحنات الخارجية، كلما عرفتُه في صورة غيره بادأتُه السلام عليكم بحبور، فيُقْبِل عليَّ بَشوشًا، ووالله ينقص لي من الثمن تصريف ويُوفي في الكيل، فأخرج من عنده وكأن سوس كلها من تمنار إلى أولوز على الأقل، تمرح في صدري بأحواشها ووحشتها الغامرة إلى أبنائها المتغربين في آبار المناجم، وعند ضفاف الأنهار العالية.

والحكاية وما فيها أن إبراهيم بوعرام كان يحب الأنهار، كان مثلنا جميعًا ابن الشمس والسماء الزرقاء، تلك الموصوفة في إنشاء التلاميذ بأنها «صافية الأديم»، والحكاية

وما ليس فيها أنه ما علم بأن شمس الشمال أمَّارة بالقتل، وأن الماء المنساب في نهر السين قابل لأن يَتعرَّض لتحوُّل كيميائي عجيب فينقلب إلى سرير عائم للموت. نحن لا نصدق، لا أحد هنا يصدق متى تضحك الشمس بملء شدقيها لتطرد جثوم سحنة السماء الرمادية لشهور؟ فإن صدقناها لساعات، لأيام معدودة، عادت سريعًا مُكذِّبة الظن والسماء بعدها تكيل بمطرها الصاع صاعين. بوعرام استوعب ذلك بسرعة، ولذلك حين تَطلَّع ببصره إلى السماء في فاتح مايو بدا شبه مُكذِّب، هي ذي سُحُب ملتبسة تخترقها بعناد أشعة نفاذه ما إن تتوسط الظهيرة حتى تَتبدَّد. هكذا فكر بحس العارف وقال: سأجرب، أين يوجد الماء يا إبراهيم؟ حكَّ رأسه، إنه قريب من الدائرة الثانية. اليوم عُطلة وعلى بعد خطوات سأملأ العين بنهر السين في انتظار أن أشرب من تلك العين.

والحكاية وما فيها أنه، وقد بلغ قنطرة «لاكوراسيل» بعد أن تَشبَّع بفخامة مبنى اللوفر العظيم، نزَل الدَّرَج إلى رصيف الضفة المبلط: ما أشهى الماء! وما أبهى كل هذه السماء! هنا بللٌ وَضَوء. والحكاية وما ليس فيها أن موكبًا من الحقد «الأبيض»، من الكراهية «البيضاء»، من الوحشية «البيضاء» كان يعبر القنطرة في مسيرة احتفالية بِعِيد العمال، بِعِيد الإنسان العامل، الكادح، وإبراهيم، إنسان وكادح، وأي دليل أكبر من أن تتطلع إلى سحنته ليُهْزَم الشكُّ باليقين، موكب الاحتفال يا لوداعته، يا لإنسانيته، وإلا فاستمعوا إلى شعاراته: «فرنسا للفرنسيين، فقط»، «الأجانب رأس البلاء»، «المهاجرون مصدر العفونة والجريمة»، «لا أمن ولا أمان مع المهاجر»، «المهاجرون يسرقون خبزنا، يحتلون بيوتنا، إلى البحر».

ربما لم يسمع بوعرام شيئًا من هذه «الأهازيج»، ربما سمعها مرات من أفواه مزمومة ووجوه بيضاء مصابة بالقبض، ربما ألف هذه الكراهية ولا حيلة له معها سوى أن يرد لقلبه حتى يفرجها مولانا، وما أعجبه من «فرج» جاءه من حيث لا يدري، فَهُم رَأَوه وجوه الحقد البيضاء، من آخر الموكب شموا رائحته مثل الكلاب، شموا رائحة المهاجِر، وفي الشوارع لون المهاجر الأسمر أو الأسود تشيح عنه الأبصار قَرفًا، فانْقَضُّوا عليه هم الكلاب المسعورة، هؤلاء أبناء المدنية الغربية لمرحلة ما بعد الحداثة — واسألوا الحداثيين عندنا في كاريان لاحونا عن هذا التمييز — وجَدوها كبيرة أن يَتسكَّع مُهاجِر عند النهر وفي يوم مشمس، وأحسوا بجوع السين، بعطشه إلى دم التفراوتي الذي لم يجد في وطنه، على رحابته وغناه، قطرةً تَبلُّ عطشه، فألْقَوه في غيابة المَقت، في قعر النهر، ومن لحظتها جف السين ورحل نحو شاهدة مكتوبة سلفًا في تمازيرت، فإن جئتم — لا قدَّر الله —

يومًا إلى باريس، وبحثتم عنه، فاعلموا أنه من دم إبراهيم ينبع، وعند تلك الشاهدة الغُفْل يصب، لا في بحر المانش حيث رحتُ أبحث عنه عبثًا وسهوًا.

دوفيل في ٧ / ٥ / ١٩٩٥م

سرير من ماء ٢

إلقاء القبض على قاتِل المهاجر المغربي في فرنسا واعترافه بجريمته

ألقت الشرطة الفرنسية، المُختَصَّة بمكافحة الإجرام، القبض على المتهم الأول في جريمة قَتْل المواطن المغربي المهاجر المرحوم إبراهيم بوعرام، الذي أُلْقِي به في نهر السين في فاتح مايو الماضي بباريس أثناء مرور موكب من تنظيم حزب الجبهة الوطنية (اليمين المتطرف) بمناسبة عيد الشغل.

وكانت مصالح الشرطة قد ألقت القبض يوم الأربعاء الفائت، في مدينة رينس، على خمسة من أفراد العصابات المعروفة باسم «حليقي الرءوس» (SKINNED) يوجد بينهم شخص سبق وأن حُدِّدَت علامات بارزة تدل على هُويَّته، وتمت معاينته بفضل شريط كانت التلفزة البولونية تسجل فيه مرور مظاهر حزب لوبين حيث صورت لقطات بارزة من الحادث الإجرامي، وقد وجه أربعة من المقبوض عليهم التهمة مباشرة إلى رفيقهم الخامس الذي اعترف صباح أمس الخميس أثناء التحقيق بأنه هاجم المرحوم بوعرام؛ اذ صفعه وعانفه ثم دفعه إلى نهر السين. المتهم البالغ من العمر ١٩ سنة كان في حالة سكر مع عصابته، وقد أحيل إلى القضاء مباشرة بعد الاعتراف بجريمته، وبمعيته اثنان من شركائه بتهمة التواطؤ في الجريمة.

كشف الحجاب عن وردة الغياب

إلى رجل غادر من الباب الشرقي

لكل إنسان يوم، يوم حساب، وحكام الغرب يُحاسَبون في الدنيا قبل الآخرة، لا يُستثنى منهم أحد، ثَقُلت موازينه أو خَفَّت، وهو ما ينسجم مع منطق الأشياء قبل منطق التاريخ، فمن يَتصدَّى لحكم الناس وسياسة أمورهم، عدلًا فعل أو جورًا، عليه أن يهيئ نفسه ليخضع لحكمهم (أحكامهم)، وتوضع سيرته على المشرحة لا تفلت منها الشاذَّة والفاذَّة.

مناسبة هذه التوطئة مغادرة فرانسوا ميتران لرئاسة الجمهورية الفرنسية، في سباعية حكمه الثانية التي تَلَت أولى بدأت منذ ١٧ مايو ١٩٨١م وبلغت مداها الحتمي في ١٧ مايو، أي من أيام عندما خلفه في قصر الإليزيه الرئيس الجديد جاك شيراك، بعد أربعة عشر عامًا من حكم اليسار، وهي فترة قياسية في الجمهورية الخامسة.

ورغم أنها تقاليد فرنسية محض إلا أن طرح فاتورة الحساب، بالنسبة لميتران، بدأت مبكرًا، أي على الأقل منذ سنتين حين فقَد الاشتراكيون الأغلبية في الجمعية الوطنية (١٩٩٣م)، ما أسقط حكومة بيير بريغوفوا، ورَقَّى باليمين كَرَّة أخرى إلى السلطة التنفيذية مع حكومة إدوار بلادور. منذ هذا التاريخ اهتبل اليمين الديغولي، بفصائله المتعددة، ضَعْف رئاسة الجمهورية واضطرار الرئيس للقبول بتجربة تساكن جديدة على غرار سابقة لها (١٩٨٦–١٩٨٨م) ليطلق سهامه باتجاه نزيل الإليزيه ولا يُفوِّت مُناسبة إلا وغمَز من قناته، وذلك ضمن استراتيجية متكاملة يقع في مركزها استرجاع مقعد رئاسة الجمهورية الضائع منهم منذ أخلاه جيسكاردستانغ أو بالأحرى هُزِم في البقاء فيه لفائدة الزعيم الاشتراكي (١٩٨١م).

والحق أن شجاعة ميتران الفكرية، وصَرامته الأخلاقية مع تاريخه الشخصي وسيرته السياسية، غذَّت كثيرًا من حلَقات السجال والطعن التي ما انفكَّت تشغل السياسيين والإعلاميين على اختلاف مَشاربهم، وفي قلبها ما باح به، بلا مواربة، حول مرحلة حساسة في التاريخ الفرنسي الحديث المرتبطة بالمارشال بيتان، وفي طياتها موقعه الخاصُّ ضمن هذه المرحلة وعلاقته بشخصيات عاتية مثل العميد ألان بوسكي، المتهم بدور رئيس في ترحيل اليهود والفرنسيين إلى معسكرات النازية. ورَدَ هذا وسواه في مذكرات كتبها ميتران بالاشتراك، وفي حوار مع إيلي فيزيل (نوبل للسلام) نُشِرَت مؤخَّرًا. ولكن كشف النقاب منذ عام عن بواكيرها ما أثار زوبعة داخل القيادة المركزية للحزب الاشتراكي، إنما دون أن يتزحزح الرجل الكبير عن ثبات موقفه. بل ها هو ذا يذهب أبعد في شجاعة الرأي في الثامن من مايو المنصرم، وبمناسبة ذكرى الهزيمة الألمانية في الحرب؛ إذ قال في خطاب لا يتلوه إلا العظماء بأن جنود «الفير مارت» هم، أيضًا، جنود ماتوا من أجل قضية تَصَوَّروا أنهم يدافعون عنها، وأن أوروبا في حاجة إلى المصالَحة مع ذاتها بفَهْم عميق لتاريخها، وهو الكلام الذي أثار زوبعة لم يكن رجل السُّباعِيَّتَين في حاجة إليها، هو الذي لم يبقَ له سوى بضعة أيام للعودة إلى دارته المتواضعة في الدائرة الخامسة بباريس، لكن مَن سَلَخ خمسين سنة من حياته من أجل قِيَم معلومة لهو من جِبِلَّة ما نادى به الشاعر العربي القائل: «الرأي قبل شجاعة الشجعان.»

أما المحاكَمة على البرامج والالتزامات وأشكال ممارَسة الحكم فحدِّث عنها ولا حرج؛ فقد أظهرت النعرة الانتخابية، كما خاضتها قوى اليمين ضد المرشَّح الاشتراكي ليونيل جوسبان، ما تشيب لذكره الوِلْدان، وصوَّر زمن الاشتراكيين بأبلغ مَظاهر التخويف والترهيب، وكأنهم لم يجلبوا إلا الشر والوبال على فرنسا طيلة السنوات العشر الحقيقية التي حكموا فيها عمليًّا. والواقع أن المُتَّهم الأول، هنا والمطلوب رأسه كي يدان تاريخه وفي التاريخ ليس في البداية والنهاية إلا الرئيس ميتران. وقد كان وما يزال أقدر مَن يدافع عن مجده، عن شموخه المهيب في زمن بات يحمل اسمه، وعن تعبير رفيع لحضور الحاكم في الوجود يرتقي فيه إلى مقام التأمل والحكمة.

ولذا فلستُ أنا من سيدافع عنه — فضلًا عن أنه في غِنًى عن ذلك — أو سينصفه، ورغم ما في نفسي من ميل وهوًى فقد اعتبرت، منذ وصولي إلى هذه الديار، أن أهلها أدرى بشعابها؛ ولذا بقيتُ مشدودًا إلى دياري، مهتمًّا ومراقبًا لا طرفًا في وضع أكبر منا وما أوسع الشقة بيننا وبينه، وإن أصبحت مع الزمن مشدودًا إليه بأوثق العُرى وأرهف

الألوان، دعك من الأسماء والعلامات، واسم ميتران منها، في صدارتها. كيف لا وقد وصلتُ باريس، لا سائحًا ولكن مقيمًا، قُبَيل شهور فقط من وصوله إلى قصر الإيليزيه، وها أنا ذا أشهده يرحل، فأحس لأمر ما كأن من الخلل أن أبقى هنا وقد دار الزمن دورة حاسمة، وما أنا بمن يقارن بيني وبينه؛ فلكل مصيره، وإن كنتُ أُدرِك أن مصير من يعيشون الوجود في عمقه يدفعنا إلى أن نَتفَطَّن ونطرح أكثر الأسئلة قلقًا ولو بثمن الهلاك، عسى أن يكون لِما عشناه معنًى ولِما نأمل في الالتحاق به معنًى، أيضًا، إن عشناه. إنما قبل هذا وذاك اسمحوا لي أن أتضوَّع شميم الوردة، أن أغشى شغافها، وردة الباستيل تلك، أجمل ما رأيت في العالم، وأضْوَع.

هل تذكر يا مصطفى ليلتنا تلك؟ لعلك حضرت قبلها ببضع ليالٍ إلى باريس لتتابع، مُوفَدًا من «المحرر»، أطوار الانتخابات الرئاسية الفرنسية في معتركها الثاني في شهر مايو ١٩٨١م، ولتؤانس — حج وحاجة — صديقك وزميلك القديم الذي جذبته قلعة السوربون وجاء ليتدكتر منها جريًا على سنن الأقدَمِين.

في الرقم ٣٥ من زنقة «بروكا» من الدائرة الخامسة، جنوب المدرسة العليا للأساتذة وقُبَّة البانتيون، وعلى بُعد خطوات من زنقة موفتار الشهيرة حيث كان الهوى والشباب ملك يدي، في الرقم إياه انتزعتُ لي في العمارة الشامخة، الفخمة، سكنًا هدية من السماء، كان يأويني بالكاد، وفي القلب مُتَّسع للأحباب، من الطابق الخامس كنت أطل على الحديقة الخلفية، وبدأتُ أتهجَّى لغة الشجر والأخضر والأصفر والعصافير. بعد مُضِيِّ أسابيع قليلة من إقامتي استيقظتُ ذات صباح فوجدتُ وردة يانعة تشاركني فراشي ومن يومها أَمستْ عبيرًا ولحافًا لي وأنا لها لحاف، ثم سارت بأعناقنا الأباطح.

وجئت يا مصطفى فوجدْتَنا على أحسن ما يكون من العبير والسعير وتوابل المطبخ الشامي، وسط أكداس الكتب وأوهام الأماني، ونَكْهَتها الغجرية تهديني في آخِر الليل إلى سواء السبيل، كل ذلك وعقلك الذي لا يفارقك يُشفِق عليَّ، ومن وراء النظرات المفعمة أكتوي بالحنو السلسبيل. يا له من غِنًى! وهو ثروة شرعية، شعرية، منك أيها الرئيس المغادر، وقلت للمهندسة الدكتورة: هذا مصطفى، جاء من مَنافيه ومن الدار البيضاء، لا مناصَ من العودة إلى غرفة الحي الجامعي، فالخُلَّص من أصدقائي لا يقيمون إلا تحت سقفي، أجابتْ: طيب، لخاطر مصطفى، لكن مَن يطبخ لحبيبي؟ مَن يناوله ما يشتهي ... وغدًا عيد؟ سترى سأُعدُّ لكم كل أطاييب اللاذقية لعشاء العيد.

في الغداة؛ أي في العاشر مايو ١٩٨١م، وابتداء من السابعة مساءً كانت شوارع باريس، بل والمدن الفرنسية كلها، قد أقفرت، مثل توقيت المغرب في رمضان، وملايين

العيون مثبتة على شاشات التلفزيون في انتظار إعلان اسم الفائز في دورة الحسم الرئاسية (الدورة الثانية) للانتخابات: جيسكار أم ميتران. مصطفى وأنا وإلى جانبي وردتي ننظر ونستمع متلهفين متى ستغمر الوردة الاشتراكية الشاشة (وكانت وقتها شعار الحزب الاشتراكي في الرئاسيات مثل التفاحة في الحملة الانتخابية لشيراك). نقول وكأنَّنا نبتهل: بعد دقائق سَيتزَحْزَح التاريخ من مكانه؛ إنَّ شيئًا خارقًا رائعًا سيحدث، قد يحدث أمامنا، بحضورنا ونحن له شهود، يجلب لنا بعض العزاء لكل ما خاب من تاريخنا، كنَّا كأننا نحن المرشحان، نحن من سيتقرر مصير بلادنا، نحن الذين قد ننتقل إلى مستقبل جديد؛ ولذلك فاليد على القلب ينبض والدقائق تنطوي، لا نعرف بطيئة أو متسارعة، والساعة إذ توشك أن يستقر عَقْرَباها عند الثامنة مساءً، الوقت الحاسم للنتيجة أجسادنا هي ميناء العَقربَين، لا أكل ولا شرب ولا نفس قبل الثامنة. ها هي ذي بشير وبشرى، وغمرت صورته الشاشة في تشكيل متدرج يرسم خُطوط ملامح حفيد جان جوريس والابن الروحي لمانديس فرانس، لتنطبع الملامح كثيفةً لا ندري في الشاشة أم هو العالَم كله مُختزَل، مُتجدِّد الخلق، مبعوثًا في صورة. وكنا اشترينا الورود بلا حساب، وبين عناق وانخطاف بين الأحضان، طفقنا ننثر وردنا إلى الحديقة ونزدحم عند المطبخ لنجلب ما لذَّ وطاب. وما هي إلا دقائق وها هو الباب يُقْرَع بِحِدَّة، لا أريد عراكًا مع الجيران النقناقين ذوي السحنات الميتة، وفتحتُه وإذا هو السي محمد آيت قدور يهجم هُجوم الحرس وخلفه من كان يدندن:

«هنا طاح الريال ...» ثم طرق آخر: دخل خالد عليوة، طرق ثالث: إنه الدادسي، ثم من؟ عبد الرحمن منيف، ثم تركتُ الباب مفتوحًا، وتَهاطَلوا، أصبحنا قبيلة في بضعة أمتار مربعة، والوردة تخدم الضيوف بسعادة وكلٌّ في يده وردة. هتف الزعيم آيت: هيا يا جماعة؛ فالقيامة قامت في الخارج، وخرج شعبنا ليندمج في الشعب الآخَر، في سيارتي كنا عشرة، في سيارة أخرى عدد مماثل، هجمنا، أولًا، مع المهاجمين، زحفنا على ساحة الباستيل، كيف الوصول إلى مركزها وعشرات الآلاف من الشباب، النساء والرجال، الفتيان، كلهم هناك لتحرير السجن الذي زال مرَّتَين. الشوارع، الشرفات، السماء فوقنا، الأرض تحتنا تميد سجادًا من ورد. كنا خرجنا من أجسادنا ورحنا نلاحق أرواحنا في فرحها الجامح، وفي ليلة إشعاع ضوء القمر الاشتراكي، في غمرة الهواء الدافئ، اصطدنا القُبَل السخية واصطادتنا والفرح لا يعرف أين يرسو، وكان الكلام دمعًا أو هستيريا أو أنخاب الملايين.

بعد أسبوع كان ميتران ورجاله وشعبه يصعدون السان ميشال وينعطفون يسارًا، كما ينبغي لهم، إلى زنقة سوفلو صعدًا باتجاه البانتيون حيث مقبرة العظماء، وكلٌّ في يده وردة، وعلى الأرصفة أبناء الشعب الجديد، قالت لي وقتها امرأة في السبعين ونيف: أنا انتظرتُ هذه اللحظة منذ ثلاثين عامًا، ودمعها يهمي تحت سماء ماطرة، وكنتَ أنت قد رحلتَ يا مصطفى، وبعد لأْيٍ رحلَت وردتي وقد ضِعْت بين الحدائق والأدغال. وفي يوم الأربعاء ١٧ مايو ١٩٩٥م جلس «الفتى المغربي الذي كان» قُبالة شاشة التلفزيون، وشاهد ميتران يغادر قصر الإليزيه بشموخ وإباء كما دخل إليه للمرة الأولى رئيسًا قبل أربعة عشر عامًا. لم يغادره مهزومًا ولا تحت قصف المدافع، بل من الباب الشَّرَفي في موكب تاريخ العظماء، ومن الإليزيه توجَّه رأسًا إلى زنقة سولفيرينو؛ حيث مقر الحزب الاشتراكي، لِيُعيد الوردة إلى جنانها، فهي في حاجة إلى تُربتها كي تستعيد نضارتها، وكاد «الفتى الذي كان» أن يشهق بالبكاء، فقلتُ له «لا تبكِ عينك ... أَوَلَمْ تَعِش؟ أَوَنَسيت نيرودا؟»

قال: «بلى، أعترف أنني عشت»

باريس في ١٧/ ٥/ ١٩٩٥م

الموسيقى ... الموسيقى ... الموسيقى ...

(١) قلب غرد

قبالة البحيرة
تحت الشجر
اضطجَعْنا
باريس وأنا
عند أنغام قيثارة
وَلَهِي بعذب النَّظَر

أسلمنا عينينا لصفاء الماء، لبهاء الظل، وبدا الوقت مضيئًا مثل البلور لا يعوزه إلا فرط حنين، فجلبنا من أصقاع الذكرى وهج رمال ورفيف قُبَل، وكيف تهادى موكبنا محمولًا على هودج نهديها وفحيح الجسد، أسلمنا الروح وباقي العمر لهذا البلد.

استأنفنا تقويم الأرض، لون العينين، اخضرار الأزرق في تجديف الملاحين، الموج يعلو مقامها العالي بها، البحر تحتها، ويدي على كمثراها. أسلمنا الدار للدَّيَّار، نَدِيَّ الحلم لفِجَاج البُعد، وعصَرْنا لَحْمنا مطرًا ودمًا سقيًا لجفاف الوهم. وأخيرًا ماذا يبقى من المشهد والبلد الجسد البدد على وشك القرب ... من يعبر من عبورك ... مُهج الرجال، انقضاض الكواسر أم كله قلب شرد؟

(٢) La Musique dans la Rue

استيقظت باريس صباح ٢١ يونيو لا متأخرة عن وقتها ولا مبكرة، أمس الثلاثاء أَوَتْ إلى مضجعها منهكة ككل يوم عمل.

استيقاظ مُنتَزَع، إفطار منهوب، سماء غائمة تصطك كالعادة على الأرصفة، قرقعة المترو، الوجوه بعدُ شاحبة وكوابيس الليل تدخل أنفاق المكاتب، تجلس فوق مُدرَّجات الجامعة، يغلي الدم مع أول سهم يرتفع في سعر البورصة. ربما هي القهوة الثانية أو الثالثة، بينهما قدح شافٍ من جعة مُزْبِدة، حتى إذا جاء الظهر أكلنا سندويشًا أو تهالك القوم على لسان أو رأس عجل محمض، فلا بأس عندئذٍ من ربع نبيذ كي ترقص الأرقام، تبرق الأفكار، تتصادم جداول الربح والخسارة، الاشتراكية والليبرالية، القيامة صعدًا من «بورت دورليان» إلى «بورت كلنيا نكور»، دعك من تفاصيل هؤلاء المهاجرين السود والمغاربيين؛ فَهُم، إما جمعوا أزبال المدينة أو يشربون البيرة عند «يدر» مع قليل من الزميطة في انتظار أزبال الغد. فإذا دقت الساعة الخامسة أو السادسة استنفرت الأجساد ما لا تملك من قواها وتدافعت طوابير الديدان قاصدة مأواها. قد تصل، قد تموت بالسكتة القلبية، بعنف الدماغ، وخلف المائدة عين إلى مسلسل البوسنة ومجازر رواندا ويد إلى مرعاها. وفي الخارج، في ليلها المشعشع بالحبب تَلْحَسه النجيمات تستيقظ مدينة أخرى، هي مدن يَحرُث فيها الأرقون، المغتربون، العابرون بُذورَ حزن لا ينام حتى ثمالات فرح هارب أبدًا، لكنها أمس الثلاثاء من ثقل أوجاعها أَوَتْ مُبكِّرة إلى فِراشها، أَسلمَت وإياها الأجفان مُلوِّحين بالنذر تَيمُّنًا بأربعائها، فغدًا موعدنا في عيدها وما أدراك ما عيدها؟ سأُؤَجِّل بقية الحنين إلى حين، وصدر البوح لك أشرح، وأقول للفتيان المُتعَبِين من فرط عشقهم: حُطُّوا رحلكم عندي واستمعوا إلى الموسيقى! الموسيقى.

يوم الأربعاء ٢١ يونيو الموافق لبداية الصيف ولقرار أنثوي عارم بانتفاضة الجسد هو يوم عيد الموسيقى في باريس، في فرنسا كلها حين وصل الاشتراكيون إلى الحكم في فرنسا سنة ١٩٨١م حامِلِين وعود التغيير والغد الأفضل كما يفعل جميع اليساريين قبل أن يسخن رأسهم بنشوة السُّلطة، شَهقَت وردة من باقة ساحة الباستيل المسترجعة: ليس بالخُبْز وحده يحيا الإنسان، ولا بالشُّغل والسكن، بل بالموسيقى أيضًا، يا أولي الألباب. الوردة، الفتى الذي كان، الحَيِي المقدام في آنٍ: وزير الثقافة جاك لانغ.

هو وأندري مالرو سلفه، يتكاملان ويرسمان الصورة المثلى لما ينبغي أن يكون عليه وزير الثقافة بلا منازع؛ لانغ، ابن الشعب ومِن صلبه خرج، كما من أعماق الحضارات القديمة في تجمهراتها الاحتفالية العظيمة، حيث كانت الموسيقى والرقص والغناء تعابير الإنسان المُبجَّلة، وصولًا إلى الرافضين والمُتمرِّدين المُحْدَثين، وواسطة عقدهم من زمن

فرنسي مضى الشاعر والمغني «ليوفيري». في انتفاضة مايو ١٩٦٨م بباريس كان Léo يقود فيلق الموسيقى ضد النُّوَّم والقابعين عند المدافئ، وسمعه الجيل الجديد كله وهو يصرخ: La musique dans la rue – music in the street – la musica en la Strada بالفرنسية والإنجليزية والإيطالية.

الموسيقى في الشارع هي الرسالة التي استلمها من أبي المغنين الثائرين وقدم للشباب والجيل الذي سيكبر مع سُبَّاعِيَّتَي حُكْم ميتران أثمن هدية: المدن الكبيرة والصغيرة، في الأداني والأقاصي، الشوارع، الأزقة، الساحات، الطرقات، البنايات العمومية، كل الأماكن والفضاءات المحجوزة للاستعمال المقنن وللحركة المحسوبة الأضواء والأنفاس تسقط في يد الشباب، بيد الفتيان والفتيات كما سقطت وستسقط جميع قلاع القهر والاستبداد، التأثيث الحقيقي للفضاء ليس هو الثرثرة المتعكزة إما على البلاغة الرثة أو خور التجربة بل الكمنجات، البيانو، الطبول، الساكسفون، القيثارات، الطناجر والملاعق، لم لا، تصطف في طول الشوارع، وعرضها، فوق مدرجات الكنائس، تتدلى من الشرفات، ومكبرات الصوت عالية مثل مآذن. في باريس وحدها من ساحة «الباستيل La Bastille» إلى «الجمهورية République» من ميدان «الإنفاليد Invalides» إلى ساحة «لاكونكورد La concorde» وفي ساحة «التروكاديرو Trocadéro»، وعلى امتداد الباحة الفسيحة بين «متحف الإنسان Musée de l'homme» و«قصر شايو Palais de chaillot»، نزل الشباب بعنفوان العمر الذي لا يتكرر، هجم الجسد وتدلَّه العري في أشبق وأشعر تقاطيعه، الرقص، الرقص، الرقص: تك اشتك، تك اشتك. الموسيقى، الموسيقى: واو، واع، وا وا ... الحب: قُبَل، قُبَل وعناق حتى مطلع الذهول.

الفتية يُحَرِّرون باريس من جديد، يُعلِنون كومونة الموسيقى باسم الفاتح المغوار جاك لانغ عاد إلى درسه الجامعي، كما ينبغي لوزراء الثقافة، وظِلُّه بات يرقص ويتشرب موسيقى هؤلاء الشباب في قُدَّاسهم المجيد. في هذه الشوارع وساحات الاحتقان الموسيقي لا مكان للأيديولوجيات، للشرائع، للقوانين، للخطباء المُفوَّهين أو الزعماء الذين يَتوهَّمون أن إشارة منهم ستنقذ العالم من الضلال. وفي Champ de Mars هبطت السماء وانتثرت نجومها حلمات على صدورهن المشرعة. عندما خاصرتني جولييت بضراوة العشرين عامًا صارخة وسط صخب جبار: لماذا أنتَ مُبتئس مثل كل العرب، غنِّ وارقُص معنا فالليلة عيد، لا تَخجلْ من شَيْبِك المستفحِل قبل الأوان، أنا أُحبك هكذا، هل كان الخطاب إليَّ أو لأمواج الشباب الهاربين من الشقق المختنقة ليضعوا بملء إرادتهم ومُطلق غرائزهم

طقوس بدائيتهم الخاصة؟ لم أحفل بالبحث عن الجواب؛ فلا شيء هنا أصدق إنباءً من الموسيقى الموسيقى، والموسيقى.

وهو ما لم يبرد جوفي المحترق، فقد تَذكَّرت ربعي وبلدانًا يُقْتَل فيها الإنسان؛ لأنه يغني، وغبار زرياب يُلَمْلَم لِيُحْمل إلى المشنقة، تَذكَّرتُ أهوالًا أخرى، وهنا انتفضت باريس في وجهي مُحتَجَّة؛ الليلة لي، لا لأهوال تلك الديار، حين ستعود إليهم ستجد جبالًا من الحزن مُصْطفَّة على طول الطريق المُؤدِّية إلى قلبك، أما الآن فأهديك لحظة فرح، وضغطت على زر تشغيل المسجل فتهادى الكونستورتو التاسع، بيانو وأركسترا en mi bémol majeur k271, jeunehomme واستسلمنا لموزار.

(٣) عكاظ باريس

الخميس ٢٢ يونيو: عادت باريس إلى عاداتها القديمة وانتهى «حلم ليلة صيف». استرجعت السيارات شوارعها، وشرطة المرور ساحاتهم، إلا ساحة واحدة احتَلَّها قوم غامضون، مَوتُورون ورقيقو الحال والنَّفس، جاءوا، كما يفعلون منذ ثلاث عشرة سنة، من الضواحي والمدن البعيدة عن المتروبول ليعرضوا بضاعة كاسدة في هذا العصر اسمها الشعر، في ساحة Saint-Sulpice بالدائرة السادسة، الكاتدرائية إلى ظهرها، الكوميسارية قبالتها، والنافورة في وسطها يلتقي الشعراء المغمورون والصاعدون والهابطون، ينصبون أكشاكًا، ويَعْرِضون دواوينهم وكراريسهم الشعرية، هي على العموم بضاعة على هامش السوق، لم تباركها سطوة دُور النشر الكبرى، ومطبوعة بمبادرات خيرية أو أموال فردية، يُحاوِل عدد من الناشرين العنيدين والحالمين البحث لها عن مكان في عالم لم يَعُد فيه متَّسع للأحلام المتسكعة.

يسمون هذا الموسم «سوق الشعر Le Marché de la poésie»؛ فكل شيء بات معروضًا للبيع والتداول، لكن السوق محفل للقاء الحر، للفرجة، لاستطلاع الأخبار وقياس حرارة الزمن والمشاعر البشرية. وهنا تلتقيهم شعراء بسطاء نازحين من الأقاليم البعيدة بضعة أيام إلى باريس وفي معمورهم الداخلي نازحين، يدخنون بشراهة ويقبلون عليك لعلك تسأل أو تُقلِّب ديوانًا كما لو أنك ستشتري دجاجة، أو تقف إجلالًا أمام مقطع شعري يدعوك إلى الحب رغم كل الخزي واليأس. من دكان إلى آخر يمضي المتجوِّل في السوق لا دليل له إلا قلبه، وفي زاوية من السوق يأتيه الصوت تلو الصوت: إنهم الشعراء يقرءون، ضاعت منهم التفعيلة ولم يدركوا الإيقاع، قرقعات، هياج كلمات مبتورة وأخرى

منقوعة في الفراغ. في كوميديا «الضفادع» كان أرسطوفانيس شديد القسوة على الشعراء المحدثين فوصف شعرهم بقوله إنهم:

إنهم أوراق بلا ثمار، وزقزقات في الهواء
الفارغ، وشقشقات الطير تمزق الفن.

(البيت ٩٢). أما الإله ديونيزوس، في «الضفادع» دائمًا، فقد كان قد بلغ به اليأس حد قوله:

إن خيار الشعراء قد ماتوا، ولم يَبقَ في الحياة إلا المزيفون.

(البيت ٧٢). يرفض المتجوِّل اليأس ويمضي مُتصفِّحًا، مُنصتًا، متبضعًا، فاقتناء ديوان ربما أخصب الأرض البوار، ربما فتح كُوَّة في سماء غائمة شقتها الشمس فوقف الشاعر وسط الساحة وقد شق قميصه بجمع يديه، وارتجل قصيدة في مدح سيدة الضوء، فكان هذا أجمل الشعر وأعذبه.

رجال الشرطة أعلنوا تَذمُّرهم من احتجاج الشعراء على بعضهم البعض، وعلى تظاهرتهم لإطلاق سراح ماء النافورة، خاصَّة وأن الماء غاض في المكتوب والمقروء. عربي واحد، وحيد، طاف على السوق مثل الدلَّال صائحًا: أنا أدلُّكم، دون الجميع على النَّبْع. لو قرأتم شِعْري لعرفتم أني أمير الشعراء قبل شوقي وبعده، أما رامبو فمن تحت إبطي خرج، فضحكوا من قوله ولم يبالوا بالخطر. لكن أَتَتْنا غيمة فشتَّتت شمل القوافي والأوزان فلُذْنا بخيمة امرأة تكتب الشعر الإلكتروني. من خارج السوق لوَّحَت إليَّ باريس أن تعالَ، أَوَما تعبتَ من التجوال؟ أرسلتُ إليها إشارات مرموزة تفيد عزمي مواصلة البحث عن الشعر مهما كلَّفَني ذلك من سماع اللغط ورؤية تَناطُح الماعز إلى أن أصافح الشاعر الذي سيكتشف في أحلامه صيغة الوردة وقانون النجمة. أجابت موافقة شريطة أن أتبعها الآن لتناول فاكهة أول المساء، فالمشمش طيِّب هذا العام وخدُّه مورد، وخسارة أن أفرط في مشمشها، ثم عندي لك شيء آخر، أضافتْ، هو الأهم، أنصت:

NOUS NE VOULONS
PAS ÊTRE TRISTES
C’est trop facile
C’est trop bête

C’est trop commode
On en a trop souvent l’occasion
C’est pas malin
Tout le monde est triste
NOUS NE VOULONS PLUS
ÊTRE TRISTES
Blaise Cendrars.

باريس في ٢٩/٦/١٩٩٥م

لا أملك غير موتي لأعبر عن حياتي

(١) الكتابة أو الحياة

ارتميت الأسبوع الماضي في خِضَم سؤال الكتابة اللعب، أنا الغريق لا يخاف من البلل، ولم يَكُن شاغلي النجاة، فهو مُحال من أول الارتماء، بل الغوص أكثر في هذا اللايقين الذي بدونه تَنتفي مشروعية الكلمات ويُمْسي الوجود بِرُمَّته مُجرَّد حالة زمنية طافية، إنني أستعيد، هنا، وعن قصد، الحفر النظري الخالص للموضوع، وإثارة تلك المُنمنَمات البويطيقية أو درس البلاغة الراسخ، كما يُجَسِّده شارل ميشيل، مثلًا في مفهوم دراسة النص. وما أفعل من باب الاستخفاف، كلَّا فهذا الحِمْل ثقيل ونبيل، ولكن لأني أريد أن أعيد للكتابة حُرِّيَّتها — يا له مِن زعم! — بعتقها من مناورات التأويل والتفكيك والمُبتَسرِين أو العسفيين، وجعلها تتحرك في مساحة الغياب القلق والبياض الكثيف حيث لا يمكن القبض على الكتابة إلا من مدخل استحالتها.

في مثل هذه الحالة يقع الخطاب خارج الكلام أو تسمع فقط وَقْع تساقطه مثل الحصى في مياه النهر، الماء يجري وهو يرسب في مكان ما مثل الحياة عالقة ومشخصة في الأشياء الصغيرة والكبيرة، وضمنها الموت بوصفه لحظة فاصلة وزئبقية في آنٍ، ما دام يتدخل بكيفية حاسمة في توليد المعنى الإشكالي للوجود، ويحتم علينا، يحتم على الكاتب في تخوم الوعي الحادِّ، أن نطرح أنفسنا، بالعري الكامل إن أمكن، على مشرحة الأسئلة الرهيبة — لا تأتي طبعًا من فراغ بل من التجربة — تحمل بداية أسماء، مطلع كلمات هامسة لا تعرف أهي تحتضر أم في المخاض أم في موقع خارج الجاذبية، مُنفَلت بين المقامين.

جورجي سمبران، الكاتب والروائي الإسباني والفرنسي في آنٍ، يتربَّع على عرش هذا الموقع بلا منازع في كتابه الصادر في نهاية العام المنصرم (١٩٩٤م) عن دار غاليمار يلقي أوسع الرواج باستحقاق L'écriture ou la vie، وهو عنوان إشكالي كما يتبين ذلك عقب القراءة، ولذلك فترجمته «الكتابة أو الحياة» حرفية ولتقريب الفهم ليس إلا — سمبران، المناضل الشيوعي الإسباني والمنخرط في المقاومة الفرنسية، أحد كبار التلاميذ النُّجباء في الفلسفة والمتألِّقين شعريًّا في ليسي هنري الرابع الشهير بباريس، والفتى الأديب الذي سيتعرف على كل شيء، على كل المثقفين البارسيين قبيل الحرب الثانية سلفًا. سمبران، الذي سيشغل منصب وزير للثقافة في أول حكومة لفليبي غونزاليث غداة وصول الاشتراكيين إلى الحكم في إسبانيا، هذا المناضل الأُممي سيتعرض للترحيل إلى إحدى معسكرات النازية بوصفه عضوًا في شبكات المقاوَمة الإنجليزية، وذلك سنة ١٩٤٣م حيث سيقضي في معسكر «بوشنفالد» ثمانية عشر شهرًا ولن يغادره إلا في شهر أبريل من سنة ١٩٤٥م عند تحريره مع زمرة من قوات الجنرال باتون ومنه يعود إلى باريس لينخرط في دورة حياة جديدة.

عمليًّا احتاج خورجي سمبران إلى قرابة نصف قرن لإصدار كتابه الجديد. طبعًا، فهو لم يُمضِ هذا الزمن المديد في الإعداد لهذا المؤلَّف (٣١٩ص. من القطع المتوسط)، فقد أصدر خلاله العديد من الروايات والكتابات إلى جانب حياة حافلة بالنضال السياسي والعمل الثقافي، لكنه بمعنًى آخر، قضى هذا الوقت كله يحمل ذاتًا مفجوعة وذكريات مريرة واكتواء عُمر بمآسِي ما عاش وعانى وشاهَد في معسكر «بوشنفالد» قبل أن يصل إلى اللحظة الرهيبة التي تلزمه بنقل ذلك كله أو بعضه إلى مساحة الورقة البيضاء. والسؤال الحَرِج الذي واجهه أصعب من أن يجيب عنه إلا بالإيغال فيه. بعرضه وتشخيص الحرج عبر المساءلة: هل يمكن لكل هذا الذي عشتُ وما شاهدتُ وعرفتُ من جرائم النازية في هذا المعسكر، حيث الأفران تصعد أدخنتها لجثث اليهود المحترقة والمختنفة بالغازات؛ هل يمكن كتابة العذاب الإنساني — اللاإنساني، وبما أن الكتابة حياة أخرى كيف يجترحها مَن كان قد انتقل إلى عالَم الموت ووجد في مصير الحياة نقيضه المُطلَق، ورغم أنه عاد إليها فهي تبقى عودة على سبيل الافتراض ما دام الموت قد وضع بصمته الأبدية على الجسد والذاكرة معا؟ في وقت لاحق سيقول: «لم أكن شيئًا آخر، في الواقع، سوى رميم واعٍ بكل هذا الموت، قطعة فردية من النسيج الهامد لهذا الكفن، غبار في غيبة رماد هذا الاحتضار،

شعاع لا يزال يضيء من الكوكب المنطفئ لسنواتنا الميتة» (ص١٣١). هذا الوعي الحادُّ بالزوال يبلغ درجة الإحساس بالذنب بسبب البقاء «لم أفهم أبدًا لماذا ينبغي عليَّ تذنيب نفسي؛ لأني بقيت على قيد الحياة، والحق أنني لم أبقَ، ولستُ متأكِّدًا من أنني حي فعلًا» (ص١٤٩).

على أرضية هذا الاحساس المأساوي — الواجد جذره في التعالُق المكين بين التضحية والشر اللذين يُمثِّلان أعمق وأعتق حوار مسيحي أو بعبارة أندري مالرو في روايته: Le Miroir Des Limbes: «إنني أبحث عن المنطقة العصيبة للروح حيث الشر المطلَق يعترض للأخوة.» — أقول: على هذه الأرضية ينهض السؤال الآخَر المُتَّصل بما يمكن تسميته إجرائيًّا بمشروعية الكتابة إزاء وضعية مماثلة، قُل بحدود إمكاناتها: «إن الشهية المؤَجَّجة لاستئناف مذاق الحياة، قَطْف اللذة المبذولة، مثلًا، تصطدم على الفور بإحباط فواتها.» ... هكذا «فإن كل شيء سيستأنف ما دمت حيًّا أو بالأحرى عائدًا إلى الحياة وطالما بقيتُ مَغويًّا بأن أكتب، فإن سعادة الكتابة لا تمحو أبدًا شقاء الذاكرة، بل على العكس تشحذه، تُعَمِّقه، تُحييه، وتجعله فوق طاقة الاحتمال» (ص١٧١). لذلك لا عجب أن يصبح منتهى مراد الكاتب بلوغ الراحة الروحية «النسيان» بعبارة أخرى، ومن باب المفارَقة فهذا ما يرفع الإحباط مؤهلًا الكتابة للحضور. إن مفتاح الفهم يَكمُن في العبارة الذهبية لموريس بلانشو، القائلة: «من أراد أن يَتذكَّر فليعمد إلى النسيان، إلى هذا المحذور الذي هو النسيان المُطلَق وإلى هذه الصدفة الجميلة التي تصبح عندئذٍ هي الذكرى.» الكتابة إذن مَهْرب من النسيان الواعي، وهو ما يرتبط في فهم SEMPRUN بشكل أخلاقي معنوي، لا تقني «ذلك أنني لا أتوصل عن طريق الكتابة، لاختراق حاضر المعسكر (النازي)؛ لأحكيه في زمن الحاضر ... وهكذا في كل المسودات تأتي البداية، إما قبل أو حول أو بعد وليس أبدًا في المعسكر» (ص١٧٦).

وهو ما يُولِّد أسئلة أخرى من قبيل: هل الحكي ممكن؟ وأن تحكي ماذا؟ كل تلك الفجائع الهائلة في «بوشنفالد». ليست المادة ولا القول ما يعوز، ونحن نستطيع قول كل شيء من الحب المجنون إلى الهول الأخرق، أن نقول الوردة والندى على ورق الشجرة، وهو ما يخوض عبابه الشعراء بعيون مُغمضة وشفاه خصبة، لكن هل تستطيع القول بلا تردُّد، بيقين، حين تكون قد عَبَرت الموت أو عَبَر بك، هل تملك أن تتخيل كل شيء؟ وها هو أسير الأمس المحسوب في عداد الموتى، وقد سمع نَحيبهم وصلواتهم وأنين

احتضارهم ورأى المَداخن تصعدُ بدخان لحومهم المشوية، يُقْذَف إلى عداد عالم الأحياء كأنَّما عَنوة، فإلى أي العالمين ينتسب؟ وإذا تَشبَّث — ربما رغبة في الكاثارسيس — بحكي ما حدث، ما رأى، ما سمع، فأي شكل ستأخذه الكتابة؟ لنلاحظ أن سمبران، في هذا الصدد، يختلف عن كونديرا، مثلًا، فيما يُسمَّى بالكتابة التي تفكر في ذاتها وتتقاطع فيها العقلنة بالتشخيص. وقبل هذا الأخير كما عند «ت. بالستير» أو «ر. موزيل» أو «بروخ» هناك نسَق آخَر عند صمت «الكتابة أو الحياة» يَتنَضَّد من الإحساس باستحالة القول ثم الصمم في شكل أدبي، ثم مساءلة هذا الشكل تقود إلى نصف قرن إلى الخلف؛ ولذا نراه يعقد فصلًا كاملًا (من ٥٨ صفحة) يضع له عنوان «قدرة الكتابة»، في جميع الأحوال لا نرى سمبران يَخلُص إلى يقين، إلى اختيار نهائي حول مفهوم سؤال الكتابة، اللهم، أن الأدب، الصنعة الأدبية تظل عمدة مطلوبة نتوسل بها لتبليغ ما يَتمَنَّع على القول؛ ليصبح مسموعًا، والمُتمَنِّع المستعصي عن التصديق في حجم المعسكرات النازية، يظهر مثل حقيقة بلا مصداقية، ومن هنا لا يرى إلا حلًّا واحدًا يُحرِّض خيال ما فوق التخيل؛ أي الاشتغال على الحقيقة دائمًا وعرض امتداداتها مع بعض الصنعة، طبعا، الكتابة الأدبية وصنعتها، زخرفها إن شئنا، تظهران في النهاية هما مِهماز يقين افتراضي، ضرب من النظرية لما يشد على التنظير. تجدر الإشارة إلى أن المؤلف يسكت تمامًا عن تعيين أو إيلاء الأفضلية لجنس أدبي بذاته، علمًا بأنه يتنقل بثقافة موسوعية بين مختلف الأعلام وأمهات النصوص، شعرًا وروايةً ومسرحًا وموسيقى، وتتوالى الاستشهادات من تعددية مصادرها الأجناسية وطبقاتها المتحاورة بتناغم؛ لتسند كتابة نثرية مرسلة تبحث عن كتابتها صامتة عن النوع على سبيل النسيان الذي يُحرِّض على التذكر، ولنستحضر من جديد سؤال الكتابة، كما رسمناه، في الورقة الماضية، وتدرَّجْنا في مراقيه الصعبة، والشيء الوحيد الذي أستطيع أن أجزم به هو أن الأمر أعقد من أن تكتب الجاهز، أو تصف الواقع، أن تستدعي الأشجار أو أن تكتب قصة أو تنظم قصيدة بسبب القهر الاجتماعي أو الكبت العاطفي والجنسي أيضًا. والأمر بعد هذا أعْضَل من خلط التوابل مع بعضها وقبل هذا نَصبْنا أو سَردْنا و(للمناسبة فالسرد لعبة غاية في الجد) سأترك الأمر معلَّقًا إلى أجَل غير معلوم أو إلى أجَلِي، وأُنصتُ إلى سمبران يفتح ديوان شاعر البيرو العظيم سيزار فاليخو، ويقرأ فيه: «en suma–no poseo para expresar mi muerte والحاصل أني لا أملك غير موتي لأُعَبِّر عن حياتي.»

(٢) حمار شاغال الجميل

مسك الختام أن أروي لكم، من باب التَّسرية، حكاية أو واقعة ساذجة مرَّت بي في آخر زيارة لي للوطن. فقد دعاني صديقي الحميم المهيب عبد الجليل بحدو لمرافقته في سفرة من الدار البيضاء إلى مراكش البهية، وكان بمَعِيَّتِنا السي محمد الطلامطي، مناضل ورجل تعليم شريف. في طريق عودتنا وبالقرب من قرية سيد العايدي، في ضاحية مدينة برشيد، كنتُ ساهمًا في الحقول التي فعل بها الجفاف أفعالًا نكراء. فجأة قفزتُ من مقعدي من السيارة، ونبَّهْت رفيقي بصرخة ذاهل رأى عجبًا عجابًا: انظروا، حمار! هناك حمار! فنظرَا إليَّ مُتعجِّبَين، ولعلهما تشكَّكا لحظة في سلامة قواي العقلية، والحق أنه كان قد مضى عليَّ زمن طويل لم أرَ فيه أي دابة باستثناء أبقار النورماندي والخيول الأصيلة في دوفيل وغابة الباغاتيل. وسبق لي أن زرتُ في شهر مارس العرض الزراعي السنوي في باريس فشاهدتُ إقبال الجمهور على ملاطفة الحمار والبغل والجحش، وأحيانًا تقبيل الخرفان والأبقار، وفي مقدمتهم كبار المُرشَّحين لانتخابات الرئاسة. وكانت مناسبة لي رأيت فيها عن قرب حمارًا!

إثر عودتي حضر المهيب إلى باريس وأمضى بعض الوقت مفتتنًا بمظاهر المدنية الغربية، أولًا، ثم ببهاء فصل الربيع ثانيًا، يوم الأحد أخذته إلى امتحان الهرولة في غابة بولوني وكان قصدي أن أريه عشيقاتي، لا، لَسْنَ نساءً ولا صبايا، فتلك مجرة أخرى، ولكن الأشجار والبحيرات والحقول الخضراء. هو الأخضر بالتفاصيل، يومًا يومًا كنت أرى اللون يبزغ، ينمو، يخضَرُّ، يزدهي، يغنج، يخصب، يفيض، يلد، يتناسل، الأخضر ابن الأخضر ابن الخضراء، وتعجز اللغة أن تقول كل هذه التفاصيل، في يوم آخر أخذتُ ضيفي العزيز إلى أعظم تظاهرة تشكيلية تعرفها باريس عامَها هذا؛ أعني معرض مارك شاغال في متحف الفن المعاصر بالمدينة وتحديدًا السنوات الروسية (١٩٠٢–١٩٠٧م)، طُفنا بأرجاء المعرض البديع ساعة وزيادة، ولكن وقُوفنا طال وامتد أمام لوحة صغيرة تُمثِّل حمارًا لم أرَ أجمل منه ولا أبهى، حمارًا مصبوغًا كله بالأخضر، أخضر لا وجود له في الطبيعة مطلقًا. قِف هذا لون الخالق، لون الفنان، والفنان هو صانع الجمال، وكان جمالًا لا يُقدَّر بثمن.

٣ يونيو ١٩٩٥م

نوستالجيا الورد الفائت

(١) متكلم ضمير الغائب

بين فضاءين تَبعثَرتُ ثم شَددتُ رحالي في وجه ريح عاتية متربصة خلف باب تنتظر أول يد تفتحه كي تهب من أجل ممارسة الاقتلاع. لا يحضر ضمير المتكلم إلا لينوب عن صمتٍ تَكسَّر، يتكسر في الغياب، وعن ذات ليس قول أنا ما يُهدِّدها بالتورم، بل المنع الماحق من حقها، من حق كل واحد، في أن تسكن أغوارها وأن تطول تخومها.

بين وضعين اشتبكتُ، رأيتُ فيهما الرجل تارة مرتبكًا وأخرى منفتكًا.

في الأول منهما، أمسكَت شرطيَّةٌ حدود المطار جوازه وحملَتْ إليه نظرات فيها فضول الاستطلاع وجَرؤتْ تقول له: «لطيف حقًّا أن يكون المرء كاتبًا، وسأكون مُمتنَّة جدًّا لو أهديتني في صدفة قادمة واحدًا من كتبك، أو اذكر لي عنوانًا سأقتنيه بنفسي ...». عندئذٍ غمَره خجَل طفولي، وأكمَل الطريق نحو مصعد الطائرة وهو يُحلِّق قبل الإقلاع. في الوضع الثاني، وَقَف الرجل خلف شُبَّاك شرطي حدود المطار وقد بلغ محطة الوصول، أمسك هذا الجواز بين يديه يُقلِّبه يمينًا وشمالًا، ناقلًا نظراته بين الأوراق وبين شيء يراه بمفرده من زاويته. ربما كان يقارن بين المكتوب والمرئي، هنا وهناك. ربما كان يبحث عن شيء مُحدَّد، مستقر في ذهنه وحده، ويلتمس من عقل إلكتروني مُتْخم بالمعلومات، وثاوٍ في مكان من العالم، أن يُزوِّده به فيتأتَّى له أن يصفي الحساب مع الواقف أمامه كطالب شفاعة، وجاء سؤاله المتراوح بين الاستفهام والسذاجة وحالة من عدم الفهم، وجهه إلى الرجل الذي طال وقوفه وبات يخشى المحذور، بحكم تجارب قديمة علَّمَته أن نزول الطائرة لا يعني حقًّا أنه وصل؛ إذ عليه أن ينتظر ذلك الختم الذهبي، والنظرة المرتابة وهي تنسحب عن جسد في وضع الذوبان لِتحطَّ فوق جسد آخر سيذوب لا مَحالة على إثر النظرة ذاتها،

عيناه على الجواز وسأل: «وإذن أنت كاتِب عمومي أو خصوصي أو في شركة أو في ...؟» وكفَّ الواقف أمامه عن الاستماع إلى بقية السؤال وهو يستطيل ويَتلَوْلَب ويأخذ في مُخَيِّلته أشكالًا خرقاء من التصورات العبثية، أراد أو كاد أن يصرخ في السائل ثم لجم قراره، جلبه من لحظة صبر مُعتَّقة، فكَّر بسرعة: «أحيانًا تواجهه في كتابته شخصيات في مواقف مستعصية، تنفصم بينه وبينها كل عُرى التواصل والتفاهم، تركب رأسها بمنطق عنادِها الخاص أو مِن تَخيُّل يشبه شعاعًا بألف لون يضيء ليلَ الكون في ثانية واحدة وينطفئ، يتلو ذلك، كلام منها كالمطر في فرنسا ينهمر بلا توقُّف، يحسم الأمر بينه وبين نفسه ومع الشخصيات، ينفض يديه قائلًا: «هذه هلوسة، وكفى. وإذن، فللسائل أن يهلوس كما يشاء!»

بَيْد أن ثمة وضعًا آخر من الهلوسة لا يُحْسَم بقرار فردي أو بالرغبة في نفض اليد، وَضْع يمكن أن يأخذ أشكالًا عديدة: المُماحَكة، تَصلُّب الشرايين، القراءة بعين نصف مُغمَضة، الرقص بقدم واحدة، مُصادَرة خيال كل الكُتَّاب وتنظيمه للمرة الأخيرة في بنود واتفاقيات تبرمها الأنظمة والأحزاب فيما بينها، إنجاز دليل واحد مُوحَّد وحيد للقراءة والتفسير والتأويل والتَّلقِّي كل مَن زاغ عنه فهو هالك. ومن قبيله إعداد قاموس، في اللغة العربية مثلًا، للمفردات مُوحَّدة المعنى، مَحدودة الترادف، لا مجال فيها للتَّقلُّب و«التَّشقْلُب»، لا خيار للكُتَّاب في استعماله، يُكلَّف الأيديولوجيون والسياسيون وحدهم بإعدادها؛ لأنهم وحدهم، يملكون القدرة على فَهْم العالَم وسياسة شئونه. ثمة أشكال أخرى ممكنة ومحتملة، كلَّا لا توجد الأشكال مطلقًا وليس لأحد أن يقول إلا ما ينبغي قوله، فمن الأفضل، بل المطلوب من الكاتب أن يصمت وفي أحسن الأحوال أن يدخل سوق رأس قصته القصيرة أو روايته، أو أن يَتغنَّى مثل الأبله بشمس الأصيل. أما باقي الكلام، باقي الخطاب، باقي الأنواع، فلهذا كله وسواه رجاله القوامون به وعليه.

ولذا صَمتًا أيها الذين يحشرون أنفسهم فيما لا يعنيهم، فالأمور الكبيرة لها سادتها المؤهلون، هؤلاء لا يَستخدمون البيان والبديع، لا تدور برأسهم الهلوسات، إنهم يذهبون إلى المعنى رأسًا مثل الرصاص إلى الصدر وبه الإعلام.

(٢) صوت الغريب

كأنَّك جالس بين وقتين وقد أعددتَ حقيبتين؛ واحدة تراكمت مُحتوياتها من شِدَّة تطوافك في الأرض والتصاق تراب الاغتراب بنعليك المهترئين، وثانية راكمتَ فيها ما تريد من أحلام

لزمن على وشك الانطلاق، كأنَّك عمر ثالث بين عمرين، أوَّلُهما مُوغل في غابر المنافي وصرير المزالج تحت وقع الخُطى البعيدة لقامات شاحبة، وثانيهما سماء مُرَّصعة بنجمة الأماني، جَنَباتها مُرجَّعة فيها أصداء هتاف المُرحِّبين يعبرون معك داخل النفق من نهاية الطُّرق إلى أول الطريق. كأنك في وضعك بين الحقيبتين والعُمْرين واقف قُبالة مرآة فتذهل لما ترى: وجه يدخل وآخَر يخرج، فأيُّ الوجهين لك؟ وإلى أيهما تنتسب وهما معًا لك؟ إن تَنكَّرت لأحدهما أو عِفْته موثرًا عليه جاذبية توءمه تَكسَّرت المرآة شظايا طالت جسدك من حافَّاتها الجراح، وإن أنت أنستَ الملامح، وحدَّقت عميقًا في الزجاج الصقيل بانت لك التجاعيد أخدودية، وخطوط الحلم متقاطعة مع خطوط الوهم، لا هذا ولا ذلك يجديك، لكنك لا تيأس ولا تستسلم لأذرع التنين في زحام المفترسين، المُتطلِّعين الباحثين لا عن وجهك، وإنما عن وجه يريدون أن يضعوه على سحنتك بين الوجهين، لكنك تُشرِق فيحفظ الضياء صورتك لك، باقية وتبقى، وتمشي في أول الطُّرق واثق الخطوة مُتلفِّعًا، كما ينبغي لك، بغبار الأيام، لا الشظايا تنالُ منك رغم عذابات الجراح، ولا صَقيع الغربة في سحيق المنفى، غامض، شُقَّ طريقك وامضِ رَغم زِحام المفترسين، طالعًا من أعطاف العاشقين لِعشقنا يُوحِّدنا لا نشرك به، فنحن من المؤمنين اليوم، وغدًا، أبدًا.

ما الوجه إلا صوت، الشكل نبرة، الكناية بحة، والبلاغة كلُّها مُلاحِقة الجرح النازف في خفاء أسراره، فاتركوا لي، لنا بَقِيَّة من وجه، ومن دم الجسد والفؤاد، هذا صوتي، صوت الغريب، فاذكروا غرباءكم بخير.

١٠ يونيو ١٩٩٥م

خلل في الحاسوب ليس إلَّا ...

(١) «فوضى لا تُطاق»

لم يُصَدِّق السادة العرب الكرام ما حاولتُ أن أشرحه لهم بكلمات بسيطة، عارية من كل زخرف، وصاعقة من شدة وضوحها، ما صدقوني، وهدَّدوني؛ أعني هدَّدوا فرنسا بأن يُغادروها فورًا لينزلوا في أرض أطيب وأرحب يَقْضُون فيها فسحة الصيف، بعيدًا عن حرارة الجو وحرارة السياسة وحرارة كل هذه الفوضى.

أجَل، فهي الفوضى في نظَر السادة العرب الكبار، القادِمين، من أول الصيف إلى باريس، مُدجَّجين بالصكوك البنكية وبطاقات الاعتماد وأنواع شتَّى من العملات، راغبين في الاستجمام ونِسيان بعض ما لا يَعرفون أو لم يسمعوا به من هموم الأيام، أوَليست الفوضى بعينها أن يجلس رئيس وزراء فرنسا أمام مذيع النشرة المسائية لقناة تلفزيونية مثل ولد أو تلميذ مُذنِب يستمع إلى الغمز واللمز، وتنهال عليه المَلامة والتقريع، وكأنه «صرط» ميزانية الدولة في لقمة واحدة، أو زَوَّر نتائج الانتخابات الرئاسية بقدرة سحرية، ليستقر رفيق دربه وحزبه في الإليزيه، ويجلس هو من دون الآخرين رَخِيَّ البال في قصر ماتينيون؟ قال الإخوة العرب: نحن ما صدَّقْنا إذ رأيناه في تلك الحالة، وجهه شاحب ونبرات صوته مضطربة، تخشى أن يَذرِف دموعًا حقيقية لا دموع التماسيح، ونحن نعرف الرجل على رباطة جأش وقوة عزيمة، شديد البأس، ماكرًا ودبلوماسيًّا محنكًا، فإذا به أمام مذيع قناة تلفزيونية على وداعة لا مزيد عليها، يخرج الأوراق ويعلن الأرقام كمَن يدفع عنه أكبر جريمة اقترفها آدمي على وجه الأرض، فما فَهِمْنا شيئًا، وقدَّرْنا، على كل حال أن أمرًا جللًا حدَث أو سيحدث في هذه آل «فرنسا» فقُلنا نسأل أولًا قبل أن نَتَّخذ قرارنا، فلا مقام لنا في بلد قد تعصف به القلاقل.

أجَبتُهم بحذر وكياسة، فَهُم ضيوفي، بألَّا عواصف ولا قلاقل هنا، الآن أو غدًا، وكل ما هنالك سوء تفاهُم بين الشعب أو الرأي العام والحكومة. وهو سوء تفاهُم ما كان ينبغي أن يطرأ في مطلع العطلة الصيفية، والمواطنون يُحبُّون الاسمرار في الشواطئ، والوزراء يَتمنَّون، أيضًا، قضاء أسبوع أو أسبوعين في العام بعيدًا عن «استفزاز» الشعب ونفير الصحافة و«صداع» النقابات والإضرابات.

لكن ماذا تريدون، فالأمور هنا تحدث هكذا، لا أحد يتحكم في توقيتها، خاصَّة وأن الفرنسيين معروفون بمزاجيتهم وميلهم إلى اللَّغَط وجعل الحبة قبة، ولله في خلقه شئون، ثم إن الجرائد في الصيف تخشى من خسارة قُرَّائها والعكوف على استهلاك المرطِّبات والمبرِّدات عِوَض اقتناء الصحيفة، فيعمد رؤساء التحرير، بالاتفاق مع بعض المُخبِرِين والتواطؤ مع مَن لهم مصلحة مُعيَّنة في زعزعة الأمن والاستقرار، إلى تفجير قضايا وهمية وافتعال فضائح، إن صح التعبير، فتقوم القيامة مؤقتًا لا غير، بما يعود بالمال الوفير على تلك الجرائد وإن كانت الحكومة تؤدِّي الثمن غاليًا، بل إن الشوكة تقف في حلق الوزير الأول نفسه، تَرَونه يسقط في الفخ مُترنِّحًا لا أحد يلقي إليه حَبْل النجاة ورئيسُه ساهٍ عنه في أمور الدنيا الكبيرة.

هو سوء تفاهم، مجلبة للضَّحك والرثاء ما دامت القضية كلها — إن جاز لنا تسميتها قضية — أن السيد ألان جوبي المسكين يُؤجِّر منذ سنوات شقة حيث يقطن في باريس، مساحتها مائة وثمانون مترًا مربَّعًا، ويدفع إيجارها شهريًّا أربعة عشر ألف فرنك فرنسي، وكان قد تَسلَّم الشقة بعد أن قامت بلدية باريس بأعمال ترميم بلغتْ مليون فرنك، باعتبارها صاحبة المِلك نظير ما تقوم به مع جميع المستأجرين. لكن، وكما تُلاحِظون يا إخوة، يا كرام، فإن بعض من «في قلوبهم مرض» أشعلوا الفتنة مُستنكِرين كيف يدفع جوبي ذلك المبلغ فقط، لشقة بتلك المساحة في حي يزعمون أنه عريق، مستكثرين تكاليف الترميم، وأُحب أن أذكر لكم شيئًا آخر لا أقلَّ إثارة للضحك من سابقه، فمن مؤاخذات المغرضين، إقدام المَعنِي بالأمر، أيام كان مسئولًا للجنة بالمالية للبلدية وعمدة في ترابها، أن خفض إيجار بيت يشغله أحد أبنائه بدعوى أن هذا المِلك العام الذي تبلغ مساحته ثمانين مترًا مربَّعًا لا يستحق أكثر من أربعة آلاف فرنك. وهي في نظرهم فعلة نكراء، مُتناسِين عمدًا، وبسبق إصرار، أن القدر كان للرجل بالمرصاد إذ لم يُوفَّق في زيجته الأولى، فاضطر أن يلجأ لأبغض الحلال عند الله طالبًا الستر في زواج جديد، ما دفعه كأب مسئول أن يحمي ابنه من التَّشرُّد ويعثر له على سكن ملائم.

أراكم تعجبون ... إنما العجب حقًّا ألَّا يملك السيد ألان جوبي غرفة واحدة في باريس القُرِّ والحَرِّ، وهو خريج كبريات المعاهد الفرنسية، المتقلب منذ سنوات في مناصب الدولة الرفيعة، استُوزِر في كرسي الميزانية، أقول لكم ميزانية فرنسا كلها، وفي كرسي الخارجية، وكانت عينه على الشئون المالية لبلدية باريس الكبرى، واليوم، كما تعلمون، هو الوزير الأول، وعمدة مدينة بوردو، الأمين العام لحزب التجمع من أجل الجمهورية الذي فاز زعيمه بكرسي قصر الإليزيه.

نظر السادة العرب الكرام إليَّ وإلى بعضهم البعض في ذهول، وسمعت أحدهم لا أعرف إن كان يضحك أو كان يبكي، أو هو بينهما: كع، كع، كع، هق، هق، هق – كع، هق، هق، كع ...

قال آخَر: لا حول ولا قوة إلا بالله، زفر ثالث: لا، هذه فوضى لا تُطاق، أرعد رابع: هل هذا ما يُسمُّونه الديمقراطية؟!

وأزبد آخَر: رئيس وزراء، ويسكن في شقة، ويدفع إيجارها، ثم يجلس أمام مذيع «مصبوغ الوجه» يقاضيه كمجرم، والله عشنا وشفنا! يا جماعة، نتوكل، لا مقام لنا في هذه الأرض!

حاولتُ أن أثنيهم عن قرارهم مُتعلِّلًا بأن الفرنسيين، كما ذكرت، أصحاب «مزاج» في هذه الأمور، وعلى كل حال فنحن «شو خصنا» بهم، فلهم ثقافتهم وتقاليدهم، ولنا، ولحسن الحظ، ثقافة وتقاليد مغايرة، وإن كنا من أسف نلاحظ بيننا هذه الأيام مَن يكثر التعامل مع الأفكار المستوردة، مُغلِّبًا كفة المُعاصَرة على كفة الأصالة، وأنَّى له ذلك، أليس كذلك؟! وبينما القوم قرَّ عزْمُهم على الرحيل حيث لا أدري، نطق كبيرهم الذي ظل طيلة الوقت قاطنًا في دهشته، استفسر بنبرة من لا يريد أن تفوته معرفة: قرأتُ في جريدة «المياه» خبرًا ما صدقته ... بالله قل لي: هل صحيح أن وزير الصح والعمل في هذه الأرض «النصرانية» هُزِم في الانتخابات البلدية؟ أجبتُ: فعلًا، فالرجل رشح نفسه عمدة لإحدى الدوائر العشرين في باريس ... لم يدرك أنه جوبي، استدركتُ وفي نفسي خشية أن يُغمَى على الرجل الكبير ونصل إلى سين وجيم: هو، يعني، لا، الحقيقة شيء آخَر، يعني حصل في البداية خطأ في الحساب، خلَل في الحاسوب، هو «إنما عن سهو»، ثم والحمد لله عادَت الأمور إلى نصابها، وأظن أن الجريدة اعتذَرتْ وفصلوا المُحرِّر، وعادت الأمور إلى نصابها.

(٢) شمس يوليو الغواية

العربي الآخَر الذي قابلتُ كان متوتِّر الأعصاب، عَكِر المزاج لسبب شديد الاختلاف. لم يكن يعنيه في شيء أمر الوزراء، صغارًا وكبارًا، ولا مأزقهم أو فضائحهم. وقضايا الشقق المؤجَّرة أيضًا خلف ظهره؛ فقد شبع من هذه المهازل في بلاده وجاء هنا ليملأ عينيه بصور ورموز جديدة يشحن بها قصائده القادمة، بعد أن استنفد كل الرموز والأساطير والتجليات والمَقامات والقداسات، من سائر الحضارات والثقافات. لاحظتُ، في البداية ونحن نبعثر الخطى في بعض الشوارع الباريسية أن عينيه تخرجان من محجريهما، فتتوقفان عند الكائن والشيء والسائل واللزج، تبحلقان. وظننتهما، أحيانًا، تلحسان الأرض مَن وما عليها لحسًا، وعنَّ لي أن أُنبِّه صاحبي إلى فداحة الإفراط في اللَّحس؛ فإنه لا تُحْمَد عقباه، فوجدتُه سها عن رفقتي مشدودًا إلى أذرُع وسيقان وخصور عارية، وإلى صدور منتفضة كلها عابرة، رشيقة كما في عرض الأزياء، ساهية عنه كظباء شاردة، وعاد إلى رشده فجأة ليسألني: وهل عندكم من هذا طول العام؟ سألتُ: ماذا تعني بهذا؟ أشار حيث أشار: ه … ذا!

أردتُ أن أمازحه فأحيله إلى مصالح البلدية للاختصاص، ولكني أشفقتُ عليه، وخاصَّةً على «تجربته» الشعرية القادمة، وهي في لعاب بين شفتيه أمامي، فأفهمتُه بأن الشمس تفعل الفعائل ببني آدم في بلاد الشمال كما لها فعائلها التي تُعْرَف في بلاد الجنوب، أظنه سها عني ثانية، مأخوذًا بوضع فتاة وشاب ضَمَّتْهما قُبلة أبدية تحت شمس يوليو الغواية، وعَدانا لم يكن أحد يحفل بهما. وكَمَنْ عثر على الحقيقة الضائعة جلجل صوته: وجدْتُها، حين سأعود إلى هناك سأسلخ جلد كل الشعراء الذين يُزيِّنون عاهاتهم الشِّعرية بالحديث عن الجسد، سأقول لهم: إن الجسد ليس مفرَدات في القاموس، واستعارة مُستحلَبة من كَبْت اليقظة، سأقول لهم: «إن رؤيتي الحياتية، وتجربتي الشعرية تملي عليَّ أن …!»

١٣ / ٧ / ١٩٩٥م

ملح على بشرتنا

(١) «وتوه توه أعباس»

كأن ثَمَّة لعنة تلاحق المُهاجِر حيثما حلَّ وارتحل، لا بل هي قدَر له بالمرصاد يسير خطوة، خطوة، منذ أن يُضْطر إلى الهجرة، ولا أقول يختارها، مثلما لا أستطيع الجزم بأن الظاعنين في ديارهم يملكون حرية الاختيار في مَقام نعرف جميعًا أنهم باتوا يُؤْثِرون عليه المجهول الشَّرِس، كأن تَفترِسهم الدلافين أو يَقْتات منهم البحر.

حين يتصور المهاجر — وليكن المغربي مثالًا له هنا — أنه انعتق مؤقتًا من قدَر العوز والامتهان لكرامته، وحطَّ رحاله بديار تَغلِب عليها سُمعةُ احترام الحقوق المعنوية، وإيلاء الاعتبار لكرامة الفرد، وعدم ابتذال ذوقه أو الاستخفاف بعقله، حين يرقى سُلَّم هذا «الوهم» سرعان ما نراه يَتعثَّر نزولًا في درجاته لِتتكسَّر عِظامه من جديد، على أرض الواقع نفسه الذي توهَّم أنه أمسى قارَّة متروكة وراءه، هو لا ينساها بتاتًا، ولكنه يرغب، على الأقل، في أن يتعافى من أمراضها ومهاناتها لبضعة شهور في السنة فقط، قبل أن يشتعل فيه الحنين كالنار إلى الوالدة والوالد، والدراري والدرب، وكل تلك الأشياء الأخرى التي لا يجدها في «بلاد النصارى» ولا يعرف حقًّا كيف؟ ولا لماذا تواصل سكنى عينيه وروحه؟ هو الذي مَنَّى نفسه وسعى ليُوطِّنها على الانخراط في عالَم جديد ذي ثقافة وعقلية ونمط عيش، ما أشدَّ اختلافه عمَّا عاش وعرَف قبل أن يعبر المضيق، وحين يلتفت إلى الخلف تكون طنجة «العالية» قد أصبحت أثرًا بعد عين، أو هكذا يَتخيَّل المسكين!

إنما هل عبَر حقًّا؟ ما الذي عبر فيه؟ وهل العبور الحقيقي الكامل مسموح به؟ هو لا يملك من الوقت ولا سعة الصدر ما يعطيه فسحة لتدافع مثل هذه الأسئلة والتَّصدِّي لها إما بالتأمل أو المواجهة، وماذا لو تجاهلها فهو جاء للكسب، سعيًا من أجل رزق لم

يُوفِّره له وطنه، وطنه هناك خلف البحر، وليس لتطارح الأفكار ومساءلة ذات لم يتحقق أبدًا من هويتها، لم يسمح له الحرمانُ يومًا بفحص ما تحمله من مشاعر، من أحزان، ما عدا شعور الحرمان نشبت فيه مخالبه جارحة، وأنه هنا في هذا التهجير، لا الهجرة — فالهجرة الحقيقية اختيار، قرار حُر، طليق من كل عسف أو قيود — يحاول بالكرامة الأولى التي يتعلم أبجديتها أن يضمد الجروح عساها تلتئم وعساه أن يصبح إنسانًا.

لكن، كيف السبيل إلى ذلك، والفاعلون يلاحقونه بأشكالهم، صورهم، وسماجتهم، يصرون على نفي الصفة الإنسانية عنه، وحصر وجوده كله في حدود البضاعة، ولا شك أنها عدوى البلاد التي تنازَل عنها بلا شروط فيما تَتشبَّث خزينتها بجرابه وعَد روحه نقدًا في حساب العجز أو الفائض التجاري. لقد هجمَت الرأسمالية «الوطنية» والمركنتلية على مَغاربة الخارج، وبدأت تنتشر انتشار الزلط في المغرب، في المدن الفرنسية، حيث الكثافة السكانية من العمال المهاجرين، والتنافس داخل هذه الترسانة على أشده في تقديم العروض والتسهيلات ونِسَب الأرباح، والتلويح بنعيم ولا كَنعيم الجِنان لكل الذين سيُبادرون للاشتراك في معاملات المؤسَّسات المالية والعقارية المغربية، الحريصة على مصالح الجالية المغربية في الخارج (كذا، طز) انظر مثلًا هذا البنك يذيع إعلانًا على العمال المقهورين يخبر ويشهد فيه، بأن تحويلاتهم من الخارج إلى الوطن العزيز مضمونة في أجَلٍ لا يتعدَّى أربعًا وعشرين ساعة. وطبعًا فالمقصود والصواب لا يقل عن أربع وعشرين يومًا، إذا لم يتدرَّج إلى خانة الشهور.

في البداية، يُستَقْبَل الوافد إليهم ببشاشة وترحيب، على الرأس والعين، لكن ما إن تستقر الحصيصة في الصندوق ينقبض وجه الموظف البنكي إن عدتَ إليه لاستفسار أو استشارة، ولا يخفي أقطاب المؤسَّسة تأفُّفَهم من هؤلاء Les Immigrés الذين لا يوقفون صداعهم جيئةً وذهابًا وهم يسألون عن مصير «جوج فرنك»، هؤلاء الذين لا «يفرقون بين الألف والزرواطة!» ولو جئنا إلى باب الكذب الصراح لرأينا عجبًا، فهناك صنف المؤسَّسات التي تعرض عليك تمويل مشاريع «عظيمة» تعود عليك بالخير العميم لقاء ثقة من جانبك بوضع كل ما ادَّخَرْتَه في سنوات الغربة وفناء الجسد، فإن أنت صدَّقْتَ ووضعتَ مالك، تطير البركة وتتبَخَّر المشاريع الوهمية أو المُصطنَعة؛ إذ العِبْرة من قبلُ ومن بعدُ هي: هات فلوسك يا مُهاجِر هات! دعكَ من الذين يعرضون عليك أخصب الأراضي وأفخم الشقق بمبالغ «زهيدة جدًّا» ويا سيدي ومولاي ستصبح من كبار المُلَّاك، ثم إذا وصلت إلى ما يُسمَّى «عين المكان» ستجد تلالًا من التراب والأرض البور أو جحورًا وأبنية معزولة في

أصقاع نائية. حذارِ أن تندم أو تحتج عندئذٍ، سيقف في وجهك مَن يصهل: «البيع والشراء هو هذا، وأنتم المهاجرين سخن لكم الرأس!» أجل سخن رأسك أيها المهاجِر وضَربَتْك الحُمَّى فأَضعتَ رُشدك وحملت مالك إلى «بشر» هَمُّهم كان وما يزال أن يتاجروا في لحمك، ولن تفلت من قبضتهم أقمتَ أم هاجرتَ، عَبَرتَ أو لم تَعبر.

والآن، تعالوا إلى الهزء، إلى الاستخفاف بالعقول وتحجيم البشر إلى أنصاف آدميين، أنصاف بهائم، إلى ضرب من الاستقراد أو القردنة يمارسها من وجدوا في المهاجر ضالة جديدة لترويج بضائعهم وغصبه كبضاعة. لست مختصًّا ولا عارفًا ببواطن وألاعيب فَن دراسة السوق، ولا بمادَّة الإشهار، ولو كنتُ فضوليًّا، شأن كثير يحشرون أنفهم في كل علم وفن، لما تردَّدت في إعداد أطروحة مادتها وعنوانها «صورة المهاجر المغربي في الإعلان التجاري بالخارج»، لا أستبعد أن فنانًا قديرًا مثل محمد قاوتي يستطيع أن يَستَلْهِم منها مسرحية ناجحة أخرى.

الإعلان الذي أقصد هو ما يعده المغاربة في الداخل لـ «أشقائهم» في الخارج، وفي باريس، على سبيل المثال لا الحصر، يبث في الإذاعتين الوحيدتين المُوجَّهتَين للجالية العربية. أنت يا صديقي عبد السلام فرجي جالس في صالونك بممر سوميكا، بشارع محمد الخامس، وجهاز الراديو المُدوِّي عندك لا يلتقط «إذاعة الشرق» في باريس. من برامج هذه المحطة إعلانات تجارية عن البيض والدجاج والمرغاز واللحم الحلال والمطاعم العربية كافة إلخ ... تليها «إذاعة الشمس» المُوجَّهة للجالية المغاربية خاصة، وهي بدورها، لا تقصر في الترويج للبقر والغنم والطير الحلال ... المهم يا عبد السلام أنك أنت المغربي، الوزاني أصالة، لو سمعت عبارات إعلان واحد موجَّه إلى المغاربة لانزلقَتِ الموسى من بين أصبعك فأدميتَ عُنق زبونك بدل أن تحلق ذقنه، ولهرولتَ إلى الشارع صارخًا كالمجدوب: اللهم إن هذا منكر! فما الخبر؟ تسمع إعلانًا يُروِّج للعبور البحري إلى المغرب بأرخص الأثمان وتهز طبلة أذنك هذه الأصوات: «واه، واه ... وتوه توه أعباس ... واه، واه، وطنجة يالعالية ... أجري واجري، قطع لبلاصة، واع، واع، وتوه توه أعباس، اشحال، قيد النمرة، كاترفان، المغرب الرخا لله، واه، واع ...» ثم تسمع إعلانًا آخَر عن حي سكني في بن جرير أو سبت النمة يتنافس في تذييعه ثلة من جهابذة الدارجات المغربية، هاك (الفاسي)، وهاك (العروبي)، وهاك (السوسي)، و (الجبلي) و(البهجوي)، كل منهم يتقعر، يرطن ويمطمط: «أه، إيوا آه، لخصص والزليج، المعتبغ، واش بيتي نعم أسيدي، هادو هما الديور، كي السمن عما لعسل ... أشوف أخاي، إذا شفتي الدروج في المصرية، اعرف كاين لعسل في النمل».

نشرة أخبار موجزة ثم طيخ طاخ، امرأة مغربية تصرخ في زوجها: أقصد تحدثه بأدب جم: «ويلي، ويلي أعباد الله، أنا عيت من هذا الصالون الرومي، المغرب هو السدادر ... واخويا العربي، زيد قدامي نشريوهم في باربيس ولا لفراق دابا.» وهذا يا عبد السلام غَيْض من فَيْض؛ لأني أخشى إن سردتُ عليك ما هو أغربُ أن أُعرِّض آدميتي للتَّلف، والحق أني في حاجة إلى أن أكون إلى جانبه لأُجرِّب تقليد تلك الأصوات التي تمسخ المهاجرين أو تعتبرهم فصيلة نِصْف آدمية، نِصْف بهائمية، يزعقون، يتناهشون، يَعْوُون أو ينهقون، وللعِلْم فإذاعة الشرق ليست مسئولة عن هذا السيرة؛ فهي تتلقَّى أشرطة مُسجَّلة من لَدُن متعاملين مغاربة وتذيعها إعلانات تجارية؛ ولهذا السبب سألني أكثر من صديق مَشْرقي داخل الإذاعة وخارجها مستغربًا: «ما هذه الأصوات العجيبة؟ بأي لغة يتحدث هؤلاء الناس؟ نحن نعرف المغاربة، هم مثل كل البشر، لكن هؤلاء ...!» فأحاول إقناعهم بعكس ما يظنون، أحاول فقط، بصوت هادئ، وعامية مغربية مرسَلة فيفهمون كلامي ويقتنعون ثم ما يلبث الأمر أن يختلط عليهم، حين يستمعون بعد ذلك إلى المحطة إياها وتقرع آذانهم أصوات وخطاب المهاجرين، كما يريده لهم الذين يتاجرون في لحومهم، الذين هَجَّروهم من ديارهم ويُلاحقونهم بإلصاق صور الهزل على حياتهم وألسنتهم، ماحقين آدميتهم وحقهم في النُّضْج والرقي. «وتو، وتوه أعباس».

(٢) عيادة الحاج مامبا

للأفارقة بدورهم حظهم من هذه الطبخة، وهو حظ وافر، قياسًا بعدد المهاجرين منهم وتجمعاتهم السكنية، وتنوُّع ثقافاتهم وأنواع تقاليدهم ومعتقداتهم، وللمركز الحقيقي الذي يمثلونه في موقع الصراع التاريخي بين الجنوب والشمال، وبالعكس عمليًّا لا يعيش الإفريقي المهاجر إلا ظاهريًّا في فرنسا. هو أشبه بالمَنْفِي منه بالمقيم، وكل ما يحيط به في المجال المدني الفرنسي، يصعد الإحساس بالمَنْفِي ويبلغ به ذراه العليا، وهكذا، فإنها ليست ذاته وحدها ما يَنسحق، بل كل وشيجة ممكنة لربط علاقات طبيعية حيث اضطر للعيش، وتزيد عقدة اللون بين طرفي العلاقة هذه الحالة توترًا، ولذلك وباستثناء الممارسات العملية من شغل ومُعامَلات تقنية وتَنقُّل وما إليه، يعود أو يلوذ الإفريقي المهاجر بمجتمعه الأصلي إلى «الغيتو» الاضطراري، فالغرب الذي فرض فضاء الغيتو في البداية على اليهود هو نفسه الذي يواصل، رغم كل شعاراته، فرض فضاءات مماثلة على مَن يعتبرهم بشرًا من الدرجة الدنيا. وأنا لا أُسمِّي ما يتأسَّس بموازاة المدينة الغربية، حيث يقطن المهاجر

الإفريقي أو غيره، هامشًا، بل هو سياق مجتمَعي له قوانينه الصريحة وأعرافه، وتَسُوده بالكامل علاقات وطقوس المجتمع الأصلي الذي قَدم منه أبناء القارة السمراء.

فأنت، إن كنت في حي أو حارة بالدائرة التاسعة عشرة أو العشرين في باريس، مثلًا، فكأنك في إحدى الحارات الشعبية بمدينة دكار أو باماكو. في هاتين المدينتين، شأن عديد من المدن الأفريقية، يوجد الآلاف من العاطلِين، والمُحبَطين، والطُّموحين، والعاشقين، والمَخذولِين في حبهم، والنساء العاقرات، واللواتي هن على خلاف مع أزواجهن أو ضُرَّاتهن. وعندك بين هذا الحشد الطلاب الراغبون في الفوز بالشهادة أو قلب المحبوبة أو العثور على وظيف ممتاز أو ما شاكل هذه العينات البشرية مجتمعة تبحث عن حلول لمشاكلها الحقيقية أو الوهمية، والحلول مبذولة، متيسرة، إذا هي قصدت Le Marabout شيخ الطريقة أو الشيخ الذي لا بُدَّ أن يكون قد أدَّى فريضة الحج.

هذه العينات نفسها هي في الدائرتين المذكورتين بباريس وتعاني الهموم ذاتها أعلاه، والإعلانات التجارية تهديها سواء السبيل، مرشدة كل باحث عن حل عاجل وفعَّال لمشكلته بأن يقصد «الحاج مامبا» فهذا الشيخ الذي أطلعني على سيرته الكناس الحالي بشارعنا يفعل العجب العجاب: يُزوِّج، يُطلِّق، ينهي الجفاء، يجلب المحبوبة، يفتح فرصة العمل، يَسحَر ربَّ العمل فيزيد في الراتب، يَشفي العاقر فتحمل في يومين، ييسر الربح في لعبة اللوطو، يشفي من جميع الأمراض، يُحوِّل الدكتوراه الوطنية إلى دكتوراه دولة(!) لكم أن تتخيلوا ما شئتم من مصاعب وأزمات فحلُّها محسوم عند الحاج مامبا، والحق ألَّا خيار له وإلا فالحاج سكابا منافسه الخطير بالمرصاد، إن هو لم يعثر على الحل السحري والناجع. وأستدرك فأقول بأن هذين الشيخين السينغاليين قادران، أيضًا، على تدبير أمر المقاعد البرلمانية والحقائب الوزارية، وكل ذلك بأسعار زهيدة.

والحاصل أنك فَلَتَّ بجلدك أيها الحلَّاق الوزَّاني، جئت في سنة بعيدة الآن إلى باريس تنشد البقاء والرخاء، فلطَف الله بك وأعادك إلى بلادك، وهي خير لك بمرها وضنكها من مقام الهجرة وأنفاق الغربة. وصدقني لو بقيت هنا، لتاجروا في لحمك وسمسروا أحلامك وحولوك إلى بضاعة تنهب أو تركل، ولوجدت نفسك واقفا في طابور الأفارقة أمام «عيادة» الحاج مامبا ليجد لك حلًّا لورطة الهجرة، رغم أنه ملح واحد على بشرتنا، مدبوغ على جلدنا، مقيمين أو مهاجرين، ورد الله غربة المغتربين ليفلتوا من قبضة التجار والدجالين.

باريس في ٢٠/٧/١٩٩٥م

النهر لا يكفي لأشواقنا

(١) محاولة فرح

سعدتُ كثيرًا هذا الأسبوع برسالة وصلتني من قارئ محايد — هكذا ينعت نفسه — مقيم بالضاحية الباريسية، وتسلَّم عنواني من صديق قديم بَقِيَت تجمعني به قرابةُ الكتابة. بعد التحية والتمنيات يخبرني المرسِل أنه مواظب، ما وسِعَه الوقت والجهد، على قراءة الصحف المغربية العربية، و«الاتحاد الاشتراكي»، تحديدًا، يلاحق فيها — على حد تعبيره — صدى أيام خالية، ومتمنِّيًا أيامًا أطيب في الأزمنة الآتية، ومشكلته مع صحيفتنا أنها ذات سحنة غاضبة وتجاعيد كثيفة، يُقلِّب صفحاتها مرارًا، طولًا وعرضًا، من البداية إلى النهاية فلا يجد إلا الجأر بالشكوى والصراخ، والعويل، والدنيا كلها قاتمة. المواطنون تتلاطم بهم أمواج القهر والأحزان، والمُحرِّرون والكُتَّاب أقلامهم مغموسة في حِبر الظلمات، والعناوين تستفز قارئها بالشر المستطير ودُنوِّ أجَل الطوفان، فإن أنت فكَّرتَ في قضاء العطلة بين أهلك في ربوع وطنك فإنك لا محالة ستحسب لهذا الحنين ألف حساب، وغير مُستبعَد إن وقعَت في يدك هذه الصحيفة المغربية أو تلك وقت الاستعداد للرحيل أن ترجئ الأمر إلى عام أو أعوام أخرى حين يفتح الله على البلاد ببعض الأضواء السَّنِية. ومُراسِلي لا يُهوِّن في شيء مصاعب وطنه، ويُقدِّر لصحافتنا حِرصَها على تنوير القراء والدفاع عن مصالح المواطنين والتَّنديد بأشكال الظلم والفساد كافَّة. لكني أراه يتساءل: أليس من حق القارئ أن يلمح خيط أمل بارق، هنا أو هناك، وليكن سرابًا؟ أوَليس من حقه، وفي أحلك الظروف، أن يتفاءل خاصَّة وأن المجتمع الذي يعيش فيه ينجح في الانتصار على نكده رغم كل أهواله؟ وما المانع في أن نبعث في الناس بعض مشاعر الفرح، فهو حق إنساني، وأن نجعل من الدفاع عن حقوقهم الأولية نفسها فكرة فَرَح لا حالة قنوط ويأس؟

وتكاثرت أسئلة مخاطبي وتعدَّد استغرابه مُنزِّهًا نفسه فيما يذهب إليه عن كل بطر أو جهل بحقائق الواقع (كذا)، مُتشبِّثًا بمبدأ أن الواقع هو ما نصنعه بأيدينا وما نريده وليس بالضرورة ما يفرضه علينا الآخَرون مهما أُوتوا من أدوات العسف والتقييد.

وقد أربكتني هذه الأقوال كلها، ووضعتني في حيرة بين إعادة مساءلتها أو الاكتفاء بالإنصات إليها بما هي خطاب حقيقي، مشروع وبريء. وحسمتُ أمري أخيرًا بموالاة الموقف الأخير شَجَّعني على الالتزام به؛ أولًا: تسامُح مطلوب منِّي، فأنا لا أستثني نفسي من جمهرة الذين يرسمون للدنيا وجهًا عبوسًا قمطريرًا، وثانيًا: اللطف الشديد لمراسلي الذي أرفقَ رسالته ببطاقة مستقلة على وجهها صورة بحر شاسع وأزرق، وعلى ظهرها كتَب هذه العبارات: «أنظر إلى البحر عميقًا ... أنا وإيَّاك نعيش بعيدًا عنه، والنهر لا يكفي لأشواقنا ... لنفرح، إذن، بصورة البحر في انتظار أن نلقاه.» ولذا سعدتُ وسأحاول أن ... أفرح.

(٢) شُرطة لحماية الحب

الصيف هنا سعادة، حاوِل أن تقتنع بهذا وإلا وجدت نفسك أشد انفرادًا من أي وقت مضى. وعلى كلٍّ فلا أحد يبالي باقتناعك؛ لأن الفصل الآتي قادم لا محالة، ولن يرحم ذوي الأرواح الشاردة، أو الذين قرروا، لأسباب لا تعني أحدًا البتة، الدوران في الزوبعة. والفصل له شكل جسد مُتدلِّه بافتتان في طقوس عباد وثنية، كلما لفحه القيظ زاد اشتعالًا بشهوية نارية، كل لغات الأرض لا تقولها وتقاطع عين ساهية مع التفاتة نحر كافية لتحترق فيها كل الأبجديات وتبقى هي العابدة والمعبود.

الفصل له لون مهرجانات وغابات جَلبتْ إليها البحر بأسماكه وجِنِّيَّاته وقِيانه وولدانه، ونصبت الموائد تأتيها أشجارها حاملة ثمارها ودِنانها والأخضر فيها أوراقه، عشبه، وَشْيه وزنبقه وصولًا إلى قمم الجبال حيث السنديانة أو الأَرْزة أغصانها ضراعة، وانتصاب أشجارها أسوار من خرير وعقيق تجرس تولد وتستشهد في الماء. لو تَوقفت هنا لهاجمتني أصوات عشرات الآلاف من الشباب صارخين، مستنكرين، كأني لذعتُهم في عبادة فحولتهم: لا، هذا لا يكفي، الشكل واللون لا يكفيان، نحن منهما ونفيض عنهما. أوَنسيت الموسيقى، الموسيقى؟! أدرك أن ليس من حقي أن أنسى شيئًا في حضرة الشباب، وإن فعلتُ فما ذلك إلا للتَّستُّر على تسلُّي بينهم ذات ليلة، وذات ليلة أخرى وخشية أن أُضْبَط مُتلبِّسًا بـ «جرم» مُلاحقَة الزمن الهارب إلى الخلف. ثم إني أخاف عليهم من ذلك

العقد الستيني اللاهب كما عاشَه فِتيان أمسَوا اليوم كهولًا، وأرى الفتيان المُؤَقّتِين حالًا يَهبُّون بالآلاف نحو مَعبده لا يملكون إلا جنون أجسادهم قربانًا، خُذْنا، إليكنا، ها نحن جئناك من كل الآفاق جالبيننا حطبًا وسعيرًا، فاجعل ما مضى وما هو آتٍ ينضرم فينا في لحظة هي مُطلَق ما لا يفنى.

والحقيقة أن ما حدث أغنى من أن يُحْصَر وأعزُّ من أن يوصف. فذات عشية سمراء، شهباء، شقراء، وطبعًا دومًا خضراء، كانت آلاف الأشجار الفتية قد تداغلت في غابة بولوني قاصدة مداها حيث ينتشر ملعب الخيل الشهير Longchamp. هنا الموعد مع أكبر قُدَّاس موسيقي لم تعرفه فرنسا منذ سنوات. هنا، قُبالة منصَّات الملعب المبنية نُصِبت منصَّات ضخمة من بنيات حديدية وفي القلب بينهما نُصِبت المنصة المركزية تعلوها شاشة هائلة ستعكس قامات فرسان الموسيقى أصواتهم محمولة من مكبرات صوت جبَّارة بأشكال المحطات الفضائية. في ظهيرة ذلك اليوم من يونيو الفائت رنَّ جرس الباب، ولم أكن أنتظر أحدًا سوى حبيبة ضاعت منِّي بين «روشة» بيروت وأطلال بعلبك، حين فَتحْتُ وجدته الفتى فليكس، جاري الذي يقلب الدنيا بعزفه على القيتار الكهربائي والطبول والسكسوفون، بادرني: هل تعرف؟ عندي لك مفاجأة، لقد حصلت على بطاقة إضافية لحفل فرقة «رولينغ ستون» هي لك، أرجو أن تَقبَلها فعساها تشفعُ لي ضجيجي عندك، ثم إن دومنيك ستكون معنا، أيضًا. تَردَّدتُ في البداية وما لبثتُ أن حزمتُ أمري.

فهذه فرصة ستحررني من قوقعتي، وسأرى صيفًا من طراز آخر، والذين سأذهب لحفلهم هم في النهاية من جيلي، مع فارِق حاسم هو أنهم فجَّروا في نهاية الستينيات ثورتَهم الثقافية والغنائية فيما تكالبت علينا من وقتها صنوف الهزائم والانكسارات، لا بأس. في الساعة الثالثة ظهرًا كان يسبقنا طابور من كلمتر والسهرة لن تبدأ قبل الساعة التاسعة. وقبل حلول هذا الوقت كنا داخل الملعب وفوق المنصَّات قرابة ثمانية آلاف، ومع الموعد أصبح في كل واحد أربعة، الموسيقى إلى عنان السماء، والشباب الغض إلى عنان الجنون، والغناء هو اللغة الوحيدة التي تتكلمها البشرية، ولم يبقَ لهم إلا أن ينزعوا لحمهم القليل، أما الثياب ... الأيدي كلها عالية، والحناجر كلها صادحة، والغابات المحيطة كلها دخلت إلى الحلبة، فرضتُ على نفسي الاندماج في هذا الجو، على أن أتخلَّص من زعانفي والأدران. هذا وقت الجمال وفتنة العمر ومَجْد الصيف، حين انتهت السهرة ولم تَنتهِ الموسيقى أظن أني كنتُ قد تَحلَّلت في الهواء وقمر منتصف الليل وانتصاب قامة الغابة في جسد واحد، يا له من جسد. وفي طريق العودة، سألتُ دومينك: ولكنهم

سِتِّينيون؟! أجابتْ بمكر: التِّسعينيون لا يُشبعونَنا، عديمو تجربة وقليلو صبر، وأنت تعرف ... في أول بحيرة صادَفها الفِتيان والفتيات بعد «الباغاتيل» ألقَوا أجسادهم في الماء وراحوا يسبحون ويعبثون بينما شرعت سيارات الشرطة التي كانت هنا لمهمة تنظيم السير، تنسحب والرجال فيها ينظرون بحسرة، ويغبطون هذا العمر الجميل. كانوا شرطة لحماية الموسيقى وأسراب القطا وكل هذه المحبة.

في ١٤ يوليو، العيد الوطني الفرنسي الكبير، قدَّم «جون ميشيل جار» أعظم قربان للوطن وللصيف وللشباب، أزيد من مليون ومائتي ألف حضروا الحفل المثير الذي نظَّمه هذا الفنان المذهل تحت قاعدة برج إيفل وجمهوره منتشر في مدى حديقة Le champ de mars، فنان يبز كل الزعماء وارتعاشة أنمل منه على وتر آلة عزف تتهافت دونها فصاحة وبلاغة كل الخطباء، جاء ليقدم برعاية منظمة اليونسكو عيدًا من أجل التسامح، وقد شرح صدري حين رأيت اسم محمد ﷺ، مكتوبًا بالخط العريض بين أضلاع البرج، في قلب باريس، أجَل وسمعتُ التَّخْت الشرقي يفتتح العيد، والعربيات الفاتنات يَرقُصن تحت سماء الله، ويدفع «جار» بألوان إبداعه وشطَحات خياله التَّصوري، والموسيقى تَشترك معه ثقافات وفنون العالم، فما شاهدتُ ولا سمعتُ من قبل أعظم، ولا أبهج ولا أنبل؛ ليلتها اختلط اللحم الأبيض بالأسمر بالأسود، وفي هذياني بما أنا مُتحلِّل فيه لم أُميِّز جيدًا، إن كانت الأرض هي التي تعالت نحو السماء أو أن هذه هي التي أَنحَت على الأرض وضَمَّتهما قبلة بقينا إثرها في صحو، على فرح وإلى حين.

باريس في ٢٧/ ٧/ ١٩٩٥م

أنقِذْني أيها الغائب من كل هذه القسوة ...

في ساحة Les sablons التقينا دائمًا، هنا في هذه الفسحة الواقعة بقلب الوسط التجاري لمدينة نويي سور سين، الضاحية الشجرية الأولى لباريس، حيث تهجع البنايات بين خضرة الأغصان ووارف الظلال، ثلاث مرات في الأسبوع تتحول الساحة إلى سوق للخضار واللحوم والملابس، يرتاده سكان المنطقة، تقليد فرنسي جميل لباعة مُتجوِّلين وقارِّين في آنٍ، لهم مع كل حي موعد يوم، نصف يوم فقط؛ فعند الثانية بعد الظهر يحمل التُّجار ما لم يَنفُق من بضاعتهم، ويتبعهم عُمال يفككون الهياكل الحديدية للسوق المُرتَجل فتصبح كل ساحة أو مَعبر خلاءً كسابق عهده، ترى النظافة تلمع من البلاط بعد أن جاء عُمال البلدية وطهَّروه بالماء والصابون مثل أي دارة مُعتَبَرة، فإنك إنْ مررت بالمكان إثر ساعة من زمن، ولم تكن عارفًا بهذا التقليد، فلن يخطر ببالك أن سوقًا حافلًا كان يقوم هنا بضجيجه وألوانه وروائحه الذكية، بل هو مهرجان صغير تتنزَّه فيه بقدر ما تتبضَّع.

وتحضرني الآن طُرفة تعود إلى أيام الغفلة، فقد حدث أني في إحدى زياراتي الأولى لباريس قبل أن أقيم فيها؛ أي في منتصف العقد السبعيني، جئت من الدار البيضاء ونزلتُ في دار المغرب أيام كانت دارًا في La rue des écoles. غادرت المكان في الصباح مُتلهِّفًا لاكتشاف ما فات الطهطاوي اكتشافه في باريس، وقتها كنت قليل المعرفة بخريطة المدينة، فحرصتُ على ضبط الطريق المؤدية من مقر إقامتي إلى محطة المترو Maubert mutualité، ومنها ذهابًا إلى باقي الشوارع والفروع. في الساعة الخامسة من عصر اليوم نفسه عدتُ إلى المحطة ذاتها؛ فَمُها ينفتح على ساحة مصغرة كان سوقها يغلي صباحًا فألفيتُها فارغة، أرى المقهى المقابل فأجزم أنه هو، بعض الدكاكين، هي كذلك، اسم المحطة لا خلاف، ولكن أين السوق؟ هذه مدينة لا بادية، بل إن سوق «حد السوالم» لم يتزحزح من مكانه، فكيف يحدث هذا في باريس؟!

طفقتُ أدُور في مكاني بادي الحيرة، متوجسًا أني ضللتُ الطريق إلى دار الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. وبينا أنا على هذه الحال رأيتُ أحد زعمائه، آنذاك، يخرج من المحطة، وكنا تَعارفْنا منذ الزمن الجامعي لـ «ظهر المهزار»، فقلت: الرجل خلاصي، ولم يملك نفسه من الضحك عاليًا حين أظهرتُه على ورطتي، وسرَت عدوى ضحكه إلى ساعة العشاء حين اجتمعنا في إحدى غرف الدار شلَّة أذكر من أفرادها خالد عليوة، المرحوم عبد الله الحجامي، والبوري الذي أعدَّ لنا طاجينًا لذيذًا من الكفتة بالبيض أكلنا عليه أصابعنا ونحن نقهقه، على غفلتي طبعًا!

في مقهى Le relais des sablons بنويي سور سين، قُبالة ساحة السوق، منتصف نهار كل أحد، دائمًا تقريبًا، Guy Bedos وأنا، هو من كبار فناني الفكاهة في فرنسا، ذو منهج وأسلوب في الاستعراض الفكاهي، ووجه مطلوب في المسارح وشاشات التلفزة، وإلى ذلك معروف عنه التزام اجتماعي وسياسي. و«بيدوس» مثل سائر الخلق الطبيعي يختار النزهة يوم الأحد، ونزهة السوق بالذات، لا رغبة في الشراء، ولكن لكي يشوف ويشم ويسمع وأحيانًا ليتكلم، وليرد على التحيات كثيرًا، كثيرًا. إنه ليس فأرًا محبوسًا في بيت محاطًا بالمعجبين والمَدَّاحين والمتكسبين، حين يخرج من بيته يمشي بخُطًى مُتَّزِنة، جسده مرتاح في قامته القصيرة، فلا افتعال في حركته ولا تَسلُّط لأي لكنة على نطقه أو كلامه سوى ما وهبه الله.

حين ينهي جولته في السوق تاركًا لزوجته تكاليف الشراء يلوذُ بمقهانا متكاسلًا فوق أول مقعد فارغ، طالبًا قهوة وماء معدنيًّا صرفًا. تتقابل نظراتنا، وبفعل عادة لقاء الأحد نتبادل التحية بانحناءة رأس خفيفة، وأتركه لراحته كما يتركني لشأني أنظر بلا تحديد ولا هدف، لكن «بيدوس» لا يرتاح، لا أحد يتركه يرتاح؛ ليعيش ويستمتع بجلسته في المقهى كـ «أيها الناس». تَهب زوجة صاحب المحل هاشَّة، باشَّة، تدفع أمامها نهديها المُتهدِّلَين: آه، غي، أنت هنا، كيف لم أركَ حين دخلت؟ ... آه، القهوة اليوم على حسابي، آه ...! تتراجع كما في المسرح لتعود إلى كواليسها ويدخل إلى الرُّكح العجوز والضابط المتقاعد منذ حرب الجزائر: أوه، مسيو بيدوس، اسمح لي أن أحييك، أنت لطيف وبشوش دائمًا، ويعجبني غمزك دائمًا لأولئك الذين لا يستحقوننا في الجزائر. يحاول المخاطب أن يحتج، أن يصحح، كلَّا أنا لم أغمز من قناتهم، أنت تفهم ما تريد ... يُصادِر الضابط لوسيان الكلام: بلى، والمهم أنك معنا وهذا لطف منك. حول طاولة ركنية تنحني سيدة على أذن زوجها: انظر، إنه بيدوس لحمًا ودمًا، هل ترى كيف أنه متواضع، يجلس مثل الجميع في

المقهى، هه، هئ، قم، ينبغي أن نحييه، هذه فرصتك أنت الذي لا يعرف إلا المُرابِين. وهُما يَتململان قفز إلى الرُّكْح فتًى بادي الغُنْج فقطع عليها طريق البركة: أوه، هذا غير معقول، حبيبي، غي كلما شاهدتك في التلفزيون تَدَغْدَع جسدي وأحس أن صوتك يخترقني، قَبِّلْني هنا وسترى صدق ما أقول.

بين أولئك وهذا الأخير، دخَل التاجر اليهودي الأصلع، الذي لا ينقطع عن الذهاب والإياب بين السوق والمقهى، شأن كل الباعة، من الفجر إلى الظهر وهم يفرغون كئوس النبيذ مع شرائح الخنزير المقدَّد، ويتأفَّفون من كثرة الزبائن وقلة ذات اليد! نطق الأصلع كالخطيب: صدِّقْني، سمعتُ امرأة تقول إنك هنا، فقلتُ أتعرَّف على فنان من عِرْقي، أنا فرنسي صحيح، ولكني من أصل بولوني وأنت كذلك من أصل آخر، أليس كذلك؟ تَصوَّر إنهم يتحدثون عن الفرنسي، ذي الجنس الصافي، ما رأيك؟ ينبغي أن تفعل شيئًا، هه، أليس كذلك؟! مسيو بيدوس، ودفع الفرنسي البولوني يده في كيس يحمله وأخرج منه علبة زجاجية: انظر، إنه مُربًّى أصيل، أبي هو من يصنعه في المزرعة، ستذوقه ويعجبك، انظر من هنا، إن موقعي في السوق هناك، إننا نُقدِّر الفنانين ولا نهتم بالسعر، ستجدني متفهمًا جدًّا.

بين دور وآخر كان الفنان المحاصَر يحاول أن يرشف من قهوته ويدقق في خبَر منشور في الجريدة أمامه، بلا جدوى، ولسانه يتقطع بالرد: أجَل، العفو، صحيح، شكرًا، حسنًا، والآخَر يخطب، والأخرى تُنَهْنِه، وسواها تمد بطاقة، تليها من تريد توقيعًا، موعدًا، من يقسم بأن الجالس هنا في هذه الدقيقة هو بيدوس لا غيره، وأتراهن، إياهن وإياك على زوجتَيْنا إن شئتَ كما فعلنا في المرة السابقة، ألم يكن ذلك ممتعًا، حقًّا؟!

أظن حين تكرر المشهد أمامي الأحد الماضي قررتُ أن أفعل شيئًا في وجه هذه الكائنات الوثنية. رأيتُه ينظر صوبي كمَن يستغيث، دون أن تُفارقه بشاشتُه وتَسامُحه كانت يداه تتشبثان بالجريدة وقد صار وجْهُها قفاها بعد أن أدارها في لحظة سِلْم نادرة. وإذ جمعتُ وقفتي بقرار أخرق لطرد الذُّباب قفزَت إلى عيني صور في الجريدة، ثلاثة وجوه، واحد منها يشبهني، أنا لا أقرأ هذه الجريدة، لا علاقة لي بأي صحفي فيها، لم أَقُم بأي حدثٍ مثير يستدعي تعميم صورتي فيها، وفيما أعلم لا مشاكل لي مع الشرطة، ولكن الصورة تُشبهني وإلا ... وإلا فأيُّ معنًى لهذه النظرات المُصوَّبة نحوي لحظة اتخاذ قراري السابق؟!

رأيتهم، زُبَناء المقهى، يتهامسون وهم يشرحون ويملحون وجهي، ربُّ المحل يعرفني من سنوات، ومع ذلك يفعل مثلهم، خفتُ أن يَنقضُّوا عليَّ، أصبحتُ في قلب الرُّكْح. انزاح الضوء عن غي الذي استطاع أخيرًا أن يرشف من قهوته، وأنا أبلع صرخةً صامتة: يا بيدوس أنقذني! طبعًا، لم تكن هنا يا عبد الرحيم لتُنْجِدَني، كلما احتجتُ إليك التفتُّ حولي لأقبضَ على الغياب. تحن إلى بن أحمد كأنها بطرسبورغ أو مونتي كارلو، المهم أنك فَلتَّ بجلدك ولو بقيتَ هنا في صيف باريس، اللاهب بِحَر الصيف وحريق تلك القنبلة، لَصِرت تمشي «مع الحائط» مثل كل المغاربيين الذين بقوا هنا؛ أي لم يعودوا إلى ذلك الوطن الغالي، إما لفراغ جيوبهم، أو ليصونوا كرامتهم من الابتذال في مراكز الحدود والجمارك المعلومة. وأعلم، أيضًا، أنك كثير المرور بمحطة السان ميشال؛ ولذلك اغتبطتُ لغيابك يوم الانفجار ووجودك في ذلك المهرجان الذي كتبَ عنه المُراسل قائلًا: «إنه لا يُوصَف.» من مُنطلَق أن «حُبك الشيء يُعْمِي ويُصِم». فلو كنتَ هنا في اليوم المعلوم لأصبحتَ، لا قدَّر الله، في عِداد ضحايا الإرهاب الوحشي أو لَصِرتَ من المُشتَبه فيهم، أوَلستَ تحمل سحنة مغاربية مزابية ١٠٠٪؟ وفي كِلا الحالتين تأكد ألَّا أحد هناك؛ أي حيث أنت الآن، سيسأل عنك للاطمئنان، ليقول حمدًا لله على السلامة، فالمهم هناك أنك لا توجد إلا في لحظة العودة المؤقَّتة مُحمَّلًا بالهدايا وتلبية الوصايا، فتراهم يستقبلونك بالأحضان ويلهجون بالشكر والامتنان «إيه الله يعمرها دار، عبد الرحيم جاب والسعدية حتى هي.»

أقول لك فَلتَّ بجلدك وسحنَتِك التي يبدو لي أن واحدة من الصور، الوجوه المنشورة في الجريدة تشبهها، تُشبِهُني، تُشبِه عبد الله بوهلال، ومن حُسن حظك أنك تملك صك براءة بوجودك في الرباط زمن انفجار قنبلة السان ميشال. أما جميع أبناء جلدتك فاعلم أنهم عُرْضة للشبهة مُتَّهمُون بعيون المارة وحراس المتاجر ودوريات الشرطة، وهؤلاء الذين ستسلخ نظراتهم جلدي في مقهى يوم الأحد، أنا العربي، المغربي المُهاجِر الذي لا قِبَل له بتبديل سحنته ولا أرومته ولا مذهبه، فهل تنقذني؟!

باريس في ٣/ ٨/ ١٩٩٥م

ازدهار البحر

هي ذي «دوفيل» فتنة مُمتنعة عن الوصف، وجه الاخضرار البهي لإقليم النورماندي، ودونها ينتشر بحر المانش حيث يُلقِي نهر السين بآخِر أنفاسه، فلا تعرف أيهما يتشرب الآخر: الملوحة أم العذوبة؟ وما أعرفه أني تتبعت ضفاف السين إلى نهايتها حين أدركتُ أن النهر لا يكفي لأشواقنا وأن لا بديل عن البحر، والحق أنك لا تذهب إلى أي مدينة ولكن إلى كائن موجود أو مُفترَض؛ لذلك نسيتُ البحر مؤقتًا حين وصلتُ دوفيل بِنِيَّة الاصطياف. مُجرَّد خدعة والتقينا أو لم نَلتقِ، وما حدث يمكن اختزاله في الآتي حين قالتْ وقلت:

من الأفضل أن نتعارف، دون مقدِّمات وبلا إسهاب، أنت تقوم وتُقبِّلني من الوجنتين ومثلك أفعل، ونندرج في الكلام كما لو أننا نواصل حديثًا لم نُتمِّمه في وقت سابق. هي، حدثتني عنك في الرسالة وفهمت أنها رسَت أخيرًا إلى محطة، محطتها، وإذ أراك الآن يشتبه عليَّ الأمر؛ إذ هل يمكن الرُّسوُّ عندك أبدًا؟ في الطريق إلى هذا اللقاء عاندتُ نفسي بضرورة أن تكون مختلفًا وبشِدَّة عن الآخَرين، وإلا لَما التقينا، ولَما كنتُ واقفةً قُبالتك، وأنت هنا تنظر إليَّ وكأنك تستعيد وجهًا ضاع في البعيد. ولكن حذارِ، إنني لا أعرف أن أكون صارمةً في التَّخمين، صانعةً لمعاني الأشياء، قبل حضورها، وهذا ما يجعلني لا أواصل أو بالتحديد أتركهم كلهم يعيشون رتابتهم لأزدهر في قطائعي، ولعلَّك تفعل وإلا ماذا يحمل عربيًّا مثلك إلى صُقعنا الذي هو القيامة ذاتها؟ وأريدك أن تعرف أني لستُ نادمةً على شيء، ومن الأفضل أن تكسب حياتك يومًا بيوم، وألَّا تتحسَّر إلا على ما لم تَعِشه غدًا، وحتى الغد، خُذني لنزدهر في البحر.

دوفيل في ١٠/٨/١٩٩٥م

ضربة شمس في المانش

وفاءً لذكرى المُدن الضائعة

تقرر مغادرة باريس إلى مصطاف، إلى منتجع صيفي، إلى مدينة بعيدة عن هذه التي أقمتُ فيها ردحًا من الدهر وتُمسي خلاءً، قَفْرًا، في شهر أغسطس، إلا من كنائسها ومتاحفها الباذخة ومعالمها التاريخية حيث يطوف اليابانيون الذين لم تفتك بهم قنبلة هيروشيما كالأشباح مُعزَّزِين بالخرائط يبحثون فيها عن موقع برج إيفل وهم وقُوف عند قاعدته بينما رأسه غاطس، رغم الفصل، في كتل صمَّاء من السحاب الرمادي المحبب لبعض الرومانسيين في العالَم الثلاثين.

قالت: تعالَ إلى «دوفيل»، الجِنِّية الجديدة التي تريد أن تسكن ما أحمل في داخلي من خرائط وعرَصات سِرِّية. ما الذي يبقيك في مدينة يهجرها أهلها صيفًا هجرًا مطلقًا كأنما اجتاحها الطاعون، ويُخيَّل لمن يَعبُر شوارعها أنه يَتنقَّل داخل مقبرة، ومبانيها كل واحد منها أشبه بشاهدة قبر، أما هنا فأنا أهديكني، وعندك البحر الذي تعشق لكن بلا موج ولا زَبَد، وهذه خطيئة المانش. تستطيع دائمًا أن تصنع بمُخيِّلَتك جبالًا من الأمواج، أما الزَّبَد فلا حاجة لك به الآن. ستلقاه وافرًا حالمَا تَعْبُر إلى الضفة الأخرى الجنوبية، وستُصاب منه بالتُّخمة سريعًا لحد أني أخشى عليك من العبور، وإن كان لا مَناص منه في النهاية.

لم أملك أي خيار في الجواب للتي سكنتني، وحذفتُ من ذهني تفاصيل التوقع لأي شيء، مُعوِّلًا على أن أترك المجرى يتدفق وحده، والحياة تسير بمقتضى ما تريد، فاعلًا ذلك بوعي من يرغب في الاستقالة، بل الهروب من دافق الحدوس والتخمين. والحكمة

القديمة الساذجة تقول: إننا لا نفعل دائمًا ما نريد، ومصداقًا لها هيَّأتُ نفسي كي أخضع لأُقْنومها حين حملتُ في حقيبتي ما كان ينبغي ألَّا يُجْلَب. قالت بعد أن تَحقَّقت من استجابتي: أوصيك بشيء واحد؛ اترك كُتبك وأوراقك، اترك تلك المُنغِّصات كلها، فستنذر نفسك للشمس والعري؛ لترى الآدميين ينهبون اللفح والمَباهج، وأنتَ وسطهم تقطف من الطَّيبات وتنظر حولك، لا داخلك كما تفعل في أغلب الأوقات.

لا أعرف كيف عصيتُ وصِيَّتها، وهي التي ما طلبَت مني إلا حقًّا، وما أدركتُ عصياني إلا بعد فوات الأوان؛ أي حين تصوَّرتُ أني حللتُ بالمدينة الموعودة، فإذا بي في أخرى غيرها بلا ميعاد، في البداية لم يكن لديَّ أي دافع للعناد أو الإخلال بوعد ألَّا أحمل معي سوى بقايا جسدي ورماد من ذاكرتي وأوجاعي، ضحكتُ حين تحدَّثتُ عن كتب الصيف، عن القراءة التي يحملها معهم المُصْطافون، أو عن أعمال لا يجد لها البعض غير هذا الفصل كي يدخلوا إلى طيَّاتها، ضحكت لأنَّ شعوبًا كاملة لا تقرأ بتاتًا صيفًا وشتاءً، ولا ملامة على من لم يَنَل حظًّا من تعليم وتثقيف، وثمة بشر موكول إليهم تعليم أولاد الناس، صغارًا وكبارًا، عزَفوا عن القراءة منذ أن استقَرَّت أقدامهم على درجات السلالم الوظيفية، نظير استقرار جلوسهم على كراسي باحات المقاهي وفي رأس الزنقة. هي الضحكة ذاتها انتابتني حين صَدرت الصحف هنا في مطلع الصيف بمَلاحق كاملة تُرشد القُرَّاء لمئات العناوين المخصصة للقراءة الصيفية، موزَّعة حسب الأعمال والاهتمامات والميول ... عناوين بالمئات للتسرية فقط وكَسْر المَلل بين غطسة في البحر وأخرى في الحبب، وغطسة ثالثة تنتظر ابتداء من الشهر القادم المشغولين جدِّيًّا بالسرد ستتمثل في صدور متعاقب لمائتي رواية بينها خمسون نصًّا روائيًّا لكُتَّاب جُدد، إلى جانبها مائة وإحدى وسبعون روايةً مترجَمة. وأكتفي بهذا القدر لأُجنِّبَني وإياكم الإحساس بالفجيعة.

أجَل، فقد حللت أو انتقلت إلى أرض أخرى غير تلك التي رسوت عندها أو هكذا شُبِّه لي. مثل القوم رحت أبحث عمَّا أكسر به المَلل بين غطستين، وهنا تذكَّرت الوصية المغدورة حين استقبلَتْني التي بالبال أخفيتُ عنها أني لم أحضر وحيدًا، أن معي رفيقًا حميمًا اسمه Fernando Pessoa، وهو كاتب صموت، كتوم، عاش حياته كلها (١٨٨٨–١٩٣٥م) دون أن يعلم أحد بوجوده، بل وباسمه الحقيقي الذي لم يَعلُ إلى ذُرى المجد إلا في هذا العقد التسعيني. لا عجب، إذن، أن يرافقني صاحب «كتاب اللاطمأنينة» والأعمال الشعرية الكبرى التي لم تُؤهِّل لحداثة الشعر البرتغالي وحده بل أعْلَت الحداثة الشعرية كلها،

لا عجب، أن يتخفَّى وألوذ إلى ما تخيَّلْتُه الخفاء، فإذا هو شأن مختلف تمامًا عن كل ما عرفنا وعُرِف عن الكاتب السِّري. فتحتُ الحقيبة وأخرجتُ منها الكتاب الذي اقتنيتُ وصدر قبل أَسبوعين في ترجمته الفرنسية، ولم يُكشف عنه النقاب في لغته البرتغالية الأصلية إلا سنة ١٩٩٢م؛ إنه «لشبونة» لفرناندو بسوا، وفي أصله يحمل عنوان: «لشبونة: ما ينبغي للسائح أن يرى» وهو عنوان في غاية الدِّقَّة والصواب، كما يمكن أن يتبدَّى لأي قارئ عابر؛ إذ العين هنا هي التي تعمل وتفرض وضعها بؤرة ومركز استقطاب ونقطة تَمَفْصُل والعدسة المُسجِّلة والمُرسِلة في آنٍ لكل المرئِيَّات والصور. إن بسوا، الذي فاجأ القُرَّاء والأوساط الأدبية الغربية وأبناء بلده أنفسهم، بكتابته الاستبطانية والضاربة عميقًا في جذور السؤال الإنساني بما يضاهي؛ بروست، وكافكا، وميوزل، وزفيفو يخرج هنا من قوقعته ذات الصَّدَف السميك، يكسرها حتى كأنها ما زعنفت صاحبها في ديمومة الغياب بتاتًا، فنحن هنا في مفاجأة التشريح الدقيق والصحو المطلق، إخلاصًا لمدينة ووفاءً لنوستالجيا دائمة.

ولهذا قصته التي لا بُدَّ أن تُحْكى: في سنة ١٨٩٣م سيفقد فرناندو أباه يواكيم بسوا، وبعد سنتين من وفاته ستتزوج أمه مادلين الضابط «ياوو روزا» الذي كان قد عُيِّن لتوه قنصلًا للبرتغال في مدينة دوربان بجنوب أفريقيا حيث ستستقر العائلة بدءًا من ١٨٩٦م وتقيم إلى سنة ١٩٠٥م. هنا سيحس الطفل باغتصاب مزدوج: واحد من جهة أمه التي أصبحَت لرجل غير أبيه، وثانٍ من جهة مدينته لشبونة، مربع طفولته ومرتعها وقد باتت بعيدة جدًّا.

ما من شك أن إقامته في جنوب أفريقيا ستعود عليه بأكبر النَّفع حيث سيتقن الإنجليزية قراءة وكتابة، وسيتَعلَّم بداية درس المحاسَبة والمراسَلة التجارية التي ستصبح مهنته لاحقًا، لكن الحنين إلى مدينة التلال السبعة سيوغل فيه جرحًا مفتوحًا لن يُشفى منه ولن يلتئم حين سيعود إليها وهو ابن السابعة عشرة. في المقدِّمة الوافية التي وضعها للكتاب روجليو أودونيز بلانكو يَلفتُ نظرَنا إلى مقطع شعري من وضع بسوا سنة ١٩٢٤م يقول فيه:

هـا أنـا ذا أراكِ مـن جـديـد　　　يا مدينة طفولتي المهولة البعد

مقطع سيلحقه تعديل سنة ١٩٢٦م يُحوِّر فيه الشاعر كلمة «البعيد» بـ «الضائع»، وهو ما يوحي لصاحب المقدِّمة بفهم مفاده أن المدينة هي التي ضاعت تمامًا وليس الطفولة وحدها، غير أن بسوا لا يستسلم تحت وطأة ما ضاع، ومن غيره قال شعرًا:

مشاعري هي الرماد.
رماد خيالي،
وإني لنافضها
في مرمدة العقل.

والعقل ما سيقود الكاتب لاسترجاع فردوسه المفقود، لا بِنزعة ملتون، ولكن بنباهة وحس الصحو المُطلَق لبسوا، رغم الخمرة التي كانت له موطنًا آخر فيما الوطن الأول والأخير هو لشبونة، المدينة التي عاش فيها حياته كلَّها وما غادرها إلا لِمامًا، وتَنقَّل فيها قاطنًا بين عشرات الغرف والأحياء، مُترنِّحًا بين شوارعها وأزِقَّتها يُتَعْتِعه السُّكْر، بعد أن يكون قد صفَّى أعمال المراسَلات التجارية الضرورية لعيشه لمدينة أرادها رمزًا للبرتغال مجتمعًا.

وضع كتابه «لشبونة» فجاء على طراز عجيب من الدِّقَّة والتعريف بها والتكريم لتاريخها ومآثرها. فوالله تحسبه مهندسًا معماريًّا فائق المهارة، وخبيرًا في الطرقات وأرصفة الموانئ، مهندس أشغال عمومية، عالمًا بالآثار، حَفَّاظة للتاريخ ومخزون التراث، عالم اجتماع عارفًا بطباع السكان وتنقلاتهم، هو جزء من هواء المدينة، من ترابها وأقبيتها وكنائسها، يستحضر الشاذَّة والفاذَّة فيها. والحاصل أنه لو اجتمع كل أدِلَّاء السياحة في البرتغال بغية وضع دليل سياحي للشبونة لأعجزهم أن يمهروا صنيع كاتبنا السِّرِّي ومُرافِقي الخَفِي في مصطاف مدينة المانش. والحق أن بسوا ينوب عنهم جميعًا ويُصرِّح علنًا بقصده قائلًا: «ما ينبغي للسائح أن يرى في لشبونة» واصلًا مصنفه الفريد بفصل قصير عن الصحف الصادرة فيها، واصفًا مبانيها ومشيدًا بسمعتها، مشيرًا، ويا للمفارقة، إلى دار النشر التي ستُصدر كتابه المعني والذي لم يرَ النور إلا في ١٩٩٢م بدل سنة إنجازه (١٩٢٥م).

من بداية الكتاب — الدليل — إلى خاتمته يمسك فرناندو بسوا بيدك، وقد فعل معي ذهابًا وإيابًا، طولًا وعرضًا، مَعْلمًا ورُكنًا، كنيسةً، متحفًا وحانةً، أسواقًا ومحطات وأرصفة ميناء، والمدينة من عُلوٍّ تلالها السبعة منتشرة على راحة اليد ومد البحر والبصر،

ما أخذني إلى اتجاه إلا وغَيَّر طريق العودة، ما أراني بيتًا إلا ووصفه لي الوصف الذي به يبصر الكفيف، وما دخلنا متحفًا أو قصرًا دون أن أخرج منه غزير المعرفة، شديد العرفان. هكذا اكتشفتُ أني أزور لشبونة للمرة الأولى بعد أن وَطِئَتْها قدماي من سنين بعيدة. لا، بل هكذا علمتُ بوجود مدينة عظيمة، عريقة، نفض عنها علماء الآثار غبار النسيان حين تعرفوا على مؤسسها الكاتب المحاسب الغفل فرناندو يواكيم بسوا، وهم ينفضون غبارًا آخَر عن أوراق له منسية.

لا أذكر كم مضى عليَّ من الوقت في رحلتي حين باغتني الظلام ولم أنتبِه للشمس تغيب ولا لبحر المانش الذي ينسحب إلى جَزْر بعيد، ولا إلى التي أحببت أن أسميها «تيريزا» وقد وقفَت على رأسي يسبقها سؤالها وتَثِب منها لهفتها: ولكن أين كنتَ طوال هذا الوقت، يا ...؟ كم قلقتُ يا ... فأجبتُها بهدوء وبساطة: إني وصلتُ، أقصد عدتُ للتوِّ من لشبونة، ماذا؟ تقول إنك عائد مِن ...؟ أجَل بكل تأكيد، مِن لشبونة، من التأَ، من ... أظن أنها ضربة شمس يا ... يجوز، لعلها ضربة بسوا! أنتم الكُتَّاب هذا دَيْدَنكم، تدخلون وتخرجون في الكلام! لا يا تيريزا، هو الكاتب أما أنا فذاهب لغطسة محبوبة، ما رأيكِ أن نغطس معًا وإذا لم نغرق نغادر غدًا إلى لـ...ش؟

دوفيل١٧/ ٨/ ١٩٩٥م

«السين» يخطب وُدَّ أبي رقراق

كأن رواية الأشواق عَود   على بدء وما كمل الكتاب

اعتاد القارئ الكريم أن يلتقي مع كاتب هذه السطور في مقالة أسبوعية انتظم نشرها على امتداد شهور خَلَت تحت العنوان الكبير «من الضفة الأخرى» وتُرسَل تباعًا من باريس، من شمال الضفة المتوسطية التي تُمثِّل بلادنا جنوبها. لم يكن ذلك حَذْلَقة بل تحديدًا لموقع جغرافي مُحدَّد عِشت فيه طويلًا، وكدتُ أستوطن فيه أبدًا لولا أن لي وطنًا لا أبغي عنه بديلًا.

والأمر في الحقيقة أوسع من الجغرافيا وأكبر من تحديد المكان؛ إذ هو، أيضًا، قرين بالفضاء الثقافي والمسار النفسي حيث تهيأ للذات إعادة تكوين، وتجديد وجود قلبًا وقالبًا، واجتراح تجارب ومُخاطرات وأهواء من دونها كانت الحياة، عندي، ستبقى مَجرًى ثابتًا بدون أفق وبلا رواء. وبما أن المرء يعيش مع الآخَرين، ويتحرك في محيط تَتعدَّد فيه الروافد وتتلاقح المكونات والتشخيصات الاجتماعية والحضارية، فإنه يحاول أن يستفيد من ذلك ما أمكن ويفيد، وله في الغربة عزاء أن ينقل لأبناء موطنه بعض ما يَتقلَّب فيه جِلْده من حَر وقُرٍّ، في خطاب هو بغية الوصل لما انفصل.

على أنِّي، وأنا في تلك «الضفة الأخرى» صنعتُ لي ضفتي وسط صخب مدنية الغرب وزحام الأشياء، وتذرر الذوات، ألوذ بها متى احتجتُ لذلك، ليس مطلوبًا منِّي الإدلاء ببطاقة سفر ولا جواز، لا تأشيرة ولا ورقة إقامة، وفيما عدا ذلك فإن وجهي الأسمر، بحكم عروبتي القادحة، ظل ينتقل في عالم الوجوه البيضاء ويرى عجبًا أو غضبًا أو

سرابًا، وكان له في الذي رأى حكايات وأوضاعًا مُسطَّرة في البال بحبر الحزن والمَسرَّة في انتظار أن تصبح جديرة بسكنى القرطاس واهتمام القراء.

اليوم لا أعود إلى سالف عهدي ولا أنقطع عنه في آنٍ، فمن حيث لم أبقَ في «الضفة الأخرى» جسدًا يستعصي ويعز عليَّ القول إني سأنفصل عنها. بَيْد أني، بحكم الواقع، بتُّ الآن في ضفة غير تلك التي أَوَتْني سنين عددًا، وهو انتقال يحمل الكائن من مَجرًى إلى آخر، ويدفع به في غمار حياة يفترض سلفًا أن إدراكها سيتبدَّل بالحواس قبل المشاعر، فإن تألَّفَت الأداتان وانتظمَتا في إيقاع غير مسبوق، فهي الجدة عينها يَنطوي بها عمر ويخلفه آخَر أحفل وأبهج، وإلا وقع الامتعاض، وعندئذٍ ينتفي انتقال الكائن ليحل محله اغترابه؛ أي انشداده لما تَصوَّر أنه أفلتَ من جاذبيته، وبلغة هذه الأيام، انزاح عن مداره.

هو بعض ما يدعوني إلى الحديث عن ضفتين؛ واحدة، فيها المقام اكتمل في دورة، حلقة. وثانية، المقام فيها يتَّصل لا وصلًا لما انقطع، فنحن كلنا، الذين هاجرْنا طوعًا أو أُخْرِجنا من ديارنا قسرًا، لا اخترنا مصيرنا دائمًا كما بقينا متجذرين في تربة صِبانا، حاملِين أنفاس الأحياء منا وبقول الموتى حيثما حللنا، مُكوِّنين لأنفسنا وجودًا مضاعفًا يتجاور فوق سحنته انشراح الأسارير وتكاثف الغضون. وإنك لترى الواحد منا، إذا عرف كيف يصعد إحساسه بحدة التباعد أو الجمع بين الأضداد، لا يملك حقًّا التحكم في شعور الانشطار، إذا أفلح في التخفيف من وطأته عصابًا ألفيته يتخبط بين هنا وهناك، عبر تفاصيل اليومي، وتضاعيف الذهني، ومفارقات الحضاري، وما أحسب أن له في النهاية ملاذًا سوى القبض باستماتة على لحظة الإحساس بالحاضر، أو هو الضياع لا محالة في كل هذا الهجير.

ثم إني لا أملك ما يكفي من الشجاعة، بديلًا مؤقتًا للمرارة، لأعلن في قول صُراح بأن من يهاجر لا يعود. وقد عرفتُ عديدين قرروا بإرادتهم أو بدونها ربط حلقات ما انفصل مع أوطانهم ولكنهم، بعد وقت وجيز، جمعوا قَشَّهم ليعودوا من حيث أتوا، أو تَراهم وقد مكثوا، أشبه بالذاهلين كلما حاولوا ضبط عقارب الساعة على زمن ومزاج بلدهم، اضطربت أصابعهم وارتَجَّت أمامهم الرؤية، فلا يجدون سبيلًا للخلاص غير التماس أفق الرؤيا أو ما يجوز أن نسميه شرود الألباب. أما أنا — وكم أحب أن يثبت جناني — فلا من أولئك ولا من هؤلاء؛ لأن هجرتي خُضتُها في نفسي قبل أن تتلبسها الأصقاع، فما جمع ولعي يومًا مكان، وعن انتشار جُموحي يضيق كل فضاء، وصرتُ وأنا أضرب في الأرض أحس كأن خطواتي تسير إلى خلف لا أمام؛ فهذه الأرض عرفتها، حفظتها، أنوء

بها ولعلها تنوء بأمثالي ممن يضيق بهم الشبر الواحد كما المسافة المحسوبة فينتفضون فيهما كالطائر الجريح، فلا يجد مَن يداوي جرحه إلى أن تنقض عليه الكواسر أو يخفت جناحاه من شدة عياء. والإنسان، في وضع ما، طائر على طريقته، جوَّاب أراضٍ وسموات إلى أن يلهث بآخِر نفس، أو يتصدَّى له من ينتف ريشه نتفًا، هذا إن نما له على الجلد زَغَبٌ وإلا فهو هالك باكرًا، وهو الشائع فينا؛ إذ بتنا نمشي عراة أو شبهه أو مُدثَّرين بأنصاف حقائق، أنصاف أوهام، والمُدَى قدامنا مَدِيٌّ مرتعشة تستبق نزف دمنا، يا لرخص دمنا، وضلال ما سلكنا من طرقات، وخراب ما شيَّدْنا من عمران، وتهافُت ما قدَّسْنا أجيالًا من مُثُل وقِيَم. يا لبخس أرواحنا تتلاشى مثل قشور الفستق، الرمل أثقل منها في انسرابه بين أيدي أطفال عند سواحل طرية يلعبون للمرة الأولى لعبة الحياة. هكذا حين يرحل بيننا قريب أو حبيب يعز في المقلتين الدمع ويشحب في الصدر الحزن. كيف نكون جديرين بالحياة، بوهم الديمومة، إذا جفَّت منا المآقي وأمسى البؤس مرادفًا لوردة الحزن الشذية.

هذا، أيضًا بعض كلام الانشطار، سَرى دبيبه قبل عقود لدى تَحميلنا عواقب هزائم، وانكسارات، وخِفَّة عقل، وبهلوانيات حكام وزعماء. وبينما تواصل تداعي الصروح وسقوط الأبطال منا مَن هلك أو يهلك حسرةً، منا مَن يطوف حاملًا كفنه في انتظار رخصة الدفن، دَعْك من موتى بلا قبور تقول عنهم: المأسوف على حياتهم، كما لو قلت عن فقيد: المأسوف على شبابه، ومنا كثير تقاطعت وتقطعت بهم السُّبل بين علو وسفالة، كما أن فينا مَن هاجر عساه ينجو من هذه الأهوال.

قلتُ: إن من يهاجر لا يعود، وأقول الآن: ولكن هل يملك أن يبقى؟ وكيف؟ منذ عقود أضحتْ بعيدة هاجَرْنا من ثقافة وتقاليد راكدة، وطَفِقْنا نلتمس أسباب وأدوات تَمدُّن يضعها في محور زمن يدور بدوننا. غادرْنا بكل ما نملك نحو الشمال؛ بحثًا عن الصحن أو الدِّثار أو الآلة العجيبة أو المنهج الذي يساعدنا على قراءة ركودنا التاريخي واسترداد كرامتنا البشرية. لم يَكْفِنا قرْن كامل لِنَصِل إلى شيء ولا أريد أن أجزم أو تَفْلِت من قلمي أحكام جزافية، فالنظر في هذا الأمر له سجلَّاته المعلومة، حيث التحليل أو التعليل البارد يلجم سَوْرة الذات، فيما الذي يعنيني أكثر من سواه هو هذه السورة تحديدًا. يفقد الكاتب نضارته، وما يبتغيه من وضع خصوصي، حين ينخرط في سباق المُحلِّلِين والمُساجِلِين، وإذ لا غنى له عن المعرفة وتملك المفاهيم مع شمولية الرؤية فإنَّ الأجْدَر به هو رؤيته الخاصة. وهذه لا تأتي من تسليم وخنوع واتباع ولا من شمال أو جنوب، إنها لا تأتي إلا من حيث لا يعرف سِرَّ الْتِياعِه ولا موطن استقراره.

إذا اكتمل بين يديه شيء سرعان ما يتبدد قبل أن يفرح به، وكما قال ذلك الشاعر، فالفرح ليس مهنته، والضفة الواحدة أضيق من أن تحوي مداه المنتشر ... فخذ مداك يا رجل، ومن ضفة إلى أخرى ارحل وإليها ترجَّل، وشَخِّص في مستقبل الأيام صورة المابين، وتأمَّل هذه المفارَقة الطريفة من أقوام يدقون بعنف أبواب الشمال عبثًا، وفرد من شماله إلى جنوب ذاته يسري، سَلسًا، كنهر السين يحط رأسه عند ضفة أبي رقراق ابتغاء حلم جديد لسليل الضفتين ... فترقرق يا وطني.

الرباط في ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٥م

بين بن بركة وفاليري

الشهداء مثل الشعراء ليسوا حكرًا على أحد

ما الذي يمكن أن يجمع بين «بول فاليري» والمهدي بن بركة؟ الأول شاعر وفنان، وكائن جُبِل على الاستغراق في الوجود ومحبة البحر، والثاني سياسي وصاحب مشروع ثوري دفَع حياته ثمنًا لأجله، وبسببه تُوِّج شهيدًا في مغرب الاستقلال.

وماذا يمكن أن يجمع بين الاثنين معًا، أو واحدًا واحدًا، وبَيْني، هما بسيرتهما ومناقبهما المعلومة، وأنا بصيرورة وضعي وما لي؟

نحن نتعلم الكتابة الحقيقية، الصِّرْف؛ أي تلك الخالية من الهدف المسبق والمعنى الوارد، نتعلمها من خلال الافتراض والحفر في البنية الخرساء والحجر الأصم، القرائن المطواع ننبذها، ودلائل المحاسن والخيالات المبذولة عنها نشيح، تاريكنها أعطية زهيدة لأفواه مستنفرة للبلع، وأقلام صدئة عبثًا تعاند مع المُحال.

وبالافتراض أيضًا، نصوغ الأسئلة لنخلخل رتابة الجاهز منها هي والأجوبة، وبأداتها نصوغ الوجود الخالص لنا، ونسترجع الوجوه المحبوبة لدينا، فثمَّة وجوه منفردة يا سادة، إذا ظهرت على شاشة التلفزيون نضغط على الزر لنمحوها. وإذا قابلناها صدفة أو عنوة ينبغي أن نتعلم كيف نصفعها، ثِقُوا، العنف هنا ليس ضروريًّا؛ فأيدينا خُلِقَت لغايات أسمى. الوجوه الأنقى التي رَصَّعت ببهائها تاريخنا، مَنحَتْه المعنى، ودبيب الوَلَه، هي الأجدر بالانتشار تُرفرف خفَّاقة، آه، مثل أعلام أقسمنا ذات عُمْر أن نُسْتَشهد فداءً لها ... وحَنَثْنا في القسَم.

السؤال باقٍ، هو الجوهر، لا تَعتِبوا على الإبطاء، فالكتابة كذلك تَحايُل ومراوغة، وَعْد جدير تُحقِّقه بالتسويف أولًا موجِب لوجودها إذا شعَّت من أولها بدرًا تمامًا. كنت نازلًا من باريس، آخذًا طريق الشمس السيَّار المُفْضي إلى الساحل اللازوردي، في نهاية أغسطس الماضي، رتَّبتُ لي موعدًا مع الجنوب وقد بَيَّتُّ في النفس ما بَيتٌّ، جُلُّه أتكتَّم عليه، فهو زاد المسافر بدونه الهلاك، وبعضه أفصح عنه فأذكر منه نزولي إلى جنوبي على متن السيارة، كما صعدتُ إلى شَمالهم بالسيارة، مشحونًا بالنوايا والرغاب قبل خمسة عشر عامًا خَلتْ «وما تبلى النجوم الطوالع»، في الشهر نفسه، من نهايته، ومن المدينة الموصوفة بسواريها العالية بدأ صعودي وقتئذٍ. مَن منكم قادر على تذكُّر مشاعر يطويها العقد من الزمن وما ينيف ... والأحاسيس لا تُستَرْجَع إلا على نار الحُرقة أو تحت رماد الحنين أو المَرارة، فما فات ضاع منا أبدًا، والكتابة، في بعض معناها، أقربُ إلى المحاوَلة المازوخية لرغبة الاسترجاع وإلحاق الذات بخلود مستحيل. على كلٍّ، حين غادرتُ طنجة في ذلك العام البعيد، وأنا أجهل أني سأخوضُ في زمن ذي نفَس مديد، لم يكن عندي شيء كثير آسَفُ عليه، كنت ابن جيل أُخفَق في كل شيء إلا في تهشيم مشروع وجود ممكن، صُودِر إما بالقمع أو التَّدجين أو الأدهى بالسُّعار الأيديولوجي. وهكذا إذا أضمرتَ الأحاسيس المعهودة من وراء طقوس العائلة، واقتدرتَ على حمل شمسك الخاصَّة في صدرك بعد أن بِيعَتْ شمس البلاد، سهل عليك القفز بخفة فوق الباخرة التي تَعبُر البوغاز. ما أظن أنك سَتلتفِت إلى الخلف؛ لترى زَبَد الموج الأول؛ ففي حناياك تصطرع الأمواج.

لعلك ستتنَفَّس بعمق: أووف. فهو «الماضي البسيط» لإدريس الشرايبي، تَستعيد فيه جَلَدَ ذلك البطل الإشكالي بحق، أو أنت البطل الآخَر الذي عجَنَتْه من جِبلَّة زمانه اليد الصَّنَاع لأحمد عبد السلام البقالي في «قصص من المغرب»، الهارب من محيط أصيلة المسقف بالهراوة، المحبوكة أضلاعه بالأغلال، نحو المحيط الآخَر، الفسيح بالتقدُّم والحرية والرخاء. عجبًا كأن طنجة ليست مدينة، أو كأنها العتبة الأولى التي نضع عليها أقدامنا لنرحل إلى المدن الحقيقية، مثلما تَشكَّلتْ هي منها نواة مصغرة اختزلت في وقت مضى مباهج صعلكات وأسرارًا قلَّ أن تُرَى وتُرْوى، إذا نَفضْنا اليد من كتابة الفولكلور والعباطة.

شُرفة مُطِلَّة على حلم المدن القادمة بدت لي طنجة في الزمن الذي عبَر بي وبحر سيسلمني إلى آخر؛ ولذلك لم أملك نفسي من السؤال وأنا آخُذ طريق الجنوب ثانية: تُرى،

هل نِلتَ المراد وآخَيتَ بين الحلم والحقيقة؟ أم إنك أضعتَ السبيل فما ازددتَ إلا صعودًا نحو ذُرى الشوق لما لا يطال، فيا لضياعك؟!

حططتُ رحالي الأول في مدينة Sète؛ فمنها يلزمني ركوب الباخرة «مراكش» إلى البلد الذي يسميه أهل الشرق مراكش، وطني. ليس للحب ميعاد، والفتنة لا مناسبة لها إلا أن تراها شعلة تملأ عليك النظر فتفيض في حالك الأحوال، وما يبرد جوفك غير بحر المقبرة البحرية. ما أذهلها هذه النفس حين تصبح المَنِيَّة مُنْيَةً، ورفيف أجنحة الموتى أخصب من هرج الأحياء.

بلا توقيت مضبوط كنتُ على موعد معه؛ أعني «بول فاليري»، أبى أهله وأحباؤه إلا أن يحتفلوا بالذكرى الخمسين لوفاة شاعر مدينتهم Sète الأول والآخر. انتظري يا مراكش قليلًا، فالستينيون يُبجِّلون الشعر والشعراء، لو علمت، وينزلونهم بينهم في الصدارة. أما أنت ... وما السر؟ ليس أكثر من أنه عاش ومات ثم بُعِث وهو وفِيٌّ للبحر، حيث ولد وعنه قال:

«لقد وُلِدتُ في واحد من هذه الأماكن التي أحببتُ أن أولد فيها.»

هنا، وكما كتب «البحر، البحر طُرًّا، دومًا مُستعاد!» في وقت سابق، زعمتُ أني صنعتُ أمرًا جللًا، حين طلبتُ من نادل المطعم أن يجلب البحر إلى صحن المحبوبة إلى أن باغتني نادل آخر، وفي «سيت» بلغة بسيطة، جمحتُ أبعد من الشعر و«قصيدة النثر»: أنت لا تعلم أن شاعرنا جاءه البحر طوعًا إلى المهد، واستبدل قِمَاطه بموجة؛ ولذلك لم تكن باريس حيث مات، جديرةً بجثمانه، ولا نهر السين ليتسع لشساعة روحه. ولو لم ينقلوه هنا في تلك الربوة العالية لهَبَّت بحار العالم كلها لتسترجع ابنًا، أو إلهًا، لستُ أدري، قمطته من المهد إلى اللحد.

بعد أن زرتُ المعارض المخصصة لتراث الشاعر، وتنقَّلتُ بين الاحتفالات الرصينة والبهيجة المُقامة لذكراه — فالشعر بهجة — أدهشني عدد الزوار الفرنسيين القادمين من مُدن قَصِيَّة للمناسبة الممتدَّة لِعدَّة أشهر (من مايو الماضي إلى نهاية نوفمبر الجاري)، جاءوا جميعًا للتَّبرُّك بالشِّعْر لا بالأضرحة، وبدوا مُتهيِّبين، خاشعين وهم يَضعون الباقات أمام قبر الشاعر، في الربوة العالية، حيث البحر ملء البصر، ملك يديه والبحر له حضن وسرير ... والآن تذكر، بل والله ما نسيتُ أبدًا، ولا أسرفتُ في الإطناب وإنما الذِّكْرى بالذكرى تُوجِع فيوغل الألم أبعد من أن يطاق، وأقدر من إرادة النسيان لاحتمال ذلك النزيف كله، الممتد من أعوام الجمر الأولى. تَذكَّرتُ المهدي بن بركة، ووالله ما نسيتُه أبدًا،

وهل يُنْسَى من لا قبر له. في كل خطوة، رقعة شبر، سحابة في السماء خلاء شاسع، الجبال بقِمَمها، المساجد بصوامعها، الجموع بهديرها الخافت الآن، ما زفَر من الصدور وجَلجَلت به حناجر الحِرْمان، الوردة إذ تَيْنَع، والطفل حين يَلثغ، بين العُلَّيْق الصاعد في الجدران وعناقيد النجوم دوالي على صدور الغانيات نحورهن مُزدانات بهمس السرائر ... في هذا المعمور المنحدر من بدايات العصور إلى نهايات الخلق الآتي له قبر يبحث عن صاحبه.

أذكر أننا كنا وضعْنا الخطوة الأولى على عتبة الجامعة، في سنة ١٩٦٥م، وفي شهر دخولنا الأول، جاء مَن يُدخلنا طوعًا من باب الشعب إلى هذا العالَم الذي كان هو يقيم عمده ويفسح أبهاءه. حين سمعنا خبر الاختطاف، أحسسنا أن يدًا امتدَّتْ من حيث لا ندري واختطفَت أرواحنا. لم نذهب إلى دروسنا ولم تتَّسِع لرَوْعِنا غُرَفُنا المحجوزة في الحي الجامعي، فأرخَيْنا أجسادنا تتلقى الضرب، منذئذٍ، بظهر المهراز، وأَقسَمْنا، منذئذٍ، أيضًا أن نعيد الجسد المخطوف لروح صاحبه، أوسعنا لها بيننا تحل أهلًا وسهلًا، حبًّا وكرامة إلى أن ...

قبل أن أغادر المقبرة البحرية، مَددتُ يدي أَتلمَّس شاهدة فاليري فتَرقْرَقت أمام ناظري «المقبرة البحرية» القصيدة Le cimetière MARIN، فجاءني ما يشبه النبوءة:

واهَ، فاليري ليس هنا، هذا ليس قبره، القبور تهاب الشعراء.

واهَ، بن بركة ليس هنا، وهو بلا قبر، القبور تهاب الشهداء.

إثر ذلك فهمتُ ما ينبغي أن أفعل، ركبتُ الباخرة «مراكش» لا لأذهب إلى مراكش، ولكن إلى مكان الاستدعاء الضروري الوحيد الذي يجب أن أدلي به، واللائق به تقديمه هو قصيدة، وبالأحرى قصيدة لفاليري تلوتُ منها بيتين:

الموتى المخفيون، تأكَّدوا، هم في هذه الأرض
فمن يدفئهم ويجفف غربتهم؟

فأخذني البحر بالأحضان، وأشار إلى أعلى فأراني قمرين.

الرباط في ٢/١١/١٩٩٥م

يا لسعادتكم، إنكم تحترقون!

يأخذ المكان شكل تفاحة، أو رائحة ذِكرى، أو تاريخ علامات. يَتَّخِذ ما يشاء من الأشكال لينتهي إلى هيئة ترسمها له من خارجه، فتُسبِغها عليه ليكون على ما تريد.

وأنت لا تريد دائمًا بالقصد، كما لا تترك الإرادة خاضعة لمنطق الصُّدفة. هناك تَراوُح مثير بين قرار ثابت، مُعَقْلَن، تَخالُه هو المُنحى السليم وبين انعطافة لا نعيها، إلا بعد أن نقطع في مسارها خطوات، إذا نحن التفتنا إلى الخلف لحظة الوعي بها سَتغزونا الذكريات ومشاعر الأسف؛ فنُضَيِّع، عندئذٍ، طراوة وضْعِنا، وإن تشبَّثنا بمجهول ما نتقدم فيه اعترانا إحساس غامض نَسغَه الخوف، وورَقَتُه النضرة حين تَيْنَع هي الدهشة. سبيلي في هذه الحالة هو القطع بعدم اليقين، تاركًا الطرقات السالكة لمن يَهوى الوصول إلى المراد وحسن الثواب، والاستقرار، إن صح القول، في مساحة لها شكل الوطء على الأديم والقبض على السراب، أنت بينهما مَتأرْجِح مثل العابر في جميع المطارات ترفضه الحدود كلها وهو لا يفهم معنى الحدود. هذا هو المكان الوحيد الممكن لمن امتنع عن دفع عمره أقساطًا لقاء بيت أو جغرافيا مَسكونين بخراب الأرواح. ما أجمل المكان الذي يأخذ شكل نُطفة، ضحكة، لحبيبة غائبة.

هذا المكان، الذي اسمه مَطار أورلي، تَعدَّدت عليَّ أشكاله، وألوانه وروائحه، ولكنه، في مختلف الحالات، ظل يُمثِّل عندي شيئًا واحدًا ربما رغبتُ عمدًا تثبيته فيه، وذلك بعد سنوات طويلة، مديدة، شَددتُ فيها إلى الديار الفرنسية. بدأ العزف في وقت بعيد، ثم قريب، وأخيرًا حاولت عبثًا أن يتلاشى. هذا المطار من حيث آتيه، من «بورت دورليان» هو قبلة الجنوب. أما إن كنت في «النواصر» فستَراه، بل إنك لعابده قبلة للشمال. من في فوق يخفق قلبه حنينًا لتراب «البلدة» وأحضان الوالدة. ومن في تحت، شأن كثير أعرفهم، يُمنِّي النفس بالمَرح والبهجة بين السان جرمان والمونبرناس، فما بالك بشعوب كاملة مرشَّحة

للهجرة بعد فوات الأوان. هكذا، وبالرغم من كل المزاعم فالبهجة، إذن، لا تجود إلا وراء الحدود. المُترَفون الذين يختبئون خلف حصونهم، في الدار البيضاء والرباط، وإذا ركبوا الطائرة نظروا إلى باقي المسافرين كالذباب، يخافون أن يحط على جلدهم الناعم. وفي عناوين باريسية مُحدَّدة أراهم يتطاوسون وهم في صخب من أمرهم ... إنهم بوجودهم هنا يشعرون بالامتياز المضاعَف، رغم أنهم لا شيء بتاتًا.

قلتُ: إن العزف بدأ من بعيد وقريب، وأردت له أن يتلاشى، فمن عناوين متعددة في هذه المدينة الغانية يرن الهاتف لأحمل السماعة تأتي منها الأصوات متدافعة: أنا جاي أنا جيت، غدًا في أورلي، أنا في أورلي. أسرع من القطار المكوكي لأكون في أورلي أستقبل بالقبل والأحضان، وفي المساء أجمع الإخوان حول الخوان. وبين هذا ذاك يَتعطَّر الجو بريحة البلاد، ونَصْبُوا كما شئنا وشاء لنا الهوى إلى المحبة والنسيان. ذاك الزمن الفريد أين منه غبار ووجوه هذه الأيام. قالت زوجتي، وقد وَطِئْنا أرض المغرب — هي التي خامَرها الشك في أني أصبحت موظفًا في مطار أورلي — «أين الاصدقاء؟ أين أولئك الأصحاب، أعني فلانًا وفلانًا وكذا وكيت؟» وأضافَت بمكر: «... أم إنه غلاء سعر الهاتف» فنصحتُها كي تخرج من حيرتها بمتابَعة النشرة الجوية في التلفزة الوطنية لترى أن البلاد غارقة في الجفاف، غرقها في الفساد برًّا، وبحرًا، وسهلًا وجبلًا، وسكتت شهرزاد.

في أورلي، الذي نزلتُ به قادمًا من أوهامي، وجدتُ في استقبالي وجهي القديم فرحَّب بي ببشاشة لا تملكها مضيفة التسجيل في مطار سلا، وقادني في مُنعرَجات المطار؛ فهالني أن صادفتُ المكان مزبلًا، سابحًا في أعقاب السجاير والمخلَّفات.

ثم ما لبثتُ أن تداركتُ روعي فهذا دليل حيوية وعنوان بارز للدخول السنوي الجديد: إنهم عمال النظافة مُضْرِبون، ومن حقهم أن يُضْرِبوا؛ دفاعًا عن مَطالبهم ولا يوجد ابن امرأة سيشج رءوسهم ضربًا أو يقطع رزقهم لتركهم المطار في أسوأ حال. في سنة ١٩٨٢م زارني صديق في سلك التعليم فأخذتُه إلى مَقهًى بساحة «لي غوبلان» حيث جلسنا في الباحة ذات صبيحة أمر الله بإشراقها. وبينما نحن في تَطارُح حول شئون تلك البلاد تَقدَّمتْ أمامنا صفوف نساء ورجال يرفعون لافتات انتمائهم إلى سلك التعليم الثانوي، ببساطة كانوا يتظاهرون من أجل حقوق ومطالب محدَّدة، في البداية تبادلت وزائري نظرات مرتبكة، ثم بالأحرى قلقة، ثم مشحونة بالتوقُّع. فكَّرْنا، مثلًا، أن الخبط سيبدأ بعد قليل، أن هؤلاء «البطرين» سيُرْفَسون رفسًا لإخلالهم بالأمن العام لهذه الصبيحة المشرقة. وكاد عقلنا يطير من شدة ما توقَّعْنا دون أن يحدث شيء. حين فكَّرتُ

بالانضمام إليهم من باب التنفيس عن المكبوت، كانت مسيرتهم قد بلغت شوارع بعيدة. عاد بعدها الزائر إلى سلكه، وعدتُ من هذه المفارَقة بأول خيط من قصة «المظاهَرة» التي كتبتُها بعد سنوات من هذا الحادث.

إذا غادرتَ المطار فاقفز في أول حافلة أو سيارة أجرة تنزل حيث تركن حقيبتك. تنطلق بعدها لتجديد العهد بشوارع أرصفتها وعناوينها صَنعت لها ثنايا تحت أعطافك. وأنت لا شأن لك بإبرام العقود والصفقات، وتحسس نبض البورصة، ولا طَرْق أبواب المعاهد والمؤسَّسات ومكاتب ما وراء البحار لتقديم الانحناءات المطلوبة، توسُّلًا لدعوات فخرية أو مُجْزِية لهذه الجامعة أو ذلك المنبر. تمسح هذا الفُطر العَفِن عن أهدابك مقتحمًا المكتبة تلو الأخرى: هي غزوتك الأولى والدائمة هنا، في مدينة ترفع المئات من عناوين كتبها الجديدة أعلامًا خفَّاقة بوجودها. تَحار من أين تبدأ. تَحار ماذا تختار. تحار كيف تدفع، ولا بُدَّ أنك مُقْتَنٍ أخيرًا، تدفع نقودك ادخارًا لروحك. عجبًا لهؤلاء الذين ينخر التقتير عظامهم ادخارًا لحياة موءودة في موت مسبق. الكتاب الجديد هو العنوان الأمثل للدخول السنوي الجديد، وبدونه فالحياة هنا، بل في كل مكان، صحراء قاحلة.

وإذا دخلت مكتبة la hune، في السان جرمان، فلا غنى لك عن ارتشاف قهوة في le flore، هي تُرْتَشف ولا تُشْرَب. طقس ضروري تحس معه أن حقوق الإنسان ليست فقط في ألَّا يضرب في الكوميسارية، أو يسوطه القايد على مَرأًى ومسمعٍ، بل هي أيضًا في أن تَجلس في مكان نظيف، حسن الإضاءة (شكرًا لهمنغوي)، سقفه غير مفخَّخ بأبواق تصدر أنكر الأصوات، أما مداخلها فخالية من باعة السكاكين وجيش المتسولين. وقبالتك بالضبط، في الرصيف الآخر من الشارع، تعبق رائحة الذِّكْرى. هي تقطر دمًا من مقهى «ليب»، فكأنك وأنت جالس في مطلع نوفمبر من سنة ١٩٩٥م عدتَ إلى البارحة، إلى نهاية أكتوبر من سنة ١٩٦٥م — عبثًا تعود — وترى الرجل مغادرًا إلى موعد مع الاستشهاد. يابن بركة أطل علينا فقد طال الجفاف، واسم شارع يا مهدي لن يهدينا إلى مثواك.

هنا جلبة دائمة في حركة الداخلين والخارجين، لكنها من النوع المتشكل في طقس تنتفي بدونه نكهة المكان. نساء ورجال من أعمار مختلفة، رصينة على الأغلب، منقوعة ببعض الصبا والقطا من حين لآخَر، وحسب الفصول. في هذا الفصل، نحن في الخريف المذهل تكون باريس لنفسها وسكانها، والداخلون هنا يحملون أكياس الكتب، يَنكبُّون على جدتها بِوَلَه وهم يرشفون القهوة الزكية أو يحتسون الشراب السائغ. اثنان من عرب الزيت جلَسا يبحلقان ببلاهة في سيدة عجفاء كأنهما في حضرة بلقيس.

في لحظةٍ ما خِفتُ أن يَنقضَّا عليها بوسًا وعضًّا ليتأكد الجميع من هُويَّتهما وفُحولتهما المُفرِطة، وهو أمر محتمل جدًّا. غير أن ما لم يخطر على البال سماعي الأول منهما مخاطبًا صاحبه: اسمع يا دكتور، إنها هي، أنا متأكد من أنها سيمون دي بوفوار. وقد أوصانا البروفيسور النقشبندي بالقدوم لهذا المقهى لمقابلتها والتَّعرُّف عليها عن كَثب. لم يَبدُ على الصاحب الامتناع، وفجأة، كمن صُعِق بتيار كهربائي، اهتزَّ في مقعده ولهج بكلام ذي جرس قصديري: أي والله، حق، هي سمون دي بولفار يا دكتور. ها هو سارتر نفسه جاء يجلس في طاولتها. وكان رجل مُسِن، ذو حَوَل بارز خلف نظَّارتيه قد جالَس السيدة وراح يعابثها مباشرة. ولم ينقذني من لزوجة الزيت سوى جلبة ثانية ولكن من طراز مختلف. هزَّنِي كلود من كتفي مصدرًا أمرًا بأن ألتحق على الفور بالطابق الأول من المقهى. لم يتركني أستفسر بل جذبني إليه ودفعني أمامه باتجاه الدرج الخشبي. حاولتُ أن أعتذرَ قائلًا: إن «لور» ستحضر بعد قليل، فواصل دفعي في الدَّرج إلى أن بلغنا الطابق الأعلى لأرى حشدًا من نساء ورجال غارقين في سحابة من دخان. اسمع، قال كلود، إننا مدعُوَّان لنشرب نخبه، ذلك الشاب الطويل، النحيل الملتحي، فهو الذي فاز بجائزة الغونكور عن روايته le testament français الوصية الفرنسية.» قاطعتُه: «أنت تقصد Andreï Makine الذي فاز بجائزة medicis؟» «بلى، وقد حصد الجائزتين معًا. سأقدمك إليه، الجميع هنا ليتعرف عليه، لا أحد يعرفه تقريبًا. إنه ليس من أولئك العطارين ... وها هي روحك الخريفية قد وصلت، أدركيه يا لورُ فإنه لا يريد غيرك نخبًا.»

خارج المقهى، وبين الرواية والشعر المنسدل ضوء مصابيح على قامَتَينا، تَطلَّعتْ إلى وجهي المُضمَّخ بأريجها، وكالمندهشة هتَفتْ: ياه، إن وجهك ملفوح، فَزَفَرْتُ: طبعًا، أنا قادم من الجنوب، والشمس هناك لنا بالمرصاد. هبَّت ريح باردة انتفض معها شعرُها عاليًا فهتفت ثانية يا لسعادتكم، إنكم تحترقون!

باريس في ١٦ / ١١ / ١٩٩٥م

«... يا مطرا يا شاشا»

بين مطرين، إذن، وريحين، تَعْوِي هناك لِتَئِنَّ هنا، ما تقطَّعت بنا الطرقات، ولكن في القلب ارتج ما سرنا فيه من دروب، حسبناها انطوت في قُرص المغيب، وإذا بها تشهق في كل مسافة قادمة ... أو تسخر منا أم تراها تُلَقِّنُنا حكمة الزمن الدوار بين كبت وتذكير؟! ما أمكن للاستهلال المدشن بركوب باخرة «مراكش»[*1] المتفتح بعد لُجَج الموج والمشدود إلى الوراء بجاذبية غاباته صاعقة الفتنة، على أسوارك أنت يا «طنجة يا العالية»، أن يتواصل إلا في درجات متقطعة الأنفاس. فمن أين له النفس المنساب والروح في نصب مثواها شرود الحال بين ذهاب وإيابٍ سوى جمرات حاضر بركاني خلفها جمرات ماضٍ ملتاع؟! ما أمكن لي إعلان الشهادة بالعبور وخوض طرقات الغبار، ما كل هذا الغبار، وزوابع أكوام الشوك؟ أين كانت مخبوءة؟ وهل أرضُنا صارت سماء لبغاة الطير والغربان؟ سنعود إليكم بَعْد لأَيٍ أيها الغربان، ولا أمكنني غرس حنيني الجديد وتَخْضِيب فلوات العمر السحيق بحِنَّاء الوقت المغربي إلا بشد الرحال قبل الوصول إلى مرابع ذاك الرضاب، فوالله لا أعرف اليوم إن هو في الخلف أو في الأمام.

ما أنا متأكد منه أن مدينة الضفة الأخرى، وقد حججتُ إليها لاستطلاع أحوال رعِيَّتي القاطنة بدهاليز نفسي، استقبلَتْني بموت دافئ، لم تكن وسائل الإعلام وحْدَها مَن أعلن عنه، ولا واجهات المكتبات، بل الألوان المتخفية في خضاب فصل يعاند في البقاء وهو إلى زوال. كان جيل دولوز أبعد الناس والفلاسفة خوفًا من الموت، ولا كان، أيضًا، أكثرهم

[*1] باخرة مغربية لنقل المسافرين من ميناء «سيت» جنوب فرنسا إلى ميناء طنجة المغربية.

تَشبُّثًا بالحياة. وما ذلك إلا لأن فهمه لكِلا الوضعين يقع خارج دائرة التصنيفات المتواضَع عليها.

لم تكن الفلسفة عنده والفكر، وضمنه العلم والفن، عمومًا إنتاجًا نظريًّا، أو منظومة مفاهيم وأطروحات تُنضِّد الوجود وتسقف المعرفة، بل الانخراط في الوجود ذاته بكيفية فلسفية باعتبارها طريقة أو أسلوب حياة. إن بعض وَلَعِه بنيتشه يرجع إلى أننا لا نذهب إلى الفلسفة وإنما نعيشها. لا نعني منها موضوعًا واحدًا نتسلسل في شجرة أنسابه، وفروع مرجعياته لنقيم له، في النهاية، هرمًا من الأفكار. كلَّا، فهذه نزعة أكاديمية عتيقة تنظر إلى الفلسفة وفعل التَّفلسُف مرادفًا للفكر ككل فيما هي ذاتها، وهي الفن والإبداع، وهي العلم، كما تنبثق من الحياة حين نقدر على جوهرتها فترقى إلى صعيد آخَر لم يوجد من قبل وفي الآن عينه، ينعدم فيه اليقين. يقبع دولوز في فسحة مُؤقَّتة، زَلِقة، مُدبَّبة وشديدة الحساسية، هي نقطة التَّمفصُل بين اليقين واللايقين. فهذا هو الخطاب الاستثنائي الذي يُسفِّه يقينيات كِلا النَّسقَين وفيه تصبح الحياة والموت، معًا، موضوعًا نُجرِّده من فتنته ورهبته لنطرحه في صيرورة المحتَمَل واللحظة المنفلتة، إن اللحظة عنده ليست في حركة ولا هي مُتوقِّفة، إنها هنا وهي هاربة.

لا عجب إذا كان من يملك درجة الوعي بالزمن/الزمان هذه لا يهاب الموت ويقعد بإشكاليته فوق إشكالية الحياة، وبطريقة ما يتحكَّم في ميقاتهما. وهكذا بقبضة قوية وهي واهية يضرب على طاولة العمر قائلًا للموت تعالَ. وللعلم، فهذا الفيلسوف الفرنسي — أظنه من بين قلة نادرة جدًّا ممن بقوا في الساحة الفكرية الفرنسية بعد وفاة ميشيل فوكو — والمفكر والفنان والجامعي، وضع حدًّا لحياته في مطلع هذا الشهر. و«ببساطة» فقد انتحر بعد أن أعياه تحمُّل مرض ملازم ... وبِبَحْبُوحة قطع تذكرة سفر إلى بلاد اللحظة الهاربة، والحق أنه كان دومًا في سفر؛ أي منقطعًا عن الاستقرار الجماعي، وضجيج الحشد، وطموح المُتسلِقين إلى الطوابق العليا للمؤسَّسة. في أيامنا هذه يطمح المفكر أو الشاعر لأن يصبح نائبًا برلمانيًّا أو عميد كلية، يا للبؤس! — محتفظًا لنفسه، لغروره الضروري، برغبة واحدة هي فِعْل المناوَرة؛ ولذلك وجدنا دولوز من أشد المتآمرين على النصوص. طبعًا الجيد منها حين كانت موجودة، خصبة وتستحق تعبئة مناوَرة القراءة وأدواتها الصارمة. أما وقد آلَت الأمور إلى ما نعرف، فإن قطع تلك التذكرة أفضل من الحرث في أرض يَباب. أجل، بدا دولوز متشائمًا في آخِر أيامه، أو قُل: إنه فقدَ الأمل في مستقبل الفكر والأدب وهو يرى رجالهما يصنعون لهم أعشاشًا تحت كاميرات التلفزيون،

وخلف أقلام المقابلات الصحفية المغشوشة. هل هؤلاء مبدِعون أم سماسرة أم بغايا على قارعة الإعلام الورقي، السمعي البصري؟!

في حياته كلها قَبِل إجراء مقابَلة تَلْفَزية واحدة عبارة عن شريط تَلْفَزي، وثائقي، من ساعتين، خُصِّص لحوار معه يستعرض فيه مراحل ومضامين تفكيره، وإبداء الرأي في قضايا العصر، واشترط على القناة الثقافية الفرنسية ألَّا تَبثَّه إلا وقد أصبح من مواطني بلاد اللحظة الهاربة، فوَفَّت القناة بوعدها حين لا وفاء في هذا الميدان. ويحضرني في هذا الشريط الوثائقي الذي فزتُ مؤخرًا بمشاهدته، والإنصات إلى دُرَره، وُقوف الفيلسوف الراحل عند ظاهرة ضحالة الأدب وغيره في فرنسا وخارجها أيضًا، فوجدتُه يعزوها بحق إلى أمور ثلاثة: أولها الدور السلبي للصحافة فيما تنشره من تعليقات يبهت فيها وجه النقد ويتصدَّى له مَن ليس من أهله، فتسفل المعايير، إن لم تنعدم وتعم الفوضى. ومن هذا الباب أيضًا، الصحفيون الذين يُصبِحون كتابًا، وهو يريد، في الواقع، الذين يتطفلون على غير ميدانهم فيختلط الحابل بالنابل. وثاني الأمور، انتشار الكتابة ذات الطابع البيوغرافي — والأوتوبيوغرافي كذلك — إذ من المعلوم أن لكلٍّ منا قِصَّة أو حكاية يمكن أو يريد أن يحكيها، فتكثر الكتب بلا طائل، ويتضخم حجم المكتبة، ولا زاد. وما أكثر ما يَتوهَّم عديمو الموهبة أنهم أمْسَوا في عِداد الروائيين، فترى من تَخلَّف به العمر ولم يفلح في ميدانه، منساقًا إلى التأليف، واجدًا حَواريِّين وزُبَناء يزفونه روائيًّا أو مفكرًا أو ما شئت. وثالثة الأثافي تَسلُّط السوق بمقاييسها وحساباتها أو هيمنة أرباب وزُبَناء نشر الكتاب، فيصبح هؤلاء الزُّبَناء هم من يصنع القراء، ويُحدِّد حاجاتهم ويُكيِّفُها وفق معادلات استهلاكية محض.

رحل جيل دولوز تاركًا لنا كتبًا معدودة في عمر مديد. إذا لم يملك الحق الأول في بدئه، فقد عرف كيف يُمسِك زمامه، وعرف متى ينهيه بإرادته التي شاءت له دائمًا إيثار ظلال فكره العميق على الأضواء التي تحوم حولها تلك الفراشات.

«كين سارو ويوا» الكاتب النيجيري (نيجيريا) فارَق الحياة، بدوره، لكن بدون قرار ولا باختياره؛ فقد أعدمَتْه السلطات النيجيرية، هو وثمانية من المعارِضين المنتمِين معه إلى «حركة بقاء الشعب» الممثِّلة لأقلية في البلاد تحتوي منطقتها على أغنى الثروات. أدانته محكمة خاصة بجريمة لم يرتكبها (قتل أربعة من أعيان — أغوني — الموالين للحكم المركزي)، والحال أنه لم يكن حاضرًا في مكان القتل، وتأكَّد الحكم من طرف المجلس العسكري المؤقت، وهو الهيئة العليا الحاكمة. قامت الدنيا، وشهقت القوى الكبرى وزَفرَت

ولم يتزحزح نظام «أبوجا» أمام هياط ومياط وشفاعة شيراك، وجون ميجر، وكلنتون الذي أعطى دليلًا جديًّا على أن العسكر في أفريقيا موجود للقمع والاستبداد والقتل. أما الكاتب فمهما عَظُم شأنه وذاع صيته، مثل «سارو ويوا» فهو زايد ناقص وكل أدب الدنيا لا يعدل عصا الجنرالية وحبل المشنقة.

في الغرب، تحرَّك المجتمع السياسي الغربي بأكمله رغم نفاق سلوكه مع العسكرتارية الاستبدادية في أفريقيا وغيرها. تحرَّك الكُتَّاب والمثقفون، آلاف التوقيعات ونداءات التضامن والتنديد، أما نحن فقد بِتْنا سلالةً للفُرْجة، هكذا، إذن، يا أبناء أرومتي السابقة، العتيقة، الخلقة، حياة كاتب أو إعدامه عندكم سِيَّان. وإذن، ما هم بعد أن نتحسس رءوسنا، لنصطفَّ بها في مواكبهم وهي آيلة للسقوط هاتفين: المجد للجنرالات!

ومن حسن الحظ أن المطر يغيث ليزيح عنَّا قليلًا جثوم القهر فتستبشر النفوس، يَغزوها حبور سحري تنشرح به الأسارير، فإذا جئت سوق العكَّاري الرباطي لتملأ القُفَّة بما تَيسَّر، فإنك سامع لا محالة بائِعي الخُضَر يشهرون عن بضاعتهم بالغناء لا بالنداء، فرحين، راقصين أبناء هذا الشعب البسيط وقد تهاطَل المطر مدرارًا بعد جفاف طال وحسبناه قدرًا عقابًا على ما نحن فيه من ويلات، فرحين، مستبشرين رأيتُهم، وماذا يملكون سوى «عرارم» من بطاطس وبصل ونعنع؟ الله، ما أزكى وأندى رائحة النعنع صبيحة ذلك اليوم الممطر في سوق العكَّاري، لولا خوفي — أقصد ذهولي في تينك العينين — لقُلتُ: إنه يضاهي بهاء بنفسج مراكش، ولكن أنَّى لي ذلك ولقالق قصر البديع شهدت عليَّ أصيلًا وأبدًا.

وبينما أنا بين أريج النعنع في سوق الفرح المطري، وا عجبي، كأني شاهدتُهم سرب ملائكة يُحلِّقون فوقي، أطفال مدينة البصرة وقراها يغنون حين تمطر السماء:

يا مطرا يا حلبي
عَبِّرْ بنات الجلبي
يا مطر يا شاشا
عَبِّرْ بنات الباشا.

والسَّيَّاب من ورائهم يحدو:

تَقطَّعت الدروب، مقص
هذا الهاطل المدرار.

قَطَّعَها ووَاراها.
وطوقت المعابر من جذوع النخل في الأمطار.

من مرضه في سرير لندن لا يشفى، وأنا بمرض غريب بين باريس والرباط لا أجد له الدواء، فلا أعرف لأهلي في بغداد الطريق، ويزهو المربد الشعري في البصرة، بعد عصف مأكول، ولا أكون ولا هو بالذي يليق بي، بنا جميعا، بعد كل الذي كان. وما هي إلا هُنَيهة استدارت فيها الأرض آخذة وجه بغداد تطل منه عينا «أبو بادية» الحبيب في عتب وحب، فما عرفتُ كيف أداري حزني والطريق إلى «الحلة» دونها مرَضِي، وبُغاة الطير والغربان — سأعود إليكم بعد لَأْيٍ — ولا كيف أُبَرِّد جمرة الشوق إلى «بادية» و«صعُّوبي». آه، هو ذا السيَّاب يسكن جلدي، يدخل عيني:

«مددت الطرف أرقب:
ربما ائتلق الشناشيل،
فأبصرتُ ابنة الجلبي مقبلة إلى وعدي!
ولم أرها.
هراء كل أشواقي،
أباطيل ونبتٌ دونَما ثَمرٌ ولا ورد!»

الرباط في ٣٠/١١/١٩٩٥م

«ماذا يقول مولاي؟»

«أقول إنني متُّ» ... فلا تُدنِّسوا قبور الشعراء

خِلْتُ في ذلك الصباح الباريسي، قريب العهد بي وبه، أن السماء ستسقط فوق رأسي من شدة كثافة الغيم واسوداده الرمادي. الشمس هناك وسماء مصابة بالقبض هنا، يا للمُفارَقة الملحاح تطن في دماغي طنينًا مبرحًا. قصدتُ الجنوب لأبرأ منه فما كان منه إلا أن طوَّح بي ثانية إلى تراب الجغرافيا الباردة، كأني ما أتخمت، أو ما أعلنتُ سماح الفصل مع أرض شُدِّدتُ إليها بألف وثاق.

من شقة في الطابق السابع من عمارة لورا، كنت تسلقتها من جدائل أواخر الخريف، ترعرع في شرفتها الرحبة، المجدولة بعبير ليلة فائتة، صباح ملتبس، لا هو ضوء ولا عتمة في مطلع هذا الأحد النوفمبري، الصاعد على حطام أجساد هدَّها احتلاب اللَّذَّة من ضروع المُحال فتَكَشَّفَت وتبدَّدَت، الليل لها ستر والصبح داهمها، كجُند الجبابرة، في العراء، فما باح منها اللسان إلا بفيض العطش، وامتدت يد تزيح الستارة عسى ضوء في الخارج يشيع الدفء في هلكوت جسدها فتنتفض ثانية وأبدًا برغبتها الحَرُون. ويد أخرى، يده، بحديد سياج الشرفة ممسكة خشية الوقوع من دوارها في دوار، لا نجدة إلا أن تشق السماء قميصها ومن انقشاع غيمها تغسل «أدران هذي الأرض» ولكنها، العنيدة، أَمعنَت في الصمت وانطوت في ثنايا الأرصفة والعناوين الحبلى بغياب، كما بأبواب أبقيتها نصف مواربة لكيلا يدخل منها سوى شفيف ضوء قلبي، حين يصطلي تحت انسدال غابة الشعر

وفي فلك السُّرَّة البدائية، قادتني إليها أشجار ترافق نهر السين من منبعها إلى مَصبِّه في مجرى الفتحة الفيحاء.

يا وعدي تلك «الفتكة البكر» أين منها ذبول هذه الأيام؟ إلى أن تلفعت من الزمهرير برعشة الرغبة الراغبة، ومن المسام تدفقت جداول الكتب المؤجلة لعهد السراب. ولعلها تَململَت في فراشها وانسرب الإزار كالرمل دون حَلمتَين كحَب الرُّمان، وليس بيننا إلا خطوة من ماء البارحة يمَّمْنا به ليلًا شطر كوكب غارت منه السماء فوق رأسي فحجبته بضغط غيمها النوفمبري. وقلت لا بد أفعل شيئًا، كأن أزيح الغيم طبقة طبقة وأفركها عند ذكرى انسكاب العقيق تدله، تدلع في ظل نظرات هدبية كنت فيها قطبًا وهي رحاي، لعَلَّنا نسترجع ومض ذلك الشفوف.

وماذا لو أطلقتُ صوتي بالعواء في هذا الصباح البهيم، لا يلهمني الصبح عادة، فهو عذاب استقبال عالَم عليَّ أن أصنعه في كل يوم بيدي، تحت طاحونة وقت يسحق جسدي، مُطالب أنا بجمع رُفاته ورمادِه لأصنع منه الجسد المقبل الذي ينبغي أن يقول: صباح الخير، أهلًا وسهلًا، يقتات أو يتَبَرَّز، يعكف على الشأن الحياتي اليومي، يذخر من هول الوجود ذبالة لإضاءة غياهب الكوابيس القادمة، أن يكون بمحض الاختيار لا بمقت الضرورة، ماذا لو عويت مستنفرًا المستوحشين الذين تغص بهم جنبات هذه المدينة وتخترق أضلاعهم أنفاقها فنصنع من فصول كابدناها وهجرات متداومة الاحتراق بين الحنين والوصال الهارب سلالم مفتولة بلحمنا، باللحم البارد تطقطق كعوب نسائه الشاحبات فوق ردهات العمر المتراجع، وباللحم الحار، الوحشي، الشهواني، المعجون في قبضة شبق فوار يَتضرَّج نبيذًا في دم وجوههن حين يروننا نحن عرب نهاية سلالة الصعاليك، وبلحم مُعرَّق منقوع في ارتجاف قضاء الوطن-الورطة، نرفع سلالم هي أجسادنا واحدًا واحدًا نحو السماء كي نزيح الغيم، طبقة طبقة، عنها، فنكتشف كالبُلَهاء أن السماء التي فوق مدينة عبدناها غادرت موقعها وشغل موضعها أسقف ألمنيوم صمَّاء وأنجُم كرتونية نخَرها البِلَى فتَبعثَرت كالنفايات، وحزمة ذكريات هي جماع فرح الصُّدفة وديمومة الحُزن، وبقية رغبات ومطامح باهتة نُوهِم أنفسنا أنها تَشفَع لنا حقَّ البقاء لنَمتدَّ في أفق آخَر لِغَدِنا ... ها، ها، غَدُنا، هكذا نقول دومًا لنواري مَضاضة اندثارنا، قبل ركوب السحاب إلى سماء منشودة في الجنوب رميتُ الطرف من خلف النافذة إلى شُبَّاك وقتها فما رأيت، إلا رؤيتي لها، وهي في سحيق ذاكرتي موغلة، ومن رفات زمنٍ شَجِي تصدر مِنِّي تنهيدة فأغادر الشرفة، لا نحوها، بل أشرع في فك حديد السياج قائلًا: ربما لو هويتُ من هنا لَهويتُ من جديد.

رغم أن صباح الأحد الموصوف لا يغري بمغادرة شغافها فقد كنتُ مضطرًا للخروج لجلب بعض ما يعيد للبدن طراوته، خطوات قليلة بعد العمارة ورأيت في نهاية الزقاق جمع رجال متحلقين وهو ما يُعدُّ استثنائيًّا في هذا اليوم المقفر. سرتُ أقترب منهم على حذر وكأنِّي أتوقع شرًّا أو كَمَن يتجَنَّب الوقوع في مصيدة. أخيرًا أصبحت منهم أنقل بصري في وجوههم، أراها هي الوجوه البيضاء تنطق لغة الجفاف والصُّفرة. عيونهم بدورها تُبحْلِق حول المكان، وشيئًا فشيئًا ترتفع إلى عَلٍ، تتسلق عمارة من سَبْعة طوابق، تحت العمارة سيارة إسعاف المطافئ، قُرْبها شُرطِيَّان، قربهما رجلان يرتديان بذلة بلاستيكية زرقاء، حاجز خشبي يغلق المرور في الزقاق. أطوي عنقي بين كتفي اتِّقاء بردٍ قارس، وسط الزقاق قرب مدخل العمارة ثمة شيء طويل ممدد تغطيه أوراق من النيلون الفِضِّي الذي يستعمل لتغليف المحروقين. لم أشم في الجو رائحة حريق، صباح الأحد هذا بلا دخان، المخبزة الوحيدة في الحي مُغلَقة ولا بُدَّ من الذهاب حتى ساحة «الكونفوسيون» لشراء فطائر حارة. الشيء الممدد بلا حراك، سألتُ فرنسيًّا قميئًا من المُبَحلِقين ما الخبر؟ نظرَتْ نحوي زوجتُه أو أمه الشمطاء شزرًا كأنها تقول: لم يبقَ إلا أنتَ أيها العربي الفضولي! لاحَظَ البقال السوسي ارتباكي فاقترب مني قائلًا: المسكينة، كانت وحيدة، دائمًا وحيدة فألقَتْ بنفسها من الطابق السابع. في المقهى الوحيد المفتوح للعبة «التيرسي» سمعت رواية أخرى وسط أنخاب وصول باكورة نبيذ البوجولي. فجأة ضربتُ رأسي بقبضة يدي، يا لغفلتي، يا لغفلتهم، نسيتُ جسدي وهو يهوي من تلك الشرفة على إثر سقوطها، وأظنه الآن وصل إلى أرضه، سمائه، هذا الشيء الممدد خلف ورق النيلون، هناك، هنا وهم ينظرون إليَّ وقد هويتُ …

فكرتُ أن هذا أفضل؛ إذ أشهد على رحيلي بتدريج وأرى وأنا أنسحب وبشكل ما أنا باقٍ فأوقف، عندئذٍ، النزيف البكائي الاصطناعي لمن يكرهونني كراهية التحريم، وأوفر على أحبائي ذرف دموع هم في حاجة إليها لمستقبل الأحزان، وعلى كلٍّ فأنا لا أريد من أحد أن يَتبتَّل إثر موتي. فقط، تناخَبوا وحيثما عَبرَت غيمة اسَتمْطِروا منها محبةً مَحضتُها لذكرى الأيام الغاربة.

وأنا أغادر، أيضًا، فكَّرتُ في صديقي الراحل، صديقي حقًّا — الشاعر الأستاذ أحمد المجاطي. فماذا تراه فاعلًا لو غادر قبره؟ — صنيع عيسى بن هشام، مثلا — وعكف على قراءة أو سماع بعض ما دُبِّج في حقه من المراثي و«عرائض» تحصيل المناقب. لو حدث شيء من هذا لاستغرب من أين طلع هذا الخلق اللقيط الذي نبذه في حياته وتبادل وإياه

كراهية «سامية»؟ عجبًا هذا يقول إنه رآه شهرًا قبل وفاته، ذاك يزايد: بلى زرته قبل، أسبوعين، دعك ممن سجلوا — على الغيب — وصاياه الأخيرة. آخرون عمدوا إلى كلام سابق للراحل، قال فيه ما قال وأصبح في ذمة التاريخ، فشَهَّروا بعِرْض الأحياء والموتى. أولَمْ يَكفِ هؤلاء جميعًا وسواهم أن أحمد المجاطي ودَّع هذا العالم وقد مَقتَ الدَّجَل والدَّجالِين، والكذابين والجبناء، وأشباه الرجال وأقزام الشعراء؟

قبل أسابيع من رحيله الأبدي، طلب المرحوم الشاعر والروائي محمد خير الدين من أصدقائه الخُلَّص، أن يكفوا عن زيارته إشفاقًا بكرامة جسده الذي بدأ يتضاءل من وطأة المرض العضال، ففعلوا مخلصين وتركوه يرتاح موجِّهًا للعالم قهقهته الرائعة. كان خير الدين قد مات قبل جنازته حين كتب قصيدته الممهورة بوحشِيَّة حرب الخليج. لعله أراد، أيضًا، أن يشاهد موته البطيء، وهو في فرجة الخلق اللقيط وكتب:

ماذا يقول مولاي؟
أقول إنني متُّ.

ألا فموتوا، إن استطعتم إلى ذلك سبيلًا.

الدار البيضاء في ٧/١٢/١٩٩٥م

تحليق فوق شرفتها

كلما أملكتُ القلم لأكتب، كلما غطتني أعالي الأشجار، وازدحمَت عند باب روحي كائنات العصور المُدْلَهِمة وجِنِّيات الشعراء المفقودين، كلما سجَا الليل وهبطت ضيفًا إلى قارَّتي اللفلى نحو مدرك المحال، وكلما احتاج الكلام إلى المعنى والمعنى إلى كلامه، واهتاجت في الانتشار رغبة البحر، وتضكمت فوق صهوة اللغة الأسماء والأماكن وانكلارات الصهيل، كلما فقَد الشيء ظله، ابتغى الواحد أضعافه، تَكلَّر القلب على صَكرة هواه، عَمَّ التشابه، انْحلَر موج الخلائق أقزامًا، انهمر الدمع رمادًا وحلَّق الوقت سرابًا وسهادًا يزركش وحده شرفة وحيدة مفتوحة على مطلق أناهَا كيلا تلتغيث إلا في وقع الخطو البعيد لقامات أعطت ظهرها لبهرج العالم وتاهت في اللديم؛ أي في متوالية الحياة/الفناء مَلبُوكة في جدل الأضداد اللانهائية، الأجلاد المحترقة، وتباريح اسمها ما بي أكثر مما بي، كلما ركبت هودج أحلامها بعيون مفتحة، لا هي إنلية لا هي جنية وما شُبِّه لي، غضَّ القمر بصري فتَلَلَّلَت على رموش العين نحو أنفاس لا قِبَل لِلَيْل المدن الغافية على مَضَض بهديرها، وعندئذٍ ترفع أشرعة صدرها تلوح باتجاه تلك الفنارات فترى المراكب متدافعة عند اللواحل قفز منها البحارة قبل الرسو، كل يحمل إليها في يده صدفة أو زمردة أو عينا قربانا، وتمنت كل مقطعة يدها لو تبعث تشهدها — كلما حرت في هذه الفتنة واخترقت دماغي جلبة الأرض حتى الدوار ولم يَعُد أناي يكفيني لحمل أوزار أناه، تجتاحني الكتابة، تصبح هي من يقولني ويتكطاني، فأناور بجهد اللعب الفني كي ألاحقها فإذا هي أكبر مِن صنعتي والصناعة، هي الآمرة الناهية المارقة المُتمرِّدة الشاخصة الشاردة اللردانية اللحمية الخضروفية الشجرية الطيفية المقتحمة الهاربة نلغ الحياة منها يُولد نلغى ما يكف ينفلت وهو جلد هام في جلدها ولا يقبل إلا على سؤال بدئه: ما الكتابة؟

قبلات لنهاية العام

(١) كتابة العين

منذ مطالع العقد الستيني، والشاب القادم من درب غلف إلى حي المعاريف البرتغالي في الدار البيضاء، والذي لم يكن قد أصبح كاتبًا بعدُ، يُلقي بجسده النحيل فوق كرسي من كراسي الباحة الخارجية لمقهى «لابريس»، ويرخي عينيه في غير اتجاه. بعد وقت آخر، سينزل إلى وسط المدينة ليستوطن كل عشية مقهى «الأطلس» (عند مدام بوليت) في شارع الحسن الثاني وخلفه المأسوف على عهدها الزاهر سينما فوكس. من هذا المكان، سيتأكد ولد سيدي بن داود بأن الحِرْفة التي تليق به، والتي ستصبح مشروع ومهماز كتابته كلها هي النظر. وسواء جلس بمفرده أو برفقة أصدقاء ذلك الزمن، فإن شغله الشاغل هو النظر: يمينًا، شمالًا، فوق، تحت، في الداخل، في الخارج، أفقيًّا، عموديًّا، وعمومًا في جميع اتجاهات ومكونات الفضاء، فإنها العين تحوم، تجوس، صاعدة، نازلة، نابشة، حافرة، فاركة، مستنفرة، مستفزة، قارصة، واخزة حتى العظم، وإن شاءت، واستغرقها الأسى وفراغ الجيب، صدَّت عن الخارج وأغْلقَت قُفل النظر؛ لتأوي إلى غرفة مؤثَّثة بكُتب مجانين العالم في سطيحة عمارة بزنقة «فوريز»، بالمعاريف دائمًا، تنهبها نهبًا كالأرضة فيما هي تتسع في شساعة أحلام مورقة وأخرى مؤرقة، ويحها، باتت لا تفلتُ منها الشاذَّة والفاذَّة لتدخل في محصلة تسطيرها، المداد كُحْلُها والكلمات ماؤها، فإن شَحَّت لا يدمع صاحبها. هكذا، آلى على نفسه أن يسعى في الدنيا بحزن دفين مُتَّشحًا أمام الآخَرين العابرين، بِحدَّة النظرة الواصفة، الجارحة، المفككة، المفتتة، الراصدة، المتربصة، النفادة لذعًا، الفاتكة نهشًا، المرفرفة فراشًا، المتدفِّقَة نجيعًا، ثم الساجية رِقَّة حتى نفسها ما قبل الأخير هو رمشة الانطفاء المؤجَّلة دومًا بعد عراك عمر طويل.

كذلك وأكثر يطل علينا إدريس الخوري من «شرفة العين»، نحن الذين توهمنا دائمًا أننا نراه قبالتنا مباشرةً بلا تفاصيل. نحن الذين/هم الذين بين عشية وضحاها، حسبوا أن بإمكانهم أن يُطِلُّوا عليه من علٍ راشقينه بنظرات رثاء أو استعلاء ليس منه إلا أحجامهم التي تَكوَّرت بقدرة قادر، وكان هو قد بذَر النواة وصنَع عجينهم الأول، سيتخَمَّر على مهَل لكنه — من أسف — لكنَّهم تعجَّلوا أمْرَهم؛ فجاء فطيرًا، وها هو في إطلالته الجديدة من كتابه «من شرفة العين» الصادر حديثًا، يُذكِّرنا بأن الكاتب ليس «النيف والشلاغم» كما يحلو له أن يمزح، بل هو عين ترى، وهي إذ ترى كأنَّها تصنع العالم من جديد وتتفوَّق عليه، فمرحى بكتابة العين.

(٢) في مطلق أوانها

صديقي الآخر، بل هو الحبيب، بدا مُحرجًا؛ إذ أصدر ديوانه الشعري الجديد، هو الشجاع، الثابت، الصامد وسط الإعصار، الشِّعر في دمه، صِنْو تَنفُّسه، فيه شَدْوه، وهو بعد الله والوطن يقينه، وأحس رغم هذا كله بالحرج وهو يسمي ابنه التاسع، وكان قد أنجب الأول في سلالته الشِّعرية سنة ١٩٦٩م مع «شواطئ لم تعرف الدفء»؛ أي إنه ربع قرن من محبة الكلمة والغناء الغجري واللعب الجدِّي في طفولة الماء هو الذي يفترش التفاعيل ويلهو بالمجاز، كما يشاء بين أعظم نهرين، هو سيد بابل الذي وُلد في بابل يحس بالحرج فيعنون ديوانه الجديد «فوضى في غير أوانها». كأن الشعر لا يليق بالحِصار، كأن الشِّعر تَرَف في زمن الحصار. هذا بعضُ يقين حميد سعيد، وأنا أعرفه على خُلُق عظيم، هو مثل الاعتذار هذا العنوان لأبناء شعبه ووطنه، لبادية ومُصْعَب وحفيده إبراهيم، للفرات وقد جرى ماؤه دمًا، للمحاصَرين والصامدين، حفنة من تراب، حفنة من رز إن وُجِدَت تكفي ليبقى الوطن بجرحها المفتوح البلاد باقية، أبناؤها من فنائهم يتناسلون ولا يُباعُون في نخاسة العملاء.

لا يملك الشاعر إلا شِعْره، دارته البسيطة، الأليفة في حي زيونة البغدادي، نحن نعرفها، حين زارنا قبل أشهر كان يرتدي ثيابه القديمة التي نعرف ووجهه وضَّاح وثَغْره باسم، بغداد كلها، بتاريخها وسلاطينها ومكتباتها وخاناتها وفتنتها وشَدْوها ورَقْرَاق دِجْلَتها أهداها لنا، هو الذي لا يملك منها شَرْوى نقير، وقال امكثوا فيها شهرًا أو دهرًا، فهي دومًا بأعمار الأحبة وتغاريد الشعراء آهلة. أم غِيضَ العِدا من تساقينا الهوى أم نَضِبَت تلك الكأس، شح الرزق فانفض الإخوان عن الخوان، سترون كيف ستمتلئ غدًا،

كَرَّة أخرى، حتى الجمام، وَيْحَكُم ستنظرون غدًا إلى وجوهكم في ماء دِجْلة، في وجه الشاعر المُستَحي من جُوع الوطن، فكيف ستبصرون إن أبْقَوا لكم من شَرْوِكم بثمن بخس من عيون؟!

لا تخجل حميد من شعر تنشده في زمن حصارنا، فديوانك فوضى ما أجملها، في مُطلَق أوانها لا في غير الأوان. يا حارس القرنفل صَدِّقْني، فأنا والتي تكتب على دمها، نُجدِّد لك وعدًا بالقيامة، الشِّعر فيها رسول الأبدية. من كل مكانٍ الطوقُ اكتمل وها فوضاك ستُعْتِقنا، أرض العراق، وليس للشِّعر أوان في العراق.

(٣) قبلات

اختارت في ليلة العام الجديدة أن تبقى وحدها. الليلة باردة وهي تتلفَّع بوحدتها، وتَتدفَّأ بحزن أَعدَّت طقوسًا كثيرة لاستحضاره. لم يَبقَ من فرسان ليمرح في بستانها فارس، وحين انتصف الليل انطلقت في بكاء أو هيستيريا ضحك وقبلت ذكرى قبلتها. في مكان آخَر كان هناك عشاء عائلي وأُلْفة وصورة من غياب حين انتصفَ الليل ضَمَّتْها إليها قبل أن تستيقظ في الصباح باكيةً من وحشة، فقبلها، البحر البعيد في الضفة الشرقية تهادى بصوتها، قالت سأحتفظ لك بقُبْلَة العام الجديد حتى تأتي، فمتى ستأتي؟ نساء، أطفال، رجال من كل الأعمار التقينا في ساحة لا نعرفها ولا نعرف لماذا التقينا، ولم نكن متظاهرين ولا غاضبين، ولم يكن أمامنا من سبيل للفرح، بعد أن يَئِسنا من كل شيء فأمطرنا بعضنا بالقُبَل.

السماء أيضًا شاركتنا فرحنا فامطرَتْنا بقُبل رخية، ونحن نُهلِّل أن الحزن ليس مهنتنا، ولا نريد من العَلِي القدير في هذا العام الجديد سوى الفرح، قضينا وقتًا على هذا الحال، ولم نكتشف إلا متأخرين أننا كنا ... في العراء.

يناير ١٩٩٦م

في انتظار أفق المحبوب

«أفوس، أفوس ... صافي، صافي»

هل هي نهاية المطاف، أم إني أسلك الخطوة الأولى في بداية الطريق؟ هنا، عن قرب، على عَتبة وفي مدخل هذه المدينة، والناس نيام، وأنا وحدي تتبعني نجمة الأماني أو هكذا يُخيَّل إليَّ من شدة وهمي. ما أكثر الشعاب والدروب التي عبرت! ولكن ما غمرني أبدًا هذا الإحساس الطاغي بالرهبة، بكل الزمن الذي عشتُ ومعه تَصلَّبت، يدق حادًّا في القلب تكاد تسمعه قرع أجراس الكنائس أيام الآحاد والأعياد المسيحية.

لا أستطيع الحسم لأقول إن الصورة، بل الصور خلفي أو أمامي، أو لأدرك الفرق الحقيقي في الشكل والمعنى، بين الحقيقي في الشكل والمعنى، بين أزمنة سحيقة وأخرى منتشرة على مدى البصر، بين المسالك ومدارات تلك الأراضي التي سرنا فيها، والتراب وقد شققنا صدورنا أملًا في انعتاقها، ومنها صعدًا نحو البلاد الهامدة أحببناها، نحبها، ونأبى أن تصبح نهبًا للجراد الوليد، المفقوس من بيضة فاسدة، حتى إني ما عدتُ أرى في كل ما يقع عليه بصري من قباب، وقمم جبال، وطوابق عمارات، وحشود بشر في الأسواق، والطوابير، مع الصفوف الأخرى المنحنية كالديدان عند أعتاب القلاع المعلقة؛ لا أرى من هذه الأشكال ونظائرها سوى أعشاش لِبَيض فاسد، وما أريد أن أكون فيه أو يأتيني منه نَسْل.

أنا الآن في خطوة العراء والظلمة المعتقة، وما كان الذي تركته خلفي ضوءًا ولا رءوس مشاعل، وقد مضى عليَّ زمن أبصرتُ فيه الشهاب يسطع تلو الشهاب، وجسدي من وهج النار مُتَّقِد، كلما عبرتُ قرية، مدينة، دواوير، قصَبات، طُرُقات ملفوفة في الغبار، جلسات رجال القبائل حول حطب الشتاء وزوجاتهم يَعْلِكْن اليأس أمام المواقد، خماسين مُتَّهمين

بسرقة محصول السادة، كلما عبرت جسدي المتسلسل من وديان السيبة، العطشان أبدًا لفوراتها، وأمسكت نظرتي الشغوف، بالحدس والحس، وللنار والدمار، هتفت لسنوات الجمر خاطت عمري، نسجته على نَولِها وبقيتُ كي أبقى أرى الخيوط تنسلُّ واحدًا واحدًا، والدم الذي فاض من التراب إلى التراب ليس إلا بُقَع عفونة أو يكاد؛ فلا أعرف وأنا على عتبة هذه المدينة إن كنتُ سأسترجع ذكرى ماضي أو غدي الماضي. هي وحشة الديار الممحوة أو الموشومة في سراب تلك الصحراء تعود إليَّ متى تقدَّمتُ في غدٍ ينفلتُ فأحسُّها رعشات تتنمل فوق الجلد، وهو ينكمش تدريجيًّا من أثر الأيام واحتقان الغضب. هي التَّراوُح المُتموِّج بين ما كنت وما أنا عليه وما سأسير نحوه في المجهول. أم تراه المعلوم مكرورًا يُستعاد في ميناء ساعة عَقاربها محكمة الضبط بأيد مُتمرِّسة بلَيِّ الأعناق وقَطْع الأرزاق.

ولذلك لم أحر جوابًا أمام الذي جاءني بعد فوات الأوان ليسألني لماذا لم تَتمنَّ لنا شيئًا، والعام الجديد هلَّت طلعتُه. أردتُ أن أقول له إنني ما تَعوَّدتُ تقديم القرابين لأحد، وأن أعوامكم باتت متشابهةً مثل هذه السحنات التي بلا ملاحة ولا ملامح. ثم ماذا تنفع جميع تَمنِّيات الأرض وبُسطها مسحوبة من تحت أقدامنا فلا نملك إلا ألسنةً مُدلَّاةً من فرط بلاهة أو لُهاث من أجل لا شيء. فقد مر الحصاد باكرًا تحت أبصارنا فلم نقبض عليه، وحين اطمأنُّوا جميعًا، وبلا استثناء، إلى غفلتنا ألقوا القبض بيسر على ألسنتنا، فربطوها إلى صحون مُتْرَعة بالخُطب، والتحليلات، والاستراتيجيات، وأصناف أخرى من الويلات والبلاهات. نحن لم نَلعقْ من تلك الصحون فظنُّوا أننا عِفْناها، فقدَحوا زناد ذكائهم، الخارق طبعًا، إنهم خارقون ونحن مُختَرَقون!

وقالوا: هؤلاء يهوون الرسوم المتحركة، لنمطرهم، إذن، بوابل من الوجوه والصور والمَشاهد المثيرة من ألوان مختلفة، وسَتَرون أنهم سيلحسونها مثل الكلاب تلحس أيدي سادتها ... وكان قد فات الأوان فلم أَقُل شيئًا معولًا على فِعْل آخر من طراز مزاجي، فمثل أي كائن رومانسي، أي مخدوع، جلستُ عشية عامهم الجديد أمام عتبة أوراق بيضاء. كلَّا، لم يَدُر بخلدي نَسْج كلام مما يسمونه «التجربة الإبداعية»، ويَعقدون له مواسم وأسواقًا لتقصِّي ينابيعه، وشرح محاليله. مثل هذا الكلام تركتُه ورائي، مثل مستقبلي، جريًا على سُنَّة حميدة سنَّها قبلي السينمائي الإيطالي فيتوريو غاسمان. استللتُ شعرة من حاجبي وشرعتُ في تسويد مفردات: هواء ... بحر ... أُفُق ... دنيا ... أمل ... فرح ... حلم ... سحاب ... طريق ... لورا ... غدًا ... لورا ... واحدة ... قُبلة ... دائمًا ... موت ... أدب ... أنا

... عند الكلمة الأخيرة حدثَ ما يشبه التشوش الذي يلحق شاشة التلفزيون عند اضطراب الإرسال؛ بدت بعض المفردات مُمطَّطةً، مُنتفِخةً، أخرى مُمدَّدة، نَحيلة. مرَّة أخرى بعضُها يحمل ظهرًا ذا حدبة أو بطنًا منتفخًا، أنا، وحدها برزت دفعة واحدة ملء الشاشة ثم اختفى لها كل أثر، ومن الجائز أني لمحتُ أصابع تمتد إليها مُطوِّقة عنقها، من الجائز أن حروفها لم تتشكل إلا من فيض أنانية زائغة وها قد وجب إنزال العقوبة الصارمة بمحوها، وإلا كيف لي تفسير الامِّحاء المتتالي للمفردات، ومعه الوجوه تتراجع شأن ممثلين مُتعَبِين خلف الستارة أو الكواليس تاركة أقنعتها وحْدَها تخوض اللعبة؟ وحين خططت مفردات يتيمة، عَزْلاء، فوق أوراق بيضاء، اختفَت أوراقي كما يفعل السَّحَرة. أؤكد للسادة الكرام، رعاة حقوق الإنسان والبقر والديدان، أن المفرَدة وهي منفردة مثل صاحبها، واقعة خارج تركيب الجملة لا تؤذي أحدًا، مع اقتراض أن كاتبها سَيِّئ النِّية، عدواني النزعة من الصباح إلى الصباح ... فلماذا اختطفتم، إذن، أوراقي وأرسلتم خدامكم، تحت جنح الظلام، إلى صفحات بياضي؟ كنتُ رسمت: أُفق ... أمل ... حلم ... لورا ... أنا ... دائمًا ... وهذا كل ما في الأمر، وهو ما جعلني أنسحب قليلًا، مُؤقَّتًا، إلى صَمْت أعشقُه ولا أجده، ضَيَّعتُه، مُمتنعًا عن التَّمنِّي، مُمتنعًا عن الخوض في اللعبة ... الآن، أما وقد اكتمل المشهد، مرسومًا بريشة الخداع والتضليل، والكومبارس بعد التُّخمة هائج باللغو أدعوكم لترددوا مع المغنية المغربية أغنيتها الشهيرة «أفوس، أفوس ... صافي، صافي»!!

من تفاصيل الوقت الضائع

الشخص هو هو، لي اليقين أنه لم يتغير، سحنته، على الأقل هي هي، وباستثناء شيب يفضح شبابنا الآفل فالرجل بدا لي هو هو كما عهدته أيام كنا في منافينا. أوه، ربما أكثر وسامة، وأحسن قيافة، وهذا طبيعي، متناسب مع منصبه الجديد، نحن الآن في البهو الخارجي للقاعة الكبرى التي ستشهد حدثًا ما تضطرني لياقة عائلية لحضوره صاحبي القديم هنا، يا للصدفة الجميلة، ومن بعيد هششتُ له وبششتُ، إي والله هو وما عندي شك في أنه سيبتهج ابتهاجي لرؤيته، سيرد لي الابتسامة أولًا، وما أراه إلا معتذرًا للشخص ٢ مؤقتًا ليُقْبِل عليَّ كما تقتضي أعراف الصُّحبة. مَضتْ ثوانٍ ولم يفعل بينما كنتُ أسرفتُ في سذاجتي، مُتقدِّمًا باتجاهه خطوة فارتبك وارتج، واحمر قبل أن يصفو. وفكَّرْت بألَّا مَعرَّة بيننا ولا دَين لينقلبَ إلى هذا الحال بنظرته تزيغ عني لحظة في أرجاء البهو لترتدَّ

سريعًا نحو الوجه الملائم قُبالتها والوجه ما أشرح أساريره! بشوش إلا عندما أصبحت لصقه تقريبًا، رأيتُه مُربَدًّا فمُمتَقِعًا. وا عجبا، أهذا صاحبي القديم الذي ... لم يَعُد له مفر مني؟ إما أن يحضنني ولا أنكر. الشخص الذي كان في اليسار أمسى في الوسط؛ ولذا ما حضنني ولا أنكر، دفع إليَّ يدًا باردة استلَّها بسرعة من قبضتي الحارَّة كأني سأسرقها منه إلى الأبد، وبتكلُّف شديد، والامتقاع لا يغادره، قدَّم لي الشخص ٢ إلى جانبه: «السيد المحترم، معالي الوزير، وزير الـ...» نطق كلماته مموسقة وانتقل ليُقدِّمني بخُفوت وسرعة كأنه خَجِل من وضع ورطته فيه: «الأخ ... الأستاذ ... الكاتب ...» وإذن، هذا كل ما في الأمر. يا لي من مُغفَّل! أم تراه هو المغفل ينسى أن الوزير عابر والكاتب باقٍ؟ ... لحظةً وانتبهتُ أنه يمشي خلف وزيره ووِجْهَتُهما معًا القاعة الكبرى، تلك.

الولد الآخَر الذي يعرفني، وقد أصبح — تبارك الله — رجلًا، يعني، في تعاقُب هذه السنوات العجاف — السِّمَان، صادفْتُه يمشي الهُوَيْنى في الشارع الليموني — هذا اسم سأقترحه ذات يوم على إحدى البلديات غير الملوثة — ولم يكن ذلك من طبعه، فما عرفتُه إلا لاهثًا يسعى في أنواع السعي المختلفة، ما يُتْقِنُ منها وما يتعلم، إلى أن فتح الله عليه بكرسي وثير فانتبه إلى أهمية ترويض مِشْيَته لتتناسب، أقصد لتَتناسَق مع «تطلعات» الآخرين إليه، ومع الأطقُم الجديدة المنتقاة لقامة مُرتَّبة بنسب مضبوطة كأنها خارجة توًّا من صناديق الاقتراع. وللحقيقة، ولتاريخه الجديد، أعترف أنه خلافًا للشخص، سلَّم بحرارة وهو يُجيل الطرف بين الأرض وقامتي والمساء، ولستُ أدري لماذا بدا لي كمَن يحاول أن يُثبِّت قدميه في الأرض، ولكن جاذبية خاصَّة لا تُوهَب إلا لأمثاله ترفعه إلى السماء، والحاصل أنه منَّ عليَّ في الأخير بعبارة ثمينة أظن أنه عيَّرَها بميزان الذهب فقال لا فُضَّ فوه: «آه، أوه، لقد قرأنا لك مقالتك الأخيرة ...» وإذ سمعتُ عبارته خِفتُ أن تكون غشاوة قد سقطت على عيني، فأنا رأيتُه واحدًا وها هو يصبح جمعًا، ثم إني، بعدها، وبَّختُ نفسي؛ لأني لا أعير اهتمامًا لهذا الصنف من الـ... فيما أكتب، بينما هم أيضًا ربما يقرءون، وإذنْ ما دام الشخص رقم ٢ قال عبارته تلك بكل وثوق فأنا، إذنْ أكتب.

انتبهتُ إلى الساعة، انتبهتُ إلى سطور أخشى أن تذهب هباءً، وانتبهتُ إلى أن هناك ما هو أهم من تفاصيل الوقت الضائع. وعندي صفحة واحدة سأتركها بيضاء ليملأها كل قارئ بأفق انتظاره الخاص. أما أنا فسأذهب إلى البحر أو إلى نَفْسِي أسكن إليها قليلًا في انتظار أفق المحبوب.

٦/١/١٩٩٦م

وردة واحدة تكفي

لرحيل ميتران

لو عُدت الآن إلى عنوانك القديم، لوجدتَ شارع الشَّجر الخصيب أشجاره عارية تُنصِت إلى غيابك الدافق يُدفِّئها من قُر ومن وحشة الرحيل يمشي خفية كالخطوة تلامس الأرض ولا. لو دفعت باب الحديقة البرَّاني، اختلست إلى العشب المُترعِرع نظرة، دفعت القدم اليمنى أو اليسرى نحو بَهْو العمارة، لرأيت نهر السين يدخل من الباب الفرعي ويغسل وقت المغرب من لغو العابرين، العائدين من مَحرقة المدينة مغتسلًا عند قدميك، سائلًا من أين لك لون هذا الطين على جبهتك وكأنك عشتَ العمر كله في رائحة هذا التراب؟ هو ترابك فيه من عرقك ودمك. ماء السين فيه ماؤك ومَن كذَّبك ليسأل وجهها الصَّبُوح كيف الْتَمَع فوقه الندى وانتفضَ الندى لمرآها فَهمَى مطرًا.

لو أدرت المفتاح مرَّتين في باب عنوانك القديم، ودخلت توًّا إلى الصالون، لسمعت نوتة موزار في منتصف الكونسرتو تستأنف العزف مُحتجَّة كيف تتركُ تناغم اللحن هنا لترحل نحو تهافُت الإيقاع هناك. لا يفيد الاعتذار؛ لأن الإيقاع سقط فعلًا، ومثل أسى تَجرُّه على مضض، تَنتقل إلى غرفة الخزانة فترى الرفوف التي أفرَغتها تَنبت لها دفعة واحدة عيون جاحظة، وتتدلَّى منها ألسنة ماكرة: هكذا، إذن، لا تَكفيك الكُتب فعدتَ لترعى عُشب الذكريات وأنت اليوم فيها ذكرى! الحيطان ملساء، المسامير التي دُقَّت فوقها في عُمر المَنافي وهي ناتئة مَدقوقة اليوم في جسدك، الإطارات بعدُ معلَّقة وهي فارغة. الصور القديمة فيها نَزعتها ونثرتها كما نَثَر سَمِيُّك وصاحبك الراحل أسماءَ أصدقائه واحدًا،

واحدًا، كلما ذكَرَهم، ليلغوا في دمه بعد أن جفَّ في العروق، مُواصِلين المكر والخُبْث مع الموتى، كأن جُثث الأحياء لا تكفيهم لدَفْع المسغبة، ها الصور، من خرائب ظهر المهراز إلى أطلال شالة، مرورًا بأسوار الباستيل الزائلة، حائلة، مائلة، كانت ميساء فصارت مُهلهَلة، تساقطت منها وجوه الرجال تباعًا — إنهم يتسابقون، لعلمكم، في السقوط — قليل منها يعلو فما يلبث أن يَهوِي من شدة زهو، وكثير يتطابق فوقَه غُبار النسيان، وفئة منهم على كبر، لا بكبرياء، كأنَّما يغارون من ماضيهم فتراهم يبيعون حاضرهم برخص في زمن بُخِسَت فيه الأسماء وتَبدَّدتْ تلك الظلال العالية.

لو عدت إلى خمسة عشر عامًا إلى الوراء، أو جاءت الضفة الأخرى تَطرُق بابي، تفتح بيتي في المَنافي الجديدة — بات من الصعب أن نقبض على فكرة الوطن في متاهة المناقَصات وسوق النخاسة العلني، إلى حد أن مَن يفتح عينيه حين يفتحهما يرى في ظلامنا هذا أناسًا زعموا يومًا أن الوطن ينبض من قلوبهم، وهم يلعبون الآن دور المؤنس والبهلوان، ألا انظروا معي إلى هذا السيرك الكبير — لو عبرت ضفة السين من جهة كنيسة نوتردام إلى شارع السان جيرمان مخترقًا Rue de Bièvre لرأيتَ في وسطها، من جهة الرصيف الأيمن، دارًا عتيقة ببوابة خشبية غامقة الزرقة، نصف مواربة، إن أنت أطللتَ خلفها رأيتَ حوشًا صغيرًا، مُبلَّطًا، يؤدي إلى دارة أرضية يعلوها طابق وحيد، وفي المكان غرف معدودة مؤثثة بذوق وبساطة ومنها غرفة الكتب عمادها وسقفها وأرضيتها، يؤمها الرجل وحيدًا كلما سَنحَت له فرصة العودة من الحزب أو التجمع أو الضرب في الأرض الفرنسية من أجل القضية الاشتراكية. يدخل ويخرج من هذه الدار واثق الخطوة، بطيء المشية، وبعينين تنظران إلى التاريخ يمشي مثل عابر سبيل بين السين والسان جيرمان، وسكان الدائرة الخامسة جميعًا قابلوه تقريبًا، وما رأَوه عائدًا قطُّ إلى بيته بدون كتاب. قبل خمسة عشر عامًا وصلتُ إلى باريس والرجل ذو الخطوة الواثقة يَتهيَّأ للانقضاض على الحكم فيما جئتُ أنا للانقضاض على الوجود. كان قد بدأ الخطوة العملية الأولى في هذا السبيل بدءًا من سنة ١٩٦٥م. وبالنسبة لأبناء جيلي فهي سنة لا تُنْسى وقد ارتبطَتْ باختطاف المهدي بن بركة وأحداث الدار البيضاء الكبرى، وتلك قصة أخرى. بين مُدرَّجات الجامعة، وفتنة النهار، ودهاليز الليل المعتق، لم أقُل لأحد إنني اشتراكي مثل كثير من الأدعياء — سمعتُ مؤخَّرًا أحدهم يتبجح بأنه اشتراكي فيما هو واقف منذ سنوات في طابور النخاسة ينتظر دوره! — رحت أتعلَّم ثقل الكلمات في الشارع لا في الخطاطات، وبدوا لي زاحفين كالسيل العَرِم في الموجة العالية سنة ١٩٨٠م، وما هي إلا شهور وجاء

الربيع. كان الجمر قد اتَّقَد منذ مايو ١٩٦٨م ولكنه ما لبث أن خبا أو علاه رماد الشك والقلق، فليس سهلًا الانقلاب على الزمن وهو ما أراده الستينيون في انتفاضة احتاجت إلى عقد ونيف لِتُوتِي أُكُلها في شهر مايو الرائع من سنة ١٩٨١م.

وكانت أنفاس الربيع قد هبَّت مبكِّرةً في أصوات الفتيان الصادحة بإسقاط اليمين، وفي حماس لاهب انخرطت فيه مختلف فئات الشعب المُصمِّمة على التغيير، وفي عيونها يقيم طيف الرجل. هو لا سواه، بعد أن أقصى جميع الغرماء، يتقدَّم رعيل اتحاد اليسار، اليسار الفرنسي العريق يصب كله في قالب رجل واحد اسمه فرانسوا ميتران: هو ذا قدَر الزعماء بإهابهم الذي يرسم طريق المجد.

أنا ممن يميلون إلى التأريخ بالوجدان، بعبق الوردة، أو غرام البنفسج بذكرى المحبوبة، تاركًا الوثائق والتواريخ — وعندي منها كثير — لمن يستكثرون عليها اسم الوردة؛ ولذلك أقول: إن تاريخ فرنسا الجديد بدأ ليلة العاشر من مايو ١٩٨١م في ساحة الباستيل، وقد تَدفَّقَت إليها أنهار الشباب والكهول والشيوخ، النساء والرجال، بعشرات الآلاف. ونحن العرب ليلتها ماذا دهانا ... كنا نحتفل وكأننا مَن حرر الباستيل؟! لم أُحِب أمل مثلما أَحبَبْتُها تلك الساعة وهي تبكي مُعوِّضة هزائم العرب بانتصار المرشَّح الاشتراكي في معركة الرئاسة، بوصول ميتران أخيرًا إلى قصر الإليزيه. كنا تناخَبْنا حتى الصباح — أعني عشرات ثم مئات الآلاف — كنا غَنَّينا، رقصنا، نزَقْنا، ولا حرج في نزق الخائبين يفرحون مَرَّة في العمر. وبقينا على تلك الحال إلى يوم ٢١ مايو، وقد استعدنا شوارع باريس وميادينها، مُصطَفِّين في زنقة سوفلو، بالدائرة الخامسة، ونحن نراه يصعد، واثق الخطوة يمشي ميتران. بيدٍ يحمل وردة حمراء ومن الأخرى ترفرف القبلات كالفراشات. الوردة هي ما اتخذه الحزب الاشتراكي، لا أقول شعارًا، ولكن رمزًا وفألًا لحملته الانتخابية، وبقيت كذلك فيما توالى من السنين، ولعمري إنَّ رمزًا كهذا خير من شعارات العالم كلها. قُبالة البانتيون، مقبرة العظماء، وقفنا بأرواح مرحة، وعيون دامعة فرحًا، تحت مزن سكوب، ننظر إلى الرجل في يده وردته وهو يدخل بمفرده إلى المبنى ليضعها على رماد جان جوريس، ملتحقًا، كما ينبغي له، بأقرانه من العظماء.

مذ ذاك التحقَتْ فرنسا، بأجيالها المختلفة، والجاليات العديدة المتعايشة فيها، بزمن الحكم الاشتراكي، ومنه بمصير وأفق أحلام ومشاريع سيكون ميتران صانعها وسيدها على امتداد أربعة عشر عامًا، مجموع سُباعِيَّتَي الحكم التي قضاها في قصر الإليزيه على الرغم من فجوات وانكسارات اخترقتها.

لست هنا في مقام التحليل والعرض السياسيين لأتنقل بالقارئ عبر المقامات الغنية، المتعددة، والمعقدة لأطول فترة يقضيها رئيس فرنسي بالحكم في ظل الجمهورية الخامسة، ولا لأستعرض معه مراحل التجربة الاشتراكية في السلطة، سواء بمبادراتها ومشاريعها التغييرية على الأصعدة كافَّة، أو إخفاقاتها والخيبات التي ترتبت عنها، شأن كل تجربة لا تستحق اسمها إلا وهي في مخاض التشكل المادي، بعد النظري-الحلمي، ودخولها مُعترَك الصراع المباشر متنازعة بين الطموح من جهة، وقدرة الواقع بشتَّى معضلاته على لجمه أو تعديل مجراه، من جهة ثانية، والتباعد المختل المشهود في جدول أعمال التجارب اليسارية وممارستها أجهزة وأفرادًا حين تعتلي سُدَّة السلطة، من جهة ثالثة.

أقول: إن هذه العناصر مجتمعة قرينة بعرض خصوصي لصيق بالمفاصل الأساسية للمجتمع الفرنسي في مرحلة من أخصب مراحل تطوره وإعادة تَنَمْذُجه أكثر من أي شيء آخر، في هذا المقام، هو استخلاص الروح الجوهرية للمرحلة في ارتباطها مع الإرادة الخلَّاقة التي رسمَتْها ملامح وجود، وصنعتها هياكل بناء وتثوير، وعندي أن ميتران كان اليد الصَّنَاع لها، وصاحب فلسفتها، والقَيِّم على مكاسبها وإخفاقاتها في آنٍ. ولعل ما هو جدير بالتسجيل، من باب المفارَقة، أن الزعيم الاشتراكي الذي أقام أركان بيته العتيد على أنقاض البيت الديغولي، الذي لم تفارقه روحه رغم كل شيء، كان مدفوعًا في مشروعه الكبير — نستطيع القول الآن بأنه مشروع تاريخي — برغبة قتل الأب، هو الذي تَجنَّب دومًا التلفُّظ باسم الجنرال ديغول، وهو ما تحقق له بالفعل ليخلفه في مخدع فرنسا وجمهوريتها الخامسة زعيما فحلًا سيخصب جيلًا بأكمله، هو الذي يُطْلَق عليه اليوم «جيل ميتران». إن ما أغاظ اليمين حقًّا في تجديد انتخاب الرئيس الراحل لسباعية حكم ثانية (١٩٨٨م) هو إدراكهم بأن الرجل أفلح في انتزاع ثقة الفرنسيين بشخصه هو بالدرجة الأولى، وبضرورة الزعيم الجديد الذي أطاح نهائيًّا بنصب الزعيم القديم الذي تَصوَّرَته النوستالجيا اليمينية دائمًا الواحد الأوحد بلا منازِع. لا عجب إذا كتب الصحفي والروائي فرانسوا جيسبرغ، وهو رئيس تحرير «الفيغارو» الشهيرة — الحصن المنيع للصحافة اليمينية — وبمناسبة هذا الفقد: «إن فرنسا فقدَت جزءًا منها»، وضِمنًا فهي فقدَت جزأها الآخر منذ رحيل الجنرال؛ وبذا فهي تعيش الآن حِدادًا ويُتمًا كاملين. أجل تودع القَرن بإحساس تراجيدي بِيُتم الزعامة التي رحلتْ إلى الأبد لتستسلم إلى حكم الرؤساء العاديين. ما نظن أننا نُبالِغ إن قلنا بأن فرانسوا ميتران هو آخِر غصن في شجرة أنساب الزعماء التي كانت باسقة طيلة قرن. ذاك الإحساس ما يجعل الفرنسيين يبكونه

الآن بدمع ساخن؛ لأنهم واثقون، وهم شعب الحب والشعر والجمال، والحزن أيضًا، بأنهم لن يبكوا أحدًا بعده، هو العملاق، القاطع كحد السيف، الرقيق كنسمة، المثقف الكبير، الشاعر بصمت، رجل الحرية والمبادئ العظيمة التي عشنا بها في المَنافي، وباختصار الزعيم حقًّا ... فما أحوجنا إلى زعماء نبكي رحيلهم.

١٣/ ١/ ١٩٩٦م

الكتابة بالبندير

(١) لعبة المحو

ما جرى لعلي الجديد يختلف كثيرًا عمَّا جرى لأبيه يوم كان طفلًا، يقرأ نفسه ويرى صورته ونمط حياته هو وفاطمة، كما سجَّلها ذلك الكتاب المدرسي الذي لا يتذكره إلا أبناء جيلنا، وفرضَت علينا صوره فرضًا إلى حد أنَّنا صدَّقنا، أحيانًا، أنَّنا حقًّا على شاكلة ما رسمه الآخرون وقضينا عمرًا كاملًا لا نعبأ بحقيقتنا أو ننبذها نبذًا إذا ظهرت خلافًا.

ذات مساء جاء إلى علي الجديد أبوه، كما اعتاد قبل أن ينام، إما ليطمئن لدفتره المدرسي، أو ليروي له حكاية مُسلِّية أو ذات عبرة. هذا المساء قرَّر الأب أن يقص على ابنه بعض ما جرى لـ «علي وفاطمة»[١] في الزمن البعيد، وهمُّه تَنبيهُه إلى الفرق بين صور الحاضر والماضي أو ما بينهما من علاقة، كان الأب يَعْلَم أن ابنه فَطِن وإن لم يَخْلُ من رعونة، فأراد له بهذه الرواية أن يزداد فطنة ويتدبَّر ليعقل أكثر، وهذه على كل حال، بغية كل أب.

استمع علي الجديد إلى أبيه وهو يروي له بحَدَب وهدوء سيرة طفولته ويرسم له ملامح وجهه وطباعه، كما صاغتها ورسمَتْها له من قبل يدٌ غير يده. وكان طيلة الجلسة يلتفتُ إليه التفاتة من يريد أن يعرف تأثير حديثه في نفسه. وما مَضت عليه إلا دقائق رأى الأب القديم بعدها ابنه يُسْلِم جَفْنَيه للنوم، لم يَغْتظْ لنومه بل سُرَّ وهو ينوي أن يكمل البقية في مساء الغد، وما كان الابن نائمًا ولكن مسبِلًا جفنيه؛ لِيوُهم بنومه، ويفعل ما يحلو له، وتلك من حيله. وبات ليلته على نِيَّة فعل اعتزم تنفيذه في أول سانحة.

---

[١] عنوان كتاب مدرسي كان يُدرَّس بالفرنسية في الصفوف الابتدائية في الخمسينيات.

في اليوم التالي ذهب إلى المدرسة، وكانت الحصة الأولى خاصَّة بدرس الرسم طلَب المعلم من الأولاد إخراج الدفاتر بيضاء الورق، وأقلام الرصاص، والأقلام الملونة، والْتفتَ هو إلى السبورة السوداء، وبدأ يرسم: أولًا، حيوانات: أسد، نمر، ذئب. ثانيًا، دواجن: دجاجة، بطة ... فأشخاص: دَرَكِي، شرطي، راقص. وأخيرًا أماكن: مدرسة، دُكَّان، حديقة، ورسم عليٌّ الجديد كل ذلك بإتقان في دفتره ولوَّنه أحسن تلوين. وحين عاد إلى البيت أظهر رسومه لوالديه ففَرِحا به، وهنَّأه بشكولاتة الْتَهمها عن آخِرها قبل أن يأوي إلى مضجعه وقد عوَّل على شيء.

بعد ساعة نهض من فراشه مرتعدًا، فقصد حقيبته المدرسية وأخرج منها دفتر الرسم، ومن المقلمة ممحاة. فتح الدفتر فرأى الأسد. خزَرَه جيدًا وتصدَّى له بالمحو، وبعد أن محاه هتف بفرح: أنا الأسد، أنا الأسد. محا النمر: أنا النمر أنا النمر ... محا: أنا الذئب. واصل المحو بمثابرة: أنا الشرطي، أنا الراقص ... وإذ محا الذئب أنا الذئب. كلما محا من صور في الدفتر برزَت له صورٌ أخرى: المدي: محاه، المعلم: أيضًا، رفقته الصغار: محاهم، أمه: محاها، أبوه محاه أيضًا. وحين أحسَّ بالعياء عاد إلى فِراشه وهو يشعر بمتعة، لكن الممحاة انبرت له تَحُول دونه والفراش. ظهرت له كائنًا ضخمًا وطرحَتْه أرضًا وهي تمحوه. شيئًا فشيئًا مَحت الشَّعر والجبهة والحاجبين، فالعينين. حين اقتربت من الفم أرسل صرخة هرع على إثرها أبوه فوجده يهذي: المِمْحاة تريد أن تمحوني فخَفَّف من روعه ونصَحه ألَّا يلعب هذه اللعبة مرة أخرى، ثم أكمل الأب القديم لعليٍّ الجديد قصة «علي وفاطمة».

(٢) ... ولعبة القدر.

«فكنت أقف في انتظار الحافلة (...) وفي يدي صديقي البندير، بل رفيق العمر، ملفوف في كتانة بيضاء.» (ص١٢٨)، واقرأ في مكان آخر «نعم (...)، إن البندير صار قلمي بالفعل ... به عشتُ وتزوَّجتُ واكتريتُ واشتريتُ الملابس والسيارة ... وركبتُ الطائرة وزُرت بلدان العالم» (ص ١٢٩). من هو قائل هذا الكلام؟ وفي أي سياق؟ وأي أفق؟ أسئلة خفيفة على اللسان، ثقيلة في ميزان «طي الضلوع» وما أدرك ما تطوى الضلوع إذا عرفت أن القائل هو العربي باطما، أوه، إذن هو ذلك الشاب النحيل، كثُّ الشعر، الضارب على البندير في مطلع العقد السبعيني مع وفي قلب فرقة «ناس الغيوان»، الشهيرة والمتميزة، وهو ينشد بلثغة عذبة حرف الراء، أجل هو وآخر، هو، يعني حلقة أساسية من تطُّور حاسم في

أغنية المغرب وإنشاده الشعبي، أترك النظر فيه لمن هم أجدَر بهذا الميدان. وآخر يعنيني مباشرة بحكم السياق الذي يندرج فيه الكلام الموضوع بين قوسين أعلاه، وأقصد به كتاب «الرحيل» (سيرة ذاتية - العربي باطما - منشورات الرابطة - ١٧٣ص من القطع الكبير) فالفنان باطما يهل علينا، يفاجئنا، بل ويُدشِّن الموسم الإبداعي الأدبي نيابةً عن جميع الأدباء والكتاب بـ «سيرة ذاتية». ينبغي لي أن أترك جميع التحفظات، والاحترازات المعرفية والمفاهيم النقدية، جانبًا؛ لأسجل بأنها سيرة ذاتية أدبية، انطلاقًا من تعريف بسيط، غير ملغز، يفيد أن الأدب تعبير ذاتي صرف (وإلا ما هو طي الضلوع؟!) ويستطيع الإفلات من حدود ذاتية صاحبه ليحرك ذوات الآخَرِين مستدعيًا أشجانهم لتصبح السيرة شجنًا مشتركًا وفق أعراف لغوية وأسلوبية وهيكلية معلومة.

وفي السياق نفسه دائمًا يمكن القول، وبنوع من التخصيص بأن صاحب هذه التجربة — وهي تجربة بحق، لا كلام عن الأنا مُشرع في الهواء — لا يرفع أو يتطلع إلى أي شعار محتمل أو مزعوم. فبما أنه خارج السرب تراه لا يدَّعي لتغريده أي إيقاع أدبي، ولا يتمحل أو يتحسب نشدانًا للطرز الأدبي الخالص، وما هو عنه ببعيد. هي سيرة أو كتابة الفطرة تُجلي العالم في خصائصه الأولى، وفي براءة النَّبْت الطالع شوكًا أو شقائق نعمان أو كيفما اتفق، يدفع القلم داخل الضلوع ليستخرج طيَّاتها حلقات لأعمار الطفولة. والتقلب بين نشأة البادية ووحشية المدينة، بين نزوات الصِّبا وأوضاع الانسان في الزمن الخشن. ومن انسحاق المحروم إلى معارج شقاء المحرومين في مدن للصفيح تقتات منهم وتصدرهم إلى مصائر مجهولة، ليت الموت كان أقربها منالًا «ليس الصعب أن يموت الإنسان ... بل هو ألَّا يجد الوسيلة لأن يعيش حياته» (ص ٩٠ من السيرة). أعمار تجترح في عمر واحد، حنيني، مغضن، مترب، عوائي، ذئبي، شبقي، نَدِي طري، هيامي، فاجر، رقيق، ساحق، سلسبيل، غريد، منقوع في الجوع والخمرة الفاسدة واللحم المر. دعك من الشهية العجيبة، وصولًا إلى مدارج الأحلام والطموح البسيط لعتق ذاك الفتى الذي كان يُسمَّى «أبا عروب» هو الفتى «البوزيري» الرومانسي بالفطرة، العوام، التلميذ الخائب في ثانوية، «الأزهر» التي خرَّجَت الأفذاذ، النشال، حارس الدراجات، نباش المزابل، المتقلِّب في مهن الأشقياء، العارف باللصوص واللواطين والمتاجرين في اللحم البشري، الرءوف، الشغوف بالتمثيل، ضارب البندير يفتح له الطيب الصديقي باب الرجاء والشهرة والقصاص من خُبث الحرمان ... لكن لينقل جسده الغض دائمًا، ودفعة واحدة إلى المرض الخبيث.

هذا المرض هو منبع الكتابة، أو وازعها وأفقها على الوجه الأصح. لولاه لجاز لنا القول بأن العربي باطما ما كتب سيرته الذاتية، لو كتب سيرته الذاتية، ولو كتبت بدونه لما كان لها النكهة التي فيها؛ فمن يكتب ليس هو باطما بالضرورة ولكن أناه الراحلة «أنا الآن شيء ينتظر الموت» (ص٦٢). وبمرارة أفجع: «آه، إني وأنا أودع هاته الدنيا لا أجد شيئًا يداعب نفسي الحزينة، إلا هاته الذكريات البريئة الجميلة ...» (ص٣٨). هو يقصد السيرة وهي تُكْتَب على إيقاع الرحيل عساها تتحول إلى ضرب من العلاج Thérapie كل مبدع حقيقي لا يبدع إلا مِن فَقْد أو غياب، من إحساس أو إدراك لجوهر المُفارَقة المأساوية في الوجود. و«ابَّا عروب» استوطن في جسده المرض العُضال، هبَّ كاسحًا، جامحًا، حقيقيًّا لا كأسطورة «لهمام حسام» ليدُق بعنف باب ساكن شقة الحياة. ويطلب منه الإفراغ عنوة وهو الذي لم يعرف في الحياة، رغم كل أوزار الدهر، إلا الحياة، كيف إذن امتلاك شجاعة المُضِيِّ إلى الموت وهذه الحياة كمادة صاعقة، تدب في جسمك؟ بل كيف تستيقظ صباحًا لتشرب قهوتك، تريد رشْفَها على مهل والموت جليسك يستعجلك وهو يمد إليك كفن الرحيل؟! في الحياة الواقعية الحرفية يصبح الموت، هنا، أمنيةً وخلاصًا، أما في حياة مَن يريد مضاهاة الأسطورة فإنه مدفوع – وبغريزية عاتية كأن غابات الأرض كلها ترتعش بعتوها — لأسطرة الأسطورة ذاتها وما ذلك إلا بإرادة بقاء رهيبة، روحها تراجيدية، لمواجهة الفناء فيما هي من صلبه. وما أنا بحاجة إلى أي مرجعية غربية للبحث عن القياس لمثل هذا المصير أو لتوثيقه؛ فها هو جَدِّي العظيم أبو الطيب المتنبي يُسعفني كما يفعل دائمًا، عائدًا إليَّ من ذاكرة حفظي القديم، أراه واقفًا بخيلاء كما يليق بعربي مثله أمام أحمد بن عامر الأنطاكي وهو ينشد:

أطاعن خَيلًا من فوارسها الدهر   وحيدًا وما قولي كذا ومعي الصبر
وأشجع مني كل يوم سلامتي   وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر
تَمرَّست بالآفات حتى تركتها   تقول أَماتَ الموتُ أم ذُعِر الذُّعر
ذَرِ النفس تأخذ وسعها قبل بَيْنِها   فمفترق جاران دارهما العمر

لا يدير الرأس ويبعث على الإعجاب أكثر مما هو مكتوب على السجية حين يُوهَب حسن السجية، مرسل بلا تكلف يحمل طفولة الفن وشساعة الألم وأنت فيهما سيد فاتن. ألست القائل: «إن الشيء الصعب في كتابة الذكريات، هو أن كل الأشياء تأتي وفي نفس الوقت يصعب تصفيف الأفكار» (ص٢٢). بل إنك تُنبِّهنا من استهلال الكتاب

— كالمعتذر — إلى ما هو ألصق بصنعة الكتابة «... إلى أن ابتُلِيتُ بالمرض القاتل فوجدتُ نفسي مدفوعًا بيد خفية إلى الأوراق والقلم، وصممتُ على الكتابة، متلافيًا كل شيء لغوي، أو مقنن من طرف الكتاب ...» (ص٧) واضعًا بهذين الصيغتين — الإشعارين على عتبة «الرحيل» والرحيل ميثاقك الخاص تبرمه مع من يشاء اعتناقه. وأعلن لك أني اعتنقته، أُعوِّض لغة الباحث عن الشفيع في بعض هنات قصدك بصدق المقصد أدركته، كتبته بسلاسة الروح وهي تراها تروح فجاء جنائزية مغربية قوامها الأبجدية، والنبض فيها إيقاع الضرب على بندير، وأنت قلت إنه قلمك، وهو لك بلا منازع. وفي أيامنا هذه وقد تعالى صوت الأدعياء والدِّيَكة والصغراء، لَعَمري إن الكتابة بالبندير أجمل.

ضفة أبي رقراق في ٢٤/١/١٩٩٦م

لحم أم مجاز؟

(١) يسقط المؤلف يعيش البطل!

ما بال الناس ما عادوا يُصدِّقون شيئًا مما يجري في أيامنا هاته، فإن أنت عرضتَ عليهم الواقع راسمًا بعض وجوهه المشينة، أو سردتَ بعض نوازله المنكَرة، بل إنك ذاهب إلى التحلية والتجميل، رأيتَهم يستكثرون عليك ذلك مُحتجِّين بأن واقعهم لا يحتمل كل هذا التصوير والتشنيع، فضلًا عن أنه دون أي غزَل أو تطريب. أما إن أنت حاولتَ — حاولت فقط — التحليق بأجنحة الخيال، واعتمدتَ في صوغ خطابك سبل المجاز بما يتيسر لك من صوره وألوانه المختلفة، راعَهم منك ذلك واجِدين في نهجك غموضًا وإلغازًا وحياتهم من الوضوح بمكان، وانظر فالشمس هنا ملء السماء يُجلِّي إشراقُها الْخَبِءَ والمرموز فلا تدع أمام العين ما تراه غير الأزرق وصِنْوه الأزرق في الأعالي، والتراب وصِنْوه المترب في أرض كانت مِهادًا فصارت مُدبدبة. واعلم أن الناس يريدون اليسر والعسر عندهم منه كفاية وما يفيض، فلماذا لا تتدبر أمرك بطريقة تجعلك في قلب مذهبهم وعن سنتهم لا تحيد، فتضمن عندئذٍ تجنُّب كل استغراب أو تثريب، فهو أَوْلَى بك من زرع الشك في اليقين أو تحريك الخلل في الساكن المكين.

فمتى كانت الضحالة تستدعي الخيال؛ فبالأحرى أن تُنجِبَه، وحسبك أن تُردِّد من الأقوال وتنسج من الصور ما هو متواتر مبذول بل ومبتذَل على شاكلة هذه الأيام.

فإن أنت خاطبتَ القوم بأن الكاتب يَتحرَّك بين حافَّتي الصدق والكذب، ولا يصدع لأي واحد منهما بالخبر اليقين، قالوا هذا ضلال مبين، أجبتَ هو الضلال كله، لا أبغي عنه بديلًا ولي في الكتابة دين، تراك تفهم قَصدَهم فتسير فيه، يفرحون بالقول لحظة لينقلبوا عليه مُنكرِين. فرح الأطفال هُنَيهة بلعبة وتكسيرها للانتقال إلى لعبة أخرى تصنعها لهم

مرة أخرى مركَّبة، سحرية، تستدعي اليقظة وتَشحذ المُخيِّلة فيتأففون ويضجرون. ترى القوم يبغون السهل من الأشياء واليسير وأنت تُكلِّف نفسك ما لا يحتاج إلى الكلفة وما تختنق به العبارة.

والشاهد عندنا أنك ودَّعْت رفيقك بوعلام الجيلالي طالبًا منه أن ينصرف إلى حال غربته بعد أن تيقَّن بأن أي حاجة لا تقضى في هذا البلد، على أن تنصرف أنت إلى ما سمَّاه قارئ لبيب بـ «خلوتك النَّصِّيَّة»، هي مِهماز وُجودك ليست لك فيها مآرب أخرى، وهي مَلاذ كل غريب.

وقدرت أنك ربما مُستَريح بإعلان هذا الفراق، ولو لزمن مؤقَّت، وكلاكما عائدٌ لشئونه وشجونه والخلق منكما، بعد هذا، يستريح مما لا طائل من ورائه، فأنتما لا تجلبان إلا التنغيص، ولا تجيدان فنَّ السباحة إلا في «الماء العكر»، ثم عدت، وقد كَثُر القَرْع على رأسك سؤالًا عن هوية صاحبك، فأعلنتَ على رءوس الأشهاد، مما هو مدون في قرطاس محفوظ، بأنك اخترعتَ الرجل اختراعًا، ولفَّقْت الحقائق بشأنه تلفيقًا، عسى أن تُخلِّصه من تبعات قولك، وتبعد عن نفسه الشبهات، أنت الذي يَتحرَّك بين حافتين (صدق وكذب) ويرسل الكلام من ضفتين (شمال وجنوب)، فما لبث العجب أن حصل لك على أكثر من وجه، وإذا الراغب في الحقيقة (الصدق) مُستكثِر لها، ومُستكثِر عليَّ أن آكل وثنًا أو حلوى عجنتُها بيدي، وراغب في البقاء، حيث وضعتُ سَردي الأول؛ أي في منطقة إن لم تكن كذبًا كلها، فهي إلى الاحتمال والتذبذب أقرب. هكذا وصلتني الأصوات مُحتجَّة أو مُستنكِرة: بلى، إن بوعلام الجيلالي بشَر من لحم ودم لا من حِبْر ومجاز. فما دمتَ أظهرتَه ووصفتَه بطريقتك تلك، وجعلتَه يعاني أحوالنا متنقلًا في براريناً، متفرِّجًا على تعس أحوالنا، بدءًا من رباط الإغلاق إلى سهول سيد العايدي، فاعلم أن لنا الحق في وجوده، فهو كائن لم يَعُد في ملكك شأن النص يصبح ملكًا للقارئ بعد نشره يَتلقَّاه كما يشاء أو يتلقاه ضربةً على رأسه. وقد سألني فلان العكراشي (نسبة إلى عكراش) ألا خَبِّرْني يا السي فلان، هل صاحِبُك ذاك حقيقة أو خير وسلام جاءك في المنام؟ هنا أحسستُ بأني وضعتُ نفسي في ورطة حين رمت الشخصية/الشخص بالضبط لا سواه، ثم بدأت أشعر بما يشبه الغيرة منه، فها هو يفلت من قبضتي ويُصبح مثار الإعجاب، هكذا ببساطة يموت المؤلِّف ويعلو مقام البطل، أظن أن أصل الالتباس في كل ما حصل لي وللمتسائلين هو أن الغيرة أكلتني إلى حد أني لم أجد بُدًّا من الإجهاز على «مخلوق»، وبما أن الشخص مَحمِيٌّ بقوة، ولا قبل لي بانتهاك قوانين وحقوق الإنسان في فرنسا ولا في غيرها، فإني قَررتُ قتل الشخصية

في الورق، كما صنعتُها في الورق. لكن عبثًا فعلتُ، فليس تَصوُّرك الشيء فِعْلًا تحققه، وإزاحة الجبل من مكانه قد تكون أهون من قَتْل البطل. حين يولد البطل ويحقق مَجْده ويشتهر أو ينكسر يصبح ملك نفسه خارج طوق أي إرادة حكائية، وملك الجميع في آنٍ، بما أنه يسلب ألبابهم مُنفِّسًا عن مكبوتاتهم، مُعلِيًا لِقِيَم يعيشونها سافلة في حياتهم، وهو بطريقة ما، أناهم الأعلى أيضًا وقطعة من العجين الذي جبلوا به.

هكذا، أصبحتَ يا بوعلام الجيلالي جِبِلَّة مشترَكة دون قَتْلك خَرْط القتاد أو قَتْل كل الراغبين في التحقق من هُويَّتك، والصدع بوجودك يقينًا لا احتمالًا، كائنًا من لحم ودم لا صورة من حبر ومَجاز. سأُسلِّم لك مؤقتًا — ولن أستسلم مثل كثير من الأرذال — وأهتف من أجلك: ليسقط المؤلِّف ويحيا البطل!

كم كنتُ أبغي قول المزيد، لولا متعةٌ غمرتني فأخرجَتْني من هذا الموقف «الإشكالي» لِتَسمو بي إلى موضع إنساني وفَنِّي رفيع أشهد أني أمضيتُ وقتًا في هذا الربع لم يُتَح لي مثله، ويُخيَّل إلي، ومن حسٍّ خَفِي، أني كنتُ وما زلتُ أنشده. فهذا صاحب آخَر يبذل لي، من حيث لم أكن أدري، فتنة غربة يكسوها بسربال من حنين، مُطرَّزة بحنكة الصائغ وخبرة العارف، فيُعَوِّضني عن كل ما لحق بي من ضيم جرَّاء يباس النفوس وضحالة الأخيلة.

فقد اتفق لي، وأنا أُودِّع بوعلام الجيلالي قبل أن يركب الكار في كراج علال ليلتحق بخيمتهم في سيد العايدي، أن زُرتُ صديقي جواد بونوار في مكتبة «عمر الخيام» التي يديرها في الدار البيضاء، وبعد فروض التحية وإطعام المودة، قلتُ: يا جواد لعلَّك تسقي أخاك شيئًا من سلسبيل مكتبتك، فوالله إن بنفسي جفافًا لا يعدله إلا جفاف المغرب عامَه الفائت! فأجاب للتو: حاجتك مقضية. ورأيتُه يترجَّل بقامته الفارعة، وبأريحية يضع بين راحتي الكتاب المغيث، وبدأتُ القراءة: اسم المؤلف: عبد الفتاح كيليطو، قلتُ في نفسي هذا فأل حسن، العنوان: La querelle des images خصام الصور، رواية، منشورات ديف، الدار البيضاء، ١٩٩٦م (١٤٣ من القطع المتوسط).

ضممتُ الكتاب إليَّ، فكل ما يُحَب يُضَم، وقلتُ حيَّ على القراءة، حيَّ على المتعة والغيث، وقد عودنا الأستاذ كيليطو أن يقدم لنا دائمًا الممتع، الحلو، والمفيد. والمتعة هي الغالبة لا تقل معها الفائدة، بل تنطوي في ثناياها، وما ذلك إلا لأن هذا الباحث أبعد ما يكون عن التعالم والشقشقة بالمصطلحات أو التنظير بمنهجيات الآخَرين؛ ولأنه شق لنفسه طريقًا في البحث قوامه اطِّرَاح النافل والعَرَضي، والحفر عميقًا، بل الغوص

لاستخراج الدُّرر من كل ما يقع بين يديه من تراثنا الحكائي والسردي، وعُدَّتُه ثقافة أدبية ولغوية مُتعدِّدة الآفاق، وحضور بديهة نفاذة أمام النصوص تستقرئها؛ التماسًا للشوارد، وبحثًا عن المفارَقات، فضلًا عن العلامات الفارقة والثوابت المحكمة. ومن جماع هذا وغيره، يتم تنضيد نظام للقراءة والمعرفة لا يَتحمَّل صاحبه في إعطائه أي اسم أو صفة، هو نظام مهموس أكثر منه مُعلَن، وتحسه أسلوبًا وأداة تذوق علاوة على مادته التثقيفية الرصينة، ومن هنا مصدر المتعة، لكن حذار؛ فهي مثل الماء الزُّلال تنهل منه الينابيع، إنما لا ينبغي لعذوبته وصفائه ومروره السريع في الحلق أن ينسيك التجاويف التحتية التي تكون فيها، وما عَبَره من خبايا وتَشرَّبه من مخزون ليصل إليك شربة سائغة.

هي شربة، محلول كيميائي، مُركَّب وسحري نسيج دُرْبَة الباحث، وصَبْر الناسك وألاعيب الحُواة يُزجى جزلًا وجزيلًا ثمرة قراءة في نصوص مُحدَّدة من التراث، معلومة أو مُهمَّشة بين أخبار وشخصيات، رموز ومُعضِلات، جاعلة القديم في صدارة الحديث وبما يسن في البحث نهجًا عزَّ نظيره بين العرب والأجانب على السواء. فما بالك إذا انتقل صاحب هذا النهج من صعيد إلى آخر؛ أي إلى ذاته؟ وما أحسبه غادرها يومًا.

ما بالك إذ يُقدِّم لنا عبد الفتاح كيليطو اليوم نصًّا – نصوصًا ناطقة بأناه، عارية ومُطرَّزة بأسرار الطفولة وغوايات الصبا ونوستالجيا الوقت الفائت.

ولا تراه يَتخلَّص من نظام الحفر والهمس، والتراوح بين الصريح والمضمر، ورفع الحواجز بين الأجناس الأدبية كلها حتى لا جنس أو هو آخَر غير مسبوق.

لا بأس هنا بقليل من التفاصيل، فالكتاب مَناط التَّذوُّق عندي، كما ذكرتُ هو «خصام الصور» المنوه به أعلاه، يحمل عنوانًا لجنسه الأدبي اسم «رواية»، وفي تقديري أنه ضَرْب من التجنيس «الإجرائي» لإسعاف القارئ وهو على عَتبة القراءة قبل أن يتوصَّل بنفسه إلى إدراك يختلف عندئذٍ فيعيد القراءة على ضوء مُحصِّلة عقد فني جديد، أو يكتفي في قراءة أولى باعتبار ما أمامه مجموعة من اللوحات والحكايات والخطرات والإشارات، لُحْمَتها عالَم الطفولة، ذكرياتها ومَرابع الصِّبا، وما علق في النَّفس والذاكرة مما عِشناه أطفالًا بوتيرة مُشترَكة أو على انفراد فتَفودُنا، وسداها المحاولة الدءوب لاستحضار الصورة – الصور الغائبة، و«الصورة» بوصفها نوعًا من «المحرم» في الثقافة العربية الإسلامية، وإعادة الاعتبار إليها ولو عن طريق الرسم بالكلمات التي هي بديل لها أو الشكل التعبيري الممكن بدونها. سدى المجموعة (الرواية)، أيضًا، النزعة التحليلية، والاستقرائية للمرئي — مرئي الطفولة — بربطه بامتدادات مَعْرِفية وفَنِّيَّة وذَوقية تصنع كثافته التي هي جزء من كثافة وشخصية الطفل — الكاتب الذي أصبح آخَر.

والحق أن الأديب كيليطو لا يخفي التصريح بأن في بعض حلقات «صوره» نبرة شخصية، بل وأوتوبيوغرافية، وما أظنه كان في حاجة ليعلن بأن شخصية «عبد الله» هي عبد الفتاح ذاته، تقول له بأنه حقق الأمنية التي عبَّر عنها بنفسه، أناه، كما يقولها ضمير المتكلم، وتسوغ السرد وتصل كل لوحة، كل صورة، كل ذكرى في زحاماتها واعتراكاتها لتشكِّل في النهاية الرواية المبتغاة، وصولًا منها إلى إحياء الصورة المُحرَّمة. وكما يقول المؤلِّف، فإن الأدب يحتاج إلى ضابط، ومهمَّة الكاتب أن يتخذ له نبرة، وعنده هو، فإن نصوصه توخَّت في إعدادها خلق الاستمرارية والمعنى بالتحديد.

هذا كله وسواه مُجتمِع في نصوص سردية متآزرة مُمتِعة ومفيدة، ومُتبرِّئة من فولكلورية كل أولئك الذين لا أريد أن أسميهم، هي قصة صاحبنا وحكاياتنا، أيضًا، وبذا تكون قد تَخطَّت السياج الأوتوبيوغرافي، وأريد أن أُطَمِئن عبد الله عبد الفتاح كيليطو، وأقول: فلقد عشت هذا المشهد أو ذاك مما كتب وأحسست بذلك الإحساس، وليخيل إليَّ أن ما قرأتُه كُتِب لي أنا بالذات. وعلى لسانه أضيف: «وبكل سذاجة، كان بوسعي أن أكتب هذه الحلقة، هذا الكتاب.» بل إني أُعْرِب لك عن امتناني؛ لأني أنا قارئك البسيط قرأتُ كتابك الجميل والممتع بإحساس أني كاتبه، فهيتَ لك يا أحمد المديني.

٢٤/ ٢/ ١٩٩٦م

طانغو في ليلة حمقاء

(١) حالة مزاج، ليس إلا

من طول العشرة صِرت أعرف حركاته، جلسته وطريقة تنقُّلِه من مكان إلى آخر، كِلانا يستطيب رفقة الآخر؛ فيستأنس الواحد منا بالثاني استئناسًا كبيرًا إلى حد أن غيابه عني، الذي لا يطول عمومًا، بات يسبب لي انزعاجًا خفيًّا أحاول أن أدرأه عن نفسي بالقيام من قعدتي أو الصفير أو بالتفكير في بعض الأشكال البهلوانية التي لا يخلو منها شارع في هذه الأرض المعطاء بالضحك، والأخرى الفَوَّارة بالحزن والبهجة معًا، فلا يفيدني هذا الانشغال المخاتل إلا قليلًا؛ لأن صورة الغائب تظل لها سطوتُها لا أجد عنها فكاكًا إلا أن يعود لي ما فقدتُه من هدوء البال وصفاء الخاطر، وليسود بيننا الأنسُ آنسَ من ذي قبل. وأظن أني دخلت مع زوجتي في لجاج وقد رأيتُه ينتفض في جلسته وينصرف دون سلام أو كلام ولا نظرة يمكن أن تشي بمعنًى من المعاني أو تنقل إليَّ بعض ما يحس به — خاصَّة وهو ذو حساسية مُفرِطة، فسألتُها إن بدر منها شيء أزعجه، فأنتِ تعرفينه، يتأثر لأتفه الأسباب وربما بلا سبب، ومزاجه يتعكر فجأة كمن يتذكر أن عليه دَينًا لا بُدَّ دافعه من يومه قبل غده، فجاء جوابها نظرة مستغربة ومنكِرَة عليَّ ما لا تطيقه هي الأخرى، أوَليست بدورها تستأنس بحضوره وتوسع له في المكان لدرجة أني أعاتبها أحيانًا لما أعتبره مُبالَغة في الترحاب وعندها هي أسلوب تعامُل وسلوك تَمدُّن؟

هي مسألة مزاج، ولأعترف بأن مزاجَيْنا كثيرًا ما يتوافقان في العكرة والانفعال، وبين الاستغراق المؤقَّت في الصفاء والمرح والانتقال سريعًا، ولأسباب نجهلها معًا، إلى حالات تطول من القلق والشرود. وهو ما يجعل العلاقة بيني وبينه غير مضبوطة الميزان، تراني مرة مقبلًا عليه، متألقًا ببشاشة ليُدْبِر هو منكفئًا على نفسه، مُزْوَرًّا عني.

وحين يُقبِل عليَّ من جهته، يجدني في لحظة تَعسٍ طارئة فلا ينال منِّي عندئذٍ الإزْورار، إلا وقتًا نصبح فيه وكأننا خرجنا من قالب واحد، فهو التآلُّف التام يجمع بيننا ونحن قبالة التلفزيون أو جهاز التسجيل نستمع إلى الموسيقى، وهو يعشق الموسيقى الكلاسيكية، فإما يُرخِي أذنيه إليها منصتًا مثلي بعناية وانصراف تَعبُّدي، أو يُعلِّق بصره بشاشة التلفزيون غير آبهٍ مطلقًا بما دونها، مُركِّزًا على حركات العزف بين العازفين، مستمتعًا في استرخاء كامل بمجال وشموخ ما يسمع. أحيانًا أضجر أنا وهو لا يضجر، فأيقنتُ أنه لا يحب إلا المنسجم من الأصوات، المتناسق من الإيقاع والمُحكَم من اللحن، وعبثًا تغريه بسواها وإلا وقع له ما خِفْت مرة ألَّا تُحْمَد عُقْباه.

فقد اتَّفق أن جمعَتْنا ذات ليلة سبت سهرة تلفزيونية من تلك السهرات التي توصف عادة بعبارات من قبيل أنها «غنية عن التعليق»! وكانت مُقدِّمة السهرة قد بشَّرت النظَّارة الكرام بأنهم سيقضون ليلة ولا ككل الليالي؛ إذ ستُشَنَّف أسماعهم بأصوات وألحان لم يأتِ الزمان بمثلها، وسيشاهدون، وبصفة استثنائية، مسرحيةً من الطراز الشكسبيري الرفيع(!) وفي هذا التقديم طبعًا، ما يُغْري ويُحرِّك في بني آدم وأي مخلوق كان حسَّ الانتباه، خاصَّةً ونحن في بلد، المتعة والذَّوق الرفيع آخِر ما يخطر على البال. وما هي إلا هُنَيْهات وانطلقت الأصوات، ورُفِع الستار وبدأت القفزات، متصاعدةً مع القفشات، مترافقةً بالخبطات، وفيما انتظرنا أن تصدح الحناجر وتتوالى المناظر دافعة الحسرات بالإعجاب والآهات اختنقَتْ أسماعنا بالحشرجات وآ ... ه، وآوووه وهاو، هاو وهي، هي هيييي، ثم أوووه، فهاو، ه ... أو. للمرة الأولى رأيتُه فيها من جلسته يُنَقِّل النظر بيني وبين الشاشة نقلًا عجيبًا، مُديرًا رأسه كالأُرجوحة. وفهمتُ من نظراته وتحرُّكه القَلِق أنه لا يفهم شيئًا ممَّا يجري أمامه، وأنا أيضًا لا حيلة لي أمام ما يجري ولا أستطيع أن أسعفه. وقد أخافني انتقالُه من حيث يجلس ودُنُوه التدريجي في اقتراب حَذِر من جهاز التلفزيون، مواصلًا تقليب النظر بيني وبينه، وقد تواصَل صرعُنا معا: وا ... ه، وآوووه، وهاو، هاو، وهي، هيييي، أوووه.

كنتُ مُوقِنًا أن حيرته أو غضبه أو اشمئزازه أو ما لا أستطيع أن أجد له وصفًا لن تطول الجهاز بالكسر صَنِيعي في مناسبة مماثِلة، ولكني بدأتُ أتحسَّب للعواقب، وقد لاحظتُ الارتعاش يدبُّ إلى أطرافه، وجسمه يتمايل كبندول ساعة كبيرة، وعيناه وقد أصبحَتا جاحظتَين تمامًا، ففكَّرتُ، الله يستر، هل هو ضحية جديدة للصَّرَع وعندنا في هذا البلد ما يكفي ويفيض عن الحاجة من المَصروعين؟!

فجأة اختفى! أجَل، كان هنا واختفى من ناظري كأنه ما وُجِد أبدًا، كأنه كان هنا حقًّا مثل فأر أفلتَ وقد رأى قِطًّا هجم على الغرفة للتو، أو أقرب إلى أرنب تزأبق من بين يديك، بل كقفزة سهمية لسلوقي من الطراز الرفيع باتجاه الطريدة، هل كان هنا حقًّا، أم إني في هلوسة، كعادتي حين أَجِدُني أمام ما لا يُسمَّى؟

سمعتُ في الحديقة نباحًا حادًّا ومتقطِّعًا دخلَتْ على إثره زوجتي التي كانت منصرفةً لما هو أهم، وبادرَتْني مستفهِمَةً:

– ما به كلبُك؟ إن نباحه عالٍ هذه الليلة، أم إنك عنَّفْتَه pauvre petit chien.

– كلَّا، أبدًا، أنتِ تعرفين الرئيس «طانغو»، إنه مِزاجِيٌّ!

– لكن غريب نباحُه الساعة ألا تسمع؟ ... تقول إنه ذئب يعوي أو كلب مسعور، ثم، إنني رأيتُه ينتفض!

– كلَّا، لا شيء من هذا، كل ما هنالك أنه يحتجُّ ... ويقلد، أيضًا، تعالي. اجلسي وانظري وستفهمين كل شيء، وأنا أشير إلى شاشة التلفزيون.

(٢) «حتى الطيور في حيرة»

حسبتُ وقد استسلمتُ للنوم بدماغ مشروخ، أن القضية بما فيها، وما بَترْتُه منها تخفيفًا على القُرَّاء من فداحة الهراء، ستنتهي عند الحد المذكور، لكني ما لبثتُ، وقد انقضى الهزيع الأخير من الليل، أن استيقظتُ على ما حَسِبتُه للوهلة الأولى تغريد طيور، وزقزقة عصافير؛ انتشاءً بطراوة الصباح واستهلالًا غنائيًّا بمَقْدم الربيع.

وهذه للمناسبة إيقاعات ولمسات طبيعية لا رومانسية كما يحسب البعض ممن لا يميزون بين النجمة والمصباح والوردة والخشلاع، ودقيقة دقيقة ورأسي يخرج من دُوار أَحسستُ به يدخل في دُوار آخر. فما هو تغريد ما أسمع، ولا هي زقزقة كما تَشرَّبَتْها الأذن بالفِطرة وتمثلتها بعد طول دُرْبة ومِراسٍ، وإذن، ما هذا الذي أسمع يا تُرَى؟ أجدُ فيه خلطًا بين أصوات، وتنافرًا بين الإيقاعات، وانطلاقًا فانحباسًا في الحوصلة لِيعتَرِيَنِي إثرها خوف من أن الطامَّة الكبرى حدثتْ، فهي العدوى تطول اليوم كل شيء لا تُبقي ولا تذَر. وبعد أن دَبَّت الهُجْنة بين الخلق وانتشر القُبح في العمران بدلَ الجمال والاتساق، وباتَ المطرُ المنذور للرحمة مَجلَبة أهوال وفاضح عورات وطرقات، وبعد هذا وذلك لا تسلم كائنات رفيقة، رقيقة، من داء آدمي عُضال، فإلى أين المفر؟!

خبطتُ رأسي بضربة أردتُها موجعةً كأنني مسطول يريد الصعود من لُجَّته وحين يَستفيق يُلقي نفسه وقد عاد عقودًا مديدة إلى الوراء، وبالضبط إلى العقد الأربعيني ونحن الآن في نهايات القرن، فسبحان مُبدِّل الأحوال أو مُبقِيها على ما هي عليه. ها أنا ذا أعود إلى نَصٍّ قصصي تأسيسي في أدبنا قرأتُه للمرة الأولى في مطالع العقد السبعيني، وكان لي منه وطَر علمي. أعني قصة القاصِّ المغربي الرائد أحمد بناني، والتي استخلصْتُها بنفسي من الأضابير المغبرة للخزانة العامة بالرباط، قبل أن تُنْشَر في المجموعة القصصية المعنوية «فاس في سبع قصص» بتقديم ذي نظر ثاقب لأستاذنا المرحوم علال الفاسي. والقصة المَعْنِيَّة تحمل عنوان «حتى الطيور في حيرة»، وهي تُشخِّص ببساطة، وأسلوب حكائي بدئي، تيمة ظهور جهاز الراديو في مجتمعنا، ومن ثم تأثيره على الأذواق والأسماع، والغناء خاصة، ومنه غناء الطيور التي يربيها الفاسيون المُتذوِّقُون في بيوتهم ولها، أيضًا، محلات تشرف على تثقيفها وتطريب أغاريدها كما هو الشأن مع شخص أو شخصين (أبا مكي) الذي له معهد للطيور تسمع فيه أحسن الشدو، حتى إذا هجم الراديو، ضمن اختراعات جديدة من قَبِيل ما سماه المرحوم الأستاذ عبد الله كنون «تَوافِه المَدنِيَّة الغربية»، تبدَّلَت الأحوال غير ما كانت وساد الهرج، أو كما تقول قصة أحمد بناني:

«أصبح العطَّار (أبا مكي) صاحب المعهد في نَكدٍ، فهذه الأزمة التي عمَّت كل ما حولهم، وتسرَّبت إلى عُقر دورهم لم تنجُ منها حتى هذه الطيور البريئة، فما عادت تثير ذلك النشاط والزَّهْو والانشراح، فما مصيرها؟ الله وحده أعلم بذلك عليم.» ولأولاد القص السهل، هذه الأيام، والذي ليس في أغلبه إلا أمشاجًا من خواطر مُرتَبِكَة وأنصاف جُمَل وعُقَد لم تَجِد طريق تصريفها الصحيح فاندرجَت عنوة في باب الأدب وقد بات بلا رقيب ولا حسيب؛ والحاصل أن لهؤلاء وسواهم أن يعتبروا موضوع القصة المذكورة فولكلورًا أو رومانسية بائسة وإشاحة عن المواضيع «الصحيحة» والرؤى «الباذخة» (كذا). أما أنا فإني لهذه الرومانسية هاوٍ، وبذلك الفولكلور مُحتفٍ، والصدَّاحة «أم الحسن» التي أُغْرِم بها القاصُّ الرائد فيما خلا من زمن هي التي أطربَتْنا، ونحن فتية في عمر البراءة، في ظاهر فاس حين تزدهي الحقول عند مَقْدم الربيع. وبعد أن سِرنَا نخوض في شبابنا المغامر، بقي في نفس فاس شيء من تلك الأغاريد.

خِلتُ لحظة أني بتُ من أولئك الذين لا يصلهم بالزمن والمكان إلا الحنين، لا تفوتهم مناسبة إلا أنْحَوا على الدهر باللائمة لا يملأ عينهم من الدنيا إلا ما فات وتوارى عن الأنظار، والسمع والبصر والذوقُ والسمعُ كله منكفئ إلى وراء بعيدًا عمَّا ليس في نظرهم

اليوم إلا مَباذل وشوهات انتظار، المَنِيَّة خير من التماس بها ومُعاشرة أهلها. خلتُ، إذن، أني مُلتحقٌ بهذا الرعيل وإن كنتُ منه غير بعيد، لأسباب لا علاقة لها بِرجْع الذكريات الرخيمة، إلى أن قيَّض لي الله سانحةً اكتشفتُ معها أني لستُ وحدي من المغتربين وهواة السفر بأجنحة الحنين. ففي وسط الهجنة والبذاءات والقبح العارم، وكذلك في غمرة التدافع بالمناكب لتأسيس الجمعيات والإكثار من المنتديات وتفريخ الحلقات والمنشورات وكله طبعًا لإنقاذ البلاد ممَّا يحدق بها من آفات، بين هذا وذاك فاحَ عِطْر وردة ولا ككل الورود.

وما أجملها ويا لشدة خوفي عليها وشَذاها يضوع وسط مزبلة؛ أي والله إنها مزبلة. كالماشي في حلمه عَلمتُ بوجود «الجمعية المغربية للطيور المُغرِّدة»، وسمعتُ عضوًا في الجمعية يَتحدَّث كشاعر عن أهمية حماية الطيور والعصافير التي بدأت تفقد أصواتها وترتَبِك حناجرها، وضرورة الحفاظ على سلالاتها وتلقيحها وتنقيح غنائها، والحرص على تربيتها في أجواء بعيدة عن الضجيج وأشكال التلوث وهي شتَّى، مما لا حاجة إلى الإطناب فيه لإطنابه فينا ولا يزال. وللعلم، فلم يكن العضو المنافِح عن هذه القضية «الشاذَّة» شيخًا ولا شخصًا خَرِفًا لنلحقه بالغابرين، بل هو شاب بسيط، بشوش، مُقبِل على الحياة، وقد اختار هذا الحب فما أجمله من حب في زمن المَقت والرداءة.

وتعجَّبتُ كيف أن خطاب أحمد بناني لم يَطوِه الزمن، لم يَبْلُ مع الأيام، وإني لَبِهذا العجب ماضٍ، وأعجبُ منه ما جرى للرئيس «طانغو» الذي انضم إلى الطيور في حيرة ولا نعرف نحن البشر إلى أين ننضم؟ أم لعل كل هذه الديدان ما عادت في حاجة إلى الضم؟!

٢/٣/١٩٩٦م

نصف واقف، نصف غريق

(١) باب الجنوب

وجدت ميشيل بانتظاري في المطار الذي سَمَّيتُه من قديم «باب الجنوب»؛ حين أصل إليه أحس، دائمًا، بمشاعر متضاربة، ولا أستطيع أبدًا الحسم إن كان ينبغي عليَّ أن أغتبط، أو أحزن، أو أن أترك نفسي تترنَّح متراخيةً كَرِيشة في مهبِّ الريح. هذا الإحساس الأخير يتتابك مع شعور بفراغ العالَم وثقله في آنٍ، حين يصبح ركوب الطائرة جزءًا من دورة الزمن، وأنت تُودِّع في كل رحلة قطعة من تكوينك المركَّب من جسد يتكاثر في أجساد، ووجه ينعكس في مئات المرايا: أين يذهب هؤلاء البشر؟ لماذا يلهثون؟ الوصول والمغادرة دائمًا، أحضان إلى أحضان، دمع على خد، أيادٍ تُلوِّح من قريب، احتمال اللقاء والفراق أبدًا، أجساد وأحلام مُعلَّقة في الهواء، الذكريات حفنة من الأيام والليالي تداولت هذه الديدان، لست أدري، وسواه كثير؟

غير أن «باب الجنوب» هذا، وهو محسوب على هذا العالم — البلد المُتمدِّن لا يقربه بسبب، ولا يشبهه في شيء، هو منه جغرافيا، وخارجه يقع ذاكرةً ووجدانًا، من هنا يُقْلِع أو يَحُط أبناء الجنوب الذين تَضِيق أوطانهم بإطعامهم وصَوْن كرامتهم، فهَرَبوا بما تبقَّى من لحمهم ليرسلوه، حين يفلحون، قِطعًا صغيرة مُقدَّدة إلى المحرومين الذين تركوهم خلفهم. مَن يصل إلى باب يدفعه عادة ويتقدَّم إلى الأمام، أما هذا النوع من البشر، بشرنا، فيدفع هيئتَه فقط، يتنقل بها أعوامًا أو عمرًا ليعيدها أخيرًا إلى روح تظل شاردة بلا قرار.

هو «باب المَنافي» أيضًا، وأنا أُقدِّم «المَنفى» بصيغة الجمع؛ لأنه ليس واحدًا، أبدًا، ولأن لكلٍّ منفاه، ما أعنيه هنا هو المنافي الحقيقية التي يُكابِد فيها الإنسان بحزن وقور،

محترق بناره لا يراها أحد سواه، وقد سُلِخ منه البلد والولد، وكل دقيقة يعيشها سَلْخ لحم وخَلْع روح، لكنه لا يَفنى لأن المَنفى عنده أمسى شرط وجود.

الآن فقط أستطيع أن أَسترجِع بعض لحظات ذلك الوجود الرهيب، أقصد لذلك الشخص الأكثر رهبة؛ أعني «آيت» شيخ مَنفانا ومَنارتنا. شد ما كنا قساةً على الرجل، ويا لَبساطة مشاعرنا وسذاجة تعابيرنا وحركاتنا، إزاء ما كان فيه، نصل نحن إلى «باب الجنوب» شغوفين بالتعرُّف على المدينة، وإطلاق سراح مكبوتنا في مدينة الأنوار، يستقبل ويودع بسلوك المغربي الأصيل، لم نفهم أبدًا أنه، وهو يستقبلنا، كان يدفع أنفه عميقًا ليشم رائحة البلاد الممنوعة حتى التراب، فيما نَتلهَّف نحن لشم رائحة الليالي النزقة.

وحين نُشبع رغابا زائلة وتنفد نقودنا لا نعرف له هو شبعًا. يقودنا، بعد أن أكرم مَثوانا، إلى «باب الجنوب» لنطير منه إلى الأرض المحبوسة في حلقه غصة، ويبقى هو حيث لا رغبةَ له بالبقاء في انتظار صدور قرار يرفع الحظر عن الحنين، ويسمح للمغتربين بغربة أشد في أوطانهم أو ما يشبهها.

قبل أعوام، أيضًا، رافقنا عبد الغني إلى الباب نفسه، كان قد أمضى اثني عشر عامًا بعيدًا عن صهريج المنارة، ونهر السين بكامل دفقه لا يرويه من ظمأ، في باريس الغانية ظل مراكشيًّا حتى رماد «الطنجية»، حين تلتقيه تراه «يبكي ويضحك لا حزنًا ولا فرحًا كعاشق خط سهمًا في الهوا ومحا». ويوم أعلن عتق روحه كنا رهطًا من الديناصورات العربية، يَتقدَّمها الشيخ ولد حرمه، نودعه. وساعتها أظن أني رأيتُه، هو يتنقل بين أحضاننا، يبكي ويضحك حزنًا وفرحًا، معًا.

مساء مغادرته، انكببتُ على المنضدة وكتبتُ دفعةً واحدةً قصيدةً لم أستطع نَشْرَها إلى الآن، وأهديتُها كوكبًا يُسمَّى «آن ماري» كان يهتدي به طيلة سنوات المنفى، ذات مساء سلاوي، بعد أن سارت بأعناق المطي الأباطح، الْتَقَينا تحت ضوء الثريا وقرأتُ القصيدة في حضرة فتيان قلَّ أن يجود الزمان بمثلهم. لَيلتَها أدركتُ أن المنفى يمكن أن يرحل عن الجسد، ولكنه لا يستطيع أن يُراوِغ الشِّعر، حيث مُسْتقَرُّه الدائم؛ ولذلك احتفظتُ بالقصيدة.

لا أحد يُودِّع الآن أحدًا، والوجوه التي ودَّعْتها إذا التقيتها تراها إما مُشِيحة عنك، أو مُتكلِّفة الابتسام، أو أفواهًا تَزدَرِد الوقت ازدرادًا؛ استدراكًا للمجد الفائت ... يا للمجد! كأنهم ما عاشوا دقيقة واحدة في شِعر المَنافي، فيا للهول!

هنا أدركتُ، أيضًا، أن المنفى ليس المكان الذي نُجْبَر على الإقامة فيه، بل هو ذلك الملاذ الذي ينبغي أن نستحقه ... ما أجمل الوصول إلى ذروة أن يستحقنا.

ربما أحتاج القول هنا إلى البرهان لكيلا تلتوي حول عنقه شرنقة الهذيان، وهذا ما يحصل كثيرًا لكلام هذه الأيام. والبرهان الساطع هنا يزجيه الشارع بسخاء وعفوية. افترض أنك جالسٌ في مقهى «القدح وقوفا» بشارع «لي غوبلان» واستعصى عليك القبض على عقد ونيف من الزمن خلفك، فنهضتَ وأطلقتَ قدَمَيك للمشي في ظهيره يوم أحد أبريلي، سماؤه منقبضة، خطى امرأة مُسِنَّة بيدها قُفَّة مفتوحة تقود خطاك إلى حيث ستتوقف، أولًا، عند الخضار لتبتاع كيلو بطاطس، وأمام بائع ورود لاقتناء زنابق. وانتبهتَ أنك تمشي في أثرها في ساحة النافورة مقهى السان ميدار. هنا، قبل خمس عشرة سنة، شعت في روحك منارات سان جون بيرس، وهنا، أيضًا، تشاركتَ خبز الغربة مع حمدات الحميم الذي وَهبك من المودة ما لم تكن تملك ... والآن انضمَمتَ معها وسط الحلقة المنعقدة حول عازف الأكورديون يتابع عزفه صوت مشبوب بغناء ليوفيري، وزع علينا المُغنِّي قصائد ليو مستنسخة ولم يطلب شيئًا، وتَبيَّنتَ أن الطلب المُضْمَر هو عُرف المجموعة؛ أي أن نشارك في الغناء.

نحن المُتحلِّقين جميعًا صِرنا مُغَنِّين وكورسًا في آنٍ واحد. وشدَوْنا، أقصد الحناجر المَبحوحة لشباب آفلين وكهول مُتْعَبين، وأعمار أخرى مُترَدِّية؛ شَدَوْنا أغنية لفيروز أو قصيدته «زمن التانغو Le temps du Tango».

أنا، من زمن التانغو. حيث القساة أنفسهم كانوا مجانين.
بهذه الوردة العجائبية
أتلفوا فيها طاقتهم
ذلك أن الإمعان في الحنين
هو مثل الأوبيوم مسمم.

السوق يموج بالباعة والمُشترِين على امتداد زنقة الموفتار صعودًا ونزولًا. مياه النافورة سنابل مُتلاحِقة، فتاة وشاب يغطسان وجهيهما في الماء ويرتشف الواحد منهما من شفَتَي الآخَر، لا حرج في الحب، ونواصل الغناء نحن حلقة الشعراء أو المجانين المفقودين، لا شعر بلا غناء ولا بدون نار مُلتهبة، لن يكون شاعرًا أبدًا من يحس بالاكتفاء التام بذاته. الشِّعر ما يلقي صاحبه وقارئه بالضربة القاضية. الوسط ممكن في كل شيء، إلا في الشعر والحب والجنون، ومَن ضرَبه المنفى والغربة.

تعبَت المرأةُ المُسنَّة من الغناء فناب عنها دمعها مواصلًا. من جهتي، أكملتُ المقطع الثاني من الأغنية مع الكورس:

ينبغي أن أكون قادرًا على الرجوع إلى الوراء
تمامًا كما نفعل حين نرقص التانغو.

(٢) في خطى دوراس

قال ميشيل: مرحبًا، وها باريس تعود إلى أحبابها. أجَبْتُه: ربما خيَّبت أملك، فلا وطر لي فيها اليوم، سنقصد بحر المانش؛ هناك سنسند رأسينا على الصخور السوداء بين «تروفيل» و«دوفيل»، وفي هذه الأخيرة سنلاحق أعظم جَزر في العالم، وبالمناسبة، هل سبق لك أن شاهدتَ هذا الجَزْر؟ لاحَظ أني مصمم، فاكتفى بالقول: كما تشاء! ركبنا السيارة وانخرطنا في الطريق الوطني A13 الممتدة بين مَدينتَي باريس ولوهافر.

استغرَقْنا في الصمت قبل أن يَمدَّ لي كتابًا طلبته منه قبل وصولي. كان يعنيني كثيرًا الحصول على الترجمة الجديدة لأشعار راينر ماريا ريلكه (دوينو والسونيتات إلى أورفي) كما ترجمها من الألمانية وقدَّم لها جيرار سنيوري (منشورات مشيل دي مول، ١٩٩٦م). قبل سنوات، كنتُ قد ترجمتُ الكُتيِّب البديع لريلكه (رسائل إلى شاعر ناشئ) وأمَلِي أن يهتدي بها كل شاعر ناشئ. وبعد حين من الدهر، اكتشفتُ أن الناشئين بوفرة التراب وأن الشعراء بينهم أندَرُ من التِّبْر.

حين تجتاز النفق الموالي لأعالي «سان كلو» تشرع «غابة دي مورلي» في الانتشار على مد البصر بقامات شجرها السندياني، الأغصان تغادِر نحولها شيئًا فشيئًا، والأوراق فيها بعدُ براعم، وقت تَفتُّحها سِرِّي جدًّا.

نحن في منتصف أبريل، والشمس ما تزال عَصِيَّة. يكفي أن تشرق بإشعاعات قويَّة فيتبدَّد تحتها الرَّمادي أو هذه الكثافة الهلامية من الضباب، تغمض عينيك وتفتحهما، فيذهلك كالمفاجأة أخضر فَتيٌّ، طَري، مُحتَشم. وأنت تتقدم في الطريق الغابوي تاركا «فرساي» بكلمترات خلفك على الجهة اليسرى يبدأ تدرجك في الأخضر النورماندي، تفاصيل وإيقاعات وتَموُّجات ... نحن في الربيع إذن، يسبقك ريلكه إلى تحصيل الحاصل، تفتح الكتاب، وتقرأ في القسم الأول من سونيتات إلى أورفي «القصيدة ٢١»:

هو ذا الربيع يعود، والأرض
مثل طفل يتبع الأشعار
أواه، كَمْ وكَم، وبقدر كبير من الصبر
في هذا التعلُّم سيلتقي المكافأة.

يأخذ الشاعر نفَسًا ويستأنف:

ها الأرض تستعيدُ حريتها، الأرض السعيدة
أراها الآن تلاعب الأطفال ونحن نريد القبض عليها
الأرض الفرحة
الأشد فرحًا، هو من سينجح في القبض.

بَلغْنا مَقصدنا في العَشِي، لم تكن هناك شمس لأُسمِّي الوقت غروبًا، ولم أجد أفضل من هذه الساعة لمُلاحقة الجَزْر، البحر بعيد وسيشرع من الآن في الابتعاد، كما أعرف أن مَدَّه محدود. هذه المساحات من الانسحاب، من الفراغ مُغْرِية، مُدوِّخة، مثل سماء ناضجة بالنجوم لا تَنِي تَعدُّها وتعيد العد ولا تظفر بالعدد. هنا آثار خطوات كانت، ورمل تلاشى تحت رمل، وبحر المانش الخافت بلا موج. بحر كأنه على خلاف مع اليابسة؛ ولذا لا يكفُّ عن الهرب بشساعته المنكفئة عليه، ما علاقته بي؟ مرة رأيتها عند صخرة سوداء، من جهة «تروفيل»؛ أي إنك تَعبُر الجسر القصير من «دوفيل» وأنت فيها. هنا حيث تقيم وقتًا من العام، أظن أن هذا حدث قبل عامين من وفاتها القريبة، هي، و«يان أندريا» عشيقها وسكرتيرها ومستودع أسرارها، يان، هذه مرغريت. بيني وبينها المساحة المنسحبة، وعِوَض أن أنظر باتجاهها، رحتُ أُوجِّه بصري حيث نظرَتُها مرمية، التي أقامت سريرها ووضعتْ وسادتها على حافة الماء سيبقى دائمًا على حافة الماء. هذا طراز من العشق المتبادَل لا يكابده إلا العُشَّاق ولا يُقْرأ في الأوراق مهما عَجَّت بملفق الأخيلة، والكلمات الفقاعات، مثل صياد ماهر وصَبور رمَتْ بقصبتها ونظرتها في الماء وجلست في داخلها تنتظر، كان أندريا إلى جانبها، لا بَل خلْفَها قليلًا، كما ينبغي له أن ينتظر انتظارها، حين تُحرِّك شفتيها: يمسك بأول سمكة – عشيق خرج من البحر عابرًا فراغ الجَزْر ليتحوَّل إلى كلمة اسم معشوق فيُدَون بسرعة، خشية أن يزحف المد بلا توقُّع ويبلع العشيق، تتكرر العملية، وإذا بهم حشد من العُشَّاق، والبحر يزداد ابتعادًا أمشي فيه كأني أريد أن ألحسه عن آخره؛ لأكتشف أخيرًا أن همي العبثي القبض على نظرتها مثل أطفال

«ريلكه» يريدون القبض على أرض الربيع الفرحة في وقت آخَر. تبعتها إلى «هونفلور» في الضفة الشمالية للمانش بحجة كاذبة لإعادة تركيب فضائها. دخلت إلى الحي العتيق، وصاعدًا الدَّرَج الصخري، مُتحسِّسًا الجدران الصخرية بحذر مثل مَن يتخبط في مغارة، أعطاني صاحب مطعم «القراصنة» نعت الباب والنوافذ، حين أوشكتُ على طَرْق الباب أطَلَّت من شُبَّاك قريب امرأة مُسِنَّة تشبه امرأة الكورس الغنائي وبادرَتْني بالسؤال: لعلك جئتَ من أجل السيدة دوراس؟

– ربما، أجل، بلى.

– أخشى أن تكون قد جئتَ من بعيد، فهي قد رحلَتْ.

– رحلت؟! ألا تعرفين إلى أين يا سيدتي، ولكِ منِّي مكافأة؟

– ألا تقرأ الصحف، أم إنك تمزح؟!

– الصحف، هذه مشكلة أخرى، ولكني رأيتها البارحة في بحر دوفيل.

– أنت فعلًا إنسان طيِّب، جميع سكان هذا الزقاق يرونها كل مساء تطل في ساعة من الليل، تطل من هذا الشُّبَّاك أو ربما في أي ساعة.

رفعت بصري حيث أشارَتْ، فرأيتُني مباشرة قبالةَ بحر يمعن في البعد، وأنا ألهث خلفه، فما أزداد إلا بُعدًا عنه، والمدى شاسع والأرض تحتي تنسحب، أو شيء مثل قدمي يغُوصان والرمل صاعد فوقي أخيرًا إلى أن أدركني ميشيل يسحبني، وهو يقهقه ويفتي في أمري: أنتَ تُلاحِق الوهم، فالجَزْر هنا بعيد، بعيد. ربما من الأفضل لك أن تعود إلى «باب الجنوب».

– ربما.

دوفيل في ١٦/ ٤/ ١٩٩٦م

لقالق شالة

ليست الكلمات هي ما أكتب، بل هي منطقة الصمت الشاسعة والدغلية، حيث تثوي كلمات لم أكتبها، لم أفكِّر فيها، لم يرفرف إليها خيالي وأنا هنا قابع وسط ضجيج الكتبة ومحترفي تنظيم جمعيات ومهرجانات الكلام، والورقة موضوعة أمامي بيضاء؛ أي صامتة، لا أفكر في شيء قبلها، لا أريد أن أفكر في شيء بعدها، ستأتي الكلمات وحْدَها، منفردةً تفرد المفردات فرادتها لتحط على صفحة البياض الصامت أو الصمت الأبيض، المنسي، الغابر، لا غرَض لها إلا أن تُعمِّق سكونه وتفرخ فيه كائنات إضافية تترعرع في سُؤددِ البياض. لو شئت تقريب الصورة لقلتُ: إنها تشبه سِرْب إناث اللقالق آتياتٍ من أصقاع شَمال الأرض الباردة — وهذه حقيقة مبذولة للناظرين لا خيال — صانعات لها أعشاشًا مُدعَّمةً في حدائق شالة الداخلية، لقالق مهاجرة تضع بيضها في مدينة مهجورة، متخفية، فائتة، ينظر الزُّوار إليها، يقفون أمام الأعشاش مَشدُوهين لا يفهمون، هم لم يفهمُوا شيئًا أبدًا، سينتظر البَيْض الأبيض عُبور الزائرين اللاغطين، المُدجَّجِين بآلات التصوير وكاميرات الفيديو، وفي هدأة الليل، بعيدًا عن الأنظار، أي حين يكون الصمتُ قد استرجع سيادته المُطلَقة، سيفقس في الليل لتخرج فراخ ستُربِّي الريش الأبيض، وحين تحس بقدرتها على الطيران بعيدًا عن الكلام ستحلق صاعدة نحو الشمال الثلجي، الأبيض، الصَّمُوت، بعد أن قامت شالة بواجب الضيافة (رغم وجودها إلى جِوار مدينة أبوابها مُوصَدة دون كل وافد). تفهم اللقالق أن الصَّمت إذا جاور جنسه طويلًا سيضطر للكلام، وعندئذٍ سينقض على نوعه ويزعج صنوه، هكذا الكتابة مهاجرة دائمًا، حلَّت أو ارْتَحلت. ليس كل من وضع كلامًا على ورق مطبوع صار كاتبًا. الكلمات طالبة لنزوح دائم في صمت غيابها، لا أفكر في شيء قبلها، لا أريد أن أفكر في شيء بعدها.

مضطر للاعتراف بعجزي عن مواصلة الجملة؛ لأن المعنى هارب وحولي كثير من الضجيج، وهو نقيض لمشروع عملي؛ ولذا لا أجد بُدًّا من طلب اللجوء إلى الأسئلة والاستيهامات التي لاذت بها شكوك غيري، وهي من الدلالة بما يُعفيني عن الاستمرار في بحث سأصبح أشلاء قبل أن أنتهى منه، أظن أن الروائية الفرنسية مارغريت دوراس اختارَت طريقة غير معهودة كي تلفظ أنفاسها، وإن كانت مُنسجِمة غاية الانسجام مع مشروع حياتها الأول والأخير؛ أي الكتابة، وسجَّلَت احتضارها بمِداد الشك والحرقة، باحثة عن الصَّمت عند عتبة الصمت الأبدي المهاجم لها، وذلك في واحد من بين أعمالها الأخيرة، كتيبها المعنون: Ecrire (غاليمار، ١٩٩٣م). لنقرأ بعض أقوالها:

«إن وحدة الكتابة هي وحدة بدونها لا ينتج المكتوب أو تراه يَتفتَّت باحثًا عمَّا يكتبه أيضًا.»، «لا بُدَّ من الانفصال عن الآخَرين الذين يحيطون بالشخص الذي يكتب الكتب، إنها وحدة؛ وحدة المؤلف، وحدة المكتوب، نبدأ الشيء (العمل) نتساءل عمَّا هو الصمت الذي حولنا، وعمليًّا، ففي كل خطوة نخطوها في بيت، وطيلة ساعات النهار، تحت كل الأضواء، سواء مصابيح الخارج أو المُضاء في النهار، تُمْسي الوحدة الحقيقية للجسد هي تلك المتمنعة عن الاختراق للمكتوب.» درءًا للبس، لسوء الفهم، تشرح دوراس قصدها بإيجاز:

«إننا لا نعثر على الوحدة، بل نصنعها، وهي تُصْنَع بمفردها.»

هنا يَكمُن معنًى ماكر مُوجَّه لمن — لكتاب مُفتَعَلِين — يُؤَثِّثُون وجودَهم بصمت اصطناعي ويصرحون دون خوف من المجازَفة: أنا أكتبُ، أو أنا كاتب. والعبارة التالية تفصح عن تتمة المعنى: «أستطيع أن أقول ماذا أريد؟ بَيْدَ أني لن أجد الجواب أبدًا عن سؤال لماذا نكتب؟ وكيف لا نكتب؟»، إنما الوحدة هي الهاجس المِلْحاح «الوحدة معناها أيضًا: إما الموت أو الكتاب.» ما يقود إلى الكتابة لا تعرفه بالتحديد، والكتاب هو المجهول «أن تجد نفسك في ثُقْب، في قَعْر ثُقْب، في وحدة شبه مُطلَقة وتكتشف أن الكتابة وحْدَها هي ما سينقذك، أن تكون خِلوًا من موضوع أي كتاب، دون أيَّةِ فكرة عن كتاب هو أن تجد نفسك ثم تَجِدُها مُجدَّدًا أمام كتاب، فراغ هائل، أمام لا شيء، أمام ما يُشْبِه كتابة حية وعارية، مثل فظاعة لا تطاق.» المُنتِج الأدبي، صانع الكلام مرتبط بنتاجه، هو منه سلفًا، هذا ما نفترضه، نؤمن به سلفًا لكن الشك يُخَلخِل البداهة ويحول بيننا والقول الذي هو مصير يَتصوَّر الآخرون أننا نقترحه عليهم أو نأخذهم إليه عنوة، الشيء الذي يصنع هيئة فادحةَ التَّوهُّم عن الكتاب، وهو ما تُصوِّره دوراس على طريقتها: «عجيب

هو الكاتب؛ إنه تناقُض، وأيضًا لا — معنى. فأن تكتب هو كذلك ألَّا تتكلَّم، أن تصمت، أن تصرخ بدون ضجيج، وغالبًا ما هو مريح الكاتب، إنه يُنصِت كثيرًا، إنه لا يكثر من الكلام؛ لأنه يستحيل أن نتحدث لأحد عن كتاب كتبناه وخاصَّةً عمَّا نحن بصدَد كتابته، خلافًا للسينما أو المسرح؛ لكلٍّ كتابته، خلافًا للسينما أو المسرح، لكل القراءات؛ فالكتاب هو المجهول، إنه الليل، المنغلق، هو ذا.»

مَن توفَّرَت له هذه الرؤية سيتنازل لكل العارفين عن الفهم المُسبَق للعالم، والتشكيل الجاهز لمواد الكتابة وطرائقها ما يجعل دوراس تُؤاخِذ الكُتُب على وقوعها فيما يشبه الأسر الاختياري «إنها مصنوعة، مُنظَّمة، مُقنَّنة، وتكاد تقول مُطابِقة للأصل وفيها يَتحوَّل الكاتب إلى شرطيه الخاص.»

وإذن اكتبي يا مارغريت دوراس، أيَّتُها المبتلاة بالعشق والعُشَّاق، والمريضة بداء عُضَال اسمه الزمن، اكتبي أنتِ التي أنتجتِ عشرات الروايات الباقية، وقد عُدْتِ للصمت الأبدي المنشود. بعد كل ما فات أسمعها تجيب: «لا أستطيع، ولا أحد أيضًا، لا بُدَّ من القول: لا نستطيع؛ إنه المجهول ما نحمل في داخلنا: أن نكتب، هذا ما أصيب فينا، هذا أو لا شيء (...) أجَل إنه مجهول الأنا، لشخص آخر يظهر ويتقدَّم خَفيًّا، موهوبًا بالفكر، بالغضب، ومَن يجد نفسه أحيانًا مُهدَّدًا بفقدان حياته (...) المكتوب يصل كالريح، إنه عار، إنه الحبر، المكتوب، ويسير كما لا يمر شيء في الحياة، لا شيء أكثر، سوى هي، الحياة.»

سأترك دوراس إلى فخامة وحدتها وأبدية صَمْتها بعد أن وهبَتْنا أدبًا بلا نظير، الأدب الذي أعلنَت فيه ذاتها وتَمجَّدَت به الذات مطلقًا دون أن يَتصدَّى لها مَن يطالب برأسها، كما طالَب برءوسنا منذ أزيد من عقدين مُتطفِّلُون على الأدب، لا هُم في العِير ولا في النفير. وقْتَها كان الأدب المغربي قد أرسى أُسس تحديثه وبَلْوَر صيغه التعبيرية الحديثة الأولى، وظهر رهط من الشعراء والقَصَّاصين والمتكلمين في شئون النقد، كان واقعنا مزيجًا من أصوات مُعتَركة بشجون الهموم الوطنية والنضالية والقومية. وهذا المزيج هو الذي صاغ مفهوم الذات التي بدت جماعية أكثر من أي شيء آخَر، هناك كثير من التفاصيل، يضيق المقام عن عرضها، رغم أهمية التذكير بها في زمن قلة الحياء وفُقْدان الذاكرة، سأعود إلى هذا في حينه وأكتفي بالإشارة إلى أن الرُّوَّاد ومَن جاءوا بعدهم، على امتداد العقد الستيني، آمنوا بوطنهم وتفانَوا في حُبِّ شعبهم، وتماهَت ذواتهم بذوات الآخَرين، المحرومين والمضطهدين، في سبيل إرساء قيم مُعيَّنة. ولم تتخل التعابير الأدبية

التي جاءت عقب ذلك عن هذه القيم ولا شكَّكتْ فيها، بل زادتها تعميقًا في المعنى وصَقلًا في الأداء، مع بروز خاصية أو حساسية مركزية تَبدَّت في التسويغ التدريجي لمقولة ذات فردية مُرسَلة للخطاب، مستقطبة لرؤيته ومُنتِجة لمرجعياته. إن التَّحوُّل النوعي الذي شَرعَت الكتابة السردية في الانتقال إليه منذ مَطلَع العقد السبعيني كفيل بتقديم أكثر من مثال على ما نقول، وهذا لمن ابتغى التَّمحُّص وعفَّ بعلم ونزاهة عن مُجاراة شَقْشَقة الجهلة والجاحدين. الأدب تعبير ذاتي! عجبًا وأين كنتم قبل عُقود حين قُدْنا هذا المشروع وقامتْ حولنا الدنيا كأننا من المارقين؟ اليوم تستفيقون من الغيبوبة، أم هو آخِرُ عُكَّاز في الطريق؟!

لا يحتاج الكاتب إلى عكاكيز، بل ذلك الصمت المُعجِز، في ضرب من الوحدة المُؤلَّهة، كي يمارس عملًا محفوفًا بالمخاطر ... بعيدًا عن لغط اللاغطين.

٤ مايو ١٩٩٦م

ضياع في الأندلس

كنا نتحدث عن الموت، كنا بصدد القتل. هكذا ببساطة كما يقال في نشرات الأخبار؛ أي إن الأمر يتعلق بالعثور على عشرات الجثث المثقوبة بالرصاص، والمبتورة الأعضاء، جرَّاء القصف الجوي الذي قامت به طائرات تلك الدولة المسالمة التي تدافع عن حدودها وأَمْن مواطنيها، ولو لم تكن نواياها سليمة لَما رأيتُم لُقَطاء كانوا بالأمس من دمنا يحملون إليها بقية من دمنا، لِتَجِد عذرًا إضافيًّا لتذرف مزيدًا من الدموع أمام حائط مبكاها. طبعًا ليس على دمنا المستباح.

كنا نتحدث، إذن، عن ذلك الشيء، النَّزْر اليسير، الذي لا يساوي مثقال ذرة، وقد آنَ الأوان لِيجِفَّ حِبْر هذا القلم ويركن صاحبه إلى صمت المَقْت بعد أن أُبْرِمَت في جميع أركان المعمور اتفاقيات لا تحتاج إلى توقيع بالأحرف الأولى ولا الأخيرة، فالأبجدية تَبخَّرت، والحروف في «لسان العرب» بهتت، تحتاج فقط إلى وضع بصمات برءوس مَحْنيَّة ودبر مُعلَّقة في الهواء، وتعميم حملة قومية يقوم الفَعَلة الرئيسيون فيها بإِلْغاء الحسِّ والنَّبض والعبارات والملامح المنفرة، الغاضبة، المطالبة، المُحتَجَّة، الرافضة، المُوَلْوِلة، المُحذِّرة، المُشاكِسة، الموتورة، القَلِقَة، المُتسائِلة الأَمَّارة بالسوء. الأصوات الغليظة، المناهضة لاستتباب النعومة، المتمادية في طريق الحشرجة، المُتشبِّثة بخشونة، لا، المجانِبَة لصواب نعم، وللغة الجديدة للفعلة المنعمين ... وأخيرًا بصدور بيان ختامي يلغي حرف الضاد في العربية ويسميها لغة نعم.

نعم يا سيدي! نعم يا مولاي! نعم يا سيادة الـ... «نعم، أنا مُشتاق وعندي لوعة.» نعيمًا. ألن تَكفَّ يا أنت عن تشاؤمك؟! هكذا خاطبَني رفيقي، ونحن نُغادِر المدينة المثقوبة آخِذِين طريقًا انتشرت على جانبيها الزَّرابي مِن كل رسم ولون: إنك أدمنتَ النظر إلى

داخلِك، إلى الخَلْف جدًّا، إلى قاع صَفْصَف اسمه الفوات، وتأكَّد أنك لن تقبض على شيء منه؛ فالحاضر عِوضه، وإذا لم تَتدارك نفسك ضاعَ منك بدوره.

وانظر حولك، ستَرى أن الجميع يمارِس لعبة التَّخلِّي، وفيها فنون وألوان، لا أغويك بدخولها، فسواء فعلتَ أو لم تفعل فهي، بطريقة أو أخرى، قد اكتملَت، ولن يلحقك فيها الدور؛ لأني منذ سنين وأنا أشاهد الصفوف طويلة عند بابها، تصرف مثلي، انْفِض يدَك مطلقًا؛ أي خذ الحياة كما تأتي إليك لا كما تريدها بالضرورة. فإن أحسستَ بالضَّجر فلا أفضل من أن تعالجها بوصفة ناجعة اسمها السخرية.

اضحك ملء شدقيك. ابتسم بمكر أو بخُبْث أمام حلقات الفُرجة المبذولة مجانًا؛ سترى إلى أي حدٍّ أن المشهد مِعطاء بالهزء، بالصغار والغثاثة، القفا الغليظة تُغريك أنت بخبطها، والوجه المُبَهرَج بنزع جلده، ومَن يمشي كالراقص أو يرقص كالماشي، والكذوب المُلتاع بجبنه تَتحرَّق للدغه، فيما مُتعَتي أن أراه متهتكًا في الرقص، عَهورًا في الكذب، وشيخ طريقة بين ما يظهر ويبطن، يسجي جفنيه دون ناظريه لا حِشْمة أو هَيبة، ولكن خشية أن يُضْبَط مُتلبِّسًا بالصفاقة وهو صفيق. نحن لا نعدم الرجال، إنما بينك وبينهم ألْفُ حجاب فَهُم إما يعكفون على صلاة تَخصُّهم أو يَسعَون بحثًا عن ضالَّة المومن، وهذه لا تُحْتَسب بحساب، كما لا يحتاج المُتسنِّم لذُراها استعراض محاسنه أو مباذله، وأصدُقك القول إني أخشى جانِبَ هؤلاء، على نُدْرَتهم، خوفي من نفض اليد دفعةً واحدة من هذه الدنيا والنزوح لشأنك إلى أقاليم الفوات؛ لذا، ودفعًا لكل هذا، تراني كالأبله لا أكفُّ عن الابتسام طاردًا به أشباح الشؤم والتطيُّر، وهذا كل ما في الأمر يا سيدي! نعم يا سيدي! نعم يا مولاي! أما الباقي فإني لا أجد عنه أبلغ من قول الشيخ درويش في رواية «زقاق المدق» لنجيب محفوظ، التي تعرف، حين هتف مُنشِدًا:

وما سُمِّي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا لأنَّه يتقلَّب

هنا أظن أن رفيقي انقطع عن الكلام وأشعل سيجارة سحب منها نفسًا عميقًا، كما نقول في القصص، ثم حاصرني بنظرة مَن يتوقَّع تعليقًا أو مشارَكة في هذه الحِكَم البائرة. بقيتُ مستغرقًا في صمتي أطولَ وقت ممكن، مُرخيًا الطرف بين زرابي الطريق والسيارة، كأنَّها مدفوعة وحدها بريح مُيَسَّرة، إلى أن أحسستُ بإلحاح نظراته، فخاطبتُه بنبرة مَن لا يريد الخوض في أي كلام أو سِجال: لك ما أنتَ فيه، أما عن الباقي فإني بدوري لا أجد أبلغ من قول الشيخ درويش نفسه في خاتمة الرواية المذكورة، وقد وَحْوَح

متنهدًا وقائلًا: «يا ست الستات ... يا قاضية الحاجات ... الرحمة ... الرحمة ... يا آل البيت، والله لأصبرنَّ ما حَيِيتُ، أليس لكل شيء نهاية؟ بلى لكل شيء نهاية ...» ومعناه بالإنجليزية end وتهجيتها end.

وهجم علينا جمال الخارج هُجوم الحرَس، هي ذي الطبيعة ساحرة والربيع حل بفتنة لا تُضاهى، تَتمنَّع عليَّ الكلمات، لا يَتسلَّم الكلام أحيانًا إلا العَجزَة أما البُلَغاء فيفيئون طويلًا في ظل الإشارة، لا أحب البشر الضحوك، المهذار، أو مَن يَتفشَّى حزنه على وجهه كالدمامل، الحزن الأصيل خبيء، مُجهِد للروح، مُلغِز وناطق كالإشارة، هو ذا الربيع اغتنمه أيها الرفيق المُبتَسِم كالعذوبة، خالص الطَّويَّة مثل المُتعبِّد في سحر ما ترى ولسان القلب منك يهتف باشتياق للقاء وشيك يقفز منه منه أسفٌ مُمِضٌّ، مقرور ومُلتَهِب: ليتنا كنا جديرين بهذا البلد!

بدت فاس من مدخلها، وبجبل زلاغ في المدى القَصِيِّ يحنو عليها، جديرة باسم المدينة. لم يكن الوصول إليها عندي قصدًا فهي المقصد دائمًا وإن كنت عنها في غياب وهي معي على عتاب، وما أعرف طبعًا غير هذا يدوم بين الأحباب، أجمل المدن ما تصل إليها استطرادًا لا تسلسلًا، وبالإرادة المحض، مثل كتابة تصل إلى موضوعها وأنت عنه شارد إلى أن يَينع بين أناملك مثل معجزة باهرة، عندئذٍ تقفز من السيارة وتَنضو عنك ثوب الوافد لترفرف فراشة بيضاء بجناحَي طفولة مطلع العقد الستيني، تحط عند مدخل باب أبي الجنود. فكأنك وصلت أمس نازلًا من كار الغزاوي حاملًا حقيبة صغيرة وزوادة بها بقية بيض مسلوق، وبرتقالة، ونصف خُبْزَة من عجين الدار. بالأمس كنت جسدًا يَتكوَّن، ذاكرة تَشحن وأُذنًا تَتعلَّم الإنصات إلى نبض التاريخ، ليس غير فاس توقعه. واليوم حفَرَت الغربةُ أخاديدها على جِلْدك، وشَطَّ المزار فإنك تَحوَّلْت عينًا، إنسان العين تريد أن تلتهم كل ما ترى أو تستعيد من المرئي كل ما لا تراه. يقول الفاسيون إنهم سيحوفون (ينزلون) إلى فاس، أما أنا القادم إليها، نسغها من تيرس الشاوية المنقوع بندى باب أبي عجيسة طرقَه أبي ذات يوم في مطلع الأربعينيات واضعًا هالته المباركة على العتبة فلا تخشع إلا في محراب القرويين، هم ينزلون وأنا إليها صاعدٌ أقبض على الأسوار، وأتطلع إلى الأبراج والقباب العالية، أَطُلُّ من عَلِ فيما يبدو منحدرًا وأنت تضع الخطوة الأولى في «الطالعة الصغيرة»، يقودك الحدس وسلافة الذِّكْرى. على يسارك تبقى «الطالعة الكبيرة» زاوية منحرفة، هامشًا، حوانيت شاي وصحون بيصارة للفقراء، مستورين بسقف ظليل من قصب يحجب عنهم كل شيء إلا رحمة الله.

في الطالعة الأم تسبقك بضع خطوات فإذا بك حاذيت مَتْجر الشاوي بجواره الكتبي يهتف ما إن يراك: أهلًا بأولاد الجامعة القدامى، فمن يا ترى بجواره؟ إنه عادل! لكل مدينة فتاها، وعادل فتى فاس الأزلي، يملك مفاتيحها ومخزون أسرارها. من خابية محبة مُعتَّقة يسقيك باسم مَحتِده ونيابة عن كل الفتيان النجب. من لم يقابله أضاع نصف المدينة، والنصف الآخر يتسلسل فيه من الصعود باتجاه سويقة بن صافي — رغم النزول أنا لا أحوف بل أصعد — وكما تَغمُرك الرؤيا من حيث لا تتوقع ترفع بصرك علوًا إلى اليمين فتقرأ: يان، الزربطان، الزرب، طان، هو ذا الاسم الذي الْتَوى بلسانك طفولة بكاملها، فانَسسَلَت ذهابًا وإيابًا في هذا الزقاق تستهويك موسيقية الاسم وتَمَوُّجك فيه كالسمك في الماء مخاتلًا ألَّا يراك القهوجي. على الجانب الأيمن من السويقة قُبالته دكان سعيد للكُتب المستعمَلة، فمحاذرًا النظر إلى أفق زقاقهما الذي إن سرتَ فيه لا بُدَّ سيقودك طولًا فطولًا إلى دار المقري، ومنها لا مناص لك من العبور بوادي الصوافين، فتكون من الجاحدين إن لم تخشع أمام بوابة «مدرسة السعادة». فمن أين لكَ الصبر عندئذٍ كيلا تجرفك الذِّكْرى وتغرق في الحنين؟ ليس إلا عقبة الفئران عند ناصية الوادي منه تهبط لسانًا منحدِرًا، وإنما إلى ثانوية البنات، ثاوية في سُرَّة العقبة، فهن البنات، الصاعدات، الهابطات، المترَقْرِقات الضحكات، الفاسيات لا يشبهن إلا أنفسهن يغار منهن كل مُشبه ومُشبَّه به، فطورك مقطوف من غمازة عَين هي حقل وسلسبيل من زُرقتها بصفو الأديم، وعشاؤك تستدرجه من طلاوة خدودهن الرُّمَّانية والبضاضة المأسورة في صرامة اللباس المدرسي. وبتَّ تَحلم إلى أن طلعَت عليك شمس فاس بعد ثلاثين عامًا ونيف سوالفها مُتهدِّلة على فُودَيك الأَشْيَبَيْن، ودلالها سَكُوب بالغواية الدائمة، لا، لن تأخذ الزقاق، إياه وإنما تَتسنَّم سُلَّم «زقاق الحجر»، فهو المدخل الصحيح للمدينة، ومن أخطأه ضاع منه الطريق إلى قلبها، وكل له قلب فيها، فاطلبوا الصبر والسلوان للعاشقين.

منهم مَن يقصد الزيارة في مولاي إدريس أو يصلي ركعتين في القرويين، أو يَتذوَّق ذكرى طعم «التحيمضات» في العشابين، أو يحتسي حريرةً لا يعلى عليها في باب السلسلة، ثم يشتهي أن يقتني من أطاييب سوق الرصيف اقتداءً بشيخنا سيدي محمد السرغيني — نفعنا الله بعلمه وبركته، آمين — الذي يَحُوف إليه من دار دبيبغ باكرًا وما إخاله إلا يسترق النظر إلى بكارة المدينة ويستمع إليها بين تلاوتها الصوفية قبل أن تَهج وتعج وتعلو حيطانها وممراتها «سمفونية» البلاك بلاك، بلاك ... وصدمني حمل البغلة رغم أن صاحبها لم يَتوقَّف عن التنبيه: بلاك، وما أجملها من صدمة أوقعَتْني فوق نعليها

قليلًا عند ساقيها، فَشممتُ مزيجًا من الورد والحِنَّاء والبخور، صحوتُ به من رضة الألم في ظهري الذي استقام صاعدًا. لا أعرف أهو إلى يدين ممدودتين نحوي تُسعفانني من عَثرتي أم صوت ناعس، مستسلم كنهاية موجة: الراجل، ما يكون باس، أنت في عار الله الراجل!

وحين تقابَل وجهانا رأيتُ الأندلس ... وضعتُ في الأندلس، ونسيتُ أني بعد سوق الرصيف كنتُ أريد عبور الجسر إلى حي المخفية، ونسيتُ أني لم أَجِد مَن يرشدني إلى ثانوية النهضة ... ياه، هكذا ضعتُ يا سيدي محمد الإدريسي — ألف رحمة عليك — وأنت يا الحاج التهامي دُفِنتَ في «دفنا الماضي» ونسيتُ أن شيخًا وقورًا قَبَّلت يده كأنه أبي أدركَني ليدلني على بقايا «النهضة» والمخفية، ولكني لم أجرؤ على اقتحامها؛ لأنه اقتحم سريرتي وهو يسألني: قل لي الحقيقة، عن أي شيء تبحث يا ولدي؟ رفعتُ إلى مهابته عينين بدمع عَصِي، وحين تقابَل وجهانا شُغِفتُ بالأندلس ... وضعتُ في الأندلس.

٤ / ٥ / ١٩٩٦م

هي الأرض حول القمر

(١) وصف العبير

إذا أردتَ أن تتكلم، فماذا تفعل؟ ليس اليوم فقط، بل أمس وغدًا، أيضًا، كيف تَكلَّموا؟ أي هم، أصحاب اللسان العاقلون المتدبرون، أصحاب النباهة والوجدان. المتآلفون مع الخلق، المشخصون لسمات الوجود بين الشَّذَى والمدى وسؤال المصير، فهُم مَن أعني وإلا فإن البقر يخور، والنعاج تَثغُو، وللثعابين فَحيح، والكلاب، كما نعلم جميعًا، تنبح، فسبحان الخالق وضَع لكل مخلوق صوتًا يواتيه، يعرف به ولا يمكن أن يحيد عنه. كلٌّ لما يُسِّر له، واللسان أَلْيَق ببني آدم، والشكر للخالق الوهَّاب الذي نزَّهَنا عن النهيق، فأنكر الأصوات صوت الحمير.

أجل، كيف تَتكلَّم إن رُمتَ أبعد من السياق التداولي، النَّفْعي، ذي المرجعية والعلامات المحدَّدة؟ فأنت لا تنسى اللغة، مخزونها، صورها، رموزها ولا إحالاتها العديدة؛ فهي جسد آخَر مركَّب فوق جسدك، قُل: هي روح أخرى تنطق فيك، وقليلًا ما تعي أنها تنوب عنك وبالرغم منك لتتحدث بما تريد ولا تريد، لتنصب لك فخاخًا، أو تنثر أمامك مُروج حلم، أو تُقوِّلُك ما لا تحب، ومنه عثرات اللسان. فكيف إن وعيتَ تمام الوعي أنك أَسيرٌ لها؟ مرامك التخلُّص من شرنقات تركيباتها القبلية، مَبنًى ومعنًى. وكيف بك إن أحببتَ أن تكون أنت حقًّا لا سواك، حوَّلك إلى ببغاء، أو وضَعَك موضع السخرة بلسان مُعار يرميك في حمأة المَعَرَّة، يلبسك جلدك، ويمسي لسانك مبتورًا منك حين تصبح في العراء.

لا عجب إذا كان الصمت ضالة المؤمن، يستغرق فيه كالناسك بما يُصِمُّ سمعه عن لغط القوم حوله وما يأتي نطقه إلا للتبتل والعبادة. والكتابة ضرب من الكلام عدا أنَّ نَهْجَها أوعر، ومشاقَّها تحتاج لطاقة تتحمل وأكثر. وما كل كلام كتابة، ما أوقعنا في خلط

بات لغطًا عسيرًا تبديده وقد تفاقمت التسميات والتوصيفات والتذييلات وتشابَهت تشابُه البقر علينا، وما عاد من وسيلة للاهتداء وسط معمه وبين معميات إلا من رُزِق ملكةً صافيةً، وحسًّا مصقولًا، وذائقةً مدرَّبةً، مُحصَّنةً دون هجوم النافر واكتساح الجراد، أو نأى بنفسه إلى خلوة الأصفياء؛ ليحمي طبع التغريد بعيدًا عن النقيق في كل مكان.

فلعلَّك بعد هذا مُخرِج أحشاءك، راغب عن رغاب الكلام الصُّغرى بغية الالتحاق بامتدادات الفناء والغناء في الكلمة، الكلمة تجمع الكون والكائن بين قبل وبعد وقليل من الفيء مأواها. أكيد لهذه الكلمة اسم يراوغك في بحثك، يراودك كلما اشتدَّ قنوط الرتابة خيط ضوء أو فراشة بيضاء تحت شمس يونيو طليقة في النهار، محترقة بالليل في ضرام تخيلاتك. وبين أن يتَّسع الخوف من تدافُع الزمن، وتضيق الأرض هلعًا من ضمور الأخيلة تَستنفر الخيل المُجنَّحة تنشد كبار الخطوب، فالكلمات ما وُجِدَت لمنازلة القراد، ودَعْكَ من وصف تفاصيل صياح الديكة؛ هي لمبايعة موكبها تَأْذَن للصبح بالطلوع من شُرفة البنفسج ولا تغرب الشمس، إلا أن تأذن للغروب بالغروب. ربما كان هذا بعض اسم الكلمة، أو ترامي أعضائي الواحد تلو الآخر أطراف أرض أَلَمُّك من شتات.

هكذا يبدأ التكوين الأول. ها أنت تضعين قدميك فوق تراب الحدوس، وبالهدب تبصمين على خريطة الشفوف عسانا نَعْبُر في خِفَّة الملائكة من الطرق التي تبدأ منك ثم نرتمي، إذ نتنكَّب عنك، في كل هذا التيه. الهزيع الأخير طال ولم نهتدِ بعدُ إليك، إننا في مطلع الزوبعة. ها هي الزعانف تتساقط والوقت كعصف مأكول، أما جسدك فشارد كالأثير، فمَن أنت لأحلم بأنِّي سأسميك ... أو أتوهم وصف العبير؟!

(٢) اسم القبيلة

حفظته ألف مرة، ثم عدت أنساه ألف مرة لكيلا أستبقي منه شيئًا، ذاك العبير الشارد، المنفلت. فما هذا الذي ينبغي أن يُنْسى ويطوله المحو بإرادة مني؟ وما ذلك إلا لأني لست واضعه، صاحبه، رغم أني أحمله، أحمله. منذ أن نَضوت عني ثيابي للمرة الأولى أمام البحر وتقدَّمتُ نحو الموج رافعًا إلى الماء يدين مُتضرِّعَتين، بدأتُ أنتعش برغبة التجرُّد، أنزع، أنزع حتى لا شيء إلى تُخوم الزَّوال، حتى لا أبقي كل ما هو مُركَّب قبلي لأكونني وأنطقني بفصاحة الهواء، وبعد أن خضتُ في الماء عامًا بعد عام، والبحر لَجَب والموج اصطخاب، صار مركبي يهبط عميقًا دون الزَّبَد، فوقي الطحالب وطريقي معلومة بين

المَحار والصَّدَف، عنها تاه القراصنة العميان حين انشقَّت السماء فأصابتهم بشهابي، وانشقَّت الأرض تحتي فإذا البحر خلفي سفر غياب.

حسنًا ما صنعتَ أيها الراحل في نسيان اسم القبيلة، المتكلف عناء إعادة شحذ الفحولة في سلالة «النساءات» الجديدة، هنا حيث لا ذكورة ولا أنوثة، الكلمات خلاسية تخرج من أفواه قردة في شكل مَردَة. ماذا تبقَّى من تاريخ الأسماء بعد غيابك، وجوه من بثور أم ذكرى غابرة لشقائق النعمان؟ بدل البحث عن جواب رحتَ تبحث في اشتقاق الألوان، وتصافيتَ مع سحر الليل وصفاء الماء، كما آخيتَ الأشجار وتباريح الفصول، كلما مرَّ يوم زاد بُعدُك عنهم دهرًا؛ إذ صرتَ تنسى ما لا يُنْسى في عرفهم، له يسجدون وبه يعرفون، وأنت ما همك أن تكون أو لا تكون إلا بيد ممدودة لغير زُلْفى وراحة مبسوطة تحت المطر، حين أنختَ راحلتك عند واحة القوم وقد جاءهم العام صبيبًا، وأنت في لحظة من صحراء العمر، طلبتَ ماء فَشحُّوا به ولو بصُبابة، وقالوا: أَجِب أولًا، ما اسم القبيلة؟

(٣) عشاء القبيلة

فككت الوثاق عن الراحلة، شددت عليك النطاق، وشمَّرْت، فما هؤلاء بشر، وخُضت المفاوز متجمِّلًا، متحمِّلًا عطشك، بعد أن فُتَّهُم بمسيرة يوم صادفت مَن خُيِّل إليك أنك عرفتَه أو ستعرفه، وكان بادي العياء، بلا ركوب وزوادته مخروقة، ومن يده تتدلَّى قربة بها بقية ماء قاسمتها بالقطرات. شَفيتَ الغليل خير من مائهم المغيض، وعالَجْتَه ببقية من رغيف سدَّ فيه جوعًا متضورًا، ثم ساءلته: من أين؟ وإلى أين يا ابن السبيل؟ فبدا كمن يستنكر السؤال، أوَليس حالك من طرز حاله، وها الجوع والعطش لكُما بالمرصاد في هذه المَهْمَه الموحش والبشر العقبان؟! ثم ما لبث وقد خفَت جوعُه وخفَّ وهَنه، أن شرح لك صدره وأرخى خيوط الحكاية:

«إذا كنتَ قاصدًا هذه الجهة من حيث رأيتني جئتُ فأنصحك بالرجوع، وخير لك أن تنحر راحلتك هنا وتَقتات بها على أن تُنْحَر أنت وإياها هناك، فكيف ذلك؟ اعلم أني وقد تَعوَّدتُ على الضرب في الأرض هواي اغترابي وتعسى مقامي. وعندي ما يكفي من الرزق للعيش في كَفاف وعفاف، فأقلُّ الزاد يكفيني، وإذا عسر حالي وأنا في التجوال، لا أعدم الكرام تُرى نارهم عن بُعد يُطْعِمون ويُزوِّدون للطريق. إلى أن اتَّفقَ لي ذات يوم، بعد أن خضتُ جبلًا وسهلًا، ونفد ما كان عندي من طعام، ومن حسن الحظ، كما قَدَّرت،

أني وصلتُ إلى بر ظاهر خيره عميم على ما رأيتُ في المشارف، فقلتُ: إني أصبتُ والله باختيار هذه الوجهة. وما هي إلا ساعة أرخى الليل سدوله مع وصولي حين رأيتُ فانوسًا يدلُّ على حانوت في مدخل البلدة فقلتُ أشتري منه شيئًا، فلما بلغته وجدته مغلقًا. وبعد هُنَيْهَة لمحتُ ضوءًا قادني إلى مكان كُتِب على لوحة فوقه اسم مطعم، فقلتُ: هنا سأصيب طعامًا، ولكن عبثًا؛ فقد كان بدوره مغلقًا، وهكذا إلى أن أنهيتُ كل ما هو معلوم للقوت. عندئذٍ قلتُ: سأطلب ضيافة الله، دائمًا عبثًا، فما استجاب لطَرْقِي باب، فحصل لي العجب كل العجب، فهل هذه أرض أموات. وبينما أنا كذلك في حيرتي وسط ساحة البلدة اقترب مني رجل كالشبح وبادَر يسألني عن خَطْبي، فأجبتُه كاليائس بأني أبحث عمَّا أسدُّ به الرَّمَق والحال كما ترى! دنا مني حتى صار لصقه فظهرَت لي أنيابه ناتئة، مُدمَّاة. ولما لاحَظ استغرابي بادَر قائلًا: هوِّن عليك فإني الليلة شبعان، ريَّان، فلم أفهم شيئًا، فزاد مُوضِّحًا: لا قُوت لك الليلة إلا أن تقصد بيت كبير أهل البلدة؛ فالسُّكان كلهم هناك حول عشاء ميت شريطة أن تكون من أَكَلَة لحم الأموات، ولمَّا لاحَظ أني أرتعش سارع يشرح: القوم هنا، على ما يكنزون ويطمرون، دائمًا في مَسغبة، فتراهم إذا زهقت روح أحدهم وارَوْهُ التراب ثم عادوا في اليوم ذاته ليخرجوه من قبره ويُولِمُوا عليه، واجدين في لحمه لذَّة ما بعدها لذَّة، فما لك غير تلك الوليمة إن أردتَ أن تصيب الليلة طعامًا. أما إن كنت تأنف أكل لحم أخيك فإني لك من الناصحين بالرحيل من ليلتك قبل غدك وإلا علموا للتَّوِّ أنك غريب، ولحم الغرباء عندهم أطيبُ من المسك. أدرِكْ نَفْسك قبل أن يُجْهِزوا عليك وأنا غريب مثلك وما عافُوا لحمي إلا لأنهم وجدوه مُرًّا.»

ودَّعتُ الرجل بعد أن شكرتُه على حسن النصيحة، وأطلقتُ ساقي للريح مُفضِّلًا المبيت على الطوى. وكدتُ أنسى هذا كله مع توالي الأيام إلى أن حصل لي أمس وأنا في تجوالي، ما ذَكَّرَني بمأدبة الكواسر. اعلم أني حططتُ رحيلي بسوق عامرة، قُدُورها تغلي وأثافيها كثيرة، والظاهر أن الحجيج إليها من كل فَجٍّ عميق، فقدرتُ أني واجد فيها لا محالة رفدي، وضامن زادي ليومي وغدي. ولكن حصل لي العجب حين رأيتُ سياجًا يقام حول السوق، ورجالًا مثل العسس يدفعون الغرباء مثلي خارجه، فلما استعلَمْتُ أحدهم عن الأمر أجابني بأنها أوامر الشيخ، وقد نَصَب الآن موائده ولا جلوس حولها إلا لمن نال عنده الحظوة، ووصلته خطة الأريحية بالهمس. بالهمس، كيف ذلك؟ هذه تقاليد الضيافة عندنا، أجاب العاسُّ، ثم انصرف عني وأنا أرقبه يقترب من واحد ويهمس في أذنه بشيء،

ولما لم أجد حولي حوانيت ولا مطاعم بتُّ ليلتي على الطوى، كسابقتها، وأنا أداري جوعي بالهمس مُتعلِّلًا بقول المتنبي:

إني نزلتُ بكذَّابِين ضيفهم   عن القِرَى وعن الترحال محدود
جودُ الرجال من الأيدي وجُودُهم   من اللسان فلا كانوا ولا الجودُ

جود هو الحال إلى أن قابلتُك وقاسمْتَني رغيفك، بعد أن هجرتهم، لا أعلم لهم في الأرض نظيرًا، ولا أظن مثلهم سيُوجَد إلى يوم الدين.

فقلتُ لرفيق الطريق والتِّيه في نهاية الحكاية: لا نحفل بأولئك وهؤلاء، إني لآخذك معي إلى بلدٍ ما أكرمَ أهله وأبهجَ خلقه والأرض، الأرض، لو عملت دارت، تدور فيه حول القمر، و«إن يَبغِ عليك قومُك لا يبغِ عليك القمر».

٢٩/٦/١٩٩٦م

شذرات صحو

من قلب مفتوح

أنت كتبتَ، كتبتَ، عدَّلتَ، حوَّرتَ، قوَّمتَ المكتوب بقدر ما في الأرض من اعوجاج، رتَّبتَ ثم فجَّرتَ وأرسلتَ الكلام سلسًا بين السُّرى والغلس ... كل هذا وأنت صامت تمامًا مثل الصمت، لا زيادة ولا نقصان، وهو ما لا يحتاج بتاتًا إلى أي تشبيه.

وأنت صَمَتَّ. في غور الصمت دلفتَ حيث وضعتَ رحْلَك وعَناء ما تحسبه دهورًا من هدير أعمار في عمر. طوَّقتَ لسانك مثل ذاكرتك، وقبلهما الحنين المُقتفِي آثار خطوتها الفائتة، كأنها تمشي الآن في أول خطوة على طريق مَشت فيك ... وهذا كله وأنت تكتب، وبين الكلمة والكلمة مساحات شاسعة يشغلها الصمت المتأبِّي، رغم انثيال الكلام.

تريد زمنك الذي يصنع وقته بما هو أبعد وأفسح من الكتابة والصمت معًا ... كمَن يترامى بين كثبان للصحراء لَيسَت تِيهًا، بل هي الطريق المُلتَبس فيه، الصاعد منه، الذاهب نحو نبوءته، زمنك، لو علمت، لا مُترجرجًا، بل هذا الذي ما إيابه إلا لحاق آخَر بالذهاب كأنما لترهق بالأرض، بالمشي، والسحب وهي ترغي جاثمة بسحابك يَفتُر ثغره دومًا بما تحب أن يشبه وجهها، أو ذاك الهمس مثل حسرة ما بعد الرحيل.

أنت صحوت، ومن كل مجرَّة جلبتَ ثُريَّاها، فدرات بك الدنيا في شعاع هو شعاعي ألاحقه، هو المنبثق مني، الساطع في أرجاء نظرتي لأميد من غزارة ضوئي، لأصرخ أنا الصارخ ماذا تراني فاعل بكل هذا الصحو في مدن عمياء، شوارعها بلا ضوء تنام، ناديت وكنت قد تبدَّدْت. أهدابي مُثقلَة بخطوات العائدين من حروب خاسرة، المُثخَنِين بحروب أخرى كانوا فيها صكوكًا ونفيرًا. ماذا أفعل بكل هذا الصحو والبلاد التي غشيتُ بشعاعي

أسبلَت جفنيها في رقدة أبدية لم يوقظها هذا العراك الذي أدافع به صمتَ المهانة والتواء الثعابين الرقطاء؟ تراني حين أقبل عليها غير هيَّاب أو تدخل مَخدعي فتبتسم، وحقد كالسم، يفح منها، وأنا أرى وهي تضحك حاسبة أن بإمكان الزواحف تطويق الثُّريَّا بمكيدة، وصد الهدير بالصمت المريب.

صدري، الآن، مفتوح مثل كل البلدان التي جعلتها عارية وكانت أسرارها مجدولة. حللتها، فككتها، سلالةً، سلالةً، نفخت في الرماد فاحتَقَن جمر ما انطفأ إلا في العيون المُرمدة، وعدتُ أفتلُ الأسرار في هذا الجسد، أرى الأيدي تحاول أن تطوله. تتطاول عليه، فينزع إلى تَشنُّج لم يَعُد مقبولًا في المعرض القومي العام للأجساد والهمم المستباحة، هذه خاصية السنديان، وخصلة الصنوبر لا يزهو خضرةً إلا حين يَستدِقُّ كالرُّمح، مغروسًا في قلب الأرض، صاعدًا ربوة من ربوته، فناشرًا ظِلَّه، من عجب، في علاه، ثم هاك الأخضر بعد ذلك مُهفهفًا، وعندي أنا الألوان لا تصبغني أو أستعرض بها القوامات الفائتة، فاللون أصوغه من دمي يتجدد بكل قطرة فيه، وينتشر كالمطر حين تراه طلًّا على وجنات الأوراق، وتمعن النظر بعد فصل فإذا هو خصيب في السنابل اليانعة.

قلبي الآن، مفتوح ملء البطينين. الشرايين التي همدت في الأجداد، وانطوت تحت تضاريس الأزمنة جاءت إليه؛ الشرايين التي كانت الصحراء لها لغة، والنقع صوتًا، واقتفاء أثر الجنين طريقًا، وابتغاء رهبة الموت مجدًا ... شقَّتْ طريقها إلى لهفته، وأراها تكتوي بما أكتوي به. تشهد الحرائق كما اندلعت فيه تباعًا، وكيف تخافَقتْ فيه أنجم الليالي الغابرات، الساجيات، كما تلاطمَت أمواج الأيام العاتيات، ظهرنا فيها فلم تكسر منا ظَهرًا ولا قلمًا. في كل آنٍ تَتغذَّى منا الحرقات ونحن نصطبر، ولا سلَّمنا أبدًا أجسادنا لتأكلها الكلاب المتضورة جوعًا عند مفترق الطرق، ونحن ننفث في الفضاء حس نجوى خافتة، مغمورة في عبق الذكرى، كأنما ما مضت إليها نسير.

فيا لتباريح وَجْدِك أيها الفتى الذي كان، ويحك كيف لا تنسى عيشتك المذهلة، سِيرتك الأولى. ما بالك تنسى أنك اليوم هنا في أتون آخر يغلي باحتطاب الضجر أو الكدر أو سفالة من حسبتهم رجالًا. وفمك محترق بالعطش ولا صبابة ماء رغم كل هذا السيل العرم. وها أنا ذا أكرع من ثمالة قدح قديم معصورة من بقاياي ... إيه، إنه قلبي المفتوح لا ينضب، فتحتُ للعبور بابًا من صدري، في الهجير القائظ سِرتُ، فالظل لا يأوي قامتي، بت أخشاه، كلَّا ليست الظلال الوارفة ما أعني، فتلك تتبع النسوة المُؤتَزِرات، المُتَّشحات، يسترق النظر إلى حيائهن ثاويًا، تارة، تحت نظراتهن الوالهات، وأخرى ثاويًا تحت أعطافهن الجمرية.

كنتُ ممسوسًا فزادني الشوق إليهن التياعًا، أنا الشارد لا تستقر عيني على بهاء. من بَرٍّ إلى بَر تَعبُر، لا منقادًا ولا حُرًّا في العبور، فهذا ضرب من السَّير، مَسٌّ يصيب الذاهلين وحْدَهم، وليس عليهم أن يحلموا بشفاءٍ مِن يقين.

استويتُ واقفًا على نبضي أمسكه برموش العين، الزعيق شديد في هذه الطرقات التي نعبر؛ طبول، مزامير، واحتكاك قصديري الصَّدى لأنياب تنهش. بين ضرسين رأيتُ دمًا امتصَّ من بعض تراكيب أبجديتي. لغطًا سمعتُ باسم يُشْبِه اسمي وأنا أنكر على نفسي ما يُزوَّر من الأسماء، ظهر لي شخص كنتُ أعرفه يخلع سحنة شخص يعرفه ويدخلان معًا إلى حلبة رُسِمَت باستعجال لأداء رقصة غجرية لا تليق بذوي الأعمار المُتردِّية. في الخلف كئوس من أشخاص متهالكين في القدم، يجمعون أطرافًا من جلود تتدلى بين الرقاب والأقفية، وهم يطلونها بأصباغ هندية صارخة، تصدر عنهم لعنة خليط من عواء، وقرقعة طناجير، ومحفوظ من شعر باهت، على إثرها ينضاف إلى الحلبة أقزام وقِرَدة يحيطون بالراقصين الأجدبين، المُعار والمُستعار.

نحن نحتاج إلى الصمت، ودوام الغناء يفسد التغريد، أقبض على نبضي فأسترجع الثقة بأن الأرض ليست كلها معمورة بالذباب ... والطنين. ليس الصمت انفصالًا عن الكلام أو وأدًا للغة في لحود اختناقها، بل هو الهبوط إلى تلك الأخاديد العميقة التي لم يَحْثُ أحدٌ من قبلُ ترابها، والإنصات منها إلى وجيبِ الخلق قُبَيْل التشكل وغداة الفَناء، حتى لكأنَّك ستبدأ من خلقٍ جديد ثم تنفصل عن رغبة البداية، ينفصل عنك كل شيء، تمسي ذاتُك مادَّة ومطلقًا، في آنٍ، وقد نزعت عنك كل نافلٍ ولم يبقَ أمامك سوى تخطيطات الكون الأولى تَتقرَّاها، أولًا، ثم تراها تبتسم بلا أفواه، تنطق بلا لسان، ترقص بلا أعضاء، ومعناه أنها ليست في حاجة إلى الكلام الذي تلف، وأن للصمت أسرارًا ينبغي علينا أن نحاول فكَّها قبل أن ننتقل إلى اللغو أو إلى الكتابة، ومنها استطرادًا إلى هذيان المُتفرِّدين لأن الهذيان الفذَّ ليس مبذولًا لكل عابر سبيل ... فإن نحن عجزنا فلنشحذ فينا أسرار السكون على أن تتفجر من الكتاب الينابيع، وننظر إن كنا قادرين على أن نشفي غلة الظامئين ... بكلمة.

كنتُ انفصلت عن الكلام والصمت، معًا. وأنفصل شيئًا فشيئًا عن ثيابي، ولحمي، وشكل أعضائي، وأتركني مسوقًا إلى حيث لا أدري، رغم أني، وبطريقة ماكرة، كنت أدري. اكتشفت في لحظة العطل القصوى أنني أنفرد بنفسي، أن لكلٍّ منا نفسًا تحتاج

ربما إلى عمر كامل كي ينفرد بها. وقد تفوته الفرصة، وإذ ذاك لا معنى لحياة عِشتها فلم تَعِ، فيها وجودك أو صيرورة زَوالك.

يأخذ الانفرادُ شَكْلَ استيقاظِك بعد منتصف الليل في غرفةٍ لم تعرف سريرَها وأثاثَها، وحين تُطِلُّ من خَصاصِ النافذة المُوصَدَة بإحكام ترى نهاية غابة، وعمارات عالية، وفي اللحظة التي تبدأ بالسؤال: أين أنا؟ تكون قد أخذتَ الطريق إلى نفسك المنفصلة عنك دومًا وهي فيك، وحين تتناوب المجسات على جسدك، وتتشابك الخيوط بالمباضع، وعيناك دائمًا إلى السقف بين شهيق وزفير، هما استجابةٌ لطَلَب خارج إرادتك ... حين تنظر في المرآة ترى أنت يرى غيره، وغيرك يمشي في ردهة طويلة على جانبيها غُرَف بأرقام يُفْتَرَض أن واحدة منها خاصَّةً بك، غيرك هو من سَيلِجُها ويستبقيك عند الباب.

تفهم ولا أفهم، وفي نهاية الأمر تَتفقان قسرًا على الدخول سويًّا لأن الجسد الواحد، في أول تقدير، لا يمكن أن يذهب إلا إلى مكان واحد. تتركه يستلقي على الفراش، تهدهده، تمسح دمعة فَلتَت من صبره، وحين ينام أخيرًا تتقدم نحو النافذة، تعارك مقبضها كمَن يعارك غولًا فتنفتح أخيرًا على مصراعيها، وعندئذٍ ترفع وجهك إلى السماء مخترقًا دجنة الليل، وفي الأعالي ... الأعالي ... ترى نجمة خلَّابة فيسرقك ضوؤُها منك وتتبعها، تتبعها، تتبعني ونحن بعد نضيء ... رغم الدَّاء والأعداء ... من الضفتين نضيء.

٢٤/٩/١٩٩٦م

«(...) ودمعٌ لا يُكَفكفُ يا دمشق»

أنا السائر في يقظة حلمه، تاركًا خلفي ثُغاء النعاج، وأشكالًا بهلوانية لدسائس محبوكة بخيوط واهية، وتَبَيَّن لي وَمْض، قلت: هذا دربي، وسرتُ أتبعه، فوالله ما أعلمُ في صحو أنا أم في منام؟ بَيْدَ أن الطَّرْق كان مسموعًا، آتيًا من زجاج النافذة خلفي، والقلم بِيَدٍ متهيِّبًا أمام افترار ثغر الورقة البيضاء تكبح فتنتها فيه الرغاب عداها، وتتداعى منه الكلمات، من أسفٍ، في إياب. الطَّرْق أسمعه فأدفعه عني في ارتياب، زاعمًا لنفسي أنه آتٍ إليَّ من احتكاك القارَّات المزدوجة في رأسي، ومن اختراق كل تلك الأجساد لِلَحْمي، مع بقايا القَرْقَعة التي تحاول اللحاق، عبثًا، بكلمات باهرة الثريا.

كان ذلك كله، وغيره، ولم يكن شيء لأن الطرق مُمعِن في التجدُّد، حاضر الوقع مِلحاح؛ الصوت فيه صائت الآن وهنا. أنسى رغبتي ولا تنساني الرغبة، فوات الأوان هو اجترار الذكرى، فيما الذاكرة مشحوذة على جمرة اليومي، شاسع، كما هي أمامي اللغة الشاسعة من تناسُل أحلامي.

قررت أخيرًا أن ألتفت لعَلَّني أرى الوجه المُدثَّر بالحنين إليَّ، أو أشهد شَفتين ستنطقان بكلمات سأنتظرها دائمًا كما تنتظر امرأة وحيدة هُطول النجم على حافة شُرْفتها، وانسداله بين شِقِّ نَهْدَيها ... لتغرق في صحو عميق.

قررتُ أن ألتفتَ إلى الخلف حيث ينشرح صدر حديقتي السِّرِّية، وحسبتها تريد الدخول لتبوح لي ببعض ما تَجمَّع في صدري من أشجان، وقد غبتُ عنها صيفًا كاملًا في ذلك المشرق السِّحْرِي، ولم يكن شيء ممَّا توقعتُ، فهي ورقة صفراءُ التصقَتْ بزجاج النافذة بعد أن هدْهَدَتْها ريح خفيفة جذبَتْها من أعالي شجرة من الأشجار المُصطَفَّة على ضفة النهر القريبة، لأمر ما جاءت، وهي حتمًا تحمل لي رسالةً، ربما شوقًا أو نجوى

أو لِتنبِّهَني من شرود أستسلم له بلا قيود، ليس من عادتي الانتباه إلى توالي الفصول في محرابي الداخلي، أشتري اليومية في مطلع كل عام جديد، وأنوي تعليقها على الجدار كي تؤدي مهمة حضور الزمن، لكني حين أعود إلى البيت سرعان ما أركنها في زاوية من مكتبي، أنساها ليتجمع عليها غبار الأيام. يحدث عندي أن أتفقد اليومية؛ لأتأكد من تاريخ محدَّد فأشتري ثانية وثالثة، ما تلبث أن تغرق بدورها في لُجَّة النسيان، وإذا استثنيتُ ما هو ضروري من توقيت مضبوط مما يتصل بأمور العيش، والتوافق مع بعض المُتطلبات الحياتية والاجتماعية، وهذه ضرورتها نسبية، وسواها من مُستلزمات تَجعلُك مقبولًا من العالَمِ الخارجي لكيلا تُتَّهم بالجنون وتُساقَ عنوةً إلى مُستشفًى للأمراض العقلية؛ باستثناء هذا فإن الفصول والأزمنة، في مذهبي، تتوالد من تراكيب سحرية، غير خاضعة للتقنين، أو بما هو شبيه بمحافل تُتَداوَل فيها طقوس ما قبل تاريخية؛ ولذا استغربت، للوهلة الأولى، رؤية الورقة الصفراء كأن الخريف اقتحم على أبهة خلوتي بلا استئذان.

كما لو قلت الورقة على خد التصقت بزجاج بينهما قبلة توشك أن ترفرف لا تعرف أين تحط فنادتني: يا هذا تعالَ، كفاك وهْمًا أن يصعد الفصل من محبرة، أو أن يشذَّ عن تغريد قُبَّرة، أو أن تستنبت الرياحين من شِغاف قصيدة، في الخارج ما أريده لك، الأرض بَسْط، وأغصان الشجر كما تشتهي لها اصفرار أو احمرار كأرجوانية المَغيب، في هذا اللون تحب أن تذوب، وتصل إلى البَدَد الشامل الذي به تنضمُّ أطرافك إلى بعضها، وتتوحَّد الروحُ التائهةُ جامعةً انتشارها، تكاد تقول شظاياها المترامية بين الضفاف: إننا في أيلول، والشادية التي شعرها أكمام أَرْز وقامتها جِذْع سنديانة، أليست تغني: «ورقوا الاصفر شهر أيلول تحت الشبابيك»؟

كدأبك في الأعوام الماضية ستفعل هذا العام، فأنا ورقة الميلاد، ومن رآني في استهلال لوني شُغِف بالحياة إلى الأبد، ومن فاتته الرؤية يسكنه الندم إلى الأبد ... ولاتَ ساعة مندم، ستغادر البيت وتنتعل حذاء العشب، ولا حاجة إلى الخروج من الباب؛ كِلانا قادرٌ على التموج، والعبور من حافَّةِ النافذة إلى ضفة النهر مثل نفحة، أم تراك نسيتَ نهر «السين»؟ يمضي بك الخطو بين خرير الماء وضرب المجاديف، والماء هو دم المدينة يعبرها مثل الشرايين في القلب؛ ولذا فالمدن التي تدير ظهرها للبحر والنهر، والبحر يشيح بوجهه عنها، ليست أكثر من رُفات عمران، يسكنها أقوام مُولَعون بالبداوة وأحلامهم كلها، إن حلموا، مسارحها القفار والأودية اليابسة، فإن أدركهم الغيث صعقتهم الدهشة وتراهم يدوسون الوردة وهم غافلون.

يمضي بك الخطر، والمسافة طي حضنك، تبسطها أخيرًا في غابة «بولونيا» بين شهيق وتنهيد، مع النفس اللاحق تختلج أشعة الشمس في ضربات متلاحقة كرشق السهام، لا ليس من دم على صفحة الورقة، إلا كما يتضرج خد عذراء مَسَّته لثمة صادية. فهاك عندئذٍ نهارًا يخرج من نهار، والفصل أَسْوِرة من ذهب تتلألأ بين معابر الغابة أنت فيها الشجرة، أعضاؤك أغصانها المُورِقة، فتَرَفَّقْ برقة حالنا أيُّ هذا الجمال، لا نملك بعدُ قلبًا يقوى على ارتشاف كل هذا الأفق ... فيك أنت ما مضى، فيك ما يَسْتَعِر الآن، وما هو آتٍ.

عدا أني ما حسبتُ قط أن المنفى سيصبح ملاذًا، والأوطان المبتغاة تنقلب علينا هي المنافي ... عدا أني ما حسبتُ أن اللغة تنكر معناها، والإيحاء بالشيء ينقلب إلى ضده، يوحي بقدرة الموهبة الصَّناع لا بما تريده اللغة في ذاتها. الكاتب لا يذهب إلى اللغة يا صديقي علوان باشا الودود، لا يتفحص المعاجم؛ لكي ينتقي كلماته، عسيرة أو يسيرة، ولا هو المُنقِّب في كُتُب البلاغة وعيون الشعر والنثر والحقول عن جذور الصور وألوان المجاز، الكاتب لغته تجري في دمه، والصور التي يصوغ بها عالمه ورُؤاه هي منه في موقع النبض، لا تفارقه أو يموت. ما يجعل الخريف لا يلفظ أنفاس الفصول، بل هو الشهوة العارمة تَشِي بانفجارها الوشيك عيون مخمورة، بالحب لو شئت، هو الحياة تَتجدَّد نضارتها فيما يظهر، وهي آيلة للزوال.

طفقنا ننزع ما علينا، الغابة وأنا، الشجرة، والشجرة، فجأة اكتشفتُ أنِّي لم أعد وَحْدي، ورجال ونساء وأطفال وشجر تَخلَّى عن كثافته، قَدِموا كلُّهم من شرق وغرب، واصلنا ننزع ما علينا إلى أن بدا عرينًا مكتملًا، وعندئذٍ هبَّت الألوان تغمُرُنا وهي تصطفي ألوانها فما وعيتُ إلا والأوراق تلبسني، ومن ضفة إلى ضفة تُلقِي بي وتَهْوي بي أنا الهاوي بين مَشرِق وغرب ومغرب تتقاذفني. فمن بين الأحبة، اليوم، يَتلقَّفُني ويكسو عُريي وبِعُريه الشبق، سكرَتْ منه شمس الجنوب ... فوالله ما أعلم في صحوٍ أنا أم في منام؟ ولكني مُوقِن أني حين الْتفَتُّ ثانيةً ما سمعتُ طَرقًا، ولا رأيتُ ورَقَةً صفراء خدُّها بزجاج النافذة ملتصق. كنتُ أنا الواقف أبدًا، ممدَّدًا على سرير «أبي رقراق»، الماء يجري من تحتي ودوني وإياه ارتفاعُ شبر — رأسي مستندة إلى سهل مُجدِب، وذراعاي حين أحركهما بتكاسل إلى الوراء ترتطمان بأسوار حائلة اللون، عرفتُ فيما بعد أنها أسوار شالة، ليس بداخلها سوى بقول فوضوية نابِتة على قبور موتى يواصلون موتهم أمام ازدراء أشباه الأحياء.

حين نضب الماء تحتي استقمتُ واقفًا حقًّا، وتقدَّمْت أمشي مكتشفًا ما حولي، ومن الخطوة الأولى كان الشوك والقَتاد لي بالمرصاد، سَرَّحتُ الطرف أُجِيله حولي فلم أرَ أثرًا لشجر، لبشر ولا ورق، وكل شيء يشبه بعضه بلا لون، فحصل لي من ذاك العجب؛ السماء التي رفعْتُ إليها وجهي كي أتبيَّنَ لونها رَدَعَتْني للتَّو بشمسها اللاهبة، الشارع الذي انتقلتُ إليه مُستحِثًّا السير إلى ما يبدو شبه مدينة حاصَرني بصَمْتِه المريب. تَقدَّمتُ أكثر باتجاه إشارة «وسط المدينة» فألفَيتُني أُجدِّف في الفراغ، والصمت حولي قماط للأسفلت والجدران، لعله الهجير حبس السكان في بيوتهم، نظرت إلى الساعة في مِعْصَمي فوجدتُ العقربين جامدَين ولم أسمع تك تاك، تك تاك. لم يكن الوسط غير حفرة حولها أبنية كالردم وأقوام متبعثرون بينها يتثاءبون: أين أنا؟ وماذا حل بي؟ وكيف وصلتُ إلى هذا الصقع الغريب؟ من أي فصل نحن هنا، أم إنها أرض لا تعرف تواتر الفصول؟ مرت بي وجوه حسبتُها تعرفني وأعرفها، فأقبلت عليها هاشًّا، باشًا، لكني ما لبثتُ أن أجفلتُ متراجعًا، وقد رأيتُ شفاهًا مخيطة بقنب، ومَحاجِر العيون تحتها أحداق بِلَّوْرِيَّة. قبل أن أُدْهَش أو أُصْعَق مما أرى سمعتُ صدَى ركضِ رِجال رأيتهم يشيرون إليَّ، فقلتُ: النجاة، النجاة، ولما كنتُ ماهرًا في الهرولة استنجدْتُ بساقي وأنا أسمع رَجْع كلام: «ما تخافش، نحن نبحث عنك من زمان، نحن نريد أن نشفيك مما ...».

بقيتُ أهرول إلى أن وصلتُ إلى ساحة تحمل اسم أحد الأيام، هنا انقطع نفَسي، وقد أشكل عليَّ ما أبصره أمامي وأنا بين مُصدِّق ومكذب. شاهدتُ تابوتًا معلَّقًا وحده في الهواء لا أكتاف تحمله، والميت بداخله حي يستند على مرفقيه، وبين يديه كتاب يقرأ منه ما سمعتُ:

كفَى بك داءً أن ترى الموت شافيًا وحَسْبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيَا

قلتُ: أقترب لأتطلع إلى سحنة رجل التابوت، فراعني أن أجده صديقي ورفيق سهادي الشاعر أحمد المجاطي. عجبت منه يبادرني: «ما الذي حملك إلى هذه الأرض وأنت في الشمال أليق وأبهى؟»

– بل أنت، كيف تَتمدَّد في تابوت وأنت حيٌّ؟ ثم إني كنت أبحث عنك فما دلَّني أحد؟

– فات الأوان، وصلتَ متأخرًا، الحصاد فاتَ والصيف ضيعنا اللبن، والخريف لم يأتِ، وأنتَ تعرف شِدَّة وَلَعي بالخريف، وهذا منذ كنتُ أمشي في دمشق من المَرْج إلى الغوطة قبل مسيرنا بين نخيل شارع بن يوسف في الدار البيضاء.

– لكن، خَبِّرْني إلى أين أنت ذاهب هكذا، أم إنك تنوي ...؟

– تمامًا، كما تُخمِّن، أنوي الرحيل، بل إني على صهوةِ الموت راحل، وهذه الطريق، كما ترى، تؤدي، إلى مقبرة الشهداء. لقد اخترتُ موتي، فلا مُقام لي بأرضٍ لا يطرقها الخريف ولا تقيم احتفالات للفصول.

– وإذن، آتي معك فأنَا كذلك لا ...

– كلَّا، لم يَحِن وقتك بعدُ، أنتَ صاحب «حكاية وَهْم» فانتظر قليلًا إلى أن تنقشع الأوهام ... ما يؤلمني هو أنني أرحل وفي نفسي شيء من المطر!

– عندي منه نَزْر فهل أسقيك؟

– لا، اشرب نَخْب رحيلي إذا مررتَ بي في العام القادم، هذا إن تَذكَّرْتَني، تَذكَّرني أحد منكم، ولِي وصيَّة أخيرة، إذا زرتَ دمشق وأنا أعرف أن لك فيها قلبًا ملتاعًا، فاصعد إلى قاسيون واطبع لي قُبْلةً على الشام، والآن اتركني؛ لا أريد أن يفوتني موعد الخريف.

تركته أم تركني، فوالله لا أعلم في صحوٍ أنا أم في منام حتى وجدتني، وهو حق، أقف على قمة جبل قاسيون، فرَدْتُ من ذراعي جناحين ونزلتُ أشمل المدينة بقُبْلة حتى نهايات اخضرار الغوطة وركوعي بالمسجد الأموي شاهدٌ على ما أقول. وأنا أُحَلِّق ناداني النهر الذي كان، وحمَلَني الشوق إليه، قُل له «سلام من صبا بَرَدى أرَقُّ ...» فحملتُه طيَّ الضلوع وعَبَرْت في طريق العودة بغابة بولونيا حيث جمعتُ بعض أوراق الخريف، وما أن وصلتُ — أين أنا؟ وإلى أين؟؟ — محيط الرباط، قصدتُ شاهدته ونشرتُها فوقها. وفي طريق عودتي أدركني صوتُه أم اختلج مني صوتي أكمل على لسان أمير الشعراء:

... ودمع لا يُكَفْكَف يا دمشق!

٢٨ / ٩ / ١٩٩٦م

«خذني بعينيك واغرب»

(١) تجريد الماهية

من أين تبدأ الطريق إلى المشرق؟ الشرق اللعوب، الساحر، الفتَّاك، الغريب ... من وقفة سيدة تبدأ بَشَرِيَّتها بحرف الباء في مدينة الباء، نقف معًا ذات مساء من صيف ١٩٧٥م على الكورنيش، وبحر بيروت يفيض من أحداقنا لهفة علي؛ أم من بغداد محفوفة بسجايا النهار لتهجع في شارع أبي نواس عند كرمة عناقيدها دم ودموع؛ أم هي بيروت ثانية راودتني من «باب إدريس» إلى «الشياح»؟ وحين استفقتُ من ثَمَل النجوم هابطة مع الندى على الأرصفة، رأيتُ الرصاص يَعبرُ بين قَدمي وسماء الله كثيفة يواريها دخان المدافع.

لَكَمْ يبدو الوقتُ موجعًا في التذكُّر، مُثقلًا بكثافة الذكرى تنوء بها الأمكنة ونرزح تحتها نحن العابرين مسالكها، لا نعرف أين نقيم، حتى لو أقمنا بين جدران نكتشف بعد فوات الأوان أنها أجسادنا أو لُحودنا – يا لهذا الشؤم – كالأشرعة مُتقاذِفَة بين هوج رياح العمر، حين تهم بالاستقرار يَفِرُّ العُمر إلى الزوال.

هذا الذي صنعته، وفي حين من الدهر تريد أن تصعد سُلَّمه درجة، درجة، لتتهجي لغة صعودك. وقتئذٍ فقط تنبهر؛ إذ تدرك أن الأبجدية أمامك غائمة، وصور ما عشتَ، وحيث أقمتَ، وما تلاحمْتَ به من أجساد، وتصالبْتَ عليه من أمكنة، وتقاطعْتَ به من فضاءات، تُدرِك أن ذلك كله يتموج، فإن حاولتَ القبض على شيء غُصْت في لُجَّته إلى العنق أو صرتَ تترنح على حافة هاوية. أوَليس العمرُ منذ اللثغة الأولى ذلك الانزلاق التدريجي، المتقلب بين الغِبْطَة والأسى نحو الهاوية؟

ولذا، فإن كتابة السيرة الذاتية ليست إلا وَهْم كتابتها، تجربةٌ مادَّتُها الاستحالة وشَكْلُها الرماد؛ لأن النار التي اشتعلَت في الصدور انطفأت، والجَمرة المُتوقِّدة لم يبقَ منها إلا جِلْد فينا يَحمِل تَشوُّه الحريق، وعندما تُراوِدُنا رغبة السيرة، إذا كنا نمتلك حقًّا رصيدها، فإن أفضل ما باستطاعاتنا أن نفعله — أن يفعله الكاتب الموهوب الذي عاش حتى الثمالة — هو غربلة الرماد، وصعود شجرة أنساب الحريق، أما الذات فَقْد أضرم الزمن والمكان النار فيها من قديم، وألسنتها تتراقص بوهم استعادة الأنا. وكان هذا بعض لعبنا أنا وسيدة الباء حين وقفنا صيف ١٩٩٦م على الكورنيش نفسه، وحسبنا في لحظة أن البحر سيجدد فيضانه من أحداقنا، فظلَّ هاربًا كأن الجَزْر مثواه، وما كنا إلا من الغافلين. التقينا، فما عبَرَت الصواريخ فوق رأسَيْنا، ولا شاهدنا طابورًا من القتلى يَشخُب دمهم من أقراص خبز دامية، كذا الأعمدة، العمارات غير مقصوفة، ومكاتب الأحزاب لا مَنسوفة، مَشدودة إلى أوتاد المَرارة والنسيان. بين نظرتين غافلتُ وجهي، غافَلَني، تهالَكْنا معًا على حَشْرَجة من سُرَّتَين لا تزال آتية. ويحها، على البعد قطافها دانية، رغم أن الأماني تَوارت، وهَذِي الديار على تَجدُّد العمران منها خالية فكنت فيها، أنا غريبها وهي مِنِّي سر في الغياب وأسرار في الحلول، بينهما فَمٌ لو تَكلَّم فاه يقول: أنتَ مُصِرٌّ على الذهاب والإياب نحوي وإن غادرت، فإنما لتقصدني، واعلم أنني رحلتُ. صنعت من أطلال خرابي جموحًا فرحلتُ وكل من يذكرني، يتشبث بي، إنما يُراوِح في ذكراه، غير أنك لن تعدم أن تراني، حين ترى، في حاجب هلال وثغر برتقال في «سهل البقاع».

وإن مشيت قليلًا متوسِّدًا أوجاع صدري البلاد، أو شَفَتَيَّ المقضومتين لا ككل الشِّفاه، وقفت أخيرًا، متوهِّمًا كعادتك، عند أطلالي: أنا بعلبك، بَيروتُك رميتها ضوءًا خلبًا على شُرْفة البحر، قبل ذلك كنت استويت منارة. قبل ذلك نفخت فيك الحنين إليَّ، ولم تكن قد وُلِدْت، فكيف بكَ لتراني؟ أنا التي ترى وأراك طريقك يعرج بي شئتَ أو أبيتَ، أسكنك سهادي، ومتى طَعمتَ الهجوع، مُتوهِّمًا كعادتك، أيقظَتْك القروح شظايا تناثر من أنحاء البلاد، هو القَصْف، القَصْف، حتى دمار المُحال، حتى اختفائي فيك، فنائي فينا، انضمام آخِر وردة تعكف علينا تحت أكمامها، وأكمام أخرى، يشمها رجال عابرون أم تراهم شاردون، عن سواعد، لدفن جثث؟ كل هذه الجثث مُبعثَرة، لو رأيت فترَجَّل عن صهوة الوهم، الفتكة البكر صارت خَلفنا، رجال قِرَدة يمرحون بين زِقٍّ وناي، والكتاب شاهدة مَمْحوة، أنا القبر لها، وأنت البقول على صدرها، وإن شئتَ زَهوًا على صدري أعطيكه، خُذْه، لك

أن تَأخُذَني إلى حضنك وإن شئتَ موتًا إلى مخدع الأمة الآفلة، فتَرجَّل. يا الفارس القديم تَرجَّل؛ هذا أوانُ شَمِّ التراب، إن اقتفيت منهم الأثر، سيرهم على ذلك الاثر، تَرجَّل، تَرجَّل.

إن جُننت لا بأس هو خير من مشهد القردة، في مَشهدهم الأخير ترى عِوَجًا — غَدُنا لنا الوجع من شميم أمس هو الأوجع — أو دمًا، هوى، كاليترقرق، سرقَتْه الأيادي التي اعتادت، شأن العيون، وهي تسرق دَمْعَك، ثم تَداعَت، بيد زِق، بالأخرى «شَدْوُ» زامِر، ثالثهما قرطاس مَمْحُو، آخر تقتفي خطواته، مَحْو نياشين المَحْو، هي «مسك» ختام زفاف البغلة البائرة ...

أَلَمْ أَقُلْ لك: تَرجَّل؟ فبَيروتُ فيك وباء، وحيث تُرابِط هو الوباء، أنت فُتِنْت بغنج لفتتها، بهطول الدمار، وبقيتَ هناك، حيث أبقيتك أو أبقيتها ... أم لعل الرِّباط شد ما أخشى عليك، بها نافذة مفتوحة، وحيدة، صوتها يناديك فيها ... إليك.

Facteur de Risque (٢)

أما الآن، وكنت أوشكت على النهاية، شَغلني عنها صوتٌ آتٍ من المذياع: المذيعة في برنامجها الصباحي تُحاوِر طبيبة مختصة في أمراض القلب، راحت تخبط خَبْط عشواء في أسئلتها، والطبيبة تحاول أن تفهم وتُقدِّم إجابات مُقتَضَبة. دار الحديث عن أسباب الألم والمَخاطر التي تُنهِك القلب وكيفية مُجابَهتها والتَّغلُّب عليها، سَعت الدكتورة أن تكون دقيقة وواضحة في الدقائق المعدودة، رغم تضارُب الأسئلة. وشربت ما تقول عن المخاطر والعلاج؛ لأن الأمر يعنيني شخصيًّا وذاتًا. والحقُّ أنها أفلحَتْ في تعداد كل ما هو ذو طبيعة مادية بَحْت في الموضوع، حين انتهى الحوار، ضربتُ راحتي بجبهتي، مُكلِّمًا نفسي، قلتُ: كل شيء تقريبًا يا دكتورة عن Les facteurs de risque الملازمة للقلب، فما بالُك نسيتِ الأهم عندي، قلوب العذارى والبسطاء والشعراء، أوَليس فِراق الحبيب خطرًا مُحدقًا بالقلوب أم تراني أقول هراء، أنا التائه في الصَبَوات؟

(٣) لهفة الليل

من حيثُ أخذني أعدتُها ... قمر ساحر يفرش الطريق ... صوت الصباح صوتها كذلك سعادة ملأت أرجاء الليل فاستنجد بآخِر رشفة من ليلتها.

حين دخل القمر مخدعها، همس جنون همس جنوب، فاضَتْ حولنا شُطآن العطش قلتُ: «خذني بعينيك، واغرب أيها القمر!»

٤ أكتوبر ١٩٩٦م

جدولة لديون الحب

(١) تخوم الملكوت

بدت طريق وصل الضفاف إلى هذا الصيف مختلفة، فالضفة توجد مفردة، تنكمش في وحدتها، كما هي تتمدَّد على سرير انتشار وديع، مفردها مكان يَتذوَّت، يرسل إلى الجنوب قدمين فتغطسان في الماء والظمأ على الشفتين يبقى مرتعشًا، وإلى الشمال منه تنبت قرون كركدنية تتشابك فيها مسارات الغابات، والأنفاق الثعبانية هي خطوط طول المدن وشرايين البشر اللاهث من فوقها خطوط العرض، أما جمع الضفة فرغم تكاثره يعمق المفرد، واصلًا أطرافه المبعثرة ببعضها، جاعلًا جمع المكان لا الأمكنة، كما تريد للصيغة النحوية، بل الذات إذ تُواصِل رحلة هبوطها العميق نحو شعابها بين انجرافات الوقت، وشطحات الهوى ولهيب الأخيلة.

بدتْ طريق وصل الضفاف إلى هذا الصيف مُهْرَةً جامحةً، مرة، وأخرى نافرةً، وأنا بين هذين الوضعين صرتُ مقسومًا إلى جسدين يترامى الواحد على حدود الآخر، ولا يشبعُ من نَهَمِ الترامي الذي من طبع الامتداد كما للضفاف خاصية أن تنتشر، لم أَتَعَوَّدْ أن أسأل يومًا ما الجموح ولا النفور ... كنتُ أفعل، طبعي الريح عاصفة فما تسكن إلا لتمهيد هبوب العواصف. جسدان، واحد في الشمال وآخَر له الجنوب جسد.

والمنفى لكليهما الملكوت، وسواء تَوحَّدت أو تعددت الأطراف فيه أشطارًا مترامية، والأراضي التي ترزح تحت عبء الرحيل غير ظلال، أو شبهة ليل يستر مجرى النهار لحين ثم ينقطع، ليهبط الليل كاملًا فوق كمال الوجه — قل الوجوه — يهرب مني كلما خفق الدم بالحنين، فإن حضر رآني فنيت، وإلى المنفى روحي تَرتَحل، لكلينا صوت الماء وشكل الغسق، ضمة واحدة منه مقابل كل هذا الهباء الذي يعبر العمر، حين يضيق

الكلام تنفلت الصرخة الشبقة، تحفر في الماء مَجرانا ليصبح الصوت نطفة أو لباب نهد يتكون، خذني بيديك، بين ذراعي منفاك وازرع البذرة، لغة إن شئت، سيف هواك تخرجه من غمد عشقي يشقني البحر إلى نصفين، مثل انشطار الواحد فيك إلى اثنين، جسدين، أو انضمامي إليك الغادي الرائح، المُتشظّي بين الضفتين، شهيقًا، زفيرًا، سعيرًا ... حتى تخوم الملكوت.

بدت لي طريق وصل الضفاف هذا الصيف محرقة ومحرقة، كنت أذهب عادة إلى الشرق من طريق الشمال مؤتزرًا بندف الثلج تارة، ملسوعًا بالقُرِّ تارة أخرى، بينهما البلاد التي سأدخل مرجلًا للدفء، وعاد يتناثر فيه رمادي، والصباح حين أصافحه مضمخ برائحة شواء توطئة لعبور سرب الفتنة العربية. ألفيتني أطرق بابه بل أهجم عليه من باب الجنوب، والشمال ثاوٍ كالعهد به في شغافي. ما كنت إلا كالحامل لبلاد الحرائق فتيلًا آخر، وَصَيف الشرق لهب، أقصد بيروت ودمشق التي نسيَت وجهي من عشرين حولًا وقلبي لهب، بغداد، الأغلى، الأبهى بلا نظير، فيها «مصعب»، و«بادية» وقمر مدمى، ولكن كان عليَّ أن أفعل من أجل جدولة ديون الحب.

(٢) «قمر بعقلين»

جبل مرتفع، نُسُك وسكينة، تترك بيروت لصخبها، زحام سياراتها المعتاد، واستجداء مُرشَّحِيها لأصوات الناخبين، البحر، ولو علمت، فات مثل الوقت الذي عشته لسانًا ممدودًا، مليئًا بالأحراش تحت شمس تشوي الجلد. يقبع الفقراء في جحورهم ونلوذ نحن بالجبل، تلتوي فينا طريق تنسلخ من الساحل لتصعد المَدارج الأولى لجبل الشوف، فنُلقي تحية عطرة إلى عَذارى بلدة «دير القمر» البهيات، هن اللواتي «يَصْرَعن ذا اللُّب حتى لا حراك به» مُتهادِيات بين قُدَّاس الكنيسة وفيْء الصنوبر حيث الأليف على موعد مع أُلْفَته. نَصِل «بيت الدين»، فيفتح حارس العشي بوابة قَصْرها الذي كان بالأمس رَغيدًا بصوت فيروز يَصحبُنا بين المسالك الصخرية، نُرطِّب الحلق منه ماء زلالًا ونمضي خلفنا الأمراء يحتسون الأصيل غبوقًا، فإن بلغنا بلدة «بعقلين»، وقَبْلَها قرَأْنا الفاتحة حيث ثَقَبَت تلك الأيادي صَدْر كمال جنبلاط المغدور برصاص حي، وجَدْنا الشمس تنتظرنا عند آخِر محطة حول خصر البلدة الغربي قبل أن تشهق في المغيب. الدروز هنا سادة المكان، ومن لم يُلْحِق بهم الأذى فهو آمن، محفوف بالرعاية ويُكْرمون وفادته بالليل والنهار، والدروز لا يعبدون الشمس ودِينُهم نِحْلَة مُغلَقة، وهم طائفة عتيدة، بل القمر هو الذي يعبدون

على ما ظهَر لي؛ فمع حلول الليل وتسلُّله التدريجي فوق المرتفعات وبين السرو والصنوبر تبدأ في سماع موسيقى السكون، وقبل أن تقول ما أحوجنا إلى الضوء يُبدِّد وحشة الظلام العالي، ويتزوَّج ولو ليلة واحدة هذه السكينة، ترى القمر هلالًا ليلتك يضم في قُربه أرضًا إلى سماء، لتسأل في أيهما أنت؟ يجيبك توًّا: لا تبتعد في السؤال فأنا المبتغي من يبتغى الآن، تراني أقترب، أدنو فأحف بالوجه مثل نسمة الصباح غدًا وأضم الصدر حتى العناق. قمر «بعقلين» إن شئتَ مددتَ يدكَ وقطفتَه كمثرى لفطور الحبيبة، وإن شاء نزل عريًّا يتيه في الشوارع، وكلما وقف أمام بيت تلألأ، أطلَّتْ نساؤه فرَشقْناه بالورد، وطيَّبْنَه بالمسك والعنبر. وإن شِئتُما معًا أَسبلتُما الجفون حين يسدل الليل كل أستاره فيأوي معك إلى سريرك حلمًا هو الحلم، وهلالًا في سماء الشرق، هذا هو الشرق.

راهِن كما تشاء، إنما قبل ذلك وبعده أيضًا، تَمتَّع دون مشيئة بهذا الهدير، جدار الصوت يهز المباني ويبعثر الأثاث، يصم كأنها الحرب ولا حرب، انطوى ليل أمس، أَفَل الهلال والصليب تَكسَّر، وهذه صباحُ الخير على الطريقة الإسرائيلية؛ طائرات أعداء الأمس أم أصدقاء اليوم، لستُ أدري، تُحلِّق فوق السماء العربية بما يفوق سرعة الصوت، لعلها تُذكِّرُنا بالزمن. هذا هو الشرق لا نفايات الأخبار تَحكي عن العربدة الصهيونية نَجرَعُها مرة في مقاهينا القبيحة. في المساء امتلأت سطوح البيت بقطرات دم، كانت تَنزف من عَلٍ. رفعنا أبصارنا قرأينا القمر مَجروحًا بالقصف الإسرائيلي؛ هذا هو الشرق.

(٣) بستان هشام

وكانت الشام على مرمى عناق فجذبَتْني تلك اللكنة، النكهة، احتسيتُها للمرة الأولى، يا لَلمفارَقة، قريبًا من حديقة مونسوري بالمدينة الجامعية الباريسية، هوًى قديم يتشكل في فَقْد قريب فيَصْطَلِيان بمرآها في دمشق، ثمَّة مدن لا تُسافر إليها، بل فيها، لا يعنيك ما بها من عمران، أو مَظاهر ازدهار ممَّا تتشكل به صور المدينة الحديثة، فهذه في مجملها لن تضاهي فيها الغرب في زمن القُبح العربي، وتكالُب مُحدِثي النعمة الذين حوَّلوا مُدننا إلى ما يشبه حظائر للدواب. ما إن تحط قدميك فيها إلا وتسافر في الزمن، يرتدُّ بصرك إلى داخلك؛ أي إلى ذاكرة خاصَّة والتاريخ العربي عَمَّرها وطَرَّزها بخيوط المجد وألوان السُؤدد. هي الحاجة إلى الجذور تلبيها دمشق قبل أن يَرتدَّ إليك طَرْفك. هنا أرضٌ تتكلم العربية بالسليقة ولا تستعيرها أو تَرطن أو تَتحَذْلق، أرض تَتنفَّس العربية والأريج الذي يهب من الغوطة عند العَشِي لَعَمري عربي. ألقى وجهي قبل أن أبحث عنه، ويَجمَعني

تاريخي، وَيْحِي تَبعثرت، في صحو الشرق له شوق. بدا لي معاوية ينشر سَطْوته، لا بأس يُؤسِّس الدولة العربية، لو رآها اليوم مزقًا وطواويس تُراه تَغرَّب مثلي وشقَّ قميصه مثلي بالبكاء في محراب المسجد الأموي. تَقدَّمت برعشة التائب إلى حوض الوضوء، يا ويلي كدتُ أنسى فروض الوضوء. أدَّيتُ تحية المسجد وأذَّن المؤذن إثرها لصلاة العصر، قلتُ: الله يحبني، فشهقتُ من الغبطة وقد صرتُ غريبًا عن ديني وأرومتي، تَذكَّرت صديقي علوان باشا، الرجل العصري لا تفوته الصلاة في مسجد بدر بالرباط فغَبطتُه على سكينة روحه ودعوتُ له بألف خير. ورائي بعيدًا خلف ثلاثين سنة ونَيِّف جاءني مسجد القرويين، والحصير البارد موطئ ولحاف، خلف الفقيه الجاي أو وحدي ما فاتتني صلاة قط، بعدها قليلًا كنا نخشى الله ونعشق محمدًا، بعد لَأْيٍ أدركنَا حب عبد الناصر. بعدها ضِعْنا ... وها نحن في هذا الكرب.

بدا المسجد الأموي في نهاية سوق الحميدية، غريبًا كأنه ينقرض، وأيدي الترميم تحاول إسعاف الانقراض بينما المال العربي ساهٍ عنه، مُتنكِّر له، ذاهب إلى النفايات، مبذول في السفاهات التي نعرف ولا نعرف. خرجت مع المصلين، وعند ناصية بدا لي قوم يمدون أيديهم كالمتسولين. عرفتُ منهم الزَّجَّاج، وابن السراج، وأبا الحسن الأخفش، دنوتُ منهم أسألُهم إن رأوا المتنبي يَمُر من هنا فحَمْلَقوا فيَّ مندهشين، وهم أساتذته الكبار. أظلم الوقت وتحت فانوس رأيت سيف الدولة يقارع الفراغ بسيف مبتور فناديته بلسان سميي:

أين أزمعتَ أيهذا الهمام؟ نحن نَبْت الرُّبى وأنت الغمام

فواصل قراع المنايا وكنت القتيل. الشامية فتاكة اللحظ، حليبية اللون، تذوق منها عن بُعْد حلاوة السحلب، قتلتني مرتين. على كمد يلحق بي سعيد عقل مُهدِّئًا من روعي:

أمويون فإن ضقت بهم ألحقوا الدنيا ببستان هشام

أمضي قليلًا في سراب الزمن:

ويبحر باب دمشق وملهى الوليد وقصر هشام

وإني على الليل مُلقًى «ويخرج من كل شيء سواه» إلا أحمد المجاطي لا يَبِينُ منه إلا الصوت في منفاه السحيق بعد أن تناساه الأهل وأجفل من ذكره وتذكره الشعراء الصغار، يرافقني الصوت من بَردى وحتى الأطلس وَخْز ألَم وحَفيف ندَم. فجأة وقد استأذنتُ التاريخَ لحظات؛ لأطل على يومي الحاضر وجَدْتُني مُحاطًا، محاصرًا بمئات، بآلاف الصور، بكل الألوان، بكل الأحجام، بكل القامات والضحكات. من يكون؟ من هذا؟ من هؤلاء؟ من أنا؟ ماذا تريدون بي؟ هنا تَجلَّت وهي تمد يدًا أن تعالَ بين خَمْر وحولنا وريح تَجلَّت وقد تَمازَجت بينهما، وسرَى الدفء في أوصال الليل، واهتزَّ دوننا وحولنا الحجر «وأين في غير شام يطرب الحجر؟»

(٤) نعنع «لبروج»

«البروج» بلدة في الشاوية، من لم يعرف الشاوية جهل الدنيا، ودَعْكَ من المغرب، الأصل في «لبروج» أنها سهل، لكن ما أبعدها عن السهولة؛ أرضها مطواع في الامتداد، ذات بذل، وما أمنعها، أبعدها عن ذل الطاعة، إن أحبت ملهبة للقلوب، قلبها الملتهب.

عَبرت إليها من مَجرى شريان قُبَيل انسداده، أو تَوتُّري في حريق المسافة، فدَنَت وهي تنأى، ومَضَت سوف تأتي، قرص الشمس حمى بجلد أرضها البور، الصاعد منها برجان كأنهما ساقان. مذ رأيتهما احتميتُ بين الأبراج. يا الوافد إلى ديرتنا في الجنوب نحن قوم عطاش سنسقيك من تربتنا شايًا سحريًّا نَعْنَعُه لا يشبه إلا نَعْنعي قصير الجذوع، مُعافى الوريقات، زُغبي الملمس، مُحتشم العبق، أخضر كالأخضر ... لكن حذارِ، حبُّه، أعزَّك الله، أوَّلُه هَزْل، وآخِرُه دوام العطش.

(٥) ليلى والمها

قالت: أَتُرى قد سَلوتَنا،
وعشقتَ المها الآخَر؟» أجاب على مضضه، بنعم ولا وهو الوجل:
غِرْتِ ليلى مِن المُها
والمُها منكِ لم تَغَرْ

فكر في أن «أكدال» بستان، حدائق معلَّقة، بابل البارحة، سُرَّ مَن رأى غدًا، كذبة ملفقة، كلمات الغد مختومة في أفواهنا بالشمع الأحمر، كلماته ليست مرآة للكلمات، لا

الجنوب امرأة وهي أكثر، ولا الشمال خصاء ذكورة وهو أغزر. بينهما قوارب الموت مجدافها. إذن عُد إلى منفاك هو بِكَ أجدرُ يا سليل الضفتين. وتَماثَلْ لشفاء يُلقيك من تِيهٍ لتيه. سوف تكبر حتى تخشى سُرَّة الجنوب، ثم تأسى بكل هذا الجمال.

٢٦ أكتوبر ١٩٩٦م

باريس حتى الجمام

إذا جئت باريس تَبتَّل.
الهواءُ أمس شفيف.
والرُّؤى غدًا مُسْتَعِرة.
بينهما الوجه العربي
تبخر، لم يكن مِنِّي
الوصول إلا حلمًا آخَر
في سرداب ترحال
منِّي وإليَّ.

(١) هل هي ذكرى تتجدَّد، أم وجه يتورد؟ ذاك بعض سؤال باريس إن غادرتها زمنًا، شوطًا من عمر، ثم عدت ووطِئتُ السهل فيها والممتنع، كان الخريف على موعد مع وقته، لا يخلف ميعاده أبدًا. زمن يلزم هذا المكان، الفضاء مِهاد فضاء مُتَّصل بفضائه لا يبرحه، أو لعله ذاك الراحل إلى غير عودة، ليست الألوان وشْيًا، ولا أوراق أيلول تباريح للهوى أو الشجن، سَمِّها انبلاج النفس، يدًا ترتعش أصابعها بيدك، أو كما تلوح أخرى لطيف شبيه يتخايل في ردهات مطار.

(٢) يصيبني اللون بالدوار ولا أطالب بالإفاقة منه إلا لاستئناف دوختي، كما ثَمَلٌ إلى ثَمَل يُوصِّل. الشجر يسكن القامة، يندغم فيها، وهو في الآن دليل للنظر، حتمًا إن للأغصان يقينًا في تَبدُّد قريب، ووشك الفوات سيُلْقِي بنا خارج حدود النعاس ليسلمنا إلى صحو مُتأخِّر على يقين آخَر، كيف أبرأ منه أنا الذي تُزمن فيه أوجاع ... هذا الخريف؟

فهل كان الشرق فواتًا وارتدادًا إلى العراء الأول، أم الغرب سربال يغطي فيك بالطعن طعانه، وهذي النصال تتلو، ما فتئت تتكسر ... على النِّصال؟

(٣) لو ذهبت إلى مطلق يقظتها، لرأيتَ عليقًا تَدلَّى من تقويس الحاجبين حتى اللَّمَى، يعلوه طَل. ليس دمعًا، هو شَدْو بِلَيل تَبقَّى من أواخر ليل، فاتَك الوقت الذي كنتَ تدركه حين النجم من مُقْلتَين يضيء كلَّ حين بك فاتِك، العليق، الآن، تَغضَّن، رطب الملمس ما زال، لكنه تَغضَّن، في مطلق يقظتها ستجيبك بالحشرجة عن سؤال يتململ في خطوتك المحمولة كالنعش مُذ رأيتَ المُدْية تُثْخِن طعنًا في جسده. لا أحد، ولا شيء، أيضًا، حدث، كل ما هنالك أن العليق تَكسَّر، وأنا، الآن، أمسح عن جبهتها ذلك الدم فاض قبل أوان ... الخريف.

(٤) إذا جئت باريس تَبتَّل.
الهواءُ أمس شفيف.
والرُّؤى غدًا مُسْتَعِرة.
بينهما الوجه العربي
تبخر، لم يكن مِنِّي
الوصول إلا حلمًا آخَر
في سرداب ترحال
منِّي وإليَّ.

طلبتُ من النادل قهوة وقاربًا صغيرًا؛ كي أَعبُر إلى الضفة المقابلة، حَيَّيت بيتي القديم. بُهِتَ الرجل لطلبي، كأنه لم يسمعني أو ربَّما قال: أنت لم تَسمع، إذن، بأن «السين» جفَّ منذ رحيله. لك أن تَعبُر حافيًا أو بحذاء، فالأمر سِيَّان. رأسي هو الذي هبط على صدري وأوى إلى حدوسه القديمة. كنتُ لَمَّا أتمالك صَمْتِي حين دَوَّت في المكان منه ضحكتُه المُجلجِلة. لم أرَ أحدًا أو قامته وحْدَها ظَهرا إلى عَيْنِيَّ تَتسرَّب منها الرمال.

(٥) ستجدني إذا بحثتَ عني، إما متكئًا على انتظار ما فات، أو مُتهيِّئًا للذهاب إلى جادَّة المونبرناس؛ لرؤية امتعاض يونسكو، وهو يذرع جيئةً وذهابًا عبثية العالم، لم يَكُن يعرف أني أتجسَّس على وحدته، ولم أكن أعلم أني كنتُ أتقدَّم حثيثًا إلى مَهوى العدم الشَّفَّاف. غاب نهار آخَر وأنا أنتظر، تَلَتْه عتَمة أخرى فانْتَصف ظِلِّي، في منتصف الليلِ دخلتُ إلى «المونتانا» لأبحث عن وصلة جاز ضاعَت مني، فَفاجأَني العازف فيه شكل من

نصف ظِلِّي الغائب، وثانٍ يشرب قدحًا بفم لم يَعُد لي، وثالث، هو أنا، راح يَتْبَعني في النَّفق المسدود بظهره، كما القامة خلفًا تنسرب منها الرمال.

(٦) للوقت في غابة بولونيا شَكْل جزيرة لا مرئية يخفيها الضباب، من قبلُ كنتُ فصيحًا حدَّ العري، الشمس جهيرة على بشرتي، ثم إني اكتشفتُ هنا أن الضوء المُفرط يُورِّث العمى، يَطرُدك أبدًا خارج نفسك. الذات هي الاستقرار الغامض تحت طبقة الضباب واقعة بين عُلوٍّ وتحت، لا هي إلى الأرض ولا نحو السماء تطلع، بأفواه كالأعشاش المخفية تطير منها النوارس. الصمت هنا لغات تَتأرجح، ليس صمتًا هذا هو خشوع الموتى والأحياء ينشدون مرثية للرجل الذي أدار ظهره للخريف، وانصرف على أثر خطو يقتفيه وخفق يتبعه. أظنُّ أني غطستُ في الضباب لأخفي وجهي، ولم أستطع لدموعي حبسًا.

(٧) من حسن الحظ أن المناضل آيت قدور كان هنا حين عدتُ، وحكيتُ له فصدَّق، وإلا لَظننتُ أني جُنِنتُ، والحقيقة أني ندمتُ على تأخُّر الجنون، وهو خلاف الحُمْق الذي يصيب الحمقى والمُغفَّلِين ومَن دار في فلكهم؛ فهو يُسدِل ستارًا بينك وبين قُبْح هذا العالم ودناءاته.

الذي استقبلني في مطار شارل ديغول أخذَني إليه بالأحضان، فضَمَّني شرقًا، إلى شوق هو شرقه، ثم قال: نزولًا إليها باريس لِترتعَ فيها، كما لم تفعل طوال المقام وهذا الحضور الوشيك، ما كنت اقتربت حين وصلت، ما أزداد إلا بُعدًا، ويقيني أن هذا الفضاء لا يجمعني، لن يجمعني، وإلا لَمَا احتجتُ لكل هذي المراثي وذاك الحُداء. قلتُ لمُستقْبِلي: عندي ما هو أهمُّ من المدينة، رجالها، أقصدُ منهم أصدقائي؛ المُدن ليست عمرانًا وحده، شخصيًّا أُفضِّل جادَّة الشانزليزيه، كما أراها في التلفزيون، وأهجرها أيام الآحاد والأعياد للسُّيَّاح البُلَهاء والمُتسكِّعين على رصيف دهشتي النافرة.

ليلة رأس السنة تُغْري بنوم مُبكِّر أو بانتحار مفاجئ تأخذُ معك فيه آخِر ما تَبقَّى، إن تبقَّى من جمال هذا العالم، أو إنْ أسعفك الحظُّ فطرَق بابَ بيتك وأناخ راحلته عنده؛ لِيتخفَّف قليلًا من أعباء التِّيه، ثم قال بدون حرج: علينا بها، ليمضي العالم، هو الذي مضى.

تركت الشوارع المحمومة خلفي، مكتبات الحي اللاتيني التي لم يأكلها الماكدونالد بعد، ردَهات السوربون، مُدرَّجاتها المُنَضَّدة فوق دماغي، عادات السان جرمان، مغازَلة السين من جسر لجسر في عَشِيَّات التَّعطُّل، قهوة «لفلور» المُعتَّقة، أقداح خير الدين،

«لوكلوني» الأمريكي، الحبب الشغوف بالعطش في «لوبونابارت»، والمصابيح التي سيفترش ضوؤها مُروري المُؤجَّل تحت أشجار «نويي سورسين».

تركت الذي يُترَك كله، أكثره المُبتغى وأقلُّه صبوة آخِر الليل فناء في المسرَّة، ثم عدوتُ، لاهثًا أمشي وخلفي الطرائد من كل لون وجِنس، غير واحدة كنت لها طريدة، لستُ معنيًّا بساحة أليزيا، إلا من حيث تشق في الوسط على شارعها يَمتدُّ لسانًا حتى مترو «بليزانس». لو انحدرت بعده مائة متر، تحت جسر السكة الحديد، لشهقت كأنَّك واصل للتو؛ أي قبل عشرين عامًا، من سيدي محمد ولد مرس السلطان. بيدٍ باقةٌ نعنع وبأخرى سلام حارٌّ سيورق، أيضًا، نعنعًا أعطر من شاي مقهى «البركة» رفقة خلان المغرب العربي/البربري/الصحراوي. أنت تعرف أن الخلان راحوا، تفرَّقَت بهم السُّبل أو اقتيدوا باكرًا إلى موتهم عسفًا بلا خيار. لماذا تأخرت كل هذا الصيف، سأل النادل في «البركة». الصحراوي كان هنا قبل قليل، أضاف. بدا شاردًا على غير العهد به، بلا ضَحِكه المُجلجِل ولا مَرحِه، دعوناه إلى كسكس فعافته نفسُه هو المحب لطعام لقبايل، مُوزَّع اللُّب كالمُحب، وما رأيناه يرافق إلا كتبه، انزوى في ذلك الركن القَصِيِّ، على غير عادته، وأخرج من جيب سترته تمرًا، هذا نواه باقٍ في المنفضة، راح يطعمه، ربما سمعته يتمتم: هذا آخر الحلا ... الحلا ... الحلاوة. سألتُ النادل: أمتأكد أنت مما تقول؟ أولستَ تَهرِف؟ فإني والقوم في جنوب وشمال على خلاف معك، ربما قصدتَ شخصًا آخر. أما أنا فأقصد الصحراوي الذي ينهي عمله في مكتبه بساحة فيكتور هوغو، ويأخذ المترو ويأتي إلينا مباشرة، فيجد السي محمد سنيترا، حميد القسنطيني، والطاهر ولد لعزازكة، وأخيرًا أنا.

– يا سيدي اعلم أنني أقصده هو، والذين فكَّرُوا في شيء آخر إنما شُبِّه لهم بالذات.

لم تَأنَس نفسي البقاء في المقاهي بعد الذي سمعت، لا بُدَّ أن أغذَّ السير إليه، وما جئتُ أتفقد الديار إلا من أَجْله، انعطفت يمين مقهى «البركة» في زقاق «بلزاك» صُعدًا فيه باتجاه «المجزرة القديمة» حولتها بلدية الدائرة الخامسة عشرة إلى حديقة يانعة. لو كان يوم الأحد لوجَدْته حتمًا يَتبضَّع عند مدخلها تَلِيد الكتب، ويحملها سريعًا إلى غرفة وصالون وغرفة ومطبخ وحمام ومغسلة ومخزن ورفوف ضاقت بالكتب، وهو يَتعثَّر بينها منفوش الشعر، لم يُغيِّر ثيابه من أيام، لم يأكلْ ربما من أيام، إلا من بقايا ما حمل. قطعة خبز يَبِست من هنا، تفاحة نصف مَقْضومة هناك، قِنِّينة ماء إلى الربع، عشرة كتب مفتوحة، جرائد ومجلات فوق السرير ودونه وفوق الوسادة. إذا أردت الجلوس فوق

الأريكة، نظرتَ إلى القواميس وكُتب الحشرات والحيتان شزرًا. أكاد أشكوها إليه ولا من مُغيث؛ لأنَّ عينيه تسرحان في الفلوات وهُما ترسمان على أكوام الورق ذاكرةً للرمال.

لا أحد في الحديقة، والكتب هنا تُعْرَض يوم الأحد فقط ونحن في الاثنين الثاني من سبتمبر ١٩٩٦م الساعة عصرًا، لم يكن يحمل الساعة أبدًا، ذاتَ مرَّة طلب مني أن أجلب له ساعة فبخلت بها عليه، كلَّا، لم يكن بخلًا، فقد كنتُ وما زلت من المسرفين، قصدتُ أن يندفع بنفسه ويَقْتَني الزمن، فيما كان على خلاف دائم مع الزمن، ليس عنده وقت للطعام والنوم والعمل والقراءة والزيارة، جميع الأوقات تصلح لكل شيء، تَردَّدتُ في سَحْب نظري من جهة الحديقة لأستدير وجهة زنقة Les morillons. تَملَّكني إحساس لم أعرف كُنْهه. فَزِع أنا أم قَلِق أم مُتهَيِّب؟ طرقتُ هذه الزنقة دائمًا، دائمًا، ولو كان لها لسان لَحيَّتْني، أصل إليها مثله في سائر الأوقات، أقف عند العمارة رقم ٩٧، أتطلَّع إلى نافذة في الطابق الأول على أقصى اليمين فأنادي بأعلى صوت، غير عابئ بالنصارى: إيه، خالي موح، فإن أجاب فذاك، وإلا ضَغطتُ على زِرِّ التلفون الداخلي ضغطًا متواصلًا، مِلحاحًا، بطريقة فِتْنَوية. وغالبًا ما أسمعه يرد: واستنا، واستنا شوية، حقيقة أنتَ فتنة! فأعود أستَحِثُّه: عَجِّل يا خالي موح، بانتظارنا زردة عظيمة وبعدها سنتملك باريس حتى الجمام!

انتصرتُ على ترددي أخيرًا، أنا في صحو لا في منام، القائد آيت صدقني هو الذي يعرفني ويُصدِّقني؛ ولذلك فأنا في مُطلَق الصحو، وما قطعتُ المسافة برًّا وجوًّا إلا من أجلك Oncle Mouh. هنا واحة فريدة في «صحراء» النصارى، خطوة، خطوة ثانية حذرة، ثالثة حاسمة هي قامتي واقفة قُبالة الرقم ٩٧، باب العمارة في الأسفل، قبله الدرجات الثلاث، النافذة مُغلَقة حقًّا؛ إنني أرتعش، دخلتُ إلى بهو العمارة، صناديق البريد عليها أسماء القاطنين، هذا اسمه إلى جانبها لوحة عند كل اسم فيها زر، هذا اسمه: با ... با ... باهي BAHI، إنني أرتعش، قبل أن أضغط على الزِّرِّ ليسمعني ويفتح لي الباب الداخلي، خرجَت سيدة تجر وراءها جَرْوًا في حجم فأر، داسَت ذَنَبه فعوى، فأجْفَلَت، فهرعتُ سريعًا إليها أطمئنها، واندسَستُ كاللصِّ إلى الداخل تاركًا إيَّاها تُعنِّف فأرها، ارتقيتُ سلالم النجدة، وفي ثوانٍ صرتُ أمام الباب، كدتُ أنادي: افتح، عَجِّل يا خالي موح! بلغني أنك شارد اللُّب، فجئتُ للاطمئنان، وجدتُ الباب نصف موارب، بتراخٍ دفعته وتقدَّمتُ أتمايل بين أكداس الكتب، الأوراق فوق المنضدة نصفها سطور، ربعها كلمات مشطوبة، ربعها الأخير أبيض مثل لون الكفن، حسبتني أسمع الصوت آتٍ من غرفة النوم الداخلية، حيث لا ينام حسبته يناديني: استنا، بل هو ناداني: اسمع، سأغير ملابسي، وألتحق بك في

la place d’Alleray عند مسيو Boullet. كالعادة، من هناك سنذهب مع «أبو ميزر»، وبعدها سنتملك باريس، كما تحب، حتى الجمام!

وإذن، فقد كان نادل «مقهى البركة» صادقًا، مُحقًّا، شارِد اللُّب كان صاحبي حقًّا ... لا بأس، فقد كان حيًّا، والقوم أولئك إنما شُبِّه لهم، ومَضيتُ، فرحي يطير فرحًا باللُّقْيا ومضيتُ ... لانتظاره.

(٨) عدتُ إلى «المونتانا» في الهزيع الأخير ... عثرتُ على ظل لظلي مُنزوِيًا تحت نوتة، والمغنية السوداء تحمل ميكروفونًا خلته فمي منه تغني:

صاحبي مضى والفجر تأجَّل.
لو ظل معي بَعد الأجَل،
كنا اثنين في الأول
صرنا واحدا هو الأجل.
صاحبي آه لو تدري!

٢/١١/١٩٩٦م

أنا الكتاب الذي ...

(١) سواء استشرفت المكان عن بُعد، عن قُرب عَلِقْت به، أو أقمت فيه ملء الحلول، فالمكان يَتقلَّص، المساحة فيه تنكمش انكماش الجلد البشري يغزوه زحف العمر المتراجع، تُربته تَتحلَّل وألوانه تُحَوَّل، ما كان له أبعادٌ يَعود إلى حدود المهاد. أين شماله من جنوبه؟ أم أين الظل فيه من القامة؟ ومَن الساكن فيه؟ ويله، مَن المسكون به؟ خلاء حين يخلو من ذاته، وعمران حين يصدح فيه الكلام، بصفاء السريرة أسمعه يصدح، ثم ينهض ملء شموخ، رغم أنه مأهول بالعطب إلى لا نهايات التلف.

(٢) لو حدثتني قليلًا عن الهواء! كلَّا عن الهوى، بلى عن الهواء. قال صاحبي المرصود على لساني وإلى فمي، بسمعه الواجف يصيخ، فتحت رئتي ملء اتساعهما عساني أستنشق قليلًا بعض الهواء، في الشهيق دخلتْ سموات ملَبَّدة وصديد وعقارب، في الزفير سال مني سائل كامد وماع رفات من كلمات، لم يكن لطبقة الأوزون المثقوبة أي دور في فساد الأمكنة، الهواء لم يشح تمامًا، لَمَّا ينعدم، كل ما هنالك أنه لا يكفي لنا جميعًا؛ أي لي ولأولئك، ولذلك أفضل أن ...

(٣) لو أخذت ورقة بيضاء وغلافًا وقَلمًا وطابع بريد، لو استحضرت ذاكرة أمس، القلب الذي دَوَّى ولم يَذْوِ، شوارع كالأجساد متقاطعة، زوايا مُعتِمة في أقبية دافئة، ثمالات، رماد في منفضة، سرير ضج أمس بالشهوة العارمة، المنفى بوصفه الوجود الصاعق للحرية، كلاب الحراسة عند الحدود، «كلمات ليست كالكلمات»، يد امرأة تلوح من شرفة عالية نحو اللامرئي، قَلَمي، إذ يشتط في الإدانة ودِيدان تلعق حبره، لو أمكن التذكر، لو أمكن الألم، لو أمكن البوح لسميت هذا فضاء.

(٤) من الأفضل أن تختار طريقك، طريقًا واحدة، لا غير، دَعْها تُؤدِّي بك إلى التهلكة، لكنها طريقك أنت بالذات، ذاك الذي عرفت، وأعرف منه كثيرًا يذرع أكثر من طريق،

إذا سُدَّت هذه ينتقل إلى أخرى، فثالثة، وهكذا دواليه. تلك حكمة العصر عنده، يرافقك هنا، بل ينصحك بالطريق، في منتصف المسافة، يلهث قبل الأوان، لينعطف إلى أول زقاق، كان أمس هنا، صار أمس هناك، لم تعبأ به الطرقات، هو الذي احترف التجوال، حكمة «ليوفيري» سهلة وصارمة، أقبَل نحوي من رصيفي، تركتُ الرصيف، كل الطرق له ... وحلَّقت.

(٥) أمعنتُ في الصمت، ضَجُّوا بالكلام، خطتُ فمي، انتفخَت أشداقهم، ما همَّني أن أُزْدَرى؛ فلوحة الازدراء مكتملة.

من حُسْن الحظ أن «لسان الفتى نصف ونصف فؤاده.» لذا لا أبالي بصورة اللحم والدم، لو أخذوها، سرقوها، نَهشوها، أشرق في بلاغة صمتك، المجاز ليس قبعة سحرية ولا فرقعة أصابع، كلماته ليست مبذولة في الطريق، هو الافتتان، هنيهة وتسلب لُبَّك أو تقوم القيامة، الضمائر تلعب اليوم الجمع والقسمة، ضميرك غائب بصيغة متكلم، يملأ قدح الصمت حتى الجمام ... ولا يشربه، وفي انتظار، يكتفي بالنظر، فلوحة الهزء، أيضًا، مكتملة.

(٦) أمام موظف البنك وقفتُ، قال: مرحبًا، نحن في الخدمة. قلت: الأمر سهل وصعب، ولا تظنني مجنونًا، أريد أن أفتح حسابًا للغياب. أجاب للتَّوِّ: أهذا كل ما في الأمر؟! أتنازل لك عن مكاني، فالقائمة طويلة، ومن أجْل التأكد مِن تَحضُّرك، خذ دَورك كالآخَرين، وانظر خَلْفك يا أخ، فالطابور طويل، أردتُ أن أسأله: مَن هؤلاء؟ وما الذي يجمعنا في هذا الطلب؟ ولماذا يتنازلون عن حفل مُقام رخيصًا في الخارج، مُوثِرين فتح حساب لهم بالغياب على حساب بطلب الفائدة؟ كدتُ أسأله، لولا مغادرته لموقعه، وانضمامه إلينا، نحن الحاضرين بحرارة في وجه الغياب.

(٧) اتصل الوقت أو انفصل، تَعُودين من أقاصي الخطو، ومن تلاشي الحفيف، اخشَوْشَن ثوب الزمن، أم استَدَقَّ الهمس حتى مَلاسة النِّطْع، تَنفُذين، قلتُ: ضاق القلب حتى لا يتسع ... ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ وجُعِلت أنت. كيف أنتَ من كيف أنا؟ أم تُراك استبدلت قُدَّاس الرذاذ بصراخ العابرين؟ أم تُرى اتَّسع الخَرْق على الراتق، أم ماذا والصهيل صار نباحًا؟ ما أجمل الكلاب حين تقعي! لكن مَن أرى دون الكلاب. شارد أنا لا أبالي تحت حدِّ النِّطْع، العين إذ فاتت منك نظرتها انغراز النصل أو تلقفتني. وأراك رغم كل شيء، من خرم إبرة تَعْبُرين.

(٨) لو كنتُ استعرتك صوتًا لخلقت أنثى. لَقالِق في «قصر البديع» تَغار من نظرتي إلى صوتك أنت أنثى. شمس فوق شمس، كواكب غُفل دونها، يَزْوَرُّ القمر ارتجافًا، يتسع الرصيف لموسيقى الخطو. انظروا كيف يكون بذخ الظل أو تشبيه ظل السبيل في بحثه عن وجه الشبه، وكل ما في الأمر أنها لا تشبه إلا فتنتها، حاشا أن يطولها وجه شبه. الأنثى غير امرأة، أشبق من ريق يَتحلَّب بين بين، أزْأَر ممَّا في عرين أسد، لم نعرف الخريف هذا العام، جاء الشتاء دفعة واحدة. غدق من ضروع منها عليها، والرياح، اسألوها من تكون.

(٩) حين تكون صغيرًا تَعلَّم أن تكبر بهدوء، تعلَّم الصبر؛ لأن للطبيعة وللموهبة، أيضًا، قوانينها، ولن يطفئ أحد نور الله بفم.

ليست حكمة صينية، هي تحصيل حاصل، سَمِّه مغربيًّا لو شئت، لو تطاولت أكثر خانك ظِلُّك، وحده يعرف قدره، وقدرك، هو سِرُّك، أنت لا تملك لغزًا سوى أنك تريد أن تكبر أكثر من عمرك؛ من الآن لا يتَّسع لك المدى قبل أن تكبر، لا تعرف الفرح، لن تطول البكاء، والطرقات لو أغلقتها، وهذه السطور لو محوتها، ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ستبقى بعدها صغيرًا، بلا ظِل، بَلْهَ بلا قامة، ولا زغب، ككل الفراخ التي ستصبر على الطيران؛ لأنها تملك الموهبة.

(١٠) ربما كانت أفضل طريقة لمواصلة الحياة، هي أن تعيش الحياة نفسها، مُستساغة، كما تريد، مَهما بدا شأنها، بكل يُسر، في شساعة القُبْح المنتشر ثَمَّة في مكانٍ ما أَلْق من جمال يحتاج إلى عين لتكتشفه، لِتُفْتن به، كن هذه العين. في كثبان البغضاء الناهضة في صحراء العمر، ثمة جداول من محبة، احفر عنها عميقًا حتى والرمل يمتص زلالها، صدِّق السراب إذا سلبَك، استسلم لغوايته حتى تبلغ السقيا أو تهلك، لا بأس، بهذا العطش، كن هذا الحفار؛ لكي تغيض أعداءك عِش، تَنفَّس الهواء فقط. أما أعدائي فأنا كفيل بهم.

(١١) أنا الكتاب، الكتاب المغربي تحديدًا، عندي حكاية وأستسمح القراء عذرًا، إذا أثقلتُ وفرضتُ عليهم سماع حكايتي، فهي منهم وإليهم، وفي النهاية أنا مضطر أن ألجأ للقارئ، فبدونه لستُ شيئًا، هو المُتلقي، بلغة هذه الأيام، من يحسم في وجودي، أظن أني أبدًا هكذا، أو على الشكل التالي: يوجد شخص يُسمِّي نفسه كاتبًا، مؤلِّفًا، باحثًا، أو أديبًا، ما هَمَّ يجلس إلى مكتبه واضعًا أمامه كوم أوراق أو أمام الحاسوب، إما لِيخُط أو يَرقن. في رأسه حكاية ما، فكرة إحساس مُلتَبس، صور مُتمَوِّجة، وما شاكل.

يفترض أنه على غير وفاق مع الحياة، أنه يحس بنقص ما فيما يرى حوله ويتوهم أنه موكول له؛ مثل أي نبي، الإجهاز على النقص، وإعادة ترتيب بيت الحياة. من الجائز أن يكون هذا الكاتب مصابًا بعصاب ما، يعاني من نقص، بل من المؤكد، والحال، كما أعرف، أن الخلل مُعشِّش فيه، وإلا لكان سويًّا مثل سواء الناس وانصرف عن هذا الورق، بعد شهر، بعد عام، بعد عُمْر، بعدما لا أدري يصبح كتابه جاهزًا — اعذروا أنانيتي، وليكن الكتاب مجموعة قصصية بعنوان: «رؤيا السيد سين» مؤلِّفها صاحب هذه السطور، قضى شطرًا من عمره يكتب ولا يعرف متى يرتفع عنه هذا البلاء — يَحُكُّ رأسه ألف مرة وهو يدير فيه أسماء المطابع ودُور النَّشْر مَشرِقًا ومغارب، ويقرر: مَغربي أليق بكتابي، وبعد هِياط ومِياط وشفاعة قريش، يدفع الكتاب إلى الطبع، وتُصدِره دار النشر ويغتبط صاحبه أيَّما غبطة، والصدور مُتزامِن مع معرض الكتاب بالدار البيضاء، والمناسبة شرط، كما يقول الفقهاء. وبما أن صاحب الكتاب فرد لا مؤسَّسة، فلا بُدَّ له أن يبحث عن موزِّع، بل وعن موزِّع استثنائي يقوم بمهمته مضافًا إليها الحَدب والاحتضان كما وجدَهما بأريحية وحُسْن اقتبال في شركة «سبريس» العامرة.

وهنا أصِل إلى لُبِّ الحكاية، فإن هذه الدار، دام لها العِز، فتحَت لي — أنا الكتاب الجديد — رِواقَها في المعرض الدولي، ورتَّبَت لي رفوفًا عُرِضْت فيها أفضل عرض، ومن أول يوم للافتتاح بدأتْ رحلة الشَّوق والعذاب. الشوق الأول في أن أُباع، فلا يُخْذَل في مُؤلِّفي الذي يُعلِّق أوهامًا كبيرة على قصصه، المسكين، وهذا على كل حال يَهُون؛ إذ ينبغي ألَّا تُخْذَل بأي حال، وقد فتحت لي بابها على مصراعيه وستَتجَشَّم عناء توزيعي في ربوع البلاد.

هذه المخاوف تَلبَّستْني كلها وأنا مغمور بالشوق رغم كل شيء. وأعترف أن كثيرين أقبلوا عليَّ يقتنوني ويَحتَفُون إما برغبة أو بفضول للمعرفة، فكنتُ أندسُّ في أيديهم بحرارة، آملًا أن أُقْرَأ بسرعة وأُحقِّق بعض «أوهام» صاحبي الذي ظلَّ صامدًا يقدمني مشفوعًا بتوقيع خاص.

أما رحلة العذاب يا سادة، فقد بدأت حين أخذتُ أقع بين الأيدي، تتفحصني العيون عن قُرْب وبُعْد. تَكُر وتَفِر؛ منها الذي يَتلَمَّسني بحنُوٍّ، منها مَن يعجبني، منها من يقبلني طولًا عرضًا طولًا، منها من يكيلني لِيعْرِف وزني، منها الذي يحملني إلى طاولة المؤلِّف ليسائله عن أصلي وفصلي وأغراضي ومقاصدي، وهو يشرح ثم «شرَّح، ملَّح» وأخيرًا يُلْقي

بي جزافًا وينصرف، وأخيرًا وقد تورَّم لحمي وتَفكَّكتْ عظامي، أَوْحيتُ للمؤلِّف بما ينبغي أن يَتصرَّف مع الزوار ليريحني من هذا العذاب وقد فعل.

جاءه شخص وبدأ معه لعبة سين وجيم، واعلاش كيدوي هذا الكتاب، فأجابه مستسلمًا: «شوف يا أخي، هذه السلعة ديالنا بيع ومقال تشري الكتاب أولًا، وإذا ما عجبكش آجي غدًا ونردوا ليك فلوسك.»

وهنا انتفضتُ في وجه الكاتب: «أنا لستُ سروالًا ولا قفطانًا، ولن أرضى بهذا الهوان، هذا شأنك أن تصبح مازوخيًّا، أما أنا وإلى أن تستفيق من أوهامك، فإني سأنظم مُظاهَرة في المعرض، وأعلن الإضراب، وانظر ها أنا أصرخ، أصرخ، وسأستمر في الصراخ والإضراب إلى أن ...»

١٦/ ١١/ ١٩٩٦م

سِرُّ تلك الكلمة

الرجل الذي أخذ طريق البلاد من الشمال إلى الجنوب، رَسَت به الباخرة في ميناء طنجة، بَدَت له المباني البيضاء من بعيد مثل أعلام ترفرف، أو وشاحات حرير منسدلة من شرفات السماء إلى عتبات الضفاف، المدينة التي يعرف قَبْل زَحْف الذُّباب وتَسلُّط التِّنِّين مُنسَحِبة إلى صمت محبوك بألغاز عمرها الفائت. تَقتات بفضَلات الذِّكْرى، حينًا، وبفُتات الحنين حينًا آخر، وطَورًا تَلْفى نفسها مقضومة بين فَكَّي منشارين والوطن تحتها غمٌّ وصدأ.

الرجل الذي من مَنافي العمر أتى، عوض أن يقصد أهله مُتلهِّفًا لعناقهم، وأولاد الدرب القدامى للاستمتاع بآخِر النكات الوطنية، ولقاء كراسي قديمة في حديقة أَمْسَت شاحبةً كان يجلس فوقها مع أول حبيبة، بدل أن يفتح رئتين لِيستَنْشق ريحة البلاد دفعة واحدة، بعد أن يزفر رائحة الشمال دفعتين، ثم يشرع في عَبِّ البصر بصور نسَجَها له حلمه في ليالٍ مُطفَأة النجوم، غذاها حنين خِصْب أحس به يكبر، يكبر مثل جَنِين إلى أن وصل أوان الوضع، فلمَّا خاف عليه من عملية قيصرية يعرف من تجارب مَن سبقوه أنها تترك في النفس جرحًا لا يندمل، أو كما تندمل جراح الغرباء وقتًا مُطامِنًا لتستأنف نَخْسَها بلا مُناسبة، على حين غِرَّة، هكذا، عند سماع قَرْع أجراس كنيسة وافتقاد أذان رَخيم من صومعةٍ مُفتقَدة، أو حين يُكْثِر بغير لسانه من قول صباح الخير ومساء الخير ويلعن أبوها جرة، أو يُضْطَر لقول أُحبُّك بعد طول إلحاح لامرأة شقراء يسيح وهجه فوق جسدها، وفي لحظة مُباغتة يكتشف أنها بلا رائحة أو عاصفة من عِطْر ليس غير.

لم يكن فيها ما عند بنات بلاده السَّمراوات، القَمحِيَّات، حاملات تحت آباطهن عبير التراب، كُنَّ يمشين أمامه وهن يُداعِبن خصلات شاردة الموج من بعيد، تَسْبي عن غير قَصْد الطير الشريد الذي هو، فيسمعُه يقول صباح الخير، مساء الخير، بلغته، بلسان منه

يعرفه، فيحس طعم الصباح يُغَمْغم كصبي مَرِح بين شفتيه. والأصيل إما له لُكْنة الورد أو طعم القهوة بالحليب مغموس فيها خبز بالسمن والعسل، أما الليل فنُجوم لعوب مثل عيون السعدية لهلالية أو حليمة لفضالية تحرث الأرض وقلبه بالضوء، وفي ساعة خروج العفاريت يهتاج بالشوق ولا يعرف أين يمضي، ورغم كل شيء يمضي وقد طوى الشاوية، وهو الطائر الشريد بين جناحيه، عاقَر دمها اللَّجب، وخضَّب العينين بنظرَة عَطَش ومضى. كانت الأرض وقتها هُوَّة مفتوحة تبلع الواقفين والعابرين والصامدين أيضًا، وهو يغسل وجهه بالمطر النَّزْر فلا يكفيه، ثم بطوفان عارم يَتمنَّاه فلا يأتيه، وهي لا تكفي تلعب، تلاعب، تتأرجح، تَتفكَّك، تَتأوَّه، لا تهمد هنيهة إلا لتواصل بغناء له طعم فجور مُعتَّق، لا يكاد الجسد المُؤلَّه بنشوته يصحو منه، إلا ليهوي غريقًا وقد اصطلى جحيمها. قراره جحيمه الآن ارتحل من غربة إلى غربة يرتحل، وفي كل مَرَّة يقول هذي والتوبة ولا يتوب، كيف ينزع الجمر عنه حتى لو تَرمَّد هو رماده حتى لو صار غبارًا، والغبار طريق؟

لم يكن هائمًا على وجهه، بل على قلبه، المسافات طالت أم قَصرت تباريح من ذاك الرماد، كذا من لفحها المُستَعِر لا يغادر خرائطه في الجسد، هو دومًا بين رحيلين، منه إليه، يُضَحِّي للحاضر بقربان ماضيه، وينثني على كَمَد عندما لا يسمع الوصلة مَبحوحة بزهوان الشاوية. هل يقول الرجل الذي ينحني من شمال لجنوب نازلًا حافرًا في تضاريس الثَّمل الرائق والصحوة البارقة: إن كل شيء يَتَّفِق، كل شيء يَخْتَلف، كل شيء لا شيء وكله نصفه، بعضه، جزؤه، قلَّ نَدر؟ واصطفى حتى اختفى أم هو المصطفى حين يستوحش في عرين الغرباء، وإبَّان يُصْعَق فوق الرءوس المضخمة هي من خواء، صليل صدئ وصهيل خيول تعلك في ليل الهزائم. مقصلة تلك الرءوس دونها الظهور مُحدودِبة مثل كدية عوجاء، ورياح الخواء تهب حتى لا مزيد، أو سأستهلُّ نفخي في السور بعد أن فاتَ الأوان وكان في فواتي مِن بَر لِبَر مثل موجة نافرة اعتلَت صهوة البحر، وما ارتمت غير نثيث من تكونها عند ساحل مدينة كان فيها الفُرْسان قد رابطوا يومًا ثم أمْسَوا إلى الخيبة مربوطين.

وأنا هنا أو هناك، وحدي كما كنتُ وأبقى، أتَقرَّى كل هذا الذي يحدث فلا أرى شيئًا يحدث، أتَملَّى صفحة الماء فوق يدي لأرى وجهي القديم حين لا يحدث شيء ولا أحد يجيء، وبي أمل أن يستغرقني ثَملي بك حتى لا نهايات الثَّمل؛ لكيلا تخدعني الصحوة الكاذبة بعد كل هذا الكذب، وانتشار البَدد، لعلَّك قد تستفيق أيهذا الولد الذي كان، والذي أقسم، لا يبغي قَسمًا آخَر بغير اسم هذا البلد، هو ذا في المزاد، الأصوات تعلو حوله، لغط

من كل جانب والموتى، أيضًا، ضَجُّوا من هذا اللغط يحسبون أصواتهم ساحرة، والكلمات إذا قالوها هي الشهد يحسبون، حين رأيتهم، أنا أراهم دائمًا هكذا، خلف منصة يجلسون، بوقار كامل وعيون مسكونة بالفراغ، هؤلاء ليس لديهم داخل لينظروا إليه، والخارج منهم يهرب وهم يلاحقونه بالأشرطة، بالمقصات وضرب الدفوف.

دخلتُ إلى القاعة عَنوةً لسماع شيء، ولم يكن عندي أي مشروع لإعلان تَمرُّد؛ ذاك عهد مضى وانقضينا، ننظر اليوم إلى الريح، إذا هبَّت عاتية، فنقول: هذه عاصفة لم تَعُد تعبأ بهياكلنا المنخورة، بقاعٍ صَفْصفٍ حتى ولو زُيِّن بالبُسُط السُّندسية، العواصف تهب على الأحياء وحدهم، أما العظام النخرة ... لم يكن عندي أي مشروع لتنظيم مظاهرة كالتي أنوي يومًا داخل مستشفًى أو غابة أو أمام برلمان حقيقي حاملًا قلبي وحده لافتة وشعارًا ... أمام كل هذا الهزء؛ ولذا، فإني جلستُ في آخر صف، فالصفوف الأولى مباعة أو مُؤجَّرة، وهي لا تعنيني في كل حالٍ. الضوء مُسلَّط عليهم، على المُتربِّعين فوق المنصة والمقابِلِين لهم مباشرةً بوجوه طافحة بِشْرًا، سيستمعون عمَّا قليل إلى حشد من خطباء مُبشِّرين طارِدِين أشباح النذير، أشباحنا في الصفوف الخلفية انسحب عنها الظلام كأنَّ الضوء لا يليق بنا، كأن عيوننا سيطير منها الشرر، يقذف جمرًا فيحرق هذه القاعة ومن فيها، بدءًا منهم، ثم يعود الجمر يلوذ برماد أجسادنا في انتظار الجولة القادمة لحريق مضى ولم يأتِ، فالحرائق الآن كلام في المزاد؛ ولذا فضَّلت أن أجلس في آخِر صف، في أقصى ركن، ما رآني أحد، لا أكاد أرى أحدًا. كلمات بغاء ترقُص وحدها فوق المنصة. اهتاج الجمهور من النشوة والإعجاب فاحتاج إلى التعبير بيديه، احتاج طبعًا، إلى التصفيق واكتشف كل جالس وواقف ومُعلَّق أنه بلا يدين، واكتشفوا بعد حين أن شفاههم مَخيطة؛ أي غير قادرين على الصَّفِير لرد الجميل للخطباء المبشرين.

عندئذٍ نهضَتِ الكلمة التي كانت جالسة في الصف الأخير وتقدَّمَت إلى الأمام، وقفزَت نحو المنصة، خلفها ولمجرد رؤيتها ارتعد القاعدون، لم تَتكلَّم واقشعَرَّت أبدانهم، قُبالتها بدأ الجمهور يَتمَلْمل بعضُه، جُلُّه راح يَتملْمَل؛ الأماميون منهم انضَمُّوا إلى المِنَصِّيِّين، مُستصرِخِين، مُستنجِدِين: أنقذونا منها، توجَّه هؤلاء جميعًا إلى الجمهور، لأول مرة، بخنوع، برجاء حارٍّ وبلا خيلاء: أنقذونا منها. تَعلَّق الجمهور بها، وهو لا يفهم شيئًا، بلى هو يفهم الآن كل شيء، وبنبرة متذمرة، ساخطة، وأي غضب تعلق بها راجيًا: أنقذينا منهم، عندئذٍ نزلت من المنصة مخترقة الصفوف بكبرياء، وشيئًا فشيئًا تَزحْزَح الجالسون من مقاعدهم، سَحبوا أجسادهم من كراسي الحديد، اقتلعوها ورموا بها ... كرسيًّا، كرسيًّا،

كرسيًّا إلى تلك المنصة. ثم ساروا خلفها يجمعون أشلاءهم وهي في الخارج تمضي وَهُم خلفها، معها يمضون نحو ...

في مكان آخَر من هذا العالم المُضحِك المُبْكِي، اجتمع قوم آخرون على درجة من الوقار والضخامة لا مزيد عليها، بَدَوا في تمام قيافتهم، والهيبة منهم وحولهم تطير لها القلوب، لم يكونوا في حاجة للالتفاف خلف منصة واحدة، فكل واحد منهم بمفرده منصة، هؤلاء قوم لا وقت عندهم للإطالة في الكلام، فإن نبسوا فَبِنْت شَفة، عادةً يتغامزون بالعين، ويُفضِّلون البلاغة، لكن اجتماعهم هذا استثنائي، فوق العادة؛ ولذلك لا بُدَّ أن يَتكلَّموا وأن تسمع منهم عبارات شديدة اللهجة تَرتَعِد لها فرائص العالم، بعد أن تصطك لها أسنان وكالات الأنباء التي أبرقت إلى جميع أركان المعمورة بالخبر اليقين: مفاده أن القوم بعد ليالٍ من الكَدِّ والجد، بيضاء حمراء، أصدروا بيانًا يُحذِّرون فيه تلك الـ... من مَغبَّة الاستمرار في الـ... وأن كل مَن تُسوِّل له نفسه تَحدِّي هذا القرار سوف يـ...

١٤ ديسمبر ١٩٩٦م

في حب مصر وحبنا

لو نطقت الشرق لتلعثَمَت الأبجدية على لساني مُستنفِرة أهواءها الدَّفِينة، رأيتُها مُحلِّقة بأجنحة المدن وأسماء الأصدقاء وعلامات الأماكن. الشرق تكتبُ سيرتك وإذ تروي بعض سيرته، وفي ضفته تكتنز خصوبة كل الضفاف. أهو الشوق برَّح بك؛ لتشدَّ الرحيل إلى طُرُق كالخصور الَتفَّت بك قبل عشرين سنة ونَيِّف، في استدارتها الأولى راقصة في حضرة جموحك، أم إنك لا تبرأ إلا باعتلال يتفانى فيك داؤه، والأيام سبحة جروح تكر ذبحة، ذبحة؟

تلك القاهرة، كما لم تحلم بها أبدًا قبل عقدين من الزمن، كنت لتبقى ملك الرحيل في أحلامك، وها هي ذي فوق الكف دفعة واحدة: غنج وأهرام وأنف كليوباترا، وعصَا طه حسين تجس بلاط الجامع الأزهر، وأنفي يَتشمَّم البخور ونكهة التوابل بين السيدة زينب والحسين، حتى إذا ظَمئت الروح سقيتها العرقسوس بمقهى الفيشاوي، وما أنا إلا مُقتفٍ مَسار بطلٍ تائه في رواية، كلَّا، أنا التائه أرتق نسيج العمر بخيوط أحارُ في تَوقيتها. يطل الأمس واليوم من رأسها من شرفة واحدة، ومعًا نُرى، ونحن نصعد في هذا المهوى العميق عمق ما في حياة العرب من حسرات، أغبط الذين يكتبون سِيَرهم بانتظام ويَروُونها بوعي كامل، كأن الماضي، بكل تضاريسه واحْدِيدابه، كتلة صمَّاء في قبضة اليد، وبعبارة أخرى، فأنا لا أعرف أين تقع القاهرة التي نزلت بها مرات وليس بيني وبينها سوى أيام من عودة. الجغرافيا عندي موطنها في غير المكان، حيث هي مرسومة. الأماكن تشحذ أو تشحب على حد المشاعر ملتهبة أو فاترة. العاجل، الآني لا يغريني في شيء، الكم الهائل من الصور والوجوه والتفاصيل لا يعنيني إلا بقدر ما ينقدح ببعضه بزناد لحظة صاعقة أنا فيها المقدوح والشهاب.

لن تكتب أبدًا إلا عن ماضيك، وما الكتابة إلا سُلافة الماضي المُعتَّق في دِنَان نسيان مُؤجَّل، تستوطن رُكنًا من الذاكرة، فَجوة في الروح، هي الكُمُون حتى تَشتعل بجمرة الوقت، وحينئذٍ، فهي تَحرِقك مع الأخضر واليابس في طريقها. والماضي فُسَيفِساء، الفن وحْدَه يُحْسِن تشكيلها ويَمهر في تركيبِ قِطَعِها، والفن غِواية وجُنون ودأب وصنعة، الأحاجي نفسها يحتاج راويها إلى خيال وتطريز، فماذا عندي، الآن، من هذه الإعجازات وأنا لا أستطيع أن أسترجع من تلك القاهرة سوى فُتات من ذكريات تَرشَح من ذاكرة عمر يَترمَّد، وحولنا كل هذا الغبار؟!

إذا انحدرت بعيدًا في مهوى العهد الساداتي ستجد من يمسك بيدك ليسحبك من زحام خان الخليلي الفولكلوري، رغم أن عينيك مثبتتان على المَشربِيَّات والنوافذ المعشقة تتوهم خلفها غمازات لاهبة، يسحبك الساخر الأكبر في جماعة الحرافيش؛ ليدفع بك في أزِقَّة حي الغورية هامسًا في أذنك: الآن، ستتَعرَّف على مولانا، ومن هو مولانا يا بهاجيجو؟ هو الشيخ إمام طبعًا، يا مغربي، فأَفِقْ من غفلتك. كتبت هذا الشرح قبل عشرين عامًا وما أسرده الآن فُتات، أمام باب شديد الانحناء تقوس ظَهرُكما وانْقذفْتُما دفعة واحدة في غرفة ما أضيقها لولا فسحة التطلع: فلَّاحون، عُمال، رسام شعبي، امرأة تُعِد الشاي الخاتر، مولانا بنظَّارتَيه السوداوين يَتفَكَّه، أحمد فؤاد نجم بقامته الصعيدية يُرسِل الزَّجَل الغاضب فتَسمعه مُجلجلًا تارةً، منغومًا تارةً أخرى من صوت الكفيف الجريح، لم يكن إمام ولا نجم آنذاك قد أصبحا موضةً لاستهلاك مُراهِقي اليسار والمزايدين علينا في الأحلام الكبيرة. كانا آنذاك تعبيرًا تلقائيًّا لغضب مَرِح وفكاهة سوداء للاحتجاج على انفتاح أهوج، سيد الطغاة والجشعين من كل صنف لِيُنْجب سلالة من سُمُّوا بالقِطَط السِّمان يَبُوسون أيدي الأمريكان، الذين راحوا بعد تكرار هزائمنا و«لهف» نَصْر مُجْهَض يَصولون ويَجُولون في بلاد العربان، كان الرَّجُلان الفنانان إذ ذاك يَمنحان فَنَّهُما مجانًا في بيوت الفقراء: هذه عقيقة، وهذا عُرس بسيط، وتلك سهرة للأشقياء، وإذ تَنقَّلت معهما في أكثر من مكان، كُنَّا أشبه بكومونة جديدة تُنذر بالوبال ... وما كنا إلا إلى زوال، عجبي! عجبي ولهفي على تلك الأيام، مِن حِبْرِها ظننتُ أنني سأستنهض الهِمَم في أرض بَوار، أرضي. وجريدة «المحرر» لمن يملك قدرة الاستقصاء ونُبْل التَّذكُّر النزيه، نطقَت بلهفة واحترار سنوات الجمر، يا لتلك السنوات!

الشَّرْق سِحر، فتنةٌ للناظرين، موزاييك فرعوني، فينيقي، سومري، عربي، وثَني، إسلامي، مُتنَبِّي، مَعَرِّي، نواسي، حَلَّاجي، قرمطي، إخشيدي، فاطمي، مملوكي، ناصري

على جلد مَسحور، هو جِلْدي مُرَقَّط باكتناز الذاكرة الملتهبة بين قاهرتين؛ الأولى التي ضممتُ، أسكنتُها الشغافَ، فتحتُ لنيلها قنوات في شراييني يجري ماؤها، أَحِنُّ إليها وأنا منها، فيها أرى شعبها لأفتقد شعبي وحبهم لوطنهم فَيهيج في وطن أريد أن أحبه، الأولى، دائمًا مثل تلك الحكايات الألف لَيلِيَّة، بينما الأيادي الصلبة تعاند التراب، وما الغناء سوى بَحَّة حزن، شجن وَنجوى، غضب منفوث في نرجيلة وآخَر محتقن في نظرات الحرمان والانكسار.

ويوم كسرَتْنا هزيمة ٦٧، حلَّت القاهرة محل «ظهر المهراز» في ذلك المنفى الجبلي بفاس، أيام حُزْن لم يُعْجَم لها عُود، واحترقنا، وبكينا، ورأينا عبد الناصر في الشمس والقمر، ومن قبل كنا نُنْشِد ومع عبد الوهاب «أيُّ سِرٍّ فيك، إني لست أدري؟/كل ما فيك من الأسرار يُغري.»

وحين كبرنا لم نجد ما نُعَوِّض به هذا الحب إلا حبه، فانكفأنا على جراحنا، وتَلعثَمت على شفاهنا أبجدية الأسماء والمدن اسمها في قلبها نموت، ونكاد نحيا.

أما الثانية، وإن كانت في الأصل لا تُثنَّى، فاستقبلتني بصخب الموج البشري، بعشرات الآلاف من السيارات، تلال نمل تَتقاطع بين الجسور والقناطر تحتها أعلاها، بنيلها يجري، كما كان منذ آلاف السنين، بالناس الغَلابة والناس الغَلَّابِين، بالكَدَح مَسكوكًا في الخطوات اللاهثة، وسماء كأنها لا تشبه أي سماء، أتطلع إليها؛ بحثًا عن سمائي، أو عن وجهها أتشرد فيه بين الضفاف. كأن سهرتنا في الهرم لم تَبدأ إلا من نسغ البارحة، وأنا تركتُها هنا تركتُها هناك منذ عشرين، وها عام آخر سينقضي بعد لَوعة آزِفَة، لكل عمر نَشْوَته، له حُرْقَته، وحُرقتُك أنت لا تمضي، رابضة هنا مثل أبي الهول. وقفتُ قبالته، أظن للمرة العاشرة فأدركتُ أنه ينظر إليَّ ساخرًا ليعلمني أن الزمن كله لم يَنلْ إلا مِن أنفه، وهو رغمه سيبقى أما أنتَ فماضٍ، فلماذا جئتَ إليَّ ثانية وعاشرة أم إنك تستعجل رحيلك من خلودي؟

باقٍ هو وهذا الشعب باقٍ معه بقوة يُغالِب كروب الزمن، متفانيًا في إبداع روحه وتشكيلها بين الصَّبَوات وهمس الصبايا والفتيان يَقضِمن أعواد الدرة المشوية أو شرب الحاجة السقعة، وببساطة النسمة ونعومة الكلام البلدي يقول لها أُحبُّك مُوهمًا أنه يخاطب النِّيل، مُسنِدًا رأسه عليه أو على صدرها أخذا إليه ثَدْي أمه لا يبغي الفطام، باقٍ هذا الشعب بحبه للوطن يرضعه مع حليب الأم دونه أي فطام. نعم، نحن نَتندَّر أحيانًا مستكثرين على المصريين تعلقهم ببلدهم، فهي أم الدنيا، ولا نهر إلا النيل، والأرض

هي أرضهم والسماء والنجوم، وفي «حب مصر» أناشيد وأغاريد، إنما أتساءل وأسأل المستكثرين: هل من وجود حقيقي للشعب بدون حب الوطن؟ وما معنى الأوطان إذا تَحوَّلت إلى بورصات مواطنوها مُجرَّد عملاء أو وكلاء أو سماسرة في التصدير والاستيراد وإبرام الصفقات ومنها الأدبية أيضًا، وعلى عينك، ولا فخر؟ شعب مصر يحب وطنه؛ لأنه تربَّى عليه، ويمتلك ثقافة وتقاليد عريقة في هذا الحب. ثقافة البيت، والطبيعة، والمدرسة، والجامعة، والتاريخ المتسلسل، والمؤسَّسات الراسخة، الباهرة، عنوان على كرامة الإنسان وحِسِّه الحضاري المتنامي، تراه مكابرًا رغم ضَنْك العيش، الأم والأب والصديق والأخ والجار وطن، وطن يستحق الحب حقًّا، لا مزرعة من الخنازير والرجال الجوف يَطْوُون البلاد تحت بطونهم تَتدلَّى ثنايا شحم وسَفَه، حب الوطن مظهر ثقافي، وإعلاء لشأن الثقافة والمفكرين والأدباء والفنانين؛ تقديرًا لدورهم في صنع الإنسان وبناء الأجيال. أما السماسرة ورجال البورصة، فيُراكمون الثروات ولا يصنعون نملة؛ ولذلك وأنا أجوس شوارع القاهرة، لم أملك نفسي من أن أغبط هذا البلد على أُبَّهته الثقافية المُتجسِّدة في متاحفه، ومسارحه، وقاعاته الفنية، ومكتباته، وأوساطه الفكرية والأدبية، وحواراته الساخنة، قلتُ: لا بأس أخيرًا، فهذا وطن آخَر لي، يهدئ من روعي ويُخفِّف علي غيرتي من الضفة الشمالية التي تَسْلبُك ثقافتُها وأجواؤها مرغمًا، وكنتُ في الحقيقة أُطامِن نفسي لأن جنوبي الأطلسي ما يَنفكُّ خواؤه يحاصرني، وأنا أَحتَلِب من مخزون ذاتي ما أملأ به هذا الخواء ... لكن إلى متى؟

على وقع هذا السؤال ضحكتُ في سِرِّي أظن أن القاهرة التي لا تنام لا تغبط الدار البيضاء ولا الرباط على شيء، تركتُها قبل أيام معدودة خلفي وفي نفسي شيء منها، أوه، كدتُ أنسى. أم لعلَّها ستغبط شرذمة من السُّيَّاح توافدوا على مدينة أغادير بمناسبة أعياد رأس السَّنة، يقول مذيع نشرة تلفزتنا الوطنية بكل فخر وبملء شدقيه: توافَدوا لأخذ حمَّامات شمس، ويضيف لا فُضَّ فوه: في أرضنا المعطاء بالخيرات.

في هذه اللحظة ذاتها، كانت الدار البيضاء والمحمدية والجديدة و ... و ... تسبح في حمامات غرقها، وانهيار البيوت على سُكَّانها، وغَرَق الأطفال، وتَلَف متاع العمر تحت طوفان أمطارها. وقلتُ أخيرًا وأنا أغرق: إذا لم تَستحِ فقُل ما شئت، فهذا هو حب الوطن على الطريقة المغربية.

٢٨ / ١٢ / ١٩٩٦م

صَعْقَة حب في «أكدال»

(١) كبير الأحبار

كانت نيتي هذا الأسبوع أن نضع يدًا في يد، وننشد طريق الضوء مفروشة بأنفاس تسبقنا، هي الهودج فوق راحلة نركبها تَقودُنا إلى أفق تَربَّعت على مُحيَّاه نجمة الأعالي، خفق منها الشعاع بلغة تقول: اتبعني وما ملكتُ إلا أن أتبعها، وهل لي خيار في هواها، قُربُها يضني وبُعْدها يفني، والطريق إليها كالملح على بشراتنا مدبوغ، ودَعْك من ذكرى البنفسج. كانت نِيَّتي، وما تزال، أن أحكي لكم عن تلك البلاد، عن الشَّرق رحلتُ إليه مرة فسكنتُ به أبدًا، وما كان الذهاب والإياب عبر السنين، بين مَضارب القوم وارتجاف الموج عند ضفاف تلك العيون، سوى سعي شغوف، كما يبدأ خطو النبوة، للقبض على جَذر الدم، والتماس بصَمات الأجداد في خريطة دَمِنا.

سيُؤَجِّلُني النسيان، قلتُ: إن لم أفعل، ويحشرني سريعًا في رفوفه العامرة، تَبرد جمرة الشوق وتَذبُل فتنة الشَّرق في أي كلام فاتر يَحكيه الأغنياء والمَجْلُوبون، المُباعون بثمن بخس أو بصفاقة الوجوه في مزاد سادة هَرِفِين، جَلَبوا قِردًا هَرِمًا من أقصى الأرض، وخلعوا عليه ما ظنوا لم يُنْتِن من جلودهم، وقام الأشمط فيهم خطيبًا مجلجلًا برعونة لم تُفارِقه من صباه: أجل هو قرد، ولكن سيعرف قَدْرَنا ويحاكي الأسياد وهذا هو المُراد. نراهن عليه، بالروح بالدم، أو يصير أمرُنا إلى زوال، في هذ الرَّبْع كنا وسنبقى إلى الأبد! وقال: لا تخافوا من افتضاح أمرنا؛ فقد جَنَّدنا السَّحَرة، والصَّغَرة، والأَرَضة، وطوَّقْنا البلاد طولًا وعرضًا ناشرين فيها العيون تَتقصَّى الأخبار، وتجمع إلينا الأنصار، وعلى رأسها واحد من كبار الأحبار. فما كان من القرد إلا أن نطَّ فرحًا، وحين انتهَت الخطبة عن آخِرها أمسك بذيل الخطيب الذي ضرب طبلًا معُلَّقًا بعنقه؛ إيذانًا بافتتاح طقوس الفرجة.

خِفْت أن تبرد جمرة الشَّوق أو تَذبل فتنة الشَّرق أو تهرب مني تلك البلاد، أشغف بأن أحكي عنها، وأُجَلِّي مفاتنها لأدفع قليلًا عن الأرض تقاطيع القُبح، وغُضون التَّشوُّه، وأسترجع مرهف الشِّعر، يُبدِّد رَديء الكلام وَعِيَّ الألسنة سأضرم لها النار لأحرقها بنفسي، سأضرم فيها حقدها وأراها وحْدَها تُشوى في أُتون دمها الفاسد، وعاليًا أصعد ذروة جسدي برفيف أجنحة خفقت بين قاسيون وصنين، كنت كلما مددتُ قطفتُ النجوم وصبَبْتُها في قدح الليل؛ ليسقيني الليلة وينير غدًا، كنتُ كلما تكاثَف عربي استعَرْت من فيْء الغابة وشاح الأخضر فيَعْشَوشِب الحلم ونحن في صَحو النهار. هي ذي بعض نُذُر الشرق: خرق العادة والنظرة في العين كما الأرض تميد، والوقت خِضاب جُرح في ساق الجنوب، المَغرب مُفرَد يتعدد والشرق جمع يتفرد، كل هذا حتى لا يُؤجِّلني النسيان أو ييبس في القلب رحيق الوردة.

(٢) نفق في دمنا

كل هذا ونحن نمضي في النفق، طريق الضوء لم يكن «إلا حلمًا في الكَرى» وسواء التفَتْنا إلى المدخل أو تَطلَّعْنا بأبصارنا أبعدَ فأبعد عَسانا نرى نهايات النفق، تَبدَّت لنا إسرائيل، وهي ترقص على رأسها قُبَّعات الحمام تارة، والصقور أخرى، ونحن بين هذا وتلك زَفَّة وذبيحة. بالأمس بيغن أو بيريز واليوم نتانياهو، وقبلهما في العد مفردًا وجميعًا، جملةً وتفصيلًا، مذبحة دير ياسين، وشَعْب الشَّتات، وعبارة حق فاجرة في قصيدة لمظفر النواب سُدَّت في وجهها جميع الحدود التي كانت عربية.

قال مذيع أبْلَه في نشرة أخبار تُبَثُّ عبر الأقمار الاصطناعية البدوية: «وقامتْ إسرائيل، في غفلة من الزمن، بحفر نفق تحت المسجد الأقصى ...» فنظرتُ إلى الساعة في مِعْصَمي وصُعِقْت لما رأيت: عَقرَبَا الساعة يشيران إلى نهاية القرن العشرين إلا ثلاث سنوات ونيِّف، وأنا وُلِدْت بعد سنة من أول مناسبة «رسمية» لضياع فلسطين، والحق أني لستُ متأكدًا من أن ذلك تم سنة ١٩٤٨م، كما يسجل التاريخ الرسمي، منذ أن استَبَحْنا صَبايانا سَبايَا وصارت الخيانة حليبَ الرضاع بدل أثداء أمهاتنا، نصف قرن تقريبًا يمر، هكذا، في غفلة من الزمن ولم نَنتَبِه أن إسرائيل التي ينفخ المذيع الأبْلَه شدقيه مفخمًا وهو يسميها «الدولة العبرية» — ولا شكَّ أنه يفعل ذلك نكايةً في الدولة العربية التي عبرت في سالف الدهر والأوان — هذه التي أصبح مُحرَّمًا أن ننعتها بالصهيونية؛ لم نَنتَبِه بعد نصف

قرن كيف أنها تُوغِل في دمنا مُتمدِّدة بين الشرايين والأوردة تدفع فيها القيح والصديد، تلوثه، تنسيه دمَه الذي كانت له أسماء قحطان وعدنان، ومحمدًا والعروبة والإباء والدين الحنيف وعهودًا ومواثيق بصمناها بدمنا دونها نار حرب توقد.

نتانياهو، هذا الذي تكال له الشتائم، في الساعات الأخيرة من صحو طارئ على أحلام يقظتهم أو سلامهم، جاء هكذا، ودون سابق إنذار، وعَرَب في آذانهم وَقْر، وعيونهم مختومة بالعمى من شِدَّة وهَج التطبيع، وقام بـ «عجرفته» و«غطرسته» و«استهتاره» بالدَّوْس على اتفاقيات الكلام أو السلام المُبْرَمة، ففتح باب النفق على مصراعيه، دون مراعاة للمقدَّسات، المشاعر، والـ «كذا» ... ياه، ابن الإيه، فعل فعلته «النكراء» هذه في غفلة ممن يسكنون في دار غفلون وَهُم عمَّا يجري في الكون لاهون!

إنما لا بأس؛ فشَمس فلسطين تُشرِق من جديد، فلسطين التي هِمْنا بها حبًّا، وقلنا: إن دورة الفصول لن تنتظم إلا بعودتها إلى أبنائها، ها هُم يستأنفون سبيل الحجارة، الجميع اليوم أطفال الحجارة، الدروع صدورهم والاستشهاد عندهم يقين، الرجال لا يبكون، لا يوقعون على صكوك الاستسلام، ولا يَطْوُون تاريخ الشهداء بمصافحة الرجال كما كانوا دومًا من أجل عروبتهم يستشهدون.

وأما نتانياهو، بعد هذا وذاك، فلا ينبغي أن «نظلمه» أكثر مَمَّا يستحق؛ فقد وصل إلى السلطة وتأمَّل مشهد الحكم العربي جيدًا، من الخليج إلى المحيط، فوجدَنا نتنازل ثم نتنازل، وندير الخد الأيسر لمن صفع خدَّنا الأيمن، فقام يصفعنا على القفا ويركلنا كالدواب. لا بيريز ولا نتانياهو مَن حفر النَّفق الشهير اليوم، كان محفورًا في دمنا فجاء وولغ فيه وهو ماضٍ في الوَلْغ، ونحن أين نمضي بهذا الدم استرخصناه؟ صار عارًا على جباهنا، أين؟

(٣) بهاء القتيل

قتلوه في المرة الأولى، وحين رأوا خَيْط ندًى تجَمَّع من دمع الأحبة فوق مثواه الأخير، حسدوه، فقالوا: سنقتله مرتين، ثلاثًا، وأبدًا إن اقتضى الأمر؛ لنبقى حيث نحن إلى أبد الآبدِين، نحن الذين لا نقبل الدُّخَلاء، البُعداء، الوافدين من كل فج عميق بَلْه من شِغاف حُزنهم أو حزبنا، لا لغيرنا. تَمَلْملت الصحراء، طَوت جرحًا على جرح وناحت كثبانها. تلك عادتُها كلما شَدَّت قوافل الرجال الرحيل إلى حُبِّهم، غاضَت الآبار، حرقَت شمس قيظها من شمس، يبرك الرجال في الهجير، عن بُعد يلمحون سحابة لا كالسراب، بل سحابة لما تفرغ بعد شحنتها الآتية، من برق ورعد، توقعوها فهي آتية.

وها هي ذي القوافل في قافلة تحط بنا في وهدة غائر من أرض نحن أرضها لا يستوي فيها كثبنا ونحن كثبها، حين أيقنوا، تَوهَّموا أنهم قَتلوا آخِر الأحياء فينا ... حينئذٍ لَحِقَت بنا ظلالنا، دمه من عطش الثأر لقتله ظمآن فينا، رغم أنا كِدنا ننسى طعنة الغدر، خسة الجبناء، وذلك الذي يلحق ما تَكلَّس من بعر فوق رمل عافَتْه بعراننا.

لن أُسمِّي القتيل؛ أَجَلُّ مِن أن يُسمَّى هو وأبهى، كذلك لن أُسمِّي القتلة، هم القتلة، يعرفون أسماء بعضهم، وفي آخِر ليلة سهروا فيها نبشوا قبره فلم يجدوا جثة كان أسفل منهم سبقًا لنهشها، بَقِيت منه عظام الجمجمة فسرقوا مِنِّي لحم الوجه وكسوها ثم تبادَلوا نَخْب قتله مرتين، وقفوا على قبره، بأُم العين عاينوا لحده والجثة منكفئة، فما صدقوا بَعْدها أن روحه عند الله تَمْرح في الملكوت، جَلَبوا قِرْدهم من أقصى الأرض، قالوا سترقص لنا الآن، كما ستفعل غدًا، فلن يزيل البهاء، لن يقتله هو وصاحبه إلا رقص القردة، ونحن معك لأنك مثلنا جميعًا في الحلبة.

(٤) حب في «أكدال»

يا امرأة ما أبهاك! لو علمت ألقاك لخرجتُ إليك من ألف عام، لسَددتُ جميع الطرقات التي لا تؤدي إليك، يا امرأة من «أكدال»، حين رأيتُك خرج القلب من الجوف وراح ينغنغ فوق رصيفك بضحك الأطفال، كأنه وحي يوحى إليَّ وأنا من عشاق سيدنا محمد خاتم الأنبياء.

عن أي شيء كنتُ أبحث هذا الصباح في حي «أكدال»، في رباط لم أرَ فيها فتحًا، ولا بانَ لي منها خِلٌّ أو صاحب بوفاء، غير وفاء؟ ربما عنكِ أنتِ التي لا تعلمين شغفي هذا الصباح بملاقاة قصيدة، أو بحب يَعْبُر منها إليَّ صبيب أمل في مسالك هذه الضفة المقفرة، هي قادمة وأنا آتٍ، سهم مرشوق إلى قلبي من عينيها وآخَر مني مُنفلِت نحو عرامة النهدين. كنت مهيئًا للحب هذا الصباح وعلى استعداد لأغادر الدنيا مقابل لفتة غنج.

أوقفنا المارَّة وبدلنا أحوال الطقس، تقابَلنا وجهًا لوجه، لا أعرفها، لا تعرفني، يا المرأة ما أبهاك! قلتُ لها، وأنا أسعد مَن على الأرض، الآن ... إذ ألقاك. وقفت، ضاعت، فاحت، غرد السنونو وحلَّق اليمام ورأيتُ العينين يمتلآن بنا، وغدوت، بقيت خلفي فاتنة تمسك فتنة هذا الذهول وأنا ماضٍ إليها بالبعد عنها ... لملاقاة القصيدة.

ديسمبر ١٩٩٦م

في الحاجة إلى الذاكرة

خذ مداك يا حمو عابد!

أعترف أني استمتعت بـ «حفريات في الذاكرة» لأستاذنا وصديقنا محمد عابد الجابري، هي سلسلة السرد السِّيرِيَّة التي اطَّلع عليها القراء منشورة بين صحيفتَي «الاتحاد الاشتراكي» البيضاوية، و«الشرق الأوسط» اللندنية، خلال الشهر المنصرم، (ديسمبر ١٩٩٦م) وعلى امتداد أربع عشرة حلقة، وتُغطِّي هذه السلسلة من عمر صاحبها، المراحل الممتدة من صباه، فطفولته اليافعة، ففتُوَّته وصولًا إلى مطلع عنفوان الشباب، وإن كانت الطفولة هي الفترة الأساس، الأشد خصوبة التي يتم تسليط الضوء عليها من زوايا مختلفة، وقد ألْفَى الأستاذ الجابري نفسه متنازعًا في سرد تلك «السِّيرة» بين بطولة الكائن، ولا نقول الذات، وبطولة المكان؛ أي مدينة فكيك، حيث وُلِد وترعرع ومنها انطلق إلى فضاءات أخرى، وإليها يعود اليوم كتابةً على قاعدة «ما الحب إلا للحبيب الأول».

في حفرياته يسعى «حمو عابد» إلى خلخلة أكثر من اقتناع ومُعطًى مُتوفِّرين عنه وعن إنتاجه، ومن هذه الخلخلة بممارستها بين فِعْلها بذاتها وتأويلنا نحن لها يمكن أن تظهر قيمة ونتائج، بل وعواقب فعله، إن كان جديدًا حقًّا.

وأول ما يسترعي الانتباه، هو أن صاحبنا الذي عرفناه إلى وقت قريب رجل فلسفة، مُربِّيًا ومفكرًا وباحثًا جامعيًّا، يحقق لنفسه بتدوين «حفريات في الذاكرة» نقلة نوعية في النشاط العقلي الذي عرف به، بانتقاله من البحث النظري الصارم، والخاضع حتمًا إلى المنهج والمفاهيم إلى المجال الذي تمتد فيه الكتابة وينهض فيه وضْعُ الكاتب، باعتبار الذات محورًا أساسًا في هذا الوضع، إنه افتراض نُجازِف به في بدايات عملية التَّلقِّي رغم أن المفكر قد ينظر إلينا من عَلٍ متعجِّبًا، منكِرًا علينا موقفنا: «هكذا إذن، بكل مؤلَّفاتي

ولم أكن كاتبًا، والآن فقط يمكن أن ...» والمسألة ليست تلاعبًا بالألفاظ، فهي في غاية الجدية، وإلا لما كان صاحب «العقل العربي» يُسمِّيني «أديبًا» ما ينكره على نفسه طبعًا، مُحتفظًا له، ضمنًا، بلقب المفكر أو يخاطبنا بتلقائية: أنتم الأدباء تحبون كذا، وتميلون إلى كيت!

نقول: إن الرجل في طَور تحقيق نقلة في نوعية ممارسته، مجازفين، ثانيًا، باعتبار موضوع الكتابة لديه ذاتًا لا موضوعًا رغم أنه يضع أمامه وأمامنا، وبوعي كامل، أكثر من عرقلة أو عائق؛ ليبعد عنه ما يكاد يصل إلى مرتبة «الشُّبهة»، فهو يعلن في الديباجة، أو الميتا-خطاب السابق على متن الحفر، وبوضوح لا مزيد عليه بأن صنيعه بعيد، مُنْبَت الصلة بالخلق والابتكار؛ أي إنه واقعي جدًّا، الواقع عينه، وليس فيه مجال، طبعًا، للاستيهامات والخيال؛ أي إن هذه السيرة يا أولي الألباب ليست من الأدب في شيء ما دام الأدب يشتغل بالخلق — أي ليس بالواقع وحده — والتَّخيُّل شغل مُعاقِره الشاغل، ثم إننا نراه، في كل خطوة يخطوها في درب طفولته، وفُتوَّته، شديد الحذر والتدقيق في كل ما يروي، مُستظهرًا التفاصيل من معينها، مُتجنِّبًا أو محاولًا ألَّا يسبغ عليها أي طلاء ليبعد عنه شبهة الخلق والابتكار؛ أي ما لا يجوز علوقه بالمفكر. وما بالك بعد هذا، وهو يضع على مشرحة الوعي والفحص كل ما يمر به؟ أي إنه في اللحظة التي يدرك فيها بأنه يوشك أن يلعب لعبة الأدباء — في مستوى النية على الأقل، أما الأسلوب وزاوية المُقارَبة، فذاك شأن آخر — بل يفعل أحيانًا، حين يسرد ذاته أو كيانه وهو يقوم بتعريتهما — علما بأن الذات منبوذة، وفعل الرواية هنا موضوعي لأن الحفر يتم في الذاكرة وليس في الذات — فإنك سرعان ما تراه متعجلًا لإفساد «اللعبة»، عامدًا إلى الوعي بكل شيء: بشرحه، مفهمته، تبريره، تسويغه بعقلنته، وكأنه يريد أن يُذكِّرنا بأن سارد السيرة مُفكِّر، يبحث عن المنطق ويُركِّب البنية في كل شيء وليس كاتبًا أو أديبًا مُعرَّضًا للغواية والتحليق بأجنحة الخيال والوقوع عُرْضة لنزوات الذات؛ لقد تم نفي الذات منذ أول عبارة في مشروع «الحفريات» في «آخر» هو «صاحبنا»، ليس ذلك، كما يفعل بعض كتاب السيرة الذاتية، لاكتساب قَدْر أكبر من الحرية في عَرْض أنا حياتهم، ولكن لأن المشروع قائم من أساسه على إعادة بناء موضوع لا بُدَّ سَيكتَمِل في أجزاء لاحقة، وما الأنا إلا مرآة من مراياه وسَنَد لوجوده وتَكوُّنه.

سيقول الدكتور محمد عابد الجابري: أنتَ تريد ما يريده الأدباء، وهذا شأنكم، وأضيف يا صديقنا العزيز: هذا ما أريد، وأكثر، وإلا لماذا ألقيت بنفسك في «تهلكة»

كتابة السيرة، سيرتك، والتي لا يستقيم أمرها خارج ما هو ذات، مهما أصررتَ، وتعدَّدَت التأويلات والتصنيفات؟! ونحن مَعْشر الأدباء إن سَمَح لنا بذلك من لا يقرءون النصوص الأدبية، أو لا يَعتدُّون بجدواها، نرى — لا نزعم أننا وحْدَنا من يرى، ولنا الحق الكامل في الزَّعْم المطلق بهذا الشأن — أن كل مَن ركب هذا البحر عليه ألَّا يدعي بأي وجه، مَخافة الغرق فيه، ما دام قد ألقى بنفسه في يَمِّه وهو في ذروة العقلانية؛ أي ما هو نقيض الهوى، والنزوة، والنزعة الذاتية بعد هذا وذاك، وأيًّا كانت النوايا والخطاطات والتصورات التي ينهض عليها مشروع «الحفريات» فإني أعتبره سيرة ذاتية لصاحبه، وليس هنا مقام استحضار المرجعيات ولا المقاييس الخاصة، التجنيسية لهذا النوع الأدبي، كما أن من يجترحه غير مطالَب بمعرفتها سلفًا بحكم أن كل كتابة مُنظَّمة وواعية بمسارها في هذا المضمار تصبح بدورها مُجنَّسة.

من هذا الفهم بدا لي أن «أناوش» سيرة أستاذنا محمد عابد الجابري — علمًا بأن «حفريات في الذاكرة» هي عنوان لا نوع — بإثارة بعض الملاحَظات الإضافية: في مطلعها أن كل ما يُسْتَرْجع باللغة، بالكلام، لا يمكن أن يكون هو الواقع نفسه، وأيًّا كانت النظريات الفلسفية التي عالجَت موضوع الذاكرة أو بَرهنَت على قُدْرة التثبت من الذكريات، المرئيات والمسموعات، فإنَّ ما ينبغي عدم إغفاله أبدًا هو أن هناك أنا آخر — وليس الأنا الآخر — هو من يستعيد أناه البعيد ويُعيد تأسَيسه بواسطة الكلام، الذي مِن خصائصه أنه ليس بريئًا، وقد وَدِدت أن أرى في هذه السيرة، بالدَّرَجة الأولى، ما يُسجِّل لحظات المفارَقة والاستثناء في حياة الأنسان لا ما هو بَدَهي ومن جنس المألوف، المبذول، وهو مُتوفِّر عند صاحبنا ربما لنُشدانه الكمال في كل شيء، والحق أنه يزعجني أن أقرأ السيرة الفاضلة، كما لو أنني أقرأ حياة الملائكة، وسيرة «حمو عابد»، كما كُتِبَت في شطرها الأول الحالي، لا تشوبها شائبة، وتصلح أن تكون قدوة للأجيال وتربية النشء، ولن ينتقص من فضيلتها المطلقة سرقة طفل، هو تلميذ مُتعطِّش للمعرفة، لبضع دريهمات ستنغص عليه حياته إلى أن يجد لها في الكبر فتوى المنفعة العامة، لا يُناقض هذه السيرة في مثلها ومسلكيتها، إلا حياة محمد شكري في «الخبز الحافي» وهي سيرة ذاتية أدبية خالصة، على أن انزعاجي يُخفِّف منه أن الإنسان، في النهاية، ابن بيئته، بين ماضيه وحاضره، وسليل تربيته، ومُخْلِص لثقافته وقيمه وقد عكس الجابري صورة هذا الإخلاص، بفهمه الذاتي والواعي له، على أحسن وجه في حفرياته.

والحق أن أجمل إخلاص وأعظمه هو ما محضه «صاحبنا» لمدينته فكيك، لمرابع الصبا بين «القصور» والواحات وبين أغصان الشجرة الزناكية الفيحاء: هنا الحب كله،

والمفكر الذي يَزِن مثقال ذرة، يكاد يَتحوَّل إلى رسام تشكيلي وينطق بروح شاعر، والحنين، كما لا يخفى على الشعراء الأصلاء، مَعِين للشعر لا ينضب. وأحسب أنه لولا الصرامة التي يفرضها الرجل على نفسه في كل شيء، لجاءت فكيك على يديه أبهى ممَّا هي عليه وأقرب منالًا، لا، بل لقد دَنَت منا وهي القصية، وأصبحت من الآن مركزًا هي الموجودة في «الهامش» في ذلك المغرب المسمى «غير النافع»، و«حفريات ...» قصاص من التهميش، وتمجيد لماضٍ عريق يغمز بطرف العين إلى حاضر مدقع، هو تمجيد أيضًا لروح المكان، بلمسات صوفية حينًا وروائية حينًا آخر، رغم عقلانية وتقريرية هُما دومًا بالمرصاد لأي انزياح يثبت الذات مركزًا والموضوع محيطًا، وهو ما يدعوني لمخاطبة ابن فكيك الأصيل قائلًا: آه لو أخذتَ مداك، فخُذ مداك في الأجزاء القادمة التي نطالب بها يا «حمو عابد». أجزاء لا بُدَّ أن تَمس تاريخنا الحاضر، وفصوله المجهولة، فلا معنى ولا وجود للماضي، إلا وقد انتظم في عقد السيرورة. وهذا ضروري لنسلم معك بأن مدينتك هي مدينتنا جميعًا، المكان القصي في الجغرافيا، المكان الذي أصبح اليوم ملء الحضور، وكان مَقصيًّا في الذاكرة، فمرحبًا بعودة الذاكرة.

الذين يعرفون محمد عابد الجابري إنسانًا ومفكِّرًا، رغم لغط اللاغطين وخُبث المشكِّكِين، يعون بأن الرجل لا يكتب على الهوى، وما هو بصدده اليوم، شأنه في كل ما انخرط فيه، مشروع له استراتيجية مرسومة وحافز من ورائه يمكن أن نَختَلِف على تَسمياته، وأَجدُني مدفوعًا إلى تسميته بالدعوة إلى إعادة الاعتبار للذاكرة، الذاكرة كخزَّان لتاريخنا، وجذورنا، وثقافتنا والتضاريس المختلفة التي تنهض عليها تُربتنا الحالية وفوقها نُوجد نحن، نعرف ولا نعرف، أن تاريخنا يتمزق، إربًا إربًا، ما أكثر حلقاته المكسورة، صفحاته المطوية والمجهولة، لياليه ونهاراته مدلهمة سواء بسواء، ما نعرفه عن ماضينا يَطويه النسيان، أما تاريخنا الحديث فدُونه ألفُ حجاب، والمُطَّلعون على وقائعه ورجالاته يزدادون ندرة يومًا بعد يوم، ومع رحيلهم لا نخسر تاريخنا وحده، بل أنفسنا كذلك فيما نحسب أننا أحياء، فأي حياة لشعب بلا ذاكرة؟ والذين ينحون باللائمة على الشباب المتقاعسين عن التسجيل في تلك اللوائح الانتخابية، أو يَستحِثُّونهم مُستنهِضين فيهم الهِمَم والشيم، ماذا لو عمدوا قبل ذلك إلى تنظيم حملة وطنية مثل تلك الحملة التلقائية الموجودة دائمًا بمصر موضوعها وغايتها: اعرف وطنك وقوميتك وتاريخ بلادك إلى نهاية الأبجدية؟

١١/ ١/ ١٩٩٧م

أصدقاء الفجر

(١) نعاسها سكر

شيئًا فشيئًا أحس أني أبْتَرِد. نَسجت هذه العبارة وأنا لا نائم ولا يقظان، ولست بين الحالتين بأي حال، لا أحب العبث بالكلمات، وقلَّ أن أسعى إليها إذا لم تكن هي الغازية بمفردها في حياتي تَهجم بلا استئذان، وبلا تَلطُّف أو وَقار، تقتحم متى شاءت لتجلس حيث تشاء، لا تبالي بالوقت ليلًا أو نهارًا، بالزُّوَّار سبقوها إليَّ، بمفردات العيش اليومية، بكل ما يعمر الروح من حزن أو يُؤَثِّث الفضاء من عوارض الزمن، قدُومها تُعلِنه الروح والزَّمن يعليهما فوق كل شأوٍ، وأنا أنظر إليها كيف تَتملَّكني، لا أحار أمامها صنيعًا.

شيئًا فشيئًا ابْتردْتُ، ليست الكلمات ما يهجم الآن، إنه حضور يتكاثف في انعدامه إلى حد شراسة الغياب، وقسوة ما يَعز استحضاره، ما لا يمكن بتاتًا إلا بمستحيل أن نجدد البدء من نطفة الميلاد، لكن من أي رحم ونحو أي مَسار فمزار؟! أهو اغترابي في الصَّمت أو ما يشبه رفض اللغط ما يجعل هذا الإحساس يعتريني، أم إن قعودي في المكان الواحد، والخلاء إلا من قفره، يكاد يُجمِّد أعضائي، أم حذار أن تكون تلك «النوستالجيا» المَقيتة إيذانًا بأفول أعتى في وضع نتعجرف أو يتعجرفون فيه شامخين، أفلين في أفوله، في زوال ينزل قطرة قطرة ولن تُسْمَع منه إلا القطرة الأخيرة، وحينئذٍ، أووف … لا مناص؟

لكن، ماذا لو كان الأمر قد تحقَّق فِعلًا، أي أمر؟ ستسألني أوه، أجيبك، إنه ذلك الشيء المفضوح، لو سميته لافتضح بدوره، واسْترخصت قيمته، مثلنا، مثلنا جميعًا تقريبًا، يطفو معنا منذ الصباح، يُحلِّق فوق رءوسنا في الظهيرة، ترانا نُهَدْهِده في العشي أو يراوغنا كأنه انفلتَ أو انفلتنا منه في المساء، فيما هو قابع حيث نعرف ولا نعرف، ونحن نتخالس بالنظرات كأنَّنا في حياء أو عاشِقَين سيذوبان إنْ نظرَا وما نحن إلا نلوذ بفرار لا نعلم

إلى أين، حتى إذا لم يكن من الهجوع بُد، واستوى النهار والليل فوق الجنون في لحظة مَديدة، صَحْوُها ناعم، ونُعاسها سُكر، تقول هي الأبدية، جاء هو وحَطَّ بأثقاله وطفق يعمل، الأطراف فيك تَتنمَّل ثم ما تلبثُ أن تنسلخ منك واحدة واحدة. لقد ابتردت يا هذا وكل ما في العالم من دفء لا يُدفئ، يَتدلَّى إليك من السَّقف حبل الذكريات لِيُنجِدَك فلا يُنْجِد، سرعان ما يتكثف الحاضر ليمسي سريعًا ذكرى تنضاف إلى سابقاتٍ لها، والوقت يَتمطَّط وهو يَهْرِس الكائنات والأشياء والأخيلة، أيضًا، في طريقه وحركته الصماء. لا قياس له ولا يشبه إلا حاله بعد الآن، لا يهتم بِصَمْته، فهو مُتكلِّم فيك اللحظة التي غشاك فيها وإلى عَجْزك عن أن تغشاه، بالفعل والخيال معًا، الخيال يَتبدَّد في حضوره، والحلم يُخلِّي له السبيل، بل يتفسخ مِزقًا، متقطعَ الحلقات، حادَّ الملمس لو حاولت، هي السماء، أيضًا، تُطْبِق عليك بعد أن احتوى جميع نجومها في عينيه وقد بايعته الأحلام في قنوت، وأردت أن تفوه بكلمة قبل أن يسقط الاسم العلم، قبل رحيل آخِر حلم، وإنك ترتد.

(٢) أولاد المحو

هؤلاء من طينة أخرى، أو هكذا يُخيَّل إليهم، تراهم يتصرفون بطريقة تجعل أمرهم لا يفتضح، بينما هو مفضوح جهارًا في الكيفية الملتبسة التي يَسعَون بها لحمل أسماء غير ما هو مقيد لهم في سِجل الحالة المدنية، يُؤرِّقهم وضع الاسم الغُفْل؛ ولذلك تَتأكَّلهم ضغينة كسر الاسم العلم، أو على الأقل تَبديد الأشياء وتسويتها ببعضها ليتيسر لهم عندئذٍ، ودون معرفة بـ «فن العوم» السباحة في التيار.

حين كانوا صغارًا؛ أي أولادًا في المدارس، طلب منهم المُعلِّم أن يحضروا مِقْلَمة بلوازمها، لم يتعرفوا على الألوان في الطبيعة، ولكن في أقلامهم الملونة وحين سماها لهم معلمهم: انظروا، هذا هو الأحمر، هذا هو الأخضر، الأصفر ... إلخ، فرحوا وابتهجوا، وعادوا إلى ذويهم لاغطين: نحن كبرنا، نحن نعرف الأحمر والأصفر. بعد يوم أو أسبوع أو شهر علمهم كيف يمسحون اللوح والسبورة بالممسحة، ثم كيف يستخدمون المحاة لمحو أخطاء كتابتهم ووضع الصحيح محلها. وعندئذٍ عادوا إلى ذويهم أشد غبطة وأكثر لغطًا: بابا، ماما، نحن نستطيع أن نمسح ونمحو كل شيء، كل من ... وكادُوا يواصلون لولا انتباههم إلى قاماتهم التي وجدوها كبتت رغبةً ظَلَّت مُضْمَرة في الليل، طيلةَ الليلة وهم يحلمون بتنفيذها، وكلٌّ منهم يتخيل طريقة لتنفيذها. نادى المعلم على أغلبهم تباعًا للكتابة على السبورة ومحوها مباشرة، أكثرهم شيطنة كتب الجملة التالية: أنا مِمْسَحة،

أنا مِمْحاة، فاقتربَ منه المعلم مندهشًا، لكن الولد الأرعن لم يَتهيَّب الموقف، بل أَمْسك، على ضالَّته، بِسُترة الرجل وهو يصرخ مُتنطِّعًا: سأمسحك، سنمسحك، وانظر إذا لم تُصدِّق، وتراءت له يده وهي تمسح، تمحو في الفراغ، في صباح اليوم التالي، حين أيقظَتْه أمُّه للذهاب إلى المدرسة وجدَتْه يهذي: صافي، لقد مسحتُهم، مَحَوتُهم كلهم؛ المعلم، التلاميذ، الكراسي، المدرسة، الحارس، والمدير أيضًا، ولم يبقَ إلا أنا، إنما يا أمي ذكرتني: مَن أنا، ما اسمي؟ فما كان من أمه إلا أن هرعت مفزوعة إلى المطبخ وجلبت مِجمرًا ألقَتْ فيه بحبيبات من الشَّبَّة والحرمل، وطافَت به على المكان تُبخِّره لتطرد العفريت الذي لا بُدَّ هو من يوسوس له بهذا الكلام الأخرق!

في زمن آخر، ووضع مختلف، كبر الأولاد وصاروا غير ما كانوا عليه، وإن احتفظ بعضهم برغبة ظلَّت دفينةً في أنفسهم مُتحَيِّنين الفرصة للتنفيس عنها؛ لم يقتنعوا بأسمائهم القديمة فأرادوا أن يكتسبوا وبأقصى سرعة أسماءً تليقُ على الأقل بكِبَر أعمارهم وضخامة أجسامهم. وكلٌّ في موقعه، تذكروا حكاية المسحة والمحاة، حكايتهم، وهَمُّهم الذي لم يفارقهم، فَقرَّ قرارهم على أن يشهروه في وجه جميع من يقابلهم ومن لا يقابلهم، أيضًا. ورغم أن كل شيء مباح في زمنهم فقد شَكَّلوا جمعية سرية، متعاضدة، من انضم إليها فاز بطِيب الذِّكْر وحُسن الثواب، ومن «ضل» السبيل إليها فهو في ضلال، وتُنَفَّذُ في حقه كلمة السر المكونة من ثلاثة أحرف: ميم، حاء، واو. والحق أني لم أكن على بَيِّنة من هذا الأمر، ولم أعلم به إلا صدفة حين نبَّهَني إليه أستاذ ورجل فاضل. عِلْمه غزير وتواضُعه وفير، وقد دفعتني حِرفته وتحيره إلى الاستفسار في هذا الشأن العجيب، فهالني، حقًّا، أن أمره استشرى أكثر مما قَدَّرت حين قادني استقصائي إلى اكتشاف أن المَحَّائِين شرَعوا يمحون بعضهم البعض بعد أن صُعِقوا بأن أجسامهم، مَهْما تكوَّرَت أو تَحَرْبَنَت، ظلَّت مستوية بالتراب، لا تطول مَن وُهِبُوا بالطبيعة أجسادًا طبيعية تعلو بقامات هي أسماؤهم لا يبغون عنها بديلًا، هم بها نار على علم حتى لو حاول المَحَّاءُون حَجْبها بسدَف الظلام. أظن أني بعد وقت وجيز، عدتُ إلى صاحبي فألفيتُه على فضيلته يزداد بها كمالًا، ناظرًا إلى «الزوش» اللاغط حولها بتعجُّب الحكيم (وعدَا ما يصدره الزوش من وزوزة مستمرة يحسب أنه يملأ بها الفضاء وهي بلا طائل، فإن من معانيه في اللغة العبد اللئيم، فتعجب). أظن أني خاطبته كالمعاتِب: ألا ترى يا شيخنا أنك نسيتَ عنصرًا بدونه لا تبلغ الحكاية ذروتها؟ قال بتواضع العارف: فما هو يا تُرى؟ أجبتُ: هو أن عُمْر المحاة قصير، كما تعلم، فبقدر ما تمحو تَتآكلُ، تَزول ... وهي إلى زوال.

(٣) أولاد الصبر

ولم أكن أعلم أن صاحبي من الباعة الطيبين في ذلك السوق الذي أرتاد، يَتكتَّمون على ألف سؤال وشكوى، كما لم أفطن لغروري أو لامبالاتي، ولا شك بأن الجزَّار والحوَّات، والخَضَّار، وبائعة الدجاج جميعهم يقتنون الجريدة كل صباح، ويَدسُّون أنفهم في قراءة التفاصيل هنا وهناك. وفي كل مرة تعاملت معهم وجدتُ من يلفت نظري إلى قضية أو أثار استفسارًا، وعليَّ، أنا صاحب هذه المقالة، أن أُدوِّنه وأرد عليه كأني الوحيد المُبتَلى بالفهم، لكن الذي فهمته حقًّا مع المعاشرة أنهم يختلفون تمامًا عن فصيلة المماحي؛ إذ هَمُّهم الإعراب عن تقديرهم وامتنانهم لمن يستحق منهم ذلك. إن غِبْت عنهم اشتاقوا إليك، وإذا عُدْت عانقوك بعد عتاب رقيق، بلغة لا يعرفها إلا أبناء الشعب الذين تَربَّوا على الفطرة، وحنَّكَتْهم تجربة الكدح ومعرفة الناس بلا مناورة أو ارتياب أو كيد مكنون. أبناء عمي هؤلاء ليسوا سُذَّجًا بأي حال، وفطنتهم حاضرة في كل حين مع بديهتهم الخاصَّة رغم تلك التعابير المهندسة، المزركشة، التي يحملها الحضريون في وجوههم وهم ينظرون إليهم ليعاملوهم، أحيانًا، كالعبيد أو أولاد السخرة، ودعك من الحضَرِيَّات المحزوزات، اللواتي يَخَفْن على أنفسهن في كل ثانية مِن مَخاطر الكولسترول ولا يعنيهن في شيء أن تغرق البلاد في مليون طوفان.

والحاصل أن هؤلاء الذين أعرف ينظرون وقلَّ أن تسمع الواحد منهم يجأر بالشكوى، ومنهم صاحبي بائع السمك، وهو على قدر عالٍ من اللياقة والتهذيب، فاجأني في أول يوم من رمضان بطلب لم أتوقَّعه في صبيحة رأيتُ فيها البشر على أشد ما يكون من الفتنة واختلاط الحابل بالنابل، وما ذلك إلا لأن شهر الصيام فاجأهم، على ما يقولون، فهجموا — أصحاب القدرة على الهجوم، طبعًا — على المَحالِّ التجارية، والخضَّارين والجزَّارين و ... و ... وكأن حالة طوارئ ستُعْلَن بعد قليل. فاجأني الرجل حين طلب مني أن أتحدث عن وضع هؤلاء وأُقارِن بينه وبين مَن في وضعه هو وأمثاله من العاملِين، الصَّامدِين، الصابرين، الذين هم من أصدقاء الفجر ولا يقومون لصلاته في المناسبات ادِّعاءً وتفاخرًا. قال، اكْتُب عن الذين يتعَبَّدون دائمًا بصَمْت وفضيلة، ويُخْلِصون في عبادتهم وإيمانهم خارج ما سماه لي بذكاء بـ «الدورات الشرفية»، واكتب عنَّا نحن الذين نؤمن بأن الرحمة لا تسكن قلوب الظالمين، والمُستغلِّين والنَّهَّابين والفاسقين، حتى ولو صَلَّوا ألف ركعة في اليوم، أو تَصدَّقوا على مَن يحتقرونهم بكل ما مَلَكت أيديهم ... في هذا الشهر المبارك. ألا ترى أن استيقاظنا والناس نيام، وكَدْحَنا، وصَبْرَنا، بل وصَبْر كل الذين لا يَجِدُون

اللقمة إلا بأعسرِ وسيلةٍ عِبادةٌ؟ واسترسل يتحدث ويسرد، ولم أَتَبيَّن إلا بعدَ فوات الأوان أن المتحدث صار جمعًا، فجموعًا ينبغي أن نخجل أمامها حين نستعمل الكلمات الكبيرة، وننتج تلك الخطابات الفضفاضة متناسين الوقائع الصغيرة، والمناطق المدمدمة حتى وهي صامتة، خفية؛ لأن رجالها يخرجون إلى الحياة يوميًّا مع الفجر.

٢٥/ ١/ ١٩٩٧م

آخر نداء في سان جرمان

رنَّ الهاتف بصورة غير متوقَّعة تمامًا، صدَر الرنين في البداية رتيبًا، مُنتظمًا، فمتواترًا، فلم أُعِره أي انتباه، كنت مقتنعًا أنه لا يعنيني، أنه يرن في غرفة أخرى، في شقة غير هذه التي تَلطَّف ميشيل فأعارنيها لأنزل فيها بضعة أيام، هنا في الدائرة الباريسية الخامسة بدل تلك الأخرى، المهجورة اليوم في «نويي سورسين» عند الضفة الشمالية من نهر السين. قال إنه ذاهب لقضاء عطلة الشتاء في التزلج على الجليد، وفي شقته التي لا يعرف أحد أني سأنزل بها سأرتاح، وسيتوَفَّر لي الوقت الكافي لتأمُّل بعض ما فات، وإنجاز حساب ولو سريعًا للربح والخسارة عن تبعات قرار الجمع بين ضفتين أو التراوح بينهما، وربما، قبل إدراك فداحة العواقب، بخسارتهما معًا فيما يشبه لعبة بوكر يمارسها مقامِر محترف يراهن دفعة واحدة على كل شيء أو لا شيء.

صار الرنين مِلحاحًا ويدي كالمشلولة مُتهيِّبة رَفْعَ السماعة ما دام يقيني أن الأمر لا يعنيني، وإذا كان الأمر يخص واحدة من صُوَيحِبات مشيل فلا يعنيني أن أرد عليها لأُسَرِّي عنها أو تستدرجني لمعرفة مكانه الآن تحديدًا، هو الذي اختار مثلي أن يَخْتَلي بنفسه لبعض الوقت، أو تَوهَّم، في هامش من الغياب.

فكَّرت فجأة أن بإمكاني ألَّا أُوجد بتاتًا، أني انعدمتُ بمجرد إدارة مفتاح الباب بإحكام من الداخل، وعندي ما يكفي من المَئُونة لأسمح للدم بأن يجري في عروقي وللقلب أن يصدر دقاته على هواه، لا، بل قلتُ إني فعلًا غير موجود، كما هو الشأن هناك، هنا تحت شمالي هذا حين انحدرتُ إلى الجنوب لا طلبًا للشمس، وإنما لإنسان الجذور، إنسان الوطن الذي افتقدته وحسبتُ وأنا أرتمي في أحضانه بلهفة حارقة أني واجده، فيما كان هو قد فارق ذاته أو فارقَتْه وراحت تتدحرج في التلف. هنا ألفيتُ صورتي، قامتي،

تتخايل أمامي. أراها تستيقظ في الصباح وتقصد المرآة تَوًّا لتتأكد أن نصفها لم يُشْطر منها في النوم إثر انقضاض كابوسٍ ما أنا موقن أني أعيشه، ولا أريد أن أعترف به أكثر من حلم عابر في الكرى. ثم تذهب القامة إلى غابة هرمة أدْمَنَتْها لتهرول بعناد لإنهاك الجسد والتَّصدِّي، عبثًا ربما، لزمن اسمه اللاشيء، بعدها تَئُوب فتفطر، وتَحْلِق، وتَستَحِم، وتنصرف إلى أعمالها المنظَّمة أو الطارئة برنينٍ في أذنٍ أن هذا كله لن يُجْدِي في شيء؛ لأن الزمن هنا، وقد يكون في مواقع أخرى، شاردًا في لا مكان. أما التنقل عبر شوارع مأهولة بالسأم والظلال المنحسرة، والجلوس في مقاهٍ يتناسل فيها الخمول والتأفُّف، ثم اقتناء باقة ورد لحبيبة مُحتمَلة قد تَترامَقان في مُنعطف خلسة من العيون المفترسة والنظرات الحاقدة، وأنت تهديها باقتها هامسًا لها بأنك تنتظر هذه اللحظة منذ وصلت، والحياة لأجل هذا تستحق أن تُعاش، والآن اذهبي، فالحزن على فراقك سَيهْمِي عليَّ أبدًا حيثما حَللتُ ... هذا كله، أَهْوَل منه وأرَقُّ لن يزيد البَدد إلا بَددًا، والروح وقد عَنْكَبَت فيها، الْتَوَتْ بها شجرة أنساب الذِّكرى كالتِّنِّين، لم تَعُد تنفع مأوًى لها، ملاذًا لهذا الرميم الذي يمشي على قدمين أمام العيون المفترسة وهو رميم؛ ولذا فأنت موجود فقط من حيث الشعور المُكْرَه غَصبًا بأنك موجود والكلمات، إذ تعاند في الإصرار على حضور الوعي، تمارس ضِدَّك خيانة قُصوى لتأجيل إشهار كل هذا العدم.

لا مناصَ من حَمْل السماعة أخيرًا، فالشخص الذي في وجهة أخرى لا أعرفها صامد في الخط إلى أن يلتقط صوتًا أو صوتي: ألو، ألو، مَن في الخط أنا ... هذا بيت مشيل لانغلوا، لكنه غير موجود، ولا أظن أنه ... لا يهم، فأنا لا أريده، بل ولا أعرفه وأطلب آخَر، أقصد ... لا أفهم وما دام غير موجود، فإني لا أستطيع أن أفعل شيئًا من أَجْلِك ... بلى، بلى ... لا أعتقد، وبإمكانك إن شئتَ أن تترك اسمك ورقم هاتفك أو رسالة ما إليه، وأَعِدُك بأني سأنقل إليه هذا كله حين عودته ... إنك تفهمني خطأ؛ إذ لا معرفة لي بهذا الذي اسمه، اسمه. السيد لانغلوا ... كما ذكرت، أريدُك أنت بالضبط.

تريدني أنا؟ أجبتُه مُستفهِمًا، شبه مُستنكِر، وقد احتبس ريقي في حلقي.

– أجزم أنك قلق وخائف، ولكنكَ أنتَ مَن أقصد.

– اعلم أولًا، أني لستُ خائفًا، ثم إني لا أعرف أحدًا في هذه المدينة، أقصد أني لم أعد أعرف.

– هكذا إذن، بهذه البساطة تنسى أصدقاءك!

– هذا لا يعنيك في شيء، وستجدني مُضطرًّا ...

– إذا أغلقت الخط فَستَنْدَم؛ لأنك ستبحث عني، ستستوحش كثيرًا وتَقلِب الدنيا؛ بحثًا عني، وعندئذٍ لن تجدني، ويا لندمك حين لا ...

أخذتُ أفكر في البداية، هل أعرف هذا الصوت. وقفزتُ بعدها إلى السؤال الذي أفزعني: يبدو الشخص واثقًا من معرفته بي رغم أنه لم يَفُه باسمي، وعدَا مشيل فلا أحد يعلم بوجودي هنا، فكيف علم هذا الموجود في الجهة الأخرى من الخط. وفضلًا عن هذا وذاك، فإن أيَّ لقاء لي غير وارد مع أيٍّ كان؛ إذ رغم انتقالي المباغت إلى هذا المكان، فإن مساري متواصل في سلسلة من طقوس الغياب والعدم. ليس هذا اختياري، وبعيدًا عن كل نزعة قَدَرِيَّة فمَن منا يختار بكامل اختياره أو بيقين أنه اختار حقًّا ما ينبغي له. هذه فلسفة لا تساوي ريالًا واحدًا في زمن الجنوب المهلهل. فهل صعدت إلى الشمال في هذه النهايات الينايرية؛ لأختبرَها وأفحص جدوى أسئلة مُبهَمة أجدني عاجزًا عن صياغتها بأي أسلوب كان، فجأة ظهرت لي صورته، قُلْ: برَقَت أمامي واختفَتْ قبل أن أقبض على مَلْمَح واحد منها لتظهر لي بعدها الرؤيا شاسعة في تضاريس التباسها وارتجاجي بين الشوارع والأزِقَّة والأنفاق والجسور التي تبادلت وإياها علامات المرور والعبور كأني ألاحق شبحًا أو الشبح يلاحقني. تذكرتني، استعدتني قبل يومين من عودته إلى باريس، مربط خيلنا القديم، وقد عَوَّلت على التصالح مع مدينة أكَلَت نصف روحي واقْتاتَ منها النصف الآخر ضمن شروط أقلها ألَّا أُسائلها، لا أنبش في مضاجعها، لا أقترب من دمع، من جمر ولا من نقوش محفورة على الأشجار فيها. من بين الأسماء اسمه، وأقسمتُ ألَّا أدفع قدمي في أرض إلا وستقتفيان خطوات له مرَّت في شارع المونبرناس، من شارع كلبير، من ساحة فكتور هوغو؛ مثل النزول إلى نفق المترو للخروج بعد تبديلات عديدة من نفق مترو بليزانس أو برونسيون، ومن ثَمَّ للنُّزول أو الصعود رأسًا نحو مقهى La Baraque، عند خالي يدر، حيث التَّجمُّع لقبايلي، وهات يا أنخاب يشتعل معها الرأس حكيًا، وكسكس تيزي وزو الفوَّار لنا مسك الختام، قبل أن يعود للدخول في نفقه الخاص به قُبَيل منتصف الليل، وقد دخل فيه وقال لنا بالإشارة إنه لن يخرج منه بعد الآن، فما عاد له في الخارج ما يُغرِيه، وقد سكن الضفتين دهورًا وليس أدفأ من خيمة الصحراء دثارًا؛ فاتركوني أتدثر، وإنْ سامَحتْهم الصحراء على اضطراري للرحيل فسأسامحهم وإلا ...

وتباعد الصوت والخطو قليلًا. خِفْتُ أن ينقطع، وتذكرتني أعدو في شوارع مهجورة، وأخرى مُحتشِدة بوجوده لم أعرفها أبدًا. قبل يومين فقط، توزَّع جسدي على خريطة

المدينة، في العام الفلاني سقطت مِنِّي قطعة هنا. في عام كذا بُتِر مني عضو هنا، في ذلك العام أشعلنا ساحة حرائق وأعارت النجوم ضوءها للورد، في الأعوام التالية، توالى البتر. ولما تبدَّد منا اللحم والعظم فتحنا رءوسنا لنطوح بها كي تلحق بذلك المغربي الذي طوحت بجثته في نهر السين يدٌ عابثة، فاجرة، هي اليد نفسها التي زحزحتني في كُرسِيِّ وأنا جالس قُبالة ذكرى القتل الفائت، المغربي لم يعش أبدًا إلا في غربة حياته ولم يترك لأحد فرصة العيش في مَنْفى وطنه ... جالس قُبالة وجهي المندهش بالنظر إلى صَلَف عنادي لمواصلة المجيء إلى هنا رغم كل الذي حدَث هنا. فقلتُ له إنه لا مناصَ لي من العيش في المرارة، ثم إني وعدتُه سِرًّا وجهرًا بأنه لن يبحر في النفق وحده، وأنَّني/أننا سنقتفي أثره إلى أن نبلغ سويًّا النَّبع أو عين الدمع، أو ستظل هذه المدينة المدبوغة على أطرافي المبتورة فيها خلاء ما خلا منها وجهه المتصف بشمائل الصحراء وخصال الرياح العاتية.

– هَه، هل عرفتني أخيرًا أم أنتَ مُصِرٌّ على الصمم؟

– أظن، بلى، خالي موح، أنت وحدك من يستطيع اقتحام خلوتي وبيتي، كيف ومتى ومع من تشاء، وحتى في هذه الوحشة القاتلة.

– وأنت كذلك أم قد نسيت؟!

– كلا بتاتًا.

– لكن كيف عرفتَ أني أبحثُ عنك، وكيف وصلتَ إلى هذا العنوان وأنت هناك في ذلك السفر الطويل؟

– أوه، هذا سر من أسراري لن أكشفه لأستمر قادرًا على قض المضاجع.

– الآن وقد عرفتُك وأكاد أراك شاخصًا أمامي، فهل من أمل في اللقاء بك؟

– هذا ما كنتُ سأقترحه عليك من أول المكالمة، طبعًا إذا لم تَجِد في الأمر غضاضة، أو تحس بأي خوف من لقاء الأشباح، أو من أن أطلب منك البقاء معي وقتًا قد يطول عساك تُؤنِس وحدتي القاسية في النفق الموحش الذي أنا فيه الآن.

– بتاتًا، كأن ثقتك بي تزعزعت. لا بأس عليك، حدِّد لي المكان وبأسرع وقت ستجدني عند السمع والطاعة ولهفتي منذ الآن شديدة ...

– أعرف أنك تُفضِّل جلستك الأثيرة في الكافي دوفلور، اليوم قبل الغد في السابعة مساءً، نرتشف قهوة مُزَّة، ويكون لنا بعد ذلك أمر.

أُغْلِق الخط لتنفتح أمامي بُعَيْدَها كل الخطوط والآفاق، أو هكذا تَصوَّرْت، أنا الذي ينبغي أن يكف عن التصور.

في السابعة إلا خمس دقائق وجدتُ بصعوبة طاولة منزوية في الباحة المغطاة لمقهى لوفلور. لمحني النادل الموشك على التقاعد فذهب وحده يجلب طلبًا اعتاد على سماعه منذ سنوات. حرصتُ على حجز أول كرسي فرغ أمامي، كوَّمتُ فوقه معطفي وجرائد لا طاقة لي بقراءتها أشتريها بحكم العادة، بخلاف مجيئي اللحظة لهذا المكان الذي أريده أن يكون خارقًا للعادة. وصل الطلب وبدأتُ أرشف على مهل، فوالله لمثل هذه القهوة تُشَد الرحال، عين إلى الساعة وعين إلى القامات الإناث الذكور، للصحافيين الفنانين الكُتَّاب، وأنا متأكد أن جان إيدرناليي لن يحتسي جعاته هذا المساء هنا ولن يدفع آخِر فلس ليس معه في مطعم «الكلوزري دي ليلا» ليلتنا هذه، وذلك ببساطة لأن قلبه خانه في دوفيل فمات غير بعيد عن الكورنيش الذي كانت مرغريت دوراس تَسكر وتَنتَحِب فيه بصمت مذهل.

الوقت يمر ولا يمر، السابعة تتمطط حتى الربع، تزداد تمطُّطًا حتى النصف، فما بالك يا صاحبي تأخَّرتَ أم إن الزمن عندك لا تختزنه ذاكرة الرمال، أم إنك تقصد تعذيبي لتختبر صدق لهفتي أم ...؟

هاتِها ثانيةً يا جوليان، فليس مثلها رفيقًا مؤنسًا في الانتظار. غادر زبائن وجاء آخرون وأنا في الانتظار أجيل النظر حولي وفي وجه الداخل والخارج ولا أحد يأتي ممَّن أعرف. هي باريس لفظت عرَبها الذين «هاجروا» إلى ذكرى أوطانهم أو ما تبقَّى في الخرائط والصدور من أوهام، هو بالذات لم يأتِ، هو الذي طلب الموعد وحدَّده، ولا علاقة مطلقًا للأمر بحكاية غودو الرثة، وعمومًا، فنحن أيضًا لدينا أكثر من غودو انتظرناه، انتظرناه طويلًا لحد الملل واليأس. وحين نفضنا اليد من حضوره جلسنا في انتظارنا، أثَّثناه وزيَّنَّاه وصار غاية وقد أردناه وسيلة، نمشي فيه طويلًا، فإن تَعبنا اقتعَدْنا حاشية منه ونحن لا نُعوِّل على شيء، هكذا نحن اليوم لا نعول سوى على استئناف سَيْرنا نحو لا شيء، لا نحزن، لا نفرح، لا نندم وقد غادرنا البكاء إلى الأبد واستعَضْنا عنه بأسارير تنفرج عن ضحكات بلهاء شعار البلاهة الكبرى التي وقعنا فيها.

حين نسيتُ أني أنتظره، وقد زحفَت الساعة نحو التاسعة، سمعتُ مكبر الصوت في المقهى يصدر منه صوت المضيفة يدعوني باسمي لتلقي مكالمة، ثم تردَّد النداء بإلحاح، ففهمتُ أن الدعوة موجَّهة إليَّ حقًّا وأنني لا أحلم أو أهلوس، فحملتُ بعض بقيتي وذهبتُ مستنفرًا إلى الهاتف منهكًا بنبرة المعتذر: لم أتمكن من الحضور لموعدنا، فالنفق طويل وموحش، وقد تعذَّر عليَّ الخروج منه الليلة للوصول إليك. أنت لا تستطيع أن تُقدِّر أي عالم هنا. حسنًا أنك حضرت فهذا دليل على أن هناك من يَذكُرني، إنما دعني أسألك، هل

جئتَ من أَجْلِي أم من أجلك أم ...؟ وانقطع الخط، فصرتُ أصرخ: ألو، ألو، أم ماذا؟ أكمل رجاء، ألو ... صرختُ وأنا أكاد أنتحِبُ. وهنا نبهتني المضيفة بأن الخط كان قد انقطع منذ وقت، وأنها لم تفهم إصراري على الكلام وهي التي رأت الإشارة الخضراء في صدر الهاتف منطفئة. صرختُ في وجهها مستنكرًا: هل تقصدين أنني لم أكن أكلم أحدًا؟! ردَّتْ على الفور: طبعًا، وأنتَ تُكلم نفسك دائمًا، وهذا ما تَعوَّده الجميع منك هنا أيها السيد سين، وأحب أن أضيف بأن المكالمة كانت مُوجَّهة لشخص آخَر غيرك لم يحضر لتَلَقِّيها؛ لأنه ببساطة غير موجود، هه، هل فهمت؟! غادرتُ المقهى وأنا أجر أذيال الغموض، وعِوَض التَّوجُّه إلى الشقة القريبة في الدائرة الخامسة، وجدتُني أنزل في نفق محطة السان جرمان.

بمجرَّد وصولي إلى الرصيف، سمعتُ مكبر الصوت يُردِّد: النداء الأخير للالتحاق، آخر نداء، المترو يزفر ويوشك أن ينطلق، ولم يكن بالمحطة كلها أحد سواي. قفزتُ كالمدفوع من الخلف ... وأنا الآن ذاهب في النفق.

١٥ فبراير ١٩٩٧م

خلاءٌ باريس بعدك ... باهي

إذا نزلت باريس، فالزيارة واجبة للأحباب والأصحاب، وفي نهايات الشهر الرمضاني خاصة. إنما كيف، وعرَب الزمن القديم شَحُّوا، وأقوى الديناصورات مِمَّن بَقُوا هم في طريقهم إلى الاضمحلال؟ الذين يحملون نياشين وأوزار الإقامة القديمة لا يعيشون إلا بالمكابَرة أو بعناد أنهم باقون هنا رغم كل شيء، هؤلاء المثقفون والصحفيون والفنانون وأشباههم إنما يُراوِحون مَكانهم أو يتراجعون إلى مَرابع الحنين الأولى انطفأ جمرها، وها هم يَتَلَفَّعون بصَمْت مَقرُور يفضحه كلام ضاجٌّ بلا معنًى عن عثرات الأوطان والانطواء في المَنافي. الملاذ إلى لا مكان وهو ما لا تُغيِّره في شيء سخرية فايز الذي يُسمِّي العائدين إلى أوطانهم بالمهاجرين، وقد قدَّرْت أنه يقول الكلمة على مضض، في ضرب من التَّشفي البارد يعي أنه لا يؤذيه إلا هو؛ لأنه لا ينفك يحس بأن العالم حوله يواصل الهجرة، وهجره؛ ولذا فإن عينيه دائمًا حزينتان مُراوغًا الآخرين عن حزنه بابتسامة الشامي القديم الذي كان فرحًا ذات يوم.

ذات يوم بعيد حين وصل إلى مدينة كانت فاتنة بأحلام الثورة، ثم ذهبَت كل الثورات وبقي هو في نقطة لا هي الذهاب ولا الإياب، أو حين كان الباهي هنا حوله، حولنا، معنا يُجَلْجِل بضحكة صاخبة ملء امتداد الصحراء وغنج الكثبان، تعدينا ضحكته فتَصْطَفِق الأكفُّ، ولا غرابة أن يَلتفِت «النصارى» قُرْبَنا مُستَريبين أو مُستَغْرِبين من أين لهؤلاء العرب بكل هذا المرح والسعادة؟ أما الجيران والمارَّة ورؤساء تحرير كبريات الصحف وكبار السياسِيِّين والمسئولين في تلك الأجهزة، مع مُخبِريهم وحَشْد آخَر ممن يقتفي نبض القلوب، هؤلاء جميعًا وسواهم يعرفون أنه شيخ قبيلة نحن أفرادها ولها فروع وأغصان مديدة، وما جَلْجَلة الضحكة إلا قصاص صغير من فضيحة الحياة الكبرى والهول هو القادم.

وقد اشتد علينا في ذلك العام من حرب الخليج، فانقطعَت بنا السُّبل ونحن في ديارهم، ديار الغربة غرب، والسباب يسوط تاريخنا وشعوبنا غرب، والنظرات قبل الكلام تَنفثُ حقدًا غرب، ومؤسَّسات التَّوجُّس تطلبنا واحدًا واحدًا؛ لأننا لا نستطيع أن نكون غير هؤلاء العرب غرب، وظل يقول الهول هو القادم. ووصل الدم حتى الركب في الجزائر، كما توقَّع، وما زال يصعد، وحين أراد أن ينزل أخيرًا إلى الجنوب ليخفف من غَلواء الشمال ويلحق بالمجرى من منبعه زهقت روحه.

من يومها نَفقَت روحها باريس، وبِتْنا نهيم فيها على وجوهنا، نمشي على غير هدًى، لا نعرف أَنَبْحَث عن شوارعها، أم عن أطرافنا المبتورة فيها، أم عن بقية صدًى في ركن من أركانها الضحكة المُجلجِلة؟

هي ذي خلاء كما لم تكُ من قبل، فزَّاعة تطرد سحنات الغرباء عن ظلال الموتى المقهورين، مزروعين بين مقبرة المونبرناس وبيير لاشيز ومقابر للشهداء ضمَّت أجداثهم بلا استئذان في الرحيل.

باريس بعدَك خلاء، وهي لم تَخُنك؛ فنحن الذين نهجرها من شِدَّة تسلُّطها علينا وغرامنا بها لنذهب رأسًا بعيون شبه مُفتَّحة إلى طعنات الخيانة، فوالله ما انسلَّ النَّصل والدم فوَّار ما يزال، وحيثما ألقيتُ ببصري، أرى وجهك منفلتًا بين الوجوه ولا أرى أحدًا.

أسمع حميد سعيد شاعرًا وإنسانًا يهمس في أذني: المدن أصدقائي؛ أي لا معنى ولا وجود للمدن بلا أصدقائي، فأكرر قوله المأثور، وأنا أبحث عنك، صدقتَ أبا بادية، وإن أردتَ مصداقًا جديدًا لنبوءتك فتعالَ إلى هذه المدينة لترى بهاءها، بهاؤنا زال بعد أن رحل، رحَلْنا، وها نحن في السَّديم.

وتذكرت في فجوة من زمن مُترجْرِج أن بوعلام الجيلالي ما يزال هنا، وأن الزيارة واجبة للأحباب والأصحاب، وفي العشر الأواخر من رمضان خاصَّةً، لن يغفرها لي إذا علم بمروري وهو الذي لا يكف عن السؤال رغم صَمْتي الطويل في الكلام عنه، وسيفرح إذ يقابل مَن يفش عليه قلبه، وقلبه عامر مثل كل الغرباء، أعرف أنه يقسو على نفسه في شهر رمضان، يصوم أقوى من أي مسلم في الدنيا، يُخيَّل إليَّ أحيانًا أن المهاجرين هم أقوى المسلمين صيامًا وأتقاهم فيه، بل إني أراهم كذلك حين أرى ظروف عيشهم، وأسلوب حياتهم، وانشدادهم إلى ما يؤكد هُوِيَّتهم ويشعرهم بحقيقة الانتماء إلى نفوسهم. الدين عقيدة وثقافة وهو عندهم جوهر الانتماء، وكلما تفاقمت حملات الرفض للأجنبي، وقرارات العزل والتحسيس العنصري، والتشنيع على العربي، ترى هؤلاء المهاجرين

أحرص على التشبث بكل ما يعلن هويتهم ويمنحهم طمأنينة الوجود في حيِّز من القيم تخصهم؛ لأن ضرورة الاندماج التي يقرعون بها رءوسهم صباح مساء، ويتعيش بدرسها، وبحث إمكانياتها وتلميع ظواهرها الباحثون الغامضون في تلك المعاهد الاستراتيجية، ذلك الاندماج لا يعني شيئًا سوى أن تَتخلَّى عن عقيدتك وثقافتك، بَلْه وأن تَنبتَّ الصلة تمامًا بينك وبين ما كُنتَه، لكنك مهما فعلتَ، مهما تنازلت وتَخلَّيت فلن تصبح في وَضْع الآخر الذي يطلب منك أن تلغي أناك؛ وما ذلك ببساطة إلا لأن الاندماج استحالة، بلاغة سياسية، صرعة موسمية، شيء من هذا القبيل؛ إذ ليس للآخَر حيِّز يتَّسع لغير أناه، ولو احتاج لأنا أخرى أو تسامَح مع وجودها إلى جانبه فلكي يسخرها، ليسيطر عليها، ليسحقها كعقب سيجارة متى شاء، أو يرمي ببندقية صيد فتًى تتأكله الوحدة في ليلٍ مُوحِش، وهو يُدندِن أمام مدخل العمارة بأغنية شجِيَّة مطلعها «أبطا علي وقتاش نشوفك ...» واليهودي وحده فَهِم اللعبة؛ ليقلبها لصالحه مطالبًا بأن يصبح هو مجال الاندماج الوحيد إذا أراد العالَم الغربي أن يُكَفِّر عن جرائم النازية في حَقِّه، ومستخدمًا قانون القوة والمال والإعلام وكل وسائل السيطرة، ويسقط على العالم كله مفهوم «الغيتو» كفضاء مادِّي ونفْسي وثقافي، لا ينبغي أن يبقى عارُه وحْدَه، ومحتفظًا لذاته، في الآن عينه، بالحيِّز الذي ليس مسموحًا لأحد اقتحامه.

لم أكن في حاجة لترديد هذه الأفكار على سمع بوعلام؛ فهو يعيشها وغيرها بحِس فطري يوميًّا، يُكابدها يُبدِّدها في الشرود الذي بدأ يلازمه، وهذا المساء بالذات، لم يكن بحاجة لأكثر من احتضاني والاحتفاء بي حول مائدة إفطار أَعَد لها فعلًا أطاييب الطعام، وأمضى، كما قال، نصف يوم في تحضيرها، وأَقْسَم أن أشرب الزَّلَّافة الثانية من حريرته التي يحمل نصفها كل مساء إلى مدام لاكونسيرج عساها ترضى عنه؛ فتتسامَح مع مَغاربِيَّته المتشرِّدة في بلاد الناس. وما كان إفطار عبد الرحيم المحمدي ذا معنًى إلا إذا ركب المترو من محطة تولبياك في الدائرة ١٣ ليتوجَّه عند أحد معارفه في الدائرة ١٨ البعيد حقًّا من أجل الفوز بزَلَّافة من الحريرة تنسيه هموم إعداد تلك الدكتوراه الوطنية، لا بل إنه كان يَمتطي القطار لمسافة خمسين كلم إلى «بوفي» شمال غربي باريس ليفطر، بعد صيام المجاهدين، مع أولاد عمه المزابيين، ردَّ الله غربتهم أجمعين. والآن ماذا عن أخبار البليدة؟ سألني بوعلام وهو ينفث دخان أول سيجارة بعد الحمد لله والشكر لله، أجبتُه بغير حماس من خلال دخان غليوني: البلاد كما تركتها عدَا أنها شَبِعَت ماء وهي اليوم غارقة في حريرتها!

المهم ما أخبارك أنت؟ وهل تفكر دائمًا في الرجوع؟ أوه، هذه حكاية طويلة لا تنتهي، تمشي وترجع، مثلك أنت تمامًا مشيتَ وترجع، وستفعل ربما إلى ما نهاية، هذه بلوى، لا كرامة هنا، لا كرامة هناك، هنا العيش وهناك لا عيش على الإطلاق، إلا أن أنخرط في عرارم المُتسوِّلين، وهنا، أيضًا، يغمزوننا بالشَّحاذِين ونَفَر الهَمَج، وعليك اليوم أن تُحصي نجوم السماء قبل أن تُجدِّد أوراقك.

وغدًا، بعد عام، بعد عشرة، ربما جمعونا كالجَرْبى، وشحنُونا، بالأوراق أو بدونها، وأعادونا إلى ذلك الخلاء، بالأوراق أو بدونها، من حيث أتينا، هل تعلم أنهم خصموا أسبوعًا من راتبي الشهر الماضي؛ لأني لكمتُ زميلًا فرنسيًّا في المعمل رماني أمام الجميع بتلك الشتيمة الشهيرة، فلم أتمالك أعصابي أنا «العربي القذر». وأعود أقول: كل هذا يهون يا بوعلام، خُبْزة حارَّة ولكنها على الأقل مضمونة، وإذا جمعتَ حقيبتك، فَأين ستذهب وفي بلادك جيش من العاطلين؟ وربما لن تعرف كيف تمشي في الشارع، إذا وجدتَ شارعًا تمشي فيه ... والآن ما رأيك في طرح من الروندة، فربما غلبتك وحققت أول انتصار عربي في فرنسا، هه ...!

غمرني، فجأة، احتجاج عارم على حشد من المسمَّيات والمفرَدات المُفخَّمة والعبارات المتطاوسة وهي ترفل في بهاء الشعارات المُصطنَعة، يُردِّدها المتاجرون في كل شيء، وفي الحنين أيضًا. أردت أن أصرخ في وجه لفيف من المتكلمين والمتأدبين الذين يلغطون بما لا يعون، ويصفون ما لا يرون، ويَهذُون بما لا يفهمون أو يحسون، أردتُ أن أُجْلِسهم أمامي واحدًا واحدًا، وأطلب منهم الإجابة عن سؤال واحد وحيد: ما شكل الغريب؟ وفكَّرتُ أن صفاقَتهم التي أمْسَت جزءًا من تكوينهم ومِراسهم المُلفَّق لن تمنعهم من إقامة مناحات إنشائية عن الغربة والغرباء ... أوه، في هذا العالم! ... أوه، في هذه الأرض الخراب ...!

أي نعم، ما شكل الغريب؟ لو عنيت، مثلًا، شخصًا من طرازي لا يتسع له مكان، وها هو يجوب في شوارع المدن قاصيها ودانيها، وإذ يتهيأ لعبور جسر «لوبون نوف» باتجاه سامريتان، ومنها إلى الممرات الخبيئة في «البالي رويال»، تقاطعت نظراتي مع قامة إسماعيل كداري القادمة من الاتجاه الآخر، ألتقي به دائمًا صُدفة وعيناه خلف نظارَتَيه تَبرُقان بسرعة كأنهما تبحثان عن كائن ضاع منهما والخَطْو عنده عَجِل، أقول: إن مدينته تيرانا تطارده بأوزار حكامها وهو يبحث عنها عبثًا في ضياع مستديم أحب أن تكون لي فيه هُنيهة؛ لأرى شكل الغريب، وأرى آخر يمشي مع الحائط، وهو لم يسمع عن جائزة نوبل، يده فوق قلبه، فوق ورقة إقامة توشك على انتهاء صلاحيتها يدُق فتهتز كلما رأى

شرطيًّا واقفًا في الناصية مُحدِّدًا ذاتًا وقد تَعْنيه هو على الأرجح، بسُمْرَته الداكنة القريبة من لون التراب الحُمْري المتروكة هناك في تلك البلدة المُغيَّبة عنه قَسْرًا وهو حاضر هنا قَسْرًا. تتقلب فوق السمرة ألوان لا أعرف كم تَتبدَّل في الدقيقة الواحدة، من أثر نظرة صادمة في المترو، في الحافلة، في طابور المخبزة، وطبعًا في مبنى التضامن الاجتماعي.

نظرات صادمة، عيون مُتوجِّسَة، قامات متكاتفة بعنف، ربما كان له شكل في قبطة النعنع يدفعها داخل البَرَّاد بحُنَوٍّ وهو يُمَصْمِص شفتيه سلفًا بعذوبة الكأس القادم، له رِقْدة المنكفئ على حلم يمتصه كعرقسوس لا يريده أن ينفد فلا يجده. له الطريق، الرصيف يخطر فوقه متعثِّرًا يَتجنَّبه مَن يمر قُربه خشيةَ أن يُعْدِيه، له شكل يوم أَحد طويل، فارغ تمامًا إلا من «حزن في الرأس وفي القلب»، تَتجدَّد الفصول حوله وهو بارِك فيه كالجمل لا يعرف أين يمضي به، له الأحلام المنكسرة، الأوهام المُتدفِّقة، المشاريع المشتعلة بين أطراف الغُدُو وآناء الثَّمَل، الأظافر المقضومة والسحنة المُتلبِّدة إن قاربت سعادة تقَلَّبت بين حافة الألم وحدود الندم، وله مصير أن يصبح مخبرًا لِيطيبَ خاطر حكومة السيد جوبي، فيبلغ بوعلام، مثلًا، عنِّي إن بتُّ عنده ليلة أو ليلتين وانصرفتُ إلى أقرب مركز للشرطة فيقول لهم إن ذلك الشخص الغريب الذي زارني وقطن عندي ليلتين مضى إلى حال سبيله، وأنا بالله والشرع منه، والله ينصر رئيسكم، وفرنسا ما معها مزاح، وتحيا حقوق الإنسان!

وأنت يا سيدي رحلتَ وأنت لا تعلم أن لباريس الآن سِيما غربتك وشَكْل غيابك، تبدَّدت المراثي المُزبِدة بكلام مُحترِفي المَناحات، بينما بَقِيَت السماء الرمادية الوطيئة تغطي مَماشينا القديمة، نوافذ بيتك اليوم مُغلَقة، ونوافذ قلبي مُشْرَعة ببكاء كَتُوم على سآمة العين لا يندلق، للغربة شَكْل الموت، موتك، هذه حقيقة مُطلَقة وإن أنكرها حضورك المُطلَق، المَوثوق به في أنك تَكلَّمت أو ستتكلم، ضحكتَ أو ستفعل، مررتَ مِن هنا أو سَتمُر لا محالة أو ستُتَلْفِن لتقول أنا قادم عندك مع رهط من صعاليك عرب باريس إلى البيت العامر ماؤه ومرعاه، كما هو حُسن الظن بالشرفاء أم تُراك ستعتذر عن الحضور؛ لأنك إن حضرتَ قد يَشي أحد بعودة موتك المهاجر إلى التراب الفرنسي وقد لا تُحْمَد العاقبة، ولا أستطيع مِن أجلك شيئًا، لا أستطيع لنفسي أنا الذي ما عاد يملك سوى فرط الحنين إلى الراحلين، وفرط بكاء صَمُوت، فمن ينقذني؟ مَن؟

٢٢/ فبراير/١٩٩٧م

إرهابي في مطار Gatwick

المكان: مطار القاهرة الدولي، الزمن: ربيع ١٩٧٩م، الساعة الخامسة بعد الزوال، تحط بنا الطائرة التابعة لخطوط طيران الشرق الأوسط القادمة من بيروت، نشرع في النزول مُتعجِّلِين الوصول إلى المباني الإدارية والوقوف في صفوف خلف شبابيك شرطة الحدود لختم جوازاتنا، حلَّ دَوري فقدَّمتُ جوازي تَسلَّمه مني شخص بلباس مدني وشرع يَتفحَّصه مقلِّبًا النظر بينه وبيني في ريبة غير مفهومة، وبصَلف سألني: مولاي هذا، اسمك الشخصي أم لقبك، ثم اسم أبوك إيه، واسم أمك؟ أجبتُه باستكانة طالبًا السلامة ودخول مصر التي كنتُ اشتقت لتجديد العهد بها، أمرني بعدها أن أنتظر وهو يشير إلى كرسي طويل قُبالة الشباك في بهو المبنى، فذهبتُ إليه مستسلمًا وبلا قلَق يُذْكَر؛ خاصَّةً وأن آخَرين سبقوني إلى الانتظار، فكَّرْت أنها إجراءات الأمن والتدقيق الروتينية، وقد اختلستُ النظر إلى الرجل وأنا في الطابور وهو يُقلِّب الأوراق في سِجل كبير أمامه؛ أي لم يكن عنده حاسوب يُسجِّل فيه اسمك لجد جدك إلى سيدنا آدم عليه السلام. قلتُ إن هي إلا دقائق وسأسمع النداء باسمي لاستلام جوازي، سماعي لأسماء سبقتني وأصحابها يغادرون أمامي بسلام.

الدقائق تتراكم والوقت أخذ يتمطط، مرَّت ساعة ولم يطالبني أحد، أتَلفَّت يمينًا ويسارًا، فأرى البَهْو يكاد يخلو من المسافِرين، على الأقل دفعة طائرتي من بيروت، وهالني أن الشُّبَّاك الذي قصدتُ قد أُغْلِق ولا أثر للشخص الذي كان خلفه.

ذهبتُ إلى شُبَّاك آخَر مفتوح فطمأنني صاحبه قائلًا: إن المَعنِي بالأمر سيعود، وعليَّ أن أنتظر؛ فهي مُجرَّد إجراءات وهذا كل ما في الأمر، ولأمر ما لم تعجبني نظرته الماكرة، فانتابتني الوساوس وشرع دماغي يعمل بسرعة قياسية مستعرِضًا شريطًا من الذكريات

لزيارات سابقة لي إلى القاهرة لما فُهْتُ به فيها وفي غيرها من العواصم العربية، بل والغربية أيضًا. ربما قلتُ شيئًا لا يعجب عن مصر فنقله مَن يحرصون على الأمن الداخلي للأمة العربية، ولعَلِّي كتبتُ كلامًا فيه إشارة من هنا أو هناك، خاصَّة ونحن في عهد السادات، واستكثرتُ أن تصل المسألة إلى هذا الحد، فأنا لستُ كاتب افتتاحِيَّات مِصْقاعًا، وعمومًا، فأنا أشتغل بالخيال؛ ولذا قمتُ أتمشَّى لأطرد عني الأوهام، وكانت الساعة قد بلغت السابعة مساءً حين سمعتُ فجأة مَن ينادي باسمي، فهرعتُ نحوه كالمُتلَقِّف نجدةً طال وصولها، وعجبتُ أن رأيتُهما اثنين؛ واحد بيده جوازي والثاني إلى جواره يَتفحَّصُني طلوعًا وهبوطًا، وازداد عجبي أنهما بدل تسليمي حاجتي والسماح لي بمغادرة المطار، كما توقَّعتُ، أمراني أن أمشي بينهما، وبهدوء يا اسمك إيه، يا مولاي!

وجَدْتُهما يقتادانني في ممرٍّ طويل عن يمينه وشماله مَكاتب مغلقة، والإنارة خسيفة، وحين أوشكنا على نهايته، فَتَحا بابًا ودفعاني أمامهما وأَمَراني بالجلوس على كرسي خَلْف مِنضدة، وغادَرا الغرفة الواسعة بصَمْت، واضح أن ريقي نشَف، واضح أن شحوبي شَحب، حتمًا أنني لا أفهم، فهذه كافكاوية واقعية، ولم يتأخَّر الدليل لِيُثبِت واقعيتها الفجَّة، بعد حوالي نصف ساعة؛ أي بعد أن تركوني أُطْبَخ قليلًا على نار هادئة اقتحم الغرفة من باب جانبي فيها شخصٌ فارع الطول، مَسلوت الوجه، وسحب كرسيًّا مباشرة ليجلس قُبالتي، وبادرني: أهلًا مولاي أحمد، هذا هو اسمك، مش كده؟! فهمتُ ولم أفهم وأجبتُ: طبعًا، ولقبي «المديني» كما ترى في الجواز، جوازي الذي تحوَّل إلى مروحة بين يديه.

– اسمع يا أخينا، بدون لف ولا دوران، أنت اسمك إيه، وجنسيتك إيه؟ أدركتُ أننا سندخل في سين وجيم، فاستحضرتُ ثقافة الروايات والمسلسلات البوليسية من جميع العهود، وقلتُ تَماسك يا فلان وإلا سيوقع بك من الجولة الأولى: يا أخي أنا كما ذكرتُ وجنسِيَّتي طبعًا مغربية، نهض الرجل وهو يزمجر: أنت مُصمِّم على تضييع الوقت وعلى الكذب ... الكذب، الله، نعم، أنتَ فلسطيني، أما جوازك هذا فمزَوَّر.

– فلسطيني؟ لا مانع عندي، ولكن أنا مغربي.

– وبعدين يا أخينا، كل ذا يهون، فأنت حسب معلوماتنا من جماعة أبو نضال.

–يا ذي المصيبة، أبو نضال، هكذا، دفعة واحدة، وجدتني أتكلم كمن يهذي أو يتأمل سقوطه في بئر عميق.

أظن أني بعدها أقسمتُ له بأغلظ الإيمان، وأستظهر أمامه شجرة أنسابي، ومحفوظي من الأغاني العاطفية والوطنية والمغربية، فما ازداد إلا تَشبُّثًا بفلسطينيتي وإرهابيتي. وأخيرًا قلتُ له: اسمع يا حضرة الضابط، اتصل بسفارتنا وإن شئتَ فأنا أبو نضال نفسه! وفي هذا كله لم أُرِد أن أُورِّط صديقي بهجت عثمان، رسام الكاريكاتور الشهير الذي كان ينتظرني في مخرج المطار لأُجنِّبه تهمة الجماعة المزعومة. في العاشرة ليلًا حضر ضابط كبير مرفوقًا بأتباعه تتقدمه ابتسامة عريضة وبيده جوازي، واحنا آسفين يا بيه، حصل تشابه، وسيادتك عارف الإجراءات الأمنية، ومصر نَوَّرت، هو ذا الجواز مختوم وأنت شرَّفْت. تَنفَّستُ الصعداء، كما يقال، لكني أصررت على البقاء في المطار في انتظار أول طائرة تقلع إلى باريس، معلش يا بيه، إحنا آسفين، وما حدث بعد ذلك دوَّنه بهاجيجو لاحقًا في رسوم كاريكاتورية، فائقة السخرية.

المكان: مطار روما، الزمن: منتصف سبتمبر ١٩٨٥م. كنت قادمًا في رحلة طويلة من مانيلَّا، عاصمة الفلبين، وعليَّ أن أبدل الخط في روما لألتحق بباريس وأمامي أزيد من ثلاث ساعات لاستئناف الرحلة. فكَّرْت في النزول إلى المدينة للتَّجوُّل وتزجية الوقت. غادرتُ المطار بهدوء وفي العودة، حصل ما لم يكن بالحسبان، فبينما أنا في الصف لختم الجواز، تقدَّم نحوي علنًا شخص سري طالبًا منِّي أن أتبعه بعد أن أظهر لي هُويَّته. أخذ جوازي وتركني في غرفة يشغلها زميل له، وبعد وقت وجيز عاد ليسألني مباشرة: هل أنت من ثُوَّار مورو؟ أو ما علاقتك بهم؟ هذا ما فهمتُ من فرنسيته المكسرة، ضحكتُ من سؤاله؛ لأنني آنذاك كنت في الحقيقة أشبه بثوار التوباماروس، بشعر كثيف ولحية كثَّة وشباب غضٍّ وأحلام بالثورة، أيضًا. وعاد يسألني جادًّا وملامحه تبدو منقبضة كالمصاب بمَغَص: ولكن ماذا يمكن أن يفعل مغربي في الفلبِّين؟ هذا إذا كنتُ مغربيًّا حقًّا، وهنا عاد يُقلِّب صفحات الجواز وهو يَتفرَّس في وجهي مُجيلًا النظر بينه وبين صورة لم أكن فيها «مغوفلًا». وقد بدا لي سؤاله معقولًا في ذاته حين يقارن بوضع المهاجرين المغاربة إلى إيطاليا وما يشتغلون فيه من تجارة السجاد وغيرها، وعنَّ لي أن أحيره وأغيظه، فليس من شأنه أن يعرف لماذا ذهبت إلى أستراليا أو الفلبين، وفي هذه الأخيرة، قلتُ له: بأن جزيرة مورو بعيدة جدًّا عن مانيلَّا، وإن آخر همومي مناصرة الأديان كيفما كانت، فأنا مسلم بالفطرة، ولأصل إلى الكرشندو غمزتُ له بأن لي ميلًا خاصًّا إلى الفلبينِيَّات، وهذا كل ما في الأمر.

المكان: مطار رواسي – شارل ديغول، شمال باريس، الزمن: مطلع أبريل ١٩٨٨م. كنتُ أستعد لامتطاء طائرة مُتوجِّهة إلى عاصمة اسكندنافية؛ للمشارَكة في ندوة أدبية جامعية. أَبطأَ موعد الإقلاع قليلًا فَرحتُ أتلهى بالتَّفرُّج على معروضات مَتاجر المطار، فجأةً سُمِع رنين صفارات وهرع بسرعة قرابة عشرة من رجال الشرطة، والأرجح شرطة مكافحة الإرهاب، وكانت هذه الفترة عصيبة والمطارات مَحْمِيَّة في مجموع التراب الفرنسي مثل محطات القطارات والمترو، كما هي عليه اليوم، أحاطوا مركز بهو المطار بشريط طويل واقٍ، وصدر عن مكبر صوت نداء يدعو المسافرين إلى الابتعاد عن الدائرة، بدل أن أبتعد أنا وغيري، جذَبَنا الفضول لمعرفة ما يحدث. كان الجميع حقًّا يقظًا أو مضطرًّا لليقظة بسبب النداءات المتكرِّرة بعدم تَرْك أي حقيبة أو متاع مهملًا وحده، ففي ذلك مصدر خطر وسيتم إتلافُه حالًا، والسهو والفتنة من طباع المسافر وهو ما يتسبب في ضياع كثير من الأمتعة أو سرقتها، اكتمل الطَّوق وحوله كلاب بوليسية مُدرَّبة وأصبح المطار في حالة طوارئ قصوى، في مركز الطوق حقيبة متوسطة الحجم، سوداء، متروكة لم تَمسَسها يد، مهملة أو مَنْسِيَّة أو أن صاحبها غفل عنها مؤقتًا لشأن ما، وهذا ما لا تفهمه الشرطة المستنفرة التي ترى فيها طردًا ملغومًا أو محتملًا، صارت الأعصاب مشدودة حين حضر اختصاصي في المتفجرات واقترب من الحقيبة بحذر ومضى يحيطها بأسلاك ويلصق بها أخيرًا أصبع ديناميت ملفوف ثم ابتعد، ابتعد كما ابتعد كل بني آدم، فجميع الاحتمالات واردة أو مفترضة أو وهمية ويحدث انفجار يهز المطار هزًّا، فتلعن رحلتي إلى كوبنهاغن، ما بين شعور القلق ولحظات التَّرقُّب سُمِع دَوِيٌّ محدود الصدى؛ فها قد وقع الانفجار، لقد فجَّر الاختصاصي الحقيبة وتناثر جلدها أو بلاستيكها أشلاء ومزقًا.

لم تكن قنبلة، لم تكن طردًا ملغومًا من وضع إرهابي للفتك بالأرواح والتشويش على أمن الدولة الفرنسية، مع الانفجار ترامَت محتويات الحقيبة قريبًا منها، واقتربنا نحن الفضوليين، المُولَعِين بالإتلاف والمفاجأة، فماذا رأينا؟ لا شيء بتاتًا أو كل شيء، محتويات بائسة ومُحزِنة في آنٍ؛ زوج من الأحذية النسائية المستعمَلة، فستان نسائي مهلهل، كومة من المناديل البالية ... ودمية، أي والله دمية، ما أجمل تقاسيم وجهها وغمَّازتَي عينيها، وقد بُتِرَت منها الأعضاء السفلى مع الانفجار، واختفى نصف شعر الرأس فبدت شبه صلعاء. عند هذه الكومة انحنت سيدة إفريقية لم تكن سَمِعَت أي نداء سوى نداء الحنين

إلى الوطن، جثَتْ باكيةً أمام أشلاء حقيبتها لتنهض أخيرًا متحاملةً على نفسها بدمع سَكُوب ينهمر على خَدِّ الدمية كالرضيع بين يديها ... وضاعت في الزحام.

المكان: مطار ... «غاتويك» بضاحية لندن، الزمن: ٤ فبراير ١٩٩٧م. بعد أيام في العاصمة البريطانية حانَ وقت مغادرتي إلى باريس، وكنتُ أرغب في العودة مع الزوال من مطار «هيثرو» القريب نسبيًّا، فلم يسعفني الحجز إلا في طائرة الثامنة مساء بتوقيت جرينتش، من محطة كسينغتون، القريبة من فندقي إلى محطة فيكتوريا الكبرى لركوب القطار الذي سيقطع مسافة الوصول إلى المطار في نصف ساعة، بعد دوخة رأس في فيكتوريا لا أول لها ولا آخر، ومن حُسن الحظ أن متاعي كان خفيفًا عبارة عن حقيبة جِلْدية أحملها على كتفي، مِعطفي السميك؛ اتِّقاء البرد أثقل منها.

تهتُ قليلًا في «غاتويك»؛ لأنني لم أكن أتصوَّر أنه ينبغي لي للوصول إلى الموقف الشمالي ركوب مترو سريع بداخله؛ أي دون أن تغادر المطار، قصدتُ أولًا كونطوار الحجز للحصول على بطاقتي بعد أن دفعتُ وَصْلَ مُقابِلِها في وكالة صغيرة بالريجنت ستريت، ثم قصدتُ ثانيًا كونطوار التسجيل لركاب الطائرة المغادِرة، وبيدي قسيمة السفر يَمَّمتُ شطر باب المغادرة وحقيبتي على كتفي، كان أغلب المسافرين مثلي، فالرحلة بين لندن وباريس، ذهابًا وإيابًا، لا تحتمل أمتعة كبيرة. أوشكتُ على الدخول حين استوقفني شخص من مستخدمي المطار يرتدي بذلة زرقاء، تَفحَّص أوراقي وطلب منِّي أن أسلمه حقيبتي، فأمسكها بيد، وقال: إن وزنها ثقيل ولا بُدَّ من إرسالها مع الأمتعة، قلتُ له: إن وزنها أقل من عشرة كيلوغرامات، ولكنه أصر فحملناها إلى الميزان الذي أنصفني، ولكنه أصر. ذهَبْنا إلى الكونطوار، فقلتُ له: انظر، كل هؤلاء يحملون أكثر وأثقل ممَّا أحمل، فلماذا أنا بالضبط؟ كانت المضيفة تتفاهم مع الإنجليزي الخبيث بنظرات خبيثة، وبدل أن تسجل حقيبتي طلبتَ شخصًا بالهاتف هو الذي حضر بعد دقائق وحمَلَها، ولم يبدُ أنه يَنوء بحملها، تَبعتُه فدخلنا إلى قاعة جانبية بها جهاز ضخم وضع فيه الحمل فسطع ضوء وانطفأ آخَر ثم سحب حاجتي ولف قرنيها ببطاقة سحبها من جيبه كتبَ عليها: ... «سكيوريتي»، وفيما ظننتُ أننا سنعود من جديد إلى كونطوار المضيفة حيث إرسال الأمتعة خاطبني الرجل: بإمكانك أن تنصرف الآن، بدوتُ أمامه لا أفهم فأردفَ ببرود إنجليزي: حقيبتك أنت ستُنْقَل وحْدَها، اطمئن، وحْدَها، حاولتُ أن أحتج: ولكن، لماذا أتعرض من دون الجميع لهذه المعامَلة؟ فردَّ ببرود أشد: الأمر لا يعنيني، هذه هي التعليمات، ثم كَمَن يتفضَّل عليَّ بمعلومة نادرة: حاول أن تفهم، أليس كذلك؟!

وفعلًا حاولتُ الفهم عندما اجتزتُ جميع إجراءات الفحص والختم وصرتُ في قاعة الانتظار قُبَيل الإقلاع وأنا أسمع النداء المِلْحاح يُنبِّه من مغبة ترك أي حقيبة مهملة، ويحذر من جميع الاحتمالات، وحاولتُ الفهم عندما ركبتُ الطائرة فوجدْتُني العربي الوحيد فيها وعدد المسافرين قليل وأنا وحدي قد عُزِلتُ عنهم.

وحاولتُ الفهم وقد وصلنا مطار شارل ديغول فهرعتُ لسحب حقيبتي التي لم تخرج من السجاد الدائر، بل وجدتُ شخصا ينتظرني ويطلبُ مني مرافقته لاستلامها من مكان خاص ... وأخيرًا، وإلى هذه الساعة ما زلت أحاول أن أفهم ولا ...

١/٣/١٩٩٧م

بهلوانيات في بلاد لا شيء

(١) طريق النهر

بين نهرين امتد جسدي، دفعته كالنُّقلة في الماء ليطفو أبيض مثل هذه الزهيرات في الأحواض المائية على شِفاه الطريق، بين الرباط وتيفلت، هي لآلئ لو علمت، شُهب لو صُعقت تنبس بِبنْت ضوء في كل ليلٍ قادم أمامنا، هو الليل، وشطح خيالي، كما يحلو له لِيَفلِت من فجاجة الوقت الآسن إثر همود النار تحت رماد العمر.

بين نهرين: السين هنا، والتاميز هناك، بل هنا، أيضًا. كان للماء صليل أسمعه في الأزِقَّة الخلفية من باريس الغافية، وحدي أطرقها وأشباح العابرين انسحبت إلى مغارات النوم. ارتعدتُ كالمُصاب بالنِّقرِس أنا المُبتَلى بشدة الاحترار، النهر يجري على مقاس عُمري أو بأني اقتفي ماءه في المحطات التي أرسلت فيها لهفتها، هي الراقدة اليوم كجدتي في مُعتَّق الذكريات، أظن أن «السين» لما شاهدها للمرة الأولى — هي المشهد الباهر — ارتمى عند قدميها ليسبح حولهما، تحتهما، واستدعى مجاريه البعيدة وينابيع انسكابه وقد تَورَّد خَدُّه. داهمَتْه بالضحكة الماجنة، كدَأْبها كل عطش، فارتعشَت ضَفَّتاه قبل أن يفرش لها أحضانه طريق عبور–أحضاني.

سأتتبع النهر أمس، اليوم مثل أمس ولم يَدُر بخَلَدي قطُّ أنه اليوم لاحتراق الأوهام، سأتتبعه من حيث وضعتُ حقيبة المهاجِر الأول عند مدخل زقاق «الكاردينال لوموان» في مطلع الآهة الأولى لضفة السان برنار، في تلك الليلة أذكر أن الليل كان صقيعًا، الأرض مُبلَّطة بثلج خالص، مِعْطَفي يَتهدَّل من نُدَفه، فكأنها المرة الأولى عيد الميلاد يحل وقتها بعد أن احتسيتُ صَهْدها الفاغم، وتَعَشَّينا وإياها بشهوتنا، كنا سمعنا نداء جسر السان

جاك فلَبَّيناه فورًا لاحتساء ما تحته شهرًا، ثم دهرًا عدمناه إلى أن اقتادتني خطوتي الثانية قبلها شهقت، يا لشهقتها العارمة!

في الخطوة الثالثة بلغتُ جسر الكونكورد، حيث رأيتُ قامتي منعكسة في النهر تخاصر ظلها، هي البعلبكية مِن وَلَه أضاعَت ظِلَّها، وكان ذلك قبل أعوام من ضياعي في رياض البنفسج، سواء تدلَّى من أسوار سمَّارك يا مراكش أو أرْداني بالنظرة القاضية في خليج أغاديري، ما باله عذب اللَّمى لم أذُق كَرَمه يسعى إلى ضِفافي المحرقة، توالت الجسور في الخطوات التالية، بين جسر الإسكندر الأول، مرورًا بميرابو، عبورًا بزمن مختلس تسكَّع بنا في شوارع كشطت أعمارنا وأسبلَت هي جفنيها وهي تحلم بنا إلى الأبد في حدائق اللوكسمبورغ ... وصولًا، وليس أخيرًا إلى نهر التاميز، خرَجْنا منه معًا حين أدركنا المجرى مُبْتَلين بحرقة ما فاتنا حين لم ندركه فعَوَّلْنا على الاحتجاج قليلًا أو الضراعة أمام الرَّب في حديقة الهايدبارك اللندنية. اكتشفنا أننا وصلنا مُتأخِّرين، أن كل الثروات رَحلَت من هنا، دوائر الصراخ فارغة والخيَّالة لا يحرسون إلا من لصوص مُحتمَلِين وليس من فتنة ماحقة، ولم يبقَ في ساحة السِّجال إلا دراويش أديان بالية يُقارعون بصراخ مَبحوح، والمارَّة من حولهم يَعْبُرون مندهشين من حال هؤلاء المُعلَّقين ثم ينصرفون عنهم في كل اتجاه وهم لا يلوون على شيء، كأني دخلتُ في نظرتهم وها أنا ذا في الخطوة الباقية لا ألوي على شيء.

(٢) رَجُل المرحلة

اقتنيتُ أمس، وكالعادة، ثلاثَ صحف أو أربعة، ولم أكن أُعوِّل حقًّا على وجود تَنوُّع أو الوقوع على خبر خارق هنا أو هناك، لم أَعُد أنتظر الكثير مثل غيري، لا عن يأس وإنَّما عن طواعية، وبحكم العادة، أيضًا، سبق لي أن سمعتُ الإشاعات وخاصَّةً حين تَتحوَّل حياة الناس نفسها إلى إشاعة أو كذبة كبرى، غير أن ما رحتُ أكتشفه بالتدريج، أَقنعَني بأن الأمر جد في جد، ولا بأس إذا انْخَرطت قليلًا في اللعبة الدائرة، ولو بالنظر، فردْتُ الصحيفة الأولى أمامي، فامتَدَّت في صدارتها مقالة له تَعتَلِيها صورته، وكانت نارِيَّة تضرب بالمنجنيق، فَردْتُ الصحيفة الثانية فقفزَتْ في صفحتها الرابعة مقالة له تتوسَّطها صورته، فبدَت مُشكِّكة، متسائِلة، مُناوِرة وتَقْدَح، أيضًا، بالغضب. وفي الصحيفة الثالثة، كان دائمًا هو، لكن ما أَرَقَّه، وأَلْيَن مطلبه وأقرب مرماه، من عينيه في الصورة تَشع حَسرة وندم، ربما على كل ما ضاع من مغانم الأيام. في الصحيفة الرابعة لم أحسَّ بحاجة للبحث

عن كلامه أو ضبط ملامحه، ولم يَعُد يعنيني أن أجد مكتوبه مُذيَّلًا بتوقيعه، ما دام التوقيع بات أرخص شيء، والمُشَبَّه أولى من المُشبَّه به، أما وجه الشَّبَه ففي حكم سَقَط المتاع، لم أكن أعرف الشخص حقًّا، ما سمح لي بإطلاق العنان لخيالي فتَصوَّرتُه يختار لكل مقالة سيكتبها بذلة يرتديها قبل الجلوس، ويَتخيَّر لها ما بين الربطة والجوارب المُفرَدات والاستعارات المناسبة، فضلًا عن ذاك أو تلك الأسماء المستعارَة.

فتحتُ جهاز الراديو لسماع موجز أخبار السادسة، فسمعتُ بعدها صوتًا يَرطُن بكلام، قلتُ في نفسي إني قرأتُه لا أدري أين، وقد وجدتُه هنا لا يناسب اسم المتكلم الذي قرأتُ له قبل قليل غير ما أسمع، ولأخرج من حيرتي عزوتُ ذلك إلى سهو أو نسيان يربكني، غير أن الحيرة اللعينة خرجَت أمامي عاصفة كالجِنِّ من القمقم، وأنا أزداد ضجرًا بمشاهدة برامج التلفزيون الوطني مساء اليوم نفسه، فظهر لي هو ذاته آخر تمامًا يختلف عن ذاك الذي تَصوَّرت لحظة أني بدأتُ أعرف. وأذكر أني فركتُ عيني جيدًا ومثلهما أُذني لأطرد أي تلاعُب خيالي يعتري بصري، أو أي وسواس خنَّاس، وبَقِيَت في النهاية صورته وصوته ملء السمع والبصر، ولما تكرَّر أمامي الشيء ونقيضه اليوم وغدًا، وأَضحَت الصور والأسماء والتوقيعات، ودَعْك من الاستعارات والتسعيرة، تتناظر وتتعارض حتى ملأتْ عليَّ في وقت من الأوقات صَحوي ومنامي، خِفتُ أن تكون صِلتي بما حولي قد انقطعَت أو أن فَهمي قَصُر إلى حد الغَباء. عندئذٍ قرَّرتُ أن أقصد أحد معارفي، ما زلت أتوَسَّم فيه خيرًا وأراه مُنزَّهًا عن الشبهات، فَراعَني، وأنا أفتح باب المصعد أن أرى صاحبي أمام باب شقته يُودِّع بحرارة الشخص إيَّاه، أظنه وقد صرف ضيفه لاحَظ ارتباكي فأقبل عليَّ رابِتًا ومرحِّبًا، ومن وجهه تطفر ابتسامة تَشِي بمعنًى خَفِي.

هه ماذا يُحيِّرك؟ بادرني بالسؤال. أجبتُه وارتباكي — إن لم أقل غضبي — نافِرٌ من وجهي: لا شيء، أو لا شيء تقريبًا.

– بمعنى؟

– أنا كنتُ قادمًا لتفكَّ لي لُغزًا فَصِرتُ أمام لُغْزَين.

– ماذا تقصد؟

– لا شيء، إنما ذلك الشخص، هل تفهمني؟!

– ألا تعرفه، أقصد ولو من بعيد، أَلَمْ تسمع به؟ كيف؟! أجبت بأني، وبطريقة ما، كدتُ أعرفه ولكن التبس عليَّ الأمر مرة أخرى وأنا أراه يخرج من بيتك أنت بالذات، فما كان من صاحبي إلا أن قَهْقه عاليًا ثم راح بعدها ينظر إليَّ بشبه إشفاق، أظنُّني سمعتُه

يقول: أنت مُصِر على التعجب. أظنني أجبت: أنا مُصِر فقط على معرفة ما يحدث، وعلى معرفة من أي طينة ذلك الشخص؟ وأظنه أجاب بارتخاء، وكأنه ينفض يديه من موضوع مُمِلٍّ: أوف، إنه رجل المرحلة!

٩ مارس ١٩٩٧م

هذا الكاتب أعرفه

فكَّرْت غير مَرة في الوقوف على حالة مُؤسِفة باتَت تَستشري في وسطنا الثقافي ومحيطنا الأدبي المزعوم، وينجم عنها اختلال شديد في فَهم بناء الثقافة المغربية الحديثة، وضبط نسقها ومفاهيمهما، والتَّعرف الصحيح على روادها وبُناتها من كل وجه، فكَّرت في ذلك مرارًا، ومعي أكثر من واحد، في النسيج المهلهل لهذه الثقافة وقد امتلأ خرقًا وتقلَّصت أطرافه بين شدٍّ وجذب، وأمْحَلت وجوه صانعيه مع مرور الأعوام فكأنهم ما وُجِدوا أو كأن ما نحن عليه اليوم من خوض في أفكار وقِيَم متطورة، وما نعتبره، أيضًا، نصوصًا إبداعية مُجددة ضَمِنَت لأدبنا شأوًا لا يُستهان به بين الآداب العربية؛ كأن ذلك وسواه ظَهر من عدم أو تَفجَّر وحده ليس له ينبوع هو مصدره، وروافد غذته، ومواهب أثْرَته إلى أن أصبحنا على ما نحن الآن عليه ونطمح أن نكون.

فمن نحو، يرجع ذلك إلى جحود، وهو ما يمكن أن يُعَد وصمة أخلاقية عند بعض من يَحْسَبون أن التنكر لسابقيهم، وإزاحة أعمالهم وأسمائهم عن ساحة أمْسَوا يتحركون فيها، وفي قرارة أنفسهم يشعرون أنهم غير جُدِيرين بها، من شأنه أن يُغطِّي على هشاشة وجودهم ويجعل قاماتهم تظهر أقلَّ ضآلةً ممَّا هي عليه، وهو — والله — خطأ في خطأ، لو عَلِموا؛ لأنه ما مِن قامة تعلو في بلاد طبع خلقتها الأقزام. فإن كان عدم اقتناع بما تركه لنا الأسلاف، فلا يتم ذلك بترك الحبل على الغارب، ولا بتعليق الزمن الثقافي الماضي على مِشْجَب الإهمال والنسيان؛ إذ في ذلك خطر على الحاضر نفسه ينطبق عليه سلوك إجحاف يصبح هو مبدأ الناس ودَيْدَنهم ويُمْسِي، بعد هذا، مُتعذِّرًا إنجاز أي تاريخ حقيقي في أي مجال من المجالات. فالسكوت عن الماضي والكفُّ عن استحضار رجاله وأعمالهم هو بطريقةٍ ما قَطْع للحوار مع الحاضر الذي تولَّد عَمليًّا من سابق ومُمتَد نحو لاحِق، وبذا، فإن مَسْلكَي الجُحود والتَّناسي العَمد هما في الحقيقة مِن طبع الغفلة والعجز عن الفهم

الحقيقي لجدلية الزمن، وهي حالة نحن نغرق فيها، في الوسط الثقافي المذكور، يومًا بعد يوم حتى الأذنين. إنها ليست نزعة سلفوية ما ندعو إليه، كما أنها ليست رغبة في طَمْس مَعالم الحاضر الفكري والإبداعي، كما قد يَتبادر إلى أذهان قَصِيري النظر؛ فالحاضر بمواهبه وعطائه إنْ وُجِدا بما يكفي من الغنى والإقناع يهمنا أكثر من غيره، بَيْد أن الأهمية هنا تزداد حين يقع ترتيب الأشياء في سياق، وتبدو منضوية في نسَق، ومُنخرطة بالتالي في مسلسل، وهذا بعض ما يعوز الثقافة المغربية الحديثة في مفهومها العام ومُكوِّناتها الشاملة، كما أنه استعداد أو قدرة لم يتأهَّل لها العديد من العامِلين في حقلها، سواء كانوا مُنتِجين مباشرِين أو مُقَوِّمِين أو مِن شُرَّاح المناسبات أو أولئك الذين تُوكَل إليهم مَهام التأطير الثقافي المادي والمعنوي على السواء.

ورُبَّ قائل: إن أعمالًا ودراسات جامعية عديدة انصبَّتْ على دراسة كثير من مُكوِّنات ثقافتنا ورَصدَت وجوه وجهود رُوَّادها بمصداقية علمية ووفاءٍ أخلاقي، وهذا هو الأهم في كل شيء، الأهم من أي لغَط إعلامي أو دَردَشات عابرة في المُلتَقيات الثقافية أو مُناسَبات التكريم مواتية أو مُلفَّقة، عندئذٍ يكون جوابُنا بأنه لا بأس بتلك الأعمال حقًّا، وهي أجدى من غيرها، فعلًا، وأبقى، ولولا أنَّنا لا نعرف، في غالب الأحيان أي مصير تأخذ ولا في أي مَجرًى تَصُب في نهاية المطاف، ولا كيف يُتَصدَّى للبحث في موضوع، أو التمحيص الطويل في إشكالية نظرية، أو صرف أعوام من العمل في نفض الغبار عن قامة كبيرة من قامات ثقافتنا قديمها وحديثها، أقول: كيف يَحدُث ذلك كله وينهض به باحثون، سرعان ما تَتبخَّر جهودهم إما لأنهم يَتوقَّفون في منتصف الطريق، أو لأن نَيْل شهادة كان منتهى طموحهم العلمي، أو لأنَّ انشغالهم بهذا الموضوع أو تلك القضية والشخصية لم يبلغ ما تحتاج إليه من الإيمان والشَّغَف الضروريَّيْن لمواصلة تبديهها وتصريفها ضِمْن القيم والمكوِّنات الثقافية للحاضر. يقينًا أن ما نذهب إليه الآن جزء ومَظهر من إشكالية البحث العلمي والجامعي الراهن في بلادنا، والمسئولية فيه مُتعدِّدة ومُتنازِعة، وهو ما يحتاج إلى مُعالَجة مُستقِلَّة يبدو لنا عن قُرب عديد من وجوهها ... إنما لا شيء يمنع من تحصيل القصور في هذا الجانب والنظر إليه بِعَين الاعتبار، ونحن نُنحِي باللائمة على المُتغافِلِين أو النَّابذِين أو المُزْدَرِين، بما يُعَد أصلًا في بناء ثقافتنا وأدبنا الحديثَين والوجوه الرائدة، المؤسسة والمُطورة أمس واليوم.

لا بأس في هذه المناسبة غير الشَّيِّقة من الإشارة إلى بعض الشُّطَّار عندنا، ممن خَبَرُوا طباع أهلهم، وراقبوا ويراقبون الزَّمَن كيف يمضي مستعجلًا، مُستخِفًّا بما ومن مضى؛

فهؤلاء يحرصون على تعداد مناقبهم في يومهم قبل فنائهم، مُكثِرين من الأتباع والمريدين، مُحصِّلين جبايات عطفهم وتأطيرهم وتَعهُّدِهم ووكالاتهم، يُدَبَّج عنهم من القراطيس ويُرْسَل في حقهم من الثناء العَطِر يريد به أصحابه بصفاقة؛ أي دون حياء، أن يكون أدخلَ في باب الفكر أو النقد أو البحث العلمي وغيرها من التسميات التي نخشى حقًّا أن تَبُور أو تُسْتَهلَك في صفقات ما أرْخَصَها وأبْأَسَها، حالَّةً مَحلَّ القِيَم الأصلية والتقدير الجدير بأصحابه الذين لا يُعَوِّلون سوى على الزَّمن إن وفَّى، وعلى ما يمكث في الأرض.

تحضرني هذه الأفكار، وتغزوني هذه المشاعر، وأنا أطوي الصفحات الأخيرة من المجموعة القصصية الجديدة «هذا الوجه أعرفه» (مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ١٦٩ من القطع المتوسط) للروائي والقاصّ والصحافي الرائد الأستاذ عبد الكريم غلاب، وهو رائد ومُعلِّم ومُجدِّد في هذه الحقول جميعها، أمضى نصف قرن ونَيِّف وهو يستصلحها، ويُلْقي فيها البذور، ينتزع منها الحَسَك والنَّبْت الطُّفَيلي، يَرقُبها أمامه وهي تَطُول عيدانًا مستقيمةً، ثم وقد أخصَبَها الغيثُ نَمتْ سنابل مُثمِرة؛ حتى إذا جاء أوان الحصاد والدِّراس فردَت تحت النظرة الثاقبة والإحساس المُرْهَف حبَّاتٍ ناضجة سُرعان ما يُخْتَزَن طحينها وعجينها في خُبز الحكي: ها الحكايات تتوالد منه، تتكاثر أقراصًا أقراصًا، فيها حوادث الزمن ووقائع الأيام وتجاعيد الرجال وقَسَمات النساء، وجوه المجتمع سَمحة ومُغضَّنة، أزِقَّة فاسٍ وأنفاسها المُعتَّقة، الوطن في صورة، الصورة في سريرة، بينهما تَتدافع سير الرجال ومصائر أقوام في الوقت والحياة، تتموج اللحظات الحميمة مع المُنعطَفات الحاسمة في وجوه وفضاءات دائمًا شاخصة، تُعْلِن عن حالها حدَّ الصَّخب، وتتكلَّم على أشجانها حدَّ الهَمْس.

من «سبعة أبواب» (١٩٦٥م) يَدلُف عبد الكريم غلاب إلى رِحاب العمر القصصي الأول متوسِّلًا سيرة الذات ومُنعَرَجاتها في حياة الكفاح الوطني، وطبيعي أن يتزاوج هنا قَلَق الشكل الفني مع بداية الاسترجاع لما خاضَته الأنا في مَسار الجماعة، وهو ما سيشرع في الاستقرار مع صدور المجموعة القصصية الأولى «مات قرير العين» (١٩٦٥م)؛ حيث تعلو النبرة الوطنية لمرحلة مُناهَضة الاستعمار على سواها في قَبَسات ولوحات كان لا بُدَّ مِن رسمها، ولو على عَجَل؛ ليتفرغ الكاتب لما هو أهم؛ أي لأول رواية جديرة بالتسمية في أدبنا المغربي الحديث «دفنا الماضي» (١٩٦٦م)، والتي تُعَد بحق تدشينًا للانطلاقة الناضجة لهذا الجنس الأدبي في كتابتنا.

فسواء في اسْتِيعائها الأدبي لمرحلة هامَّة من التاريخ الوطني ولشريحة اجتماعية أساس خاضَت حياتها وتبلورت مصائرها في إطاره أو في عملية النَّمذَجة الفنية لهذا العالم في عمران روائي مُتماسك، جاءت هذه الرواية مُنتِجة لرؤيتها الخاصَّة مؤهِّلَة السَّرد كي يعيد نَظْم الذات والواقع في عَقد متآلف، ومع رواية «لمعلم علي» (١٩٧١م) سيزداد هذا العقد انتظامًا وإحكامًا وصنعة ومتانة، كل ذلك لتبقى القصة القصيرة حاضرةً خيطًا موازيًا بسرديته الخصوصية، تَستقل بما هي جديرة أن تَنفَرد به إنْ في الرُّؤية والدلالة أو البناء والوَصْف، كما هو الشأن في «الأرض حبيبتي» (١٩٧١م). بَيْدَ أن غلَّاب الذي شَحَذ موهبته في عملين مَرموقين لن يستطيع هَجْر الرواية، بل إنها ستتملكه؛ لتصبح مِهماز مشروعه الإبداعي في بابها، فتَتوالى عناوينها كالتالي:

«صباح ويزحف الليل»، و«عاد الزَّوْرق إلى النَّبع»، «شروخ في المَرايا» وصولًا إلى «سفر التكوين» المُجنَّسة كرواية–سيرة ذاتية، فأعمال أخرى.

ومن نحو آخر، يعلم المتتبعون لتاريخ الأدب والنقد المغربيين الحديثين أن الأستاذ عبد الكريم غلاب سجَّل نظرات فاحصة وكَتَب فصولًا نَيِّرة في هذا المضمار؛ وجاء ذلك تعزيزًا للمشروع الإبداعي من جهة، وإضاءة لمفاهيم أدبية ونظرية حديثة، وكذا فكرية وتربوية من جهة أخرى، وهي تتبلور منذ أوائل العقد الستيني في محيطنا الثقافي، وفي حاجة لمن يضع لها تعريفات دقيقة، ويرسخ معانيها في الأذهان، وهو ما يبرز الموقف الثقافي لصاحبها وتصوراته النظرية في عدد من القضايا الأجناسية والفكرية، كما يمكن الوقوف على ذلك في كتبه–المعالم: «في الثقافة والأدب» (١٩٦٤م)، «دفاع عن فن القول» (١٩٧٢م)، «مع الأدب والأدباء» (١٩٧٤م)، ناهيك عن مؤلَّفات عديدة أخرى تاريخية وتثقيفية وتسجيلية ترفع من صرح إنجاز كاتب نرى أن أعمالها تتصاعد متماسكة ومتفاعلة من عقد إلى عقد بلا كلل أو ملل بما يؤكد بلا جدال أن الكتابة لديه مشروع حياة ورهانها معا. وهل نحن في حاجة بعد هذا إلى تبيان الدور الفاعل والحاسم للقلم الصحافي في إعلاء هذا الصرح، وهو القلم المغموس في المداد السياسي والاجتماعي والثقافي يقول بالكلم الواضح، المباشر، اقتناعات صاحبه سواء وهو يتبوأ موقعه في صدارة حزب الاستقلال بمنبره الإعلامي الأول جريدة «العلم» التاريخية، أو إزاء المواقف الوطنية العامة، انطلاقًا من هذا المنبر ومواقع أخرى غيره. وهو ما نعرف أنه يمتد في الزمن، أيضًا، أزيد من نصف قرن لم يُلقِ فيها الرجل سلاحه يومًا ولا فلَّ حتى وهو وراء القضبان.

هكذا نكون مع غلاب لا أمام سيرة واحدة، بل سير متعددة ومتفاعلة تبرز تعدد اهتمامات صاحبها واتساع آفاقه وطول باعه في عدة ميادين قل أن ينهض بها رجل واحد

إلا ثُلَّة من رواد التنوير والأدب الحديث، كما عرفتهم مصر، هم الذين شكلوا المدرسة الأولى التي تتلمذ فيها كاتبنا. غير أن الكتابة مهما تَعدَّدت مساراتها وأنماطها، فإنها عند غلاب دائمًا فعل إبداع، وموقع، وموقف وعي والتزام.

أعود فأقول بأنه حضرتني تلك الأفكار والمشاعر وعناصر الطرح أعلاه، وقد فرغت من قراءة مجموعة، «هذا الوجه أعرفه» فوجدت كيف أن الكاتب يعاوده الحنين إلى روضة القصة القصيرة؛ فيستخدم شكلها المدروس والمُقنَّن لرسم ملامح وجوه تبدو كأنها لآخرين فيما هي له، وحكايات لأناس حكايته هو في قلبها متراوحة بين طفولة وفتوة ورجولة. ووجدتُ أيضًا كيف أن القصة يمكن أن تتحول إلى مضمار تساؤل وبَوْح وسَرْد للذات دون أن تخرج كذلك عن المقتضيات التي يريدها لها الفن ومنهج صاحبها فيه الذي يعي جيدًا أن لكل مقام مقالًا، وهو المطلوب.

وقد تَعلَّم جيل حمَلَة الأقلام لهذه الأيام كثيرًا من هذا المقال، وباستطاعته أن يتعلم أكثر من دأب ومثابرة وإخلاص صاحبه لما وقف عليه حياته ويواصل ... أما أنا فأقول أخيرًا، وليس آخرًا: هذا الكاتب أعرفه، هو أستاذ وأنا تلميذ، نجتمع اليوم حول ما يحب أو كما يقول هو «على حافة قلم يكتب.»

١٥/ ٣/ ١٩٩٧م

التناوب والحب أيضًا

لم أكن أعلم، أو لعلني وأنا أعلم ضمنًا، أخفي سري في صدري، أتكتم عليه، أغار عليه من أن يُمسَّ أو يُذاع في السر والعلن، معًا، أحمل الصورة، تليها الصور في النهار، تتعقبها كما تذيلها الحواشي والحكايات. أحملها وأنا ألهث في البراري أو أسوق سيارتي مثل صحن طائر، أمر بالعابرين فلا يراني أحد وأكاد أرى. ليس النهار، كما نعتقد دائمًا، فضيحة علنية، إننا نمشي في وتحت ضوئه لكننا قَلَّ أن نتساءل أين تمضي الظلال الهاربة، ولا الخطوات التي كانت قبل قليل في الأمام وصارت إلى الخلف؟ وهل الذين ينظرون إلينا يعرفون حقًّا وجوهنا، يتأكدون من ملامحنا؟ إنهم إنما يقبضون على مخايل صور رأوها في وقت سابق لوجوهنا، لقسماتنا التي تركناها خلفنا في زمن انقضى ومكان توارى.

على العكس من النهار، فإن الليل هو مجال افتضاح الأسرار، وانفتاح القمقم لتنفلت كل الرَّهْبة المكتومة في الداخل. هي ذي صوري تَعِبَت من التستر نهارًا، بين الغدو والرواح. تَعِبَت من محاولات وضع الأقنعة لوجه بلا قناع، يمشي في الشوارع، ويتيه في البلدان، المنقرضة والصاعقة، وهَمُّه أن يلملم بقايا خلقة فائتة، كانت له، ويراها لا تَفْلِت من ذكراه، إلا أن تزيد كثافة ذكرى بين تضاريس الزوال وطقوس كل ولادة عسيرة.

هكذا أنتظرُ الليل بشغف قدوم الحبيب، وفي نفسي ألف خاطر وما لا عَدَّ له من الحسرات. أهيئ له وقته، وأريكته، أعد له مشروبه و«مزمزاته». وأستدعي أول عبير يكون قد تَنفَّس من عليق الحديقة. والسماء إذا تَفتَّقت فيها أولى النجوم أضعها ثلجًا في قدحه، وأقول له: في صحة بهاء النور أيها الليل الذي أنت مُدرِكي، وأنا أداري أو أباعد الوجل المتلبسني في طيف من هي مدركتي، وإن خِلْت أن المُنْتأى عنها واسع. من ضفاف نظرتها أرى في وجهه أَلَقًا، ودقائق ترتعش في مفاصله، ومن وجهه أرى وجهها تصاعد زفيرًا يلفحني، كأنه يلفح وجه القمر: ها هو ذا الآن استوى بيننا بدرًا كاملًا وتضوأ المكان، كل

المكان، حتى لا رُكن، لا زاوية إلا والليل فيها جليس، ونحن نصغي في جلال لصمت بعضنا الموغل في عمقه، نَتناوَش البدء في الكلام، أقصد مراوغة بقايا اللغة الممسوحة والمسموعة، مُتشبِّثين بأهداب أصفى اللغات عراقةً في التَّكتُّم على بوحها، نريده بوحنا الذي جعلناه في حرز حريز، مثل بلاد حفظت سِرَّنا رغم تَغضُّن وجهها، وتقلبها في الأسر من حال إلى حال، أو صراخها المحبوس من أجل الافتكاك.

من شدة اللفح كان الخدر قد سرى في الجسد، والجسد المتوهج سلفًا يلقي بالحمم، وصوت من الليل أم صوتها طلبني إلى ليله. أنا لا في الصحو، لا إلى النوم ذاهب. في الزمن الواحد أقيم والأزمنة متداخلة في جلستنا المشتركة. في الزمن المتشابك لا مقام لي لكي يهاجمني زمنها الأدهى، الأبهى دومًا، والأبقى.

من شدة اللفح شَبَّت النار بعدي، حولي، هَبَّ الجيران إليَّ، الطيبون، البلهاء يبغون إنقاذي من النار وأنا أستغيث منهم، أُنْكِر نجدتهم، أتوسَّل إليهم اتركوني لناري ... وكان الليل الذي حين يُوغِل في سيره يقولون عنه إنه أدلج قد بَدا لي كالفرقد و ... وبدءًا من بدءٍ لا عودًا على ... أُبَّهَتُها وقد تَخمَّر بها التراب، قبل أن تسكر منها الدِّنَان، تلك التي ... وبعد أن هوينا، بلا عشق عمد، على شفاهنا، هي الهاوية أخذتنا، جرَّتْنا، رمَتْنا خيارًا وعنوة، بين يدي هذا السلطان القاهر، سلطان النوم. كنا قد أَبْرَمْنا ميثاق شرف قديم؛ أي منذ تعس قديم كان للشرف فيه صليل، مثل داحس والغبراء، أو مثل بقائك في الغبراء وبعدها لا تحس بشيء، لا ترى عدوًّا ولا صديقًا. لا بُدَّ لك إلا بُدَّ الإقامة في الليل. حسبك أن تهجر نفسك، وتوسع في مجلس أقداح تَتولَّه بعطشها، لتبقى على سمعك يَتصنَّت لانتظار سماع الخرير ينبئ بغنج مقدمها، أو أنَّ عينًا منها طرفت أو لمحت أو هَجعَت، ماذا لو قدحت ... يا لرومانسيتي الهالكة. لا بأس، فأنا قَرَّرت من زمن بعيد ألَّا أتبارى إلا من أجل هذه الكلمات، الصور الهالكة «أعباد الله غيتوني!»

ثم هجم النوم غيلةً، هي التي هجمت بشراسة مَن لا يقوى على مبارزته أحد، ولا يقبل عتبًا ولا صَفْحًا حتى من السلطان القاهر، سلطان النوم، الملاذ الوحيد لصور النهار كي تستريح، كي أتجنب — شأن أي عاقل حقيقي — الإقدام على منع مرور السيارات نهائيًّا، في شارع النصر، مثلًا، أو حول «قوس النصر»، ولتوجيه الخلائق ذات الأطراف المترامية في التسول للبكاء والتوسُّل خلف أسوار «شالَّة» مثلًا.

ثم رف طائرك يا «البعلبكية». لم يلبث بعدها أن رَفْرَف، كان قد جدَّف، وكنت قد رأيت الطير صافات، وإذا هي في رمشة عين قطوع، ماذا أبقيتَ لي يا زمني بعد قطوعها

غير هذه الرمم، أراني في حلمها أم حلمي تجمعني، عبثا تجمعني، من أرصفة «الحي اللاتيني»، المزبلة اليوم، أو من سماء «حقل مارس» في الدائرة السابعة، أي على مبعدة آهات قليلة من عمارة نصعد إلى سمائها. ومنها كنا نطل، مَخفورين بالقمر والنجوم والكواكب الأخرى التي لا ترى إلا بالعين المرهفة، ونحن ننظر مشفقين إلى العابرين الذين لهم وقت لكل شيء، إلا للحب ... أقصد لتلك الحقول ... في مارس ... آه، «وكنا إذ ذاك شبابًا».

ترانا ما نزال؟ همست «البعلبكية» من قلب الشغاف: «على رسلك، أوَتستعجل الزوال لتسلوني في رحيل لا يطال؟ ... تعالَ نجدد تلك الحياة عَودًا على بدء كأنها بدء الحياة.» ما انتظرَتْ جوابي، بل تأبَّطتْ حنيني المستتر إلى أيام لَم يُعْجَم لها عود، فرأيتني وإياها نخوض باريس من مطلع شفاه النهر تاركة خلفها أطلال مدينتها الشرقية، عبثًا، فهي متهدلة من خصلات شَعْرها البعلبكي. وسِرنا، سرنا النهار والنهار، الليل فالليل، تعبر الأعوام قبل بدء مشيئتنا، هي التي راحت تفعل فعلها فتأكلنا، وتنهشنا، وتُطوِّح بنا في كل الأنحاء، مُستعذِبِين معها هذا البدد. أنا نسيت حالي والليل أخذني في مَجرَّاته، يُقلِّبُني في لياليه كما يشاء.

أكثر ما دهشت له رؤيتي للربيع منسدلًا على شرفتنا بستائر من نجوم، وجميع موسيقى نافورات باريس دفاقة تحت سريرنا، لمست الماء بيدي، هو ذا الماء يسري، أوشكت على الصياح من الولع، بلي يا ... ح. انقطع الصوت فجأة، انجلى ليل لا الليل، وألفيتُني أُزِيح عنِّي الغطاء دافعًا نومًا لم أطلبه. نهضتُ واقفًا أتحرَّك كمن ضربه حمار الليل، وكان ذلك الربيع قد أصبح أثرًا بعد عين.

أي إني في الرباط، يوم الأربعاء ٢٥ مارس من العام الجاري، وحين غادرت البيت نازلًا إلى شارع محمد الخامس لم يكن أحد يعرف سِرِّي، يعرف بيتي وحلمي. في تلك البلدان الديكتاتورية الغريبة وحْدَها كان رجال المخابرات يَتجسَّسون على أحلام الناس، أما اليوم فالعالم كله يلهج بالديمقراطية، أليس كذلك؟! المهم أني بعد نزولي ببضع خطوات صادفت صديقًا «زيلاشيًّا»، أي من بلدة أصيلة، وَدُودًا باغتني بفرح طفولي قلَّ في زماننا المقعر هذا، قائلًا: «هل تعلم أني قضيتُ ليلة البارحة معك، أقصد وأنا أقرأ ذلك النص الذي كتبتَه سنة كذا عن «البعلبكية»، زوجتي وأنا أُعْجِبنا به أيَّمَا إعجاب، يالل ...» عِوَض أن أنتفخ كديك لهذا الإعجاب أُسْقِط في يدي. لقد ذاعَ سِرِّي، وافتضح بَوحي، أنا المُؤْتَمن على أسرار العشق، وكيف يتأتَّى لغيري أن يغشى أحلامي؟

راح الزيلاشي الودود يقرأ بعدها مقطعًا كاملًا، ومن فيه حسبتُ الصوت يتشكل، بل يتشخصن. لقد تشخصن الصوت، أصبح جسدًا وذاتًا. توسَّط بيننا، فهَبَّت نحوه أولًا تطبع قبلة على جبينه معلنة بامتنان: لقد أنقذتني وأحييتني وأَعَدْتني إلى الهواء، إلى هذه الشمس. بلغ الكلام إلى الشمس فأرسلت وقْدًا إضافيًّا إلينا، نحن الذين نتهيج هذه الأيام من الاحترار.

أما أنت، قالت وهي تلتفت إليه، فلن تحبسني بعد اليوم في كلماتك. ليست اللغة سجنًا بل الحُرِّيَّة مطلقًا، مطلقًا. لك شِعْرُك ولي الجسد والشِّعْر معا، فَهَيْتَ لك!

أردت أن أفضي لها ببعض أسرار الغياب، فوجدتُها تسبق خاطري، وبنبرة معاتبة تذكرني أننا لم نفترق إلا قبل ساعة، ليلة أمس، أَوَنسيتَ؟! أردتُ أن أقول لها فقط إن ربيع هذا العام استثنائي، ربما كان استثنائيًّا.

فسبقت الخاطر مرة أخرى: لا شك أنك تقصد التناوب، لك ذلك، لكم ذلك، إنما من أجلنا جميعًا لنقل ما رأيك يا حبيبي؟ نحن نعيش التناوب والحب أيضًا، وتَبدَّدتْ، ولم يَنبِس الكلام ببنت شَفة ... يا حبيبي.

٢٨ مارس ١٩٩٧م

تداعيات كاتب عمومي

(١) مكان تحت الكلمة

هل للكاتب موقع خاص يستطيع أن ينفرد به، ويتهيأ له من ثَمَّ وَضْع جديد بهذا الموقع ومشترط به؟ إلى أي حدٍّ بوسعه الاستقلال بذاتيته، تلك التي إن لم يُحَصِّنها جيدًا تَحوَّل إلى كَمٍّ غُفْل، وبدونها سيعجز عن تَحسُّس ذوات الآخَرِين؟ وكيف يتأتَّى له إفهام بل إقناع أولئك الآخَرِين بضرورة هذا الاستقلال الذي يعنيهم هم من منطق حرص مُشترَك ومتبادَل؟ ثم كيف تُنْجَز المعادلة الصعبة لهموم طرفين بما يؤدي إلى تذويب حدَّيْها في حدٍّ مُتَماهٍ ما أمكن، مُتآلف، هو ذاك الذي يتسنى فيه لواحد أن ينطق بلسانه، بشجنه الخاص وفي اللحظة ذاتها يحس أصواتًا أخرى تندلق من لسانه، وأشجانًا متماثلة تقول وجدها مع رغبتها. لا بل إنه النطق الواحد في انصهار لا يقبل التَّجزيء هو الحميمية مطلقًا.

مثل هذه الأسئلة ونظائر لها ممكنة تكتسب قدرًا أكبر من الدِّقَّة والمعقولية حين تُطْرَح بِمنأًى عن التجريد، أي وهي تستنبت في محيط معلوم بشروطه، مُتحَدِّد بخاصِّياته، نسميها على وجه الإجمال سوسيو-ثقافية، فليست أسئلة المجتمع والفكر والأدب واحدة في جميع البيئات، أو قُلْ إنها متفاوتة من حيث إمكانية تعميمها، فإن هي عُمِّمَت فلا بُدَّ من تنسيبها وإخضاعها لمحيط تَطَلُّبها، وسَيرهن محتواها ليبصمه ببصماته الخاصة. ما أكثر ما تفوتنا هذه البديهة ونحن نقرأ ثقافات وآداب أمم وشعوب أخرى حين ندرج قضايانا وأسئلتنا على مستوى التماهي معها، وعديد من مفكرينا وأدبائنا يعمدون إلى ضروب من التسوية والتطابق والاستنساخ للخطاطات والمفاهيم والتصورات والأساليب، في طراز من المُثاقَفة النظرية والشكلية الصِّرْف التي لا تُلْقي بالًا لظروف التَّكوُّن وتقع

في مصادرات شتَّى بغية إلحاق ما هو مُحلِّي بالأفق العالمي، وهي نظرة خاطئة أساسًا باعتبار عالمية الشيء، تستند من بين ما تستند عليه إلى ظهوره في تربة مُحدَّدة أَوجَدتْه، فضلًا عن نجاعته القابلة للامتداد والتعميم.

إن سؤال الكتابة الذي يُعَدُّ من الأسئلة المُؤرِّقة في مجال الأدب يسمح، من وجهة نظرنا وفي أفق اهتمامنا، باختبار هذا الطرح، وذلك من زوايا عدة أقربها — ولا شَكَّ — إلى دائرة الاهتمام العام عندنا مَضمون العمل الأدبي والقِيَم التي يحيل إليها الكاتب أكثر من غيرها. إننا نعلم أن مفهوم المضمون بات متجاوزًا في الأدب الغربي، فيما يتم التركيز على العلائق الداخلية والإواليات السيكولوجية بالدرجة الأولى، التي تُوجِّه المصائر الفردية في مجتمَعات تَفكَّكتْ أنسجتها القديمة وأصبح الفرد قُطْبها. وفيما كان المضمون، سابقًا، منحازًا إلى الجماعة ومصيرها المُشترَك، في إطار شروط موضوعية تُمْلِي هذا الوضع، وجدناه عقب التحولات الكبرى التي شهدتها مجتمعات الاقتصاد الرأسمالية، ونتائجها على مستويات السلوك والتفكير ونظام القيم ينقلب إلى مضمون فردي محض، وإن شئنا إلى استثمار مُفرِط لمخزون الذات التي تَتحوَّل إلى منجم تستخرج منه حتى نفادها ونهايات تلاشيها، والرواية الفرنسية منذ وقت طويل تغص بهذا التمثيل، وتعكس بإخلاص وضعية مجتمعية بات الإنسان فيها منكفئًا على عصابه، ولا يهمه أن يرى أبعد من أرنبة أنفه. أُدْرِك أن في كلامي بعض التعميم وإن كان لا يخرج في النهاية عن نَواظم لن يلبث أي انزياح عنها أن يعود سريعًا للانضباط في «الذوق العام» وهو، للمناسَبة، ذوق مُفَبْرك تصنعه جهات متخصصة إعلامية وإشهارية وأدبية تجارية بما لا يُبْقِي أحيانًا للقيمة الإبداعية سوى أدنى الحظوظ وأبخس الاعتبار.

إن الرواية الفائزة عام ١٩٩٦م، بجائزة الغونكور الكبرى للرواية الفرنسية، الحاملة لعنوان «المقاتلة صفر» chasseur zéro لمؤلفتها الناشئة باسكال روز، تدخل في عِداد الأدب العاكف على العُصاب الفردي، الباحث عن الخلاص المُفْرَد في الذات، في عالم تكاد الأنا تصبح مُبْتَداه ومنتهاه، وما تقاطعها مع أَنَوات أخرى، إلا ترسيخ لهوية وجودها وتعزيز لمسعاها في البحث عن الجذور، وتجميع الانشطار، وترميم الانكسارات ما أمكن. هذه الرواية لا تبذخ إلا من هذه الناحية، وهي تقصر بكثير عمَّا قدمته «مرغريت دوراس» في مجموعة روايات وكتابات متلاحقة رُوحًا ونَسبًا وفيزيونوميا وأسلوبًا، تتحرك كلها تقريبًا في مدار الاجتثاث والمحاولة المستحيلة لاستئناف الوجود بِأَنَا صُعِقَتْ بالحرب والحب، وليس لها غير أَنَاها المغتربة ملاذًا.

لا تستطيع الرواية العربية، بالمقابل، أن تبوح بِأَنَا كاتَبِها أو شخصياتها إلا بكثير من الصعوبة في دورات مُعقَّدة من التَّخفِّي أو المُنعرَجات. وإن وجدناها تفعل فمَرَد ذلك إما لحدوث ضرب من المثاقَفة المباشرة على مستوى معيش صاحبها في مجتمع غربي، وهو ما تُقدِّمه لنا رواية «حب في المنفى» لبهاء طاهر بصورة جلية، أو لأن المؤلف سرعان ما يسقط في رومانسية بائسة متوهِّمًا تحقيق القيمة الفردية وخطاب الذات المكبوح. لنَقُل إن هذا الأخير ليس منعدمًا، بأنه متراوح طَردًا وعكسًا بين ما ينسرب تلقائيًّا، وما يمر عبر وسائط شخصيات كانت أو أقنعة أو مواقف. وفي المجموعة يبقى التَّرَجْرُج هو السمة الغالبة على أدبنا، على كتابتنا عمومًا من هذه الناحية. والسبب المركزي يكمن في أن المُنتَج الأدبي لدينا يجد نفسه، بل هو مُطالَب بأن يكون كاتبًا عموميًّا قبل أن يَتحقَّق له وضع الكاتب الخصوصي أو هُما معًا. غير أن وضع الكاتب العمومي، بالمعنى الواسع لهذه الصفة، هو ما يَفْرِض عليه مَجتمعٌ يُملِي مُسبقاتِه، وعنده تَصوُّر جاهز عن حامل القلم الذي ينبغي أن يكون في خدمة كذا وكيت. إن الثقافة الاجتماعية العامة لا تدخل في حسابها رصيد الثقافة النقدية والصيرورة الخصوصية للأدب، مثلًا، والمقاييس المسننة في النظريات النقدية، الشيء الذي كثيرًا ما يَعُوق انتشار الأدب الجديد أو الرصين ويسمح بَتسلُّل بضائع تحصل على دمغة الأدب زُورًا وتَلَقَى رواجًا يستهلك فيه في الحقيقة غير ما تزعم أنها وُجِدَت له. على أن وضعية الكاتب العمومي ليست نقيصة، لا ولا خللًا في بيئة، المجتمع فيها سيد قبل الفَرْد الذي هو قيمة ثانية أو لاحقة، العيب فقط في أن تكتسب لتغدو المركز والأطراف وينتفي الفرق بين ما هو أدب وما هو هُرَاء مَحْض.

٢٩/٣/١٩٩٧م

«يتوالدون كالأرانب!»

(١) طريق عنابة

يوم الأحد موحش عمومًا في كل مكان، لكن ما أوحشه في باريس. هذه مدينة مُتبرِّجة، غانية. تحتاج دائمًا إلى إظهار مفاتنها، واسمها يعيش بعدد مَن تَفْتِن ويترنح خلف أذيالها. فإن أنت حبسْتَها في غرفة يوم الأحد وأغلقتَ دونها المزاليج تُبْعِدها عن الوقت المنشرح، والنهار الصاخب، وبعده الليل الآسر كشعاع ترشفه من فمها بين صحو وثمل يقدحها، رأيتَها تذبل بين يديك، تَتَقَوْقَع صماء مثل ضَبابٍ كالح. هو ذا القنوط، فيما أنت تحتاج إلى وَجْهِها الفرح، إلى ذراعيها تضمانك بشوق الدوام، لا يحاسب، لا يعاتب، ولا يقاضي عن أسباب الرحيل وأعذار الغياب، هذا هو الشوق وغيره ليس إلا حب الامتلاك.

غادرت الشقة هذا اليوم قُبَيل الظهيرة، كنت مضطرًا وإلا لبقيت منكفئًا في الفراش على ضجر لا يفارقني منذ أيام، ثم هناك ما يَتبقَّى من تعب الليالي العارمة التي لا تنتهي. أمانة عندي لا بُدَّ أن أحملها من صديق إلى معارف له في زنقة «فالغيير». حاولتُ في البداية أن أتخلص من هذا الطلب، لكن الصديق البيضاوي ألَحَّ قائلًا طالما أنت ذاهب إلى هناك فلن يكلفك ذلك سوى انعطافة، فَهِمتُ منه أنه يقدر بأني سأمرُّ بالضرورة من حَيِّي القديم في ساحة «الري» بالدائرة ١٥، وبأنني لن أتمالك نفسي شطر عنوان أو عنوانين لي في محيط الساحة. كنت موقنًا أنه لا يعرف ما يجوس في خاطري، وأنني إن نجوتُ في مرة سابقة من الهلاك بعد أن رحتُ اقتفي أثر الغابرين، فلا شيء يضمن لي النجاة والمدينة التي أينع فيها عز شبابي تَقْلِب لي ظَهْر المِجَنِّ، وهي تسلمني لأشباح تتقاذفني من وفي كل مكان. لأصل إلى مقصدي أخذتُ ما يكفي من الحَيْطَة لأتجنب المرور قريبًا من بيت الشيخ الصحراوي الراحل. «باهي» دائمًا وأبدًا. ركبتُ الحافلة في بورت «سان كلو»،

ونزلت في بورت برونسيون وليس في «بورت دي فانف» المؤدي مباشرة بعد لَفَّة أو لفَّتَين إلى زنقة «لي موريون» حيث خيمته منصوبة إلى الآن. وأنا أمشي كنت ألتفت يمينًا وشمالًا وخلفًا كمَن يحاول الاهتداء إلى طريق في هذه الطريق التي تعرفني منذ أعوام. كلَّا كنتُ أتجنَّب ذلك العنوان بينما أنا ماضٍ إليه أو أحاذيه، فالهواء هنا مُشبع برائحته، وخطواتي تَدُق الرصيف مُتعثِّرة، لا واثقة كالعهد بها ... أهذا حصاد العمر يا ...؟

أخيرًا عبرتُ، لكن إلى أين؟ أنا متأكد من أني أوشك على الوصول إلى عنوان الأمانة، رغم أن رُفاتي خلفي يتبعني، بعد دقيقتين وأصل إلى الرقم ٢٥ «زنقة فالغيير». سأعبر الشارع إليها، أولًا. سأنتقل إلى الرصيف الآخَر، سأواصل، ... هه، السي المدين، ماذا أسمع؟! هه، من أرى؟! فركتُ عيني وأنا أراه مقبلًا نحوي فرحًا، دهشًا، مُبتسمَ السِّن، قادمًا من عشر سنوات خلتْ لا يفرقه عنها سوى ظهره المنحني قليلًا إلى الأمام، وشعره الكثيف، الأسود، شَحَّ وغزاه الشيب.

السي المدين، ورمى حميد الكيس الذي بيده أرضًا ليرتمي الواحد منا في حضن الآخر. واش راك يا بورب، وعلاش راك تحوس، ما زلتَ في هاد لبلاد الميرد ...؟ تدفَّقَت أسئلته لا تَطلُب جوابًا وهو يدفعني إلى المقهى الوحيد المفتوح في الحي.

وأنت يا حميد، واش من أخبار؟

– الحالة هي الحالة كما تعرف.

– وعنابة، مازلت تروح في الصيف؟

– مرة، مرة، الصوالد قلال أمون فرير، راني نَستنَّى بركات تقرب لاروتريت ونروح للبلاد، وين هي فرنسا يا حسرة. وسليمان يا حميد وين راه؟

– على بالك هو شيطان، تزوج كاورية، بصح ماراهش مليح، هي ساعة تهزو من ودنه، وهو ساعة ساعة يتفكر أولاده في تيزي وزو، ويضرب عشرين ريكار في النهار، والجماعة الكل تفرقوا من وقت مات سي محمد سنترا، وخالي يدَّر راه ما زال كما هو في قهوته «لابراكا» ما يضحك ما يبكي، واش تحب الدنيا خربت يا بورب. وأضاف بأنه انفصل عن صديقته التي كان سيتزوج؛ لأنه ما يحبش تمنييك النصارى، وأنه بدأ يفكر في الموت، وأنه في كل ليلة يعلم بأنه عند مَشارف عنابة ولا يصل، وأظن أنه سألني أخيرًا عن أخبار الشيخ الصحراوي، هو الذي اعتاد المرور كل مساء عند خالي يدَّر، وأظن أن صاحب المقهى الجزائري سمع سؤاله فأنقذني من ورطته متدخِّلًا من وراء الكونطوار:

– كيفاه، ما على بالكش؟ دنيا فانية

(٢) طريق الأخضر

لا يكون الأحد موحشًا في باريس أو في لندن، إلا عندما تكون السماء شاحبة، رصاصية، تكاد تنفجر من غيض، أو عندنا نحن المغتربين الذين لا نعرف كيف نصطنع الأفراح العابرة ونقتات بمُتَع منظمة تُبدِّد قتامة الأيام المجهولة. أما عندما تشرق الشمس وتفيض ضحكتها على الأرصفة والحدائق والبحيرات فإن نهري السين والتاميز يزغردان وإلى ضفافهما يأوي العشاق والمتعبون من كل صنف وجنس.

نحن لا نفكر في الشمس إلا في مداراتنا الأصلية، أو بالأحرى إننا هناك نتضايق منها من شدة إفراطها، ومن كثرة إجحاف المطر في حقنا.

كنت أعلم، وقد هجم الضوء نفاذًا إلى غرفة النوم صباح الأحد هذا، أن باريس ستعيش يومها واحدًا من أعراسها المشهودة، فالشارع الشهير، النازل من قوس النصر إلى ساحة لانكونكورد، أو تلك الباحة الفسيحة في انشراح التروكاديرو، وسواها من الأماكن التي تذهل السياح ولا تعنيني شخصيًّا، سيهجم عليها الألمان واليابانيون كالغزاة بالأمس، وهو ما قد يثير فضولي بعض الوقت، لكني لا أستسلم عادة لمثل هذه الغوايات البسيطة، المبذولة لكل سائح أبله. من حسن الحظ أن عبد الله الحجراوي هنا، وهو من إخواننا القلائل الذين سَيَبْقَون هنا، ويجد في الهرولة مُتنفَّسًا لبعض هموم الغربة، وإن بَدا عمومًا منسجمًا مع وضعه ونفسه، وهو شيء حسن. قلتُ له: يا عبد الله، سنفعل وسنُنْهِك الجسد، كعادتنا، حول ملعب الخيل، لكن اعلم أن خطبي هو الغابة أولًا وأخيرًا، هواك إذن ما يزال، أجاب، في تلك الألوان.

في البداية لم يكن لي غير حُبٍّ واحد، أظنه الأبقى وإن تَعدَّد وتجدد، ومن شرفة يرتمي إلى مشارف التيه. غدًا إذا قابلته لم ينكر وجهي، سيهب نحوي ليتعرف على وجهه القديم، ومثل الراهب في طقس المناولة سيناولني كرَزة لأتأكد من رضاب شفتيه هو غيثي في هذا الجفاف الكاسح.

هل الربيع الذي ألاقي الآن هو الربيع أم إن الفصل تَغيَّر؟ مطلع شهر أبريل هو بداية أبجدية الشهوة أم إني الذي تَغيَّر؟ أمر جائز، واللون هو الحاسم. سأُتَّهم حتمًا باختلال العقل لو علم أحد أني أُحلِّق في سموات وتحت بحار من أَجْل لون لألقاه، أو كأنه هو الذي يريد لقائي لتعيد له النظرة طراوة وجوده.

من جهة «بورت دوفين» وجدته في استقبالي حاملًا لوحة، كما في المطارات أو محطات القطار، كتب عليها «الأخضر ابن الأخضر»، لوَّحْتُ له فلَوَّح لي: وإذن، أنت هو؟ وإذن،

هو أنت، قلنا معًا عبارة واحدة، ولم نفكر أيُّ واحد منا هو الآخر؟ اقتادني نظيري المنتظر في الممشى الأول المؤدِّي للغابة كالعارف بطقوس تجوالي. هو دليل سياحي غير اعتيادي مختص بالألوان، ولم أكن سائحًا، أَسْخَر دائمًا من جميع السياح، يظهرون لي بُلَهاء بعض الشيء. أيام البساطة العتيقة كنا نجلس في إفريز مقهى الأكسلسيور بباب لكبير (ساحة محمد الخامس حاليًّا بالدار البيضاء، وهذه معلومة للنازحين) فتمرُّ أمامنا حافلات كبيرة يطل منها كهول وعجائز، أحيانًا يلتقطون لنا من نوافذهم صورًا كأننا كائنات أثرية أو يذهبون إلى مراكش ليشاهدوا ثُعبانًا يرقص، وقردًا يقلد مغربيًّا، أو الجِمال في باب الخميس قبل أن تُقْتَاد للذبح (مثل إلياس كانيتي، المسكين). في زمن آخَر تمر حافلات ضخمة في هندسة السبوتنيك بشارع جورج الخامس بباريس ويطل من نوافذها أمريكيون في نهاية مَطاف العمر، وهم يلحسون بأعينهم آخِر قطرات الحياة، بلا جدوى، فالحياة عَبَرت أيها البلهاء. قبل أيام، أيضًا، قمتُ بالسياحة على طريقتي: كان لي وَطَر أقضيه في شارع كليبر؛ أي قرب قوس النصر. وقفتُ عند قاعدة القوس الشامخ وأمامي عشرات اليابانيين، إنهم يتكاثرون هنا كالأرانب، هم ينظرون إلى القوس من أسفل إلى الوسط فالأعلى وأجسادهم تَتبدَّل حركاتها كالكراكيز، وأنا أنظر إليهم ينظرون ويخزنون المكان في عدساتهم ليروه ربَّما للمرة الأولى بعد مائة عام. ولاحقْتُهم أنظر إليهم ينظرون وهم يَستدلُّون على أماكن وجدهم بخرائط مُعقَّدة، إلى أن انتبه لي أحدهم فهبَّ غاضبًا نحو شرطي قريب، ففضَّلتُ أن أنسحب بشرف من هذه المهزلة السياحية.

أما اللون، قُل الألوان، فدليل لها ذاكرتي. كنا اثنين ونحن نمشي نحوها، نحونا، نحن الخريطة تنظر إلى منعرجاتها وخطوطها. وقفنا عند الشجرة الخضراء الأولى فشهقنا: هذا أخضر خجول. عند الثانية: هذا أخضر ناعم الملمس. عند الثالثة: هذا أخضر عاشق، عند الرابعة هذا أخضر شبق. بينها انبثق البنفسج كالفجاءة وتلألأ تحت الشمس، أيضًا، كالسراب، وخلافًا لليابانيين رحتُ أشحن العين بالاخضرار لأخضر به ساعتي وليس بعد ذبول العمر. أكمل عبد الله الحجراوي الكلم العاشر في هرولته وتوقَّف لاهثًا عندي، وقُبالة تلك الشجرة، رفع إليها بصره فندَّ منه تأوُّه مُستغرَب، سمعته كالمتكلم من داخلي: هذه حتمًا تعشقك، مضى عليَّ زمن لم أرَها على هذه الخضرة الغزيرة، أمس، فقط كانت شاحبة، أم إنك سَحرْتَها؟ قلتُ له: يا عبد الله، لماذا تنكأ الجرح، بل هي ساحرتي ترعى رفاتي، فعلك تفهم الآن سر هذا الولع.

(٣) طريق الأرانب

حبستُ الحرقة في نفسي ومضيتُ لا ألوي على شبع مما رأيت. زكيت الأمر بأننا نحن العرب كائنات عاطفية، هَشَّة، هُلاميَّة، رِخْوة، نَسِيميَّة، قَمرية، غَزَلية، رِثائية، غِنائية، شَجَنية، ليلية، عَيْنية، هذا كله ونظيره، غير أني إلى اللحظة، قبلها بقليل لم يخطر لي ببالٍ أننا يمكن أن نكون أرانب؛ أي إننا ببساطة مثل كل الأرانب، وإذا احتج أحد وأنكر كيف يجوز هذا وقد كرَّمَنا الله بخلقة آدمية، لا أعدم مَن يتصدى للإنكار مُخفِّفًا من غلواء قولي بأن المسألة هي من باب التشبيه لا أكثر، وأن عليه أن يتريث فلعل في الأمر سرًّا سيفطن له أولو الألباب.

والحقيقة أن وضعنا، نحن العرب، أرانب أو كالأرانب ليست له ضرورة علاقة وطيدة بالزعيم الصهيوني الجديد بنيامين نتانياهو أو أسلافه «الكرام»، فجنوده ومستوطنوه، الذين يساوي كل واحد منهم ألفًا أو مائة ألف رأس منا، لا ضَيْر عليهم أن يختلط عليهم الشكل العربي، فهو في هذه الأيام خاصَّةً، شكل هجين. مرة يظهر في صورة شاةٍ وفي صورة قِرد وفي صورة بهلوان، وفي شكل أرنب أيضًا. ولذا فأشقاء نتانياهو تَتحرَّك أصابعهم بسرعة لتضغط على القُرص وتقتل وتجرح وتقتل في كل اتجاه، وبرصاص حقيقي: إنها أرانب فلسطينية، مُجرَّد أرانب عربية، ويستطيع بعدها الزعيم الصهيوني الجديد أن ينام سريعًا، وبأحلام لذيذة دون أن يُقضَّ مضجعه أي إنذار، بريجيت باردو، تلك الحسناء الشمطاء، نفسها لن تقيم الدنيا تحت أقدام اليهود لفتكهم بذلك الحيوان البريء، الأليف. فهي مشغولة، وستبقى مشغولة إلى آخِر تجعيدة إضافية في وجهها الجُثماني بـ «الجرائم العربية» النكراء ضد الأكباش المسكينة، خرفان عيد الأضحى.

والحقيقة كذلك أن وضعنا، نحن أبناء المغاربة خاصَّة، أرانب أو كالأرانب، لا يعني ضرورةً السيد جان ماري لوبين زعيم حزب الجبهة الوطنية، اليميني المُتطرِّف في فرنسا، فالأرنب بالنسبة له ولأنصاره لحمه طيب، ولذيذ جدًّا إذا صنعت له مرقة منقوعة بخمر مُعتَّق. أما لحمنا عنده فهو كالجيفة لا يستحق إلا الردم والرَّمْي: ملايين المهاجرين، رَحِّلوهم بالبواخر والقطارات على عَجَل وننفض يدنا من تلك الرائحة!

إذن، من يعني الأمر تحديدًا؟ أوه، قد يعني هؤلاء ولكنه يعني تحديدًا اليمين الفرنسي الديغولي بدوره، حزب التجمُّع من أجل الجمهورية، الحاكم اليوم في فرنسا، والذي اجتمع فرعه الشمالي مؤخرًا ليقيم نتائج المؤتمر الأخير الذي عقده حزب لوبين في

مدينة استراسبورغ وتأثيرها في الناخبين، وأبرز ما ركَّز عليه اجتماع فرع الشمال لحزب شيراك هو بالطبع موضوع الهجرة والمهاجرين، مِحور استقطاب التطرف الفرنسي.

والحاصل أن الاجتماع بعد دراسة جديدة ومتأنية للموضوع المثير للجدل خلص إلى ما يلي: حقًّا إن للمهاجرين المغاربيين أدوارًا لا يُستهان بها في الحياة الفرنسية، وبدونهم ستكون كثير من مناطق فرنسا مُقْفِرة. وصحيح أنهم لا يأكلون لحم الخنزير، ولكنهم يُشْبِهون الخنازير ... انظر إنهم «يتوالدون كالخنازير».

١٢ أبريل ١٩٩٧م

ضياع في الأوداية

(١) شموخ بابل

نحن الآن في استهلال مايو، وقد أغدقت علينا السماء قبل أيام بمطر مدرار، ثم أشرقت الشمس ملء فصاحة العرب القدامى، وبدا الربيع مجنونًا في أعطافنا، مغرِّدًا من عيون صبايانا.

هذه صورة أولى تحت شمس مغربية، عربية، لكنها مبتورة، مثل جسد بساق واحدة، أم رأيت الورد، شكل الجلنار، وللياسمين هندام لكن بلا أريج. أما النعناع في شاينا فلا يذكرنا بعبقه القديم، حين كنا نجلس طَرِبين بعروبيتنا وقت شمس العشي.

كله كان، فنحن نهمس في السر: مَن نحن؟ ندفع الآهة تلو الآه، تحت الوسادة، فيشب الحريق ولا دخان. ذلك الومض البعيد اقترب، وتجلَّى كالكشف في يد العرافة، التمسني، قال: اقبس من ضيائي يشتعل الفضاء بما خبا من حريق ... الذي تفانى في الاحتراق.

كأنها بغداد، بل هي بغداد طُرًّا، شمسها إن غربت، رمادًا صار وجه البلاد. الأريج تعفف أمام انحناء سعفة مكسورة، والأرض التي تأويني لها وجهها، والفيء في صهدها محمول إلى الأصقاع الأخرى، هي بغداد لَنَبلُونَّكم بحبها، فإن هَجرَتْكم لم يَبقَ في الرباط غير سرير من سهاد وندم.

الآن وقد مر «البرابرة» بقينا وقوفًا كما بالأمس، والمغول إنما شُبِّه لهم أنهم مَرُّوا من هنا، فالنهر دائمًا يجري ودمنا لؤلؤه، أزكى ما فيه. وهذا يكفي لتبقى شمس العرب التي في سمائك ساطعة، وحْدَها هي شمس العرب. أما الباقي فأصداف مجلوبة لليل فيهم بهيم، وهم يجرون أذيال الذُّل، ويَبُوسون أقدام أسيادهم ... «البرابرة».

للعيون التي ما بين الرصافة والجسر، لبابل حيث لا أشمخَ مِن بابل، و«الحُلَّة» معصم سوارها «بادية» لو علمت، ومَنِ انضم إلى مَحْتِد إبراهيم لا يُسام الخسف، تراه يجوع فرحًا إذ يشبع الجياع، ولسيد له قامة في إباء ما بين النهرين، توالد من عمره هذا العصف كله، دمه في الأعالي يزغرد، لا يطال، إلا على جبين الأرض، هو قبلتها والشهيد.

باعوهم، أوغلوا في عرضهم، وبقينا نحن بحر الدم نزهو، ليس لنا من مَتاع غير وجه، قبس من وجه الفيض لا تغادره الشمس إلا لتغمره المسحة القمرية، جرح على جرح والرجال وقوف، أجسادهم الدروع وقوف لتحمي صوت الله الأبقى.

حين وصلت إلى بَابِك تقدَّم مني نشيدي، خفق حنيني، سمعتُ صهيل الخيول، العرب تنصب أيامها و«البرابرة» في دهش من أمرنا، ومن سِر هذا الحب الذي لا يُضام. لن يعرفوا، لأن نشيدي ليس للبيع ولا للسفلة ... هو وحده يعرف الطريق إليك، عامه هذا، مثل كل الأعوام.

(٢) لحن الخلود

لم أكن مُسرفًا، غير أن ذكراها مُمِضَّة، وابتلائي بها جاء بعد فوات الأوان. هكذا يحدث عادةً للخاسرين مثلي، يجدلون بقاياهم أنينًا خائبًا، والصور تنسدل على جانبي الأيام مثل سوالف «الأشجار البَكَّاءة». التفت العنق منك إليها شبه مُودِّع، كالمتحسر، أشجارك هذه كيف تتركها وترحل، ولياليك البيضاء مُخضَرَّة بأوراقها، لا تَسَل عن الحمراء. أنت تستبطئ المعنى هنا كما تَستبطئ الرحيل، والمعنى ما هو غير ارتجاج الكلام في الجوف، ارتطامه بصخر الحلق لينسرب في ألياف الصمت، الصمت الذي اختارني قبل أن أختاره، وبعد اصطفاف الخلق ينتظرون خروجه في حلة قشيبة، المعنى الذي مر أمامهم، عاد إلى بدايات خلقه وهم لا يبصرون؛ لذا ستبقى، ولستَ وحْدَك، عاجزًا عن فهمي، تطلب الوضوح لما لا يتضح أو تطلب تفسير نظام القمر في ليلة مقمرة، خذ بعينيك القمر أولًا قبل أن تهتم بِعَدِّ النجوم. تعلم أن تضم إليك الجسد المعطاء، أن تشم فاغم أحراش إبطيه مثل رائحة الغابة ملفوفة في قماط الضباب، حين يكون المطر قد ولَّى أو غبَّ فواته، والشمس مَخاضها خيوط تعارك للنفوذ فوق الوبر، كي تكشف عورة النهار، والنهار انفلت. كان الليل قد زفَّ انبلاجه، جرَّه إلى خباء عينيه. أَوْلَم له، أسكره وأرتعه، وحين أطلقه فاضت روحه في سديم المعنى-الغابة. أنت لن تفهمني، ولست وحدك، فالنصوص لا تضيئها الأقمار، بل استغراق الذات في الفناء وهي في زعم الأحياء.

بل أنا مُسرِف إذ أتذكرها، وهي تنزل كل مساء من طابق وغرفة لا أعرف لهما رقمًا، في فندق تلك المدينة المشرقية التي زُرتها يومًا وغِبْت عنها دهرًا، ثم عدتُ إليها بلا هدف صيفَ العام الماضي، كأني أنتظر هبوط الملاك فيها ليحملني بين جناحيه نحو الوجه المفقود. يفتح باب المصعد على البهو الفسيح فتخرج هي منه كَهَبَّة نسيم، هكذا أحس بها في صهد تلك المدينة رغم جهاز التكييف. لا تلتفت يمينًا ولا شمالًا، فقط تترك وجهها السمح يسبقها كأنه يفتح الطريق لخطوات تمر أمامك كالهمس، لتستقر أخيرًا في المكان المعهود لها، خلف البيانو الضخم تقتعد كرسيًّا وثيرًا. وقبل أن تفتح أول كُرَّاس للشروع في قراءة النوتة تُخلِّل أصابع يديها بشعرها المضموم إلى الوراء ... وبحَّة صغيرة، هي البحَّة الوحيدة، تصدر منها ربما لتُنبِّه بعض الجالسين المبعثرين على الكنبات في البهو، ومثلهم حول طاولات البار الداخلي، وهم يقرقعون كئوسهم ويقشرون الفستق.

كان واضحًا تمامًا أنها من خارج هذا الجو، هذه المرأة الأقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، برشاقتها المستدقة، وشُقْرتها المرقطة بحبيبات بنية خفيفة، وعينيها اللتين تنظران إلى الجميع ولا أحدَ في الآنِ عينه. انْجررتُ في البداية إلى لعبة تخمين ساذجة أريد منها تحديد جنسية العازفة، ثم لجمتُ نفسي مباشرة حين أدركتُ أن صنيعي هذا هدفه الأول والأخير تحويل المرأة التي تجلس أمامي للعزف كل مساء إلى طريدة للإيقاع بها في أقرب وقت. بل إني وبَّختُ نفسي بشِدَّة لإحساسي بأني رغم كل تجاربي ومزاعمي ما زال تفكيري ينطلق من أوهام «الفحولة العربية»، وكانت هي نمساوية، كما علمتُ فيما بعدُ، وشتَّان. يتدفق عزفها في مدخل المساء رقيقًا، ساجيًا، تناوش به معزوفات يفترض أنها معروفة عند زبناء الفندق، وإن كان منهم عدد بين رجال ونساء وأطفال أحجامهم أسطوانية، ويرتدون ملابس فضفاضة كالخيام، وتحسب أن النساء منهم من جنس العميان، وهم يُحْدِثون جلبة هائلة بين الدخول والخروج، بل هم يَعودُون دائمًا بأكياس من الأرغفة والطعام يَشرعون في ازدرادها من دخولهم إلى المصعد وصولًا إلى غرفهم التي حوَّلوا أَسِرَّتها إلى قُدور. هذا كله وعازفة البيانو لا تكترث، كأن العربان الذين نحن، بجَلَبَتِنا وازدرادنا وقَرقعة كئوسنا والكَبْت المَحرور على شفاهنا لا يعنيها في شيء، بل أستطيع أو أؤكد بعد جلسات طويلة قُبالتها للاستماع إلى عزفها أنه لا يعنيها في شيء.

والليل يَتقدَّم يُخيَّل إليك كأن مِزاجها بدأ يُعَكَّر وما هو بالعَكِر. إن هي إلا أصابعها تنتقل إلى عزف ذي نبرات حادَّة وتوقيع مثير. تتخلَّى عن كُرَّاس النوتة وتُوغِل في العزف وحدها، لا أحد سواها الآن وهي تنقر. الموسيقى لها، ولها الليل والمكان ووجوهنا كلها

بالرغم منا تَنشَدُّ إليها شئنا أم أَبَيْنا. ويكون عرب الأكياس قد انخرطوا في الشخير، وعرب الفستق ما زالوا يُوشْوِشُون أو يُقايِضُون صُوَيحِبات ساعة زمان، وعَرب آخرون من الخائبين مثلنا أحداقُهم مُعلَّقة بنبرات تبدأ في الانكسار شيئًا فشيئًا، ثم تَتندَّى في سقف البهو لتقطر الموسيقى موسيقى على وجوهنا، ونحن في غفلة عن الزمان والمكان والليل، إذ يجنح نحو ليل آخَر.

إلا هو، فلم يكن بتاتًا ولا لحظة في غفلة عن أي شيء مما يدور حوله. لم أَنتَبِه لحضوره إلا في وقتٍ متأخر؛ أي حين انتبهْتُ لحركة شخص لا يريد التوقف عن الذهاب والإياب في بهو الفندق، وعيناه تطرفان مرَّة مرة باتجاه لم أستطع ضبطه. لاحظتُ أن العازفة، بدورها، راحت تَطرق بعينيها في الاتجاه الذي لم أستطع ضبطه. أخذتُ أتفحَّص وجوه الحاضرين أمامي، وقد صاروا قِلَّة، عَلَّنِي أضبط موقع تقاطُع النظر فلم أظفر بنتيجة. تساءلتُ هل هي واحدة من أنواع اللَّعِب الكثير التي تُمارَس في هذا البلد السري، الجدير بأشكال التصرف السِّرِّيَّة؟

قلتُ ربما، غير أني خِلتُه لعبًا لم يتوقف. رفعتُ بصري تدريجيًّا من الوجوه إلى مَساند الأرائك، إلى الجدران المنجدة، إلى السقف من حيث تتدلَّى الثُّريَّات، فلم أفُز، أيضًا، بشيء. قررتُ أخيرًا أن ألعب بدوري، وما المانع، فالرجال هم في النهاية أطفال كبار. قلتُ سأنتقل إلى الأريكة المحاذية تمامًا لكرسي العازفة، ومن مجلسي هناك سأراقبها بوقاحة إن اقتضى الأمر، وفعلتُ.

أخيرًا اكتشفناه، بل اكتشفتُ موقعه. تزحزح الجدار الذي يحمل صورته. صورته المُعلَّقة داخل برواز كبير، ومنها ينتأ وجهه نتوء اللحم البشري، فَلَتكادُ تقول إنه سيطفر خارجها وهو حي لا صورة فوتوغرافية. على كل، فأنا لستُ متأكدًا من شيء، اللهم من أن نظراته شرسة، ماكرة، تلاحقك حيثما التفتت، وتجس جسدك موضعًا موضعًا، وتحنطك إن شاءت فتخمد نفسك. فهمتُ لماذا كانت أنفاس العازفة تتلاحق بسرعة مرة ثم تَخفتُ وئيدًا كمَن انتابه فجأة إعياء شديد. انتقلَت العدوى إليَّ فتلاحقتْ أنفاسي. وفي جولات متقطعة في بعض شوارع تلك المدينة وساحاتها كنتُ لاحظتُ سلوكًا مماثلًا ولم أبحث عن العلاقة بينه والصورة الهائلة المُعلَّقة. أظن أني سألتُ أحد المارة إن كنا في يوم عيد هنا، فنظر إليَّ بتجَهُّم نافخًا باستنكار:

«أولا تعلم أن أيامنا كلها عيد؟!» وكانت الصورة تَترَى حيثما تنتقل، بأشكال وأحجام وألوان وبراويز مختلفة. وإذا اتفق أن جدارًا أو بابًا أو أي فراغ منتصب ظهر خاليًا

منها وجدتُني مدفوعًا لأملأه من مخيلتي بملامحها واحدة، واحدة، إلى أن تصبح كاملة الحضور. نهضَت العازفة النمساوية أخيرًا، أو إن الصورة هي التي أنهضَتْها حين أمرَت العينان الشرستان، الماكرتان، بإيقاف العَزْف وطلبَتْ منها أن تَتْبَعانِها، وبعد ثوانٍ كان المصعد قد غيَّبهُما. بعد ثوانٍ، أيضًا، انطفأت أضواء البهو. انطفأت مصابيح الشارع، قدَّرْت أن كل ضوء في المدينة انطفأ أو هو في الطريق، فقد ساد الظلام، وأنا على أريكتي دائمًا بالبهو المُعتِم لا أعرف كيف أجد طريقي. ربما كانوا بالمئات لا يجدون طريقهم مثلي. وحين قرَّرتُ أن أتحسَّس الطريق كالأعمى بحدسي انفتح السقف كستارة كثيفة كانت مُسْدَلة وانزاحت دفعة واحدة، وظهرت لي السماء مشعشعة بالنجوم مُحوِّلة الدجُنَّة إلى مهرجان من الضوء. وحين أمعنتُ في التحديق كدتُ أسقط على وجهي من فرط دهشتي. لم تكن نجومًا بل هي عشرات، مئات الصور، لا يَحدُّها أو يَعدُّها البصر. وصور بألوان وأشكال وأحجام وقيافات وبراويز مختلفة، وملامحه هو، رغم المساحيق التي تُغطِّي تجاعيد وجهه عنادًا، هي ذاتها بقسوتها المعهودة. تُهيمِن عليها العينان ذواتَا النظرة الشرسة، الماكرة.

في المشهد الأخير تشرع الصور في النزول من عليائها، أراها تنزل كمطر غزير علينا جميعًا، نحن الذين صِرنا حشودًا في البهو والشوارع وساحات المدينة وجميع الطرقات المؤدية من وإلى. أراها تنزل لتقع على وجوهنا وأيادٍ خِفيَّة تُمْعِن في كَشْطِ جلدنا القديم ليخلفها جلده هو، صورته هو، وجهه هو. لم نعرف مَن أحضر آلاف المرايا، رأينا وجوهنا فيها وجهه فينا، رأتْه العازفة التي خرجَت للتَّوِّ من المصعد فشهقَت، رأيتُه في وجهها فشهقتُ وتبعتُها جهة البيانو، حيث جلسَت على الكرسي خلفه واقترب منها شخص تَدلَّى رأسه من السقف، ملامحه هي ملامحي أقصد ملامح وجهه، وهمس لها بشيء على إثره طوَّحَت بدفاتر النوتة أمامها، وأعلنَت أمام الملأ في انفعال وحماس لم يَسبِق لهما نظير، بأنها من الآن فصاعدًا، واعترافًا منها لِمَا للصورة من أيادٍ بيضاء عليها وعلى الخلق أجمعين، قررت أن تُسَبِّح بوجهه، وحمده، وتعزف له اليوم وغدًا وأبدًا لحن الخلود. هنا ضج البهو بالتصفيق، وفي الخارج تعالى الهتاف والدعوة لمُلاحَقة جميع الذين لا يحملون وجهه. ومن ناحيتي قصدتُ أول مرآة مقابلة لأتأكد أنني ما زلتُ أحمل وجهه، ولأحمد الله وقد تأكدتُ بأن كل شيء على ما يرام.

٣/ ٥/ ١٩٩٧م

ضياع في Châtelet

لم تكن الأولى، لن تكون الأخيرة، التراوح المُدوِّي في صمت ارتجاجه. ستذهب وتجيء ثم تذهب إلى ما لا نهايات المسافة. الكلام يحاول فقط الالتحاق بأذيال الخطوة الراحلة، يقتفي الظل والأثر مُمعِن في الابتعاد عن حاله وما يبغي اقتفاءه. مثل القصيدة، بكل صورها المَجازية وقُزَحِيَّاتها البلاغية، لا ترسم من خيال الشاعر إلا تركيب المخيلة في اتجاهات بلا ضفاف، بلا تخوم. ولذا، مرة أخرى، فليس المعنى سوى وَهْم حصوله، التحقيق المفترض الذي يخدع بالاستجابة لطلب الراغبين في الطمأنينة. إنهم يرغبون دائمًا في الاستقرار في مكان، في شيء، في ثابت، والباقي عندهم أضغاث أحلام، وهم لا يفهمون أن الحلم هو الأبقى ما دام مطية الشاعر، الإنسان الخلاق، نحو الخلود.

ليست الأولى، ولا آخِرَ لها خطوة الترحال والفقد المترحل، لا تقنع بالكلمة، الكلمات، صهوة الضياع هو الموقع الوحيد الممكن؛ لأنه، رغم اكتنازه، رغم كثافته المجربة، المساحة الهلامية، السائحة والوحيدة، التي لا إمكان للقبض عليها. وهذا، أيضًا شيء آخَر يعجز عن الإحساس به، إن فهموه، من يُنصِّبون أنفسهم، بقرارات عسفية، ولاةً على كلام الناس وأحزان الشعراء. وبعيدًا، أيضًا، بعيدًا نحلق خارج مدارات تجار الصفقات الكلامية، الجاهزين دومًا لاستلام الكلمة في كل المناسبات وحتى ولو افتقدوها نَصبُوا لهم خيامًا في العراء وساقوا إليهم العِباد كالأغنام يحسبون أن الرُّغاء الذي يخرج من حناجرهم هو كَلؤُها ومرعاها، وهو ما يجعل المعنى البسيط يضيع، يتلاشى إلى حد ابتذال آدمية الإنسان ومسخه إلى ثُغاء، وفي أفضل الأحوال إلى صورة مُلطَّخة بجميع الألوان ولا لون، جميع الأشكال ولا شكل، كل العبارات المنمَّقة المُمَوْسَقة بلا إيقاع ولا جمال. ربما، ومن أجل استعادة بعض الإنسانية المفتقدة هذه الدعوة إلى ضياع يحدث بالاختيار.

هل نملك أن نختار حقًّا؟ في غالب الأحيان يأتي الجواب سلبًا أو منزاحًا كثيرًا أو قليلًا عمَّا نحب. على كلٍّ، وبالنسبة إليَّ فإنني أفضِّل التحرك في مساحة اللامتوقَّع وما هم بعد ذلك توفر الرغبة أو انحسارها، والرغبة، على العموم، غريزة في حالة كُمون، تحتاج إلى قدح زناد لتشتعل نارها، مثل الْتفاتَة لامرأة عابرة وفجأة يبعث عالم كامل، غزير من الذكريات.

في بداية ذلك المساء، المساء الذي يَنتصِف معه شهر أبريل، وباريس مُسربَلَة في دفء نهايات يوم كان مشمسًا حقًّا، بل حارًّا بمقياس الأذرع والصدور المُندَلِقة، شبه العارية للسائحات الألمانيات والإيطاليات اللواتي كنَّ يَتسكَّعْنَ في حدائق التويلري، بعد أن احْتسَين مقدار عَطشِي من الجعة واللمونادا المثلجة، ورُحْن يَتهادَين وقد جَلَبْن الهوى من حيث أدري ولا أدري. يا لضياع الغريب ذاك الذي يفتقد غُربته الأولى وقد صارت الأماكن كلها أمامه وداخله عامرة بالذكريات، وإن شئتَ سَمِّها الوقت التالف يعتصر الحنين. ومثل العرَّافة، وقد احتسيتُ القهوة الذكية لمقهى «لوفلور» رحتُ أستطلع بعيني ثُمالة الفنجان غير مُعوِّل على شيء، ومصمِّمًا ألَّا أُعير سمعي لعجوز خرف يروي لفتاة جارة نَفدَ صبرها عن زَمَن فحولته في هذه النقطة بالذات من «السان جرمان» التي نحن فيها، وذلك قُبَيل الحرب العالمية الثانية.

الغربة ليس أن تَحل، وحسب، في مكان وبين قوم لستَ منهم وجهًا ولسانًا، بل هي أن ينكرك، وبلامبالاة، المكان الذي تَكُون قد توهمت في لحظة ما أن وحشتك تَبدَّدت فيه، وصرتَ واحدًا منه بحكم التعايش، وكذا الألفة المفترضة. الجالسون هم أنفسهم أو تتشابه عاداتهم شبه المتوارثة، وقد كنت منهم في سنة سابقة، فيهم في جميع الأعوام التي سبقتْ، ومنضدتك أو الطاولة التي كنتَ تجلس إليها لكتابة قصصك الأخيرة نظرت إليك وأجفلت. في الطابق الأول من المقهى ما زالت قرب المقصورة المخصصة لغير المُدخِّنِين، حيث تتوافد اليابانيات وقد تَبضَّعْن من حقائب «فويتون» باهظة الثمن، ويبدأ طقس شرب الشاي وأكل الخبز المحمص مع طلاء خفيف من الزبدة ومربى الفراولة ... أنت تحاول إتقان الحبكة وهُنَّ يَعْضُضْن على الفطيرة بالبَرَد (وهو قول مستعار من قول الشاعر العربي القديم «وعضَّتْ على العِنَّاب بالبَرَد»). أجفلت الطاولة وأنكرَتْك إلا نادل الباحة السفلى من الجهة اليسرى، الموشك على التقاعد، وحده لا ينكرك، بل تراه يتشبث بمعرفتك، ويلبي الطلب بسلوك الشخص الودود، العارف بقدر غربتك في زمن تولى أو يولي وهو فيه علامة، نصب قائم في عُتوِّ الأيام تعصف بالأجيال التي تمر من هنا وهي لا تخفف الوطء. حضورك أمامه، وإلحاحك في طلب قهوة يعلوها زبد فاغم يكاد يبدو له الدليل الوحيد

فالقاطع على أنه عاش هنا حقًّا، طبعًا بالإضافة إلى رقمه في الضمان الاجتماعي، زيادة على تجاهله المحمود لمن يطلبون مزيدًا من السكر لقهوة نكهتها مسكرة.

التفاصيل هي بعض غنى العالم، وأنت هنا جالس تلهو بها وتتسامح إذا أحسستَ أنها هي ما يلهو بك في مثل هذه المدن التي شاخَت وتحَوَّل الزمن فيها إلى أطياف مَسكونة بأرواح مَن قَضَوا أعمارهم عاشقين لها. لا ينتظر أحدٌ أحدًا. لا ينتظر إلا نفسه إن هي لم تخالف الميعاد، وتضيع في أحد المنعطفات. الحقيقة أن موعدًا لي كان مضروبًا مع عبد الرحيم لحمدي، أو هو بالأحرى إمكان اتفاق على لقاء في السابعة، في هذا المقهى بالذات الذي أصبح بمثابة «الزاوية» عندي، يزورني فيه مَن يشتاق إليَّ أو يريد التعرُّف على عاهاتي الجديدة.

عبد الرحيم لحمدي لم يحضر للموعد بعد أن «اعتقله» أحمد السنوسي في شارع المونبرناس، وألزمه بالمرابطة في مقهى «السليكت»، لاستكمال تفاصيل الفرجة القادمة التي سيكون مسرحها «أربعاء بروكسيل»، و«خميس أمستردام».

هبطت غشاوة الليل الأولى، فإما أن أغادِر لأنال حِصَّتي من الحَساء الثقافي الفاتر، المُعَد هذه الليلة، لبرنار بيفو، أو يصطادني واحد من الكهوف السِّرِّيَّة التي ما تزال تُغري بالحياة هنا. وحسمتُ أمري بالعودة حفاظًا على صحتي وعافية جيبي، أيضًا. كان بوسعي الرجوع مشيًا لو شئت، ولكني، ولأمر ما، هبطتُ مترو السان جرمان وقد انقلبَت الخطوط في دماغي دفعة واحدة. من هنا سأتوجه إلى محطة شاتلي إذا أردتُ أن أُبدِّل نحو أي اتجاه آخَر. لكني لستُ بحاجة للتوجه إلى هذه المحطة، فضلًا عن عدم توفُّر أي قصد للتبديل. إنما وقد نزلت إلى المحطة، فقد قُضِي الأمر، وأية أهمية للتفكير في الاتجاه الصحيح ما دمتُ مقتنعًا بأني أضعتُه منذ وقت بعيد، وما أفعله الآن هو مراوحة في الذاكرة. السيدة التي جاء مقعدي إلى جانبها في الطائرة سألَتْني أن أساعدها لدى النزول، وإذا لم يكن من مانع أن أصطحبها معي في التاكسي الذي سأستقل؛ لأنها لا تعرف هذه المدينة، فأجبتُ ألَّا مانع من المساعدة، بينما سيصعب عليَّ تلبية طلبها الثاني. تساءلت: مَعذرَة، هل من مانع؟ فأجابت: آهِ، طبعًا بل هو عائق، لهذه الدرجة!

– أوه، أكثر مِمَّا تتصورين.

– كيف؟

– إن لي قريبًا صعبًا بالمرصاد ينتظرني عند النزول، وأنتِ هل تريدين العودة إلى الوراء؟

– كيف، مرة أخرى؟

– طريقي غير سالكة فأنا جئتُ لزيارة ماضيَّ، ولذا سأحلق مثل الطير. هنا فهمت السيدة أنها تخاطب شخصًا أقرب إلى الخلل منه إلى عقلها، فكفَّت عن الكلام النواح. بحركة آلية قفزت إلى أول عربة في المترو، وقفت حيث أقف عند الرصيف. فتح الباب أوتوماتيكيًّا وبعد ثوانٍ انغلق دوننا، كنا ثلاثة. بعد دقائق معدودة وصلنا إلى محطة شاتلي. هنا لم يَعُد لي مجال للتردد؛ أي لا بُدَّ أن أحسم أمري باختيار جهة مُعيَّنة أو سأبقى هنا أدور في المتاهات الشائكة لهذه المحطة الشاسعة، وَيحسَبني كل راكب أو عابر بأني ضائع، وهذه قد يَتبَعُها سين وجيم مِن صداع.

لا ليس أنا من سيتَعرَّض لهذا المصير، ففي المترو الباريسي العريق ما أكثر ما يحدث من مفاجآت! بل هو مسرح المفاجآت، قفزتُ من العربة إلى الرصيف، قفَز معي آخرون. نحن نزلنا. وبين فتح باب العربة وانسداده كان آخرون يركبون. وأنا أُدير في دماغي فكرة الاتجاه الذي سآخذ، اضطررتُ للبقاء واقفًا في مكاني أمام القاطرة، وعلى أهبة التحرك لاحظتُ أن سيدتين تقفزان إلى الداخل قفزًا ... وكان هو وراء الثانية يحاول أن يقفز خلفها، لكن الباب الأوتوماتيكي انغلق فبقي هو في الخارج، بينما الحزام الذي يُطوِّق رأسَه يدُه في يَدِها التي انفلتَتْ منها وقد باتت في الداخل.

صرختُ كالملدوغ: Attention, le chien كانت صرخة مُدوِّية، مثيرة، هائجة وفزعة أيضًا. فما زالت صرختي تُدوِّي وباب العربة انغلق على الحزام والقاطرة سَتتحرَّك ت ... ت ... ح ... ر ... ك. قلتُ إن جسمه سيتطوح في الفراغ، بعد ثوانٍ سيرتطم بجدار النفق، وستسحقه العجلات. انقض مسافر ذو سحنة أجنبية على صرختي فارتمى على الباب، ارتميتُ إثره، صِرْنا كُثرًا ارتموا يجذبون الحزام جذبًا عسى أن يُسْحَب من بين ضلفتي الباب الملفوفتين بالمطاط، وحين نجحنا في مشروعنا كان المترو قد غاب في النفق وأمامنا الكانيش الذي قُدِّر له النجاة على أيدينا، لكن أي نجاة هي والمشكلة ستبدأ الآن فقط، راح الكلب يُنَهْنِه ثم ينبح ثم يبكي كطفل أضاعَتْه أمه في الزحام. كنا أربعة مُتحلِّقين حوله: فتاتان والأجنبي وأنا، بيني وبينه سيحدث صراع سِرِّي حول «بطولة» هذا الموقف: هل صَرْخَتي التي نَبَّهَت إلى الكارثة أم مبادرته العملية لتفاديها؟ أما الفتاتان، وواحدة منهما سأعرف أنها زوجته أو رفيقته، فقد كانتا تتبرعان بالأسف والحسرة على مصير الكانيش. فعلًا، لقد صِرْنا في مشكلة لا يخفف منها سوى احتمال عودة صاحبة الكلب بمجرد وصولها إلى المحطة الموالية (لي هال) لاسترداد حيوانها. قلنا جميعًا إنها حتمًا

ستفعل، فوقفنا نترصد المترو القادم من الجهة الثانية. وبما أنني كنت الشخص الوحيد الذي رأى بأم عينه الفرنسية صاحبة الكلب، فإن عُنُقي صار أطول من الجميع.

والآن، دقائق، أي ما يكفي من الوقت لالتحاق الصاحبة ووصلتْ أول قاطرة من اتجاه (لي هال)، نزل الركاب ولم تنزل هي ... قلنا ربما القاطرة الثانية، وأكيد أنها في حالة يُرثَى لها، فلنتريث ولنخفف على الكانيش الذي يواصل البكاء هولَ ما نزل ... ووصلت القاطرة الثانية ولم تصل هي فعانقت الفتاة الأولى الكانيش وهي توشوش له بدفء: يا حبيبي، وقلتُ أنا أيضًا، هكذا في الهواء: يا حبيبي، ولم أكن أعرف حقًّا مَن أخاطب، توالى وصول القاطرات والسيدة البيضاء لم تظهر ونحن كنا جميعًا سُمرًا والكلب أشهب، والكلب استكان إلينا أخيرًا، ونحن نقول إننا لا نعرف ماذا نفعل به، وقلت من جانبي: إن كنيشي الأسود «الدكتور طانغو» لا يقبل الشريك، وهو سيد في حديقته، وقالت الفتاة الأخرى القمحية، ذات اللكنة البرتغالية، بأن سَكَنها ضيق، وقطتها، شريكة حياتها، صعبة المِراس ... وفكَّرْنا أن المسكين ضاع وقد أضاع أمه وأنهكه النباح فبدأ يبكي بصمتٍ، وعادت: يا حبيبي، يا حبيبي ... وقلنا: هذا الكلب صاحبته لن تعود، ونحن نعرف أن الفرنسيين يتخلون عن كلابهم بأي طريقة قبل العطلة، لكننا لم نَستسِغ بتاتًا أن تَتخلَّى عنه تحت عجلات المترو، فنالت منا هي وسلالتها والفرنجة كلهم جميع شتائم الأرض ... وقرَّرْنا أخيرًا أن نحمل الكنيش إلى إدارة مترو محطة شاتلي، فأخذنا نتنافس في حمله ونحن في الطريق وأُسْقِط في يدنا أن المكتب مُغلق، فالساعة العاشرة ليلًا، ياه هكذا مر الوقت ... وظهر كالملاك حارس رَسمي بالمحطة وبيده الطولكي وولكي، فالتففنا حوله: هاه، عندنا مشكلة، هاه، هذا الكلب صاحبته ... هاه، وجدتم الكلب إذن، إن صاحبته اتصلت بنا من محطة (لي هال) قبل قليل تسأل عن مصيره ... ربما قبل أن يُغمَى عليها.

في واحد من مخارج محطة شاتلي تَوادَعنا فرحين، مبتهجين بهذه النهاية السعيدة. في نقطة الصعود من القاع إلى الشارع رأيتُ أمامي حشدًا وسمعتُ جَلَبة. كان رجال الشرطة يصنعون حاجزًا وهم يطلبون الأوراق من الخارجين. اثنان منهم يمسكان بإفريقي يفركل بينهما وهو لا يكف عن الصراخ: ولكنها ضاعت، أوراقي ضاعت، وهما يجيبانه: وأنت، أيضًا، ضعتَ. هنا صحوتُ تمامًا ودفعتُ يدي إلى جيبي لإثبات هويتي، وأنا أخشى أن تكون قد ضاعت حقًّا ... وللضياع بقايا.

١٠ مايو ١٩٩٧م

ما أجمل «أحبك» باللغة العربية

الولد الذي عرفت في طفولتي كلما قابلته وجدته مُمدَّدًا على عشب ذكرياته يرعى فيها زهيرات ما زالت يانعة من طفولة مغرقة الآن في البعد. كبر وطاف في الأرض، وازدانت حياته بين الفتيان والقيان، ولا شيء يعمر مخيلته، كما يسكن لياليه، مثل تلك الوجوه الصبية المقمرة في سماء وإن أضحت بعيدة إلا ما أقربها إليه أكثر من حبل الوريد، وأوهجها، أبهجها تعوض ما بات في العمر يتصحر.

جميع مدن الباء مغرية وأغراها عنده برشيد، جوهرة الشاوية. في نطقه وصمته تنبت على شفتيه وردة، وفي ممشاه تسري عبيرًا. ما بالها طفولتي؟ قال لي، أشد فتكًا بي أنا المفتوك به في سائر الأيام. طين البراري خضاب يُزَرْكش أعلى الكاحل، ومن المعصم أوردة الحناء دلقة، مزغردة، أما وجهها كالندى حياء، كالشمس آيلة للغروب، فمن هي يا ابن روحي؟ من تكون هذه الغواية، الفتاكة يا سليل طفولتي؟ صُوَرها تتتابع في الانفلات. لا يستجمعها غير الهروب المضطرد، غير تَلاحُق الأنفاس تتلو سباق الظلال. أكيد أني رأيتها، أكيد رؤيتها لي، ومُؤكَّد أن أحدًا لا يستطيع الجزم بثبوت الرؤية؛ لأنها كانت تتم خلسة، وقد تبعثرت النظرات في أحشاء البلدة وأطرافها كفرط الرُّمَّان؛ قُبلة للأرض هنا، خشعة مع الطين هناك، وحين يأتي الربيع نتسلل إلى الحقول نتغطى بقامات السنابل قبل أن يقصفها الحصاد، نحن الذين هربنا ألوان شقائق النعمان إلى أحلامنا، لم نجد لها غير هذا الفضاء حرية وفُسحة لتبقى الحمرة القانية على خدها البريق الذي اهتدى به طريقي، قال صديقي، نحو مدينة الباء الأولى، فتنتي ووبائي.

بلدتي قال: أسترجعها في لغتي، في غمغمة أولى هي مَصَّة الرضاع، طفر الحليب من صدر أمي. راري راري يا سكَّات الدراري، فينحني رأسي على وسادة حنان دافق بالكلام انحناء سوالف الضاوية الفقرية على ثدييها العامرين يندلقان في تأجج نظراتي

إليهما وهي تجفف «بوس الدار»، وأنا أشتهي ولا أفهم، بينما فَمِي عامر بالكلام الصامت، الكلام القادم من تلك النوايل الخلفية في دوار أولاد امحمد، وصرير عجلات الكرويلة يقطع صمت الطريق إلى القصبة في عز الصيف. تسمع الأهازيج محمولة بين الشطيح والرديح، أقول لك: هذا ما سمعت، لا تخف على أولاد حريز، فالزهو ولقصارة عندهم شأن ومرشان، وإذا كذَّبْتَني اسأل عن أولاد برشيد!

هكذا يسهب لسانه ولا يشفي؛ لأنه يرى اليوم عجبًا: لساني جرَّ عليَّ كثيرًا من البلاء ولم أَخُنْه. حدث ذلك للمرة الأولى في تلك البلدة التي أصبحت اليوم مدينة. كنا في فجر الاستقلال وأنا في المدرسة مع أقراني. استدعاني مسيو أوبلي، المدير الفرنسي العملاق وأنا لا أفهم، بالغريزة توَجَّستُ شرًّا، لم يكن عندي أي قلق من جهة الدروس، فمعلمنا الفرنسي الآخَر كفيل بهذا الأمر. ما إن دخلت إلى مكتبه حتى عاجلني بصفعة لمحتُ على إثرها البرق في عيني وأتبعها بوابل من بصاق وهو يعلق: والآن عليك أن تكفَّ عن الكلام بالعربية في القِسْم أو أن تذهب لتسرح الغنم مع «لي زانديجان». في صباي كانت أمي تراريني بالعربية، وفي الليل أحلم بالعربية وصراخ كوابيسي أيضًا، فكيف يفهم؟!

حين رويتُ الحادث لأبي الذي عرفتُ فيما بعد أنه من الوطنيين هوَّن عليَّ، طالبًا مني أَلَّا أنسى في حياتي ما حدث وإلا نسيتُ نفسي وهو هلاكي، ثم أضاف: إنه يريد منك أن تصبح من أولاد فرنسا وهذه مُهمَّته هنا، أمَّا نحن فلنا مهام أخرى. فهمت ولم أفهم جيدًا. بعد عمر طويل وعيتُ الحادث. لم تكن عندي أي عقدة مع هذه اللغة في ذاتها، بل هي سلاحي ضدهم، ولكني بقيتُ أستغرب كيف يرطنون بلغة لم يرضعوها مع حليب أمهاتهم، وفي بلدتي سمعت عن المتعاونين مع الاستعمار والخونة، ووعيتُ بعد ذلك أن خيانة الوطن أنواع ومنها خيانة اللسان، حين أراهم اليوم، الآباء والأمهات والأبناء، وهم «يُزَقْزِقُون» بغير لسانهم أقول مَن هؤلاء؟ وأتساءل ربما هم بهلوانات تخلى عنهم صاحب السيرك كسَقَط المتاع فبَقوا هنا لا يعرفون أي وجهة يأخذون. نحن في أرضنا رغم أنف المسيو أوبلي وصنائعه.

لم يكن شجن هذا الصديق جديدًا على مسمعي ولا فريدًا من نوعه. تَلَقَّيتُه مرات. أحيانًا بمرارة وأخرى بضرب من التَّعوُّد المستسلم، فالذين سرقوا ويسرقون لغتنا وهويتنا وأحلامنا مندسون بيننا، عالقون بجلدنا ويَمصُّون دمنا وكأنهم ليسوا من دمنا. نجالسهم ونعاشرهم، والدنيا هانية كما صرنا نقول، ما هي في الحقيقة بالهانية، ومن أراد الدليل، فعندي منه بالعشرات وأكثر، لكني أكتفي بواحد، واحد فقط يؤكد مرة أخرى لمن يحتاج

إلى تأكيد كيف أن الغربة لا تعاش في بلدان الناس وحْدَها، بل وداخل الوطن الواحد، كيف أنك فيه لتحس غربتك أو تُعايِش بشرًا منه هم في الواقع غرباء عنك أو ربما عَدوُّك، بمنطقهم الخاص وابتزازهم لنوع من الوطنية العرجاء، غريبًا عنهم.

كم الدليل: قبل شهر استدعت القناة التلفزية الثانية، المعروفة عندنا باسم 2M الزعيم الوطني الأستاذ امحمد بوستة الأمين العام لحزب الاستقلال لإجراء حوار معه في برنامج معروف (وجه وحدث) ومساءلة الصحفيين له حول جملة من القضايا الوطنية والرهانات العاجلة، خاصَّة وأن حزب الاستقلال عضو أساس في هيكلة الكتلة التي يعلم الجميع كم هو مُعوَّل على حضورها وبرامجها للانتقال إلى مرحلة التناوب الديمقراطي المنشود. وقد أجاب القائد السياسي — الذي تبوأ المكانة اللائقة به في الحزب بعد رحيل الزعيم الوطني الكبير علال الفاسي — على ما طُرِح عليه وأمامه من أسئلة وملاحَظات بصراحة معهودة منه وسَجِيَّة في القول حدَّد فيها كثيرًا من عناصر ومُكوِّنات خطابه السياسي، وكذا ما يُسمَّى بالخطوط العريضة للبرامج الإصلاحية اللازم إنجازها غداة استكمال الاستحقاقات النيابية المرتقبة.

مرَّت الآن أسابيع على هذه المقابلة، وقد لقيَتْ صداها المناسب أو غير المناسب في ظرفها الزمني، ولكن شيئًا واحدًا، سؤالًا واحدًا جاء له الجواب الحاسم والقطعي أثار النقع منذئذٍ، ولا تزال الحركة (بتسكين الراء) قائمة بسببه إلى اليوم، وما أظنها ستتوقف ولله عاقبة الأمور!

أصل الأمور أن صحفيًّا من أسبوعية اقتصادية بيضاوية هي la vie économique وجَّه للسيد بوستة سؤالًا في صيغة استنكارية عمَّا يعتبره كوارث جَرَّتْها على التعليم في بلادنا سياسة التعريب، وتحديدًا في فترة وزارة أولى تَقلَّدتْها شخصية استقلالية. ويفهم من كلامه، أيضًا، أن التعريب، وهو سيادة اللغة العربية في تعليمنا ومُؤسَّساتنا ومعاملاتنا، آفة ما أنزل الله بها من سلطان، وشذوذ في الطبيعة المغربية التي والتي ...

كان السائل للوهلة الأولى يعتقد أنه سيُحاصِر وجه البرنامج بسؤاله «الخطير» و«الماكر» ذاك، أو أنه سَيبتَزُّ منه اعتذارًا يرى اللَّفِيف الذي يصدر عن لغته وثقافته أنه سيكون بمثابة العودة إلى الرُّشْد والكف عن التمادي في الباطل (العربية والتعريب باطل)، كان المُستجوِب ينتظر ذلك ويتوقَّع أكثر، ولا ضير عليه؛ فكلُّ إناء يرشح بما فيه. أما نحن النَّظَّارة المغاربة العرب (ونحن عرب وبربر وبربر وعرب ونسيج متمازج) فكنا في موقع توقُّع آخر تمامًا، وإن شئتم فهو مختلف جذريًّا عن توقُّع السائل، ومنسجم كلِّيًّا مع

منطق وعقيدة واقتناع وتاريخ المُرْسَل إليه، هذا الأخير الذي حَبَّذ الالتزام بمبدأ التعريب والمُضِي به قُدمًا في كل الأطوار والميادين، ودفع كل مُساوَمة أو تنازُل من هذه الناحية.

ومضى البرنامج ككل البرامج التي تستهلكها الصحافة، ولكنه ليس المُضِي الذي يطويه النسيان أو يغيب باختفاء الصورة عن الأنظار، لا، بل هي الكارثة بدأت، ونار حرب أوقدت منذ انطفأت أضواء البرنامج المذكور. لقد قامت الدنيا عند أولئك الذين نعرف ولن تقعد. فمنذ الاستقلال — دعك من قبله — وهم يحملون السلاح، ويجلبون الذخيرة، ويضعون «الأشبال» في مواقع مَن يسقط منهم في «ساحة وَغَاهُم» ولا أحد من السذاجة بالقدر الذي يتوقع فيه أنهم سيلقون السلاح قريبًا. لا يحسبن أحد أني أخاطب أعداء أو أُلوِّح بأية لهجة «حربية» فنحن أعرف بحروبنا وإن وجب الاعتراف بأن الأعداء تَشابَهوا علينا تَشابُه البقر على أسلافنا من أبناء ديننا الحنيف واللسان العربي، وها هم يُناصبوننا العَدَاء جهارًا، وينعتوننا بالشعبويين والمُتخلِّفين عن منطق العصر (كذا)، المُتشبِّثين بماضٍ زائل (كذا)، ومن أراد الدليل أُحِيلُه إلى الإصدار الأخير للأسبوعية البيضاوية المذكورة.

ففي عددها المؤرخ بـ ١١ من الشهر الجاري تخصص النشرة الاقتصادية (عجبًا) ملفًّا عن موضوع «التعريب»، ولكيلا نُنعَت بالتخلف ينبغي أن نُقِرَّ بأن للصحافة أن تحرث في كل البحار، ومنه بحر التعريب اللَّجِب، وهو ما حصل بالتقديم، والمقالة والتعليق، والاستجواب، واستفتاء آراء مختلفة، وهو جميعه مما يستطيع القارئ إنْ رَغِب العودة إليه في المصدر إياه. ليست بُغْيَتنا الانخراط في ردود قد تطول أو سِجال هو المراد على ما أظن من هذا الملف. فإننا نفهم حوافزه كما «نقدر» ما جعل أصحابه ينفخون بأنفاس حارَّة في رماده أو جمراته. ليعذرنا الجميع، فنحن لن نزيد في الطين بلة. إنما لا بأس أن نطلعكم على بعض الاستخلاصات «الكبرى» لواضِعي الملف المَعنِي، إن السيد بوستة عندهم، بما قال، أي بدفاعه المستميت عن التعريب وتَبنِّيه للغة الوطنية، ليس أكثر من شخص شعبوي أو يحصد في المجال الشعبوي، وهو ما يعني الشعبي المبتذل، المُبَسَّط حدَّ السذاجة. الدهمائي إلخ ... وطبعًا، وبالمقابل، فإن أصحاب الخطاب الآخَر هم الذين يفهمون الشعبية الحقيقية، ذهنيتها وروحيتها وقوامها التاريخي حتى ولو كانوا قد تَربَّوا خارج أكنافها، ولا يعرفون بأي لغة تُصْدِر الحامل أنينها وهي في المَخاض، أو أية فجائع تُردِّدها أمٌّ ثَكلت ابنها، فكيف بالأهازيج وأغاني السقي والحصاد؟!

والحق أنك لا تملك نفسك من العجب حين تجد المناهضين لسيادة اللغة الوطنية اليوم يَسوقون الحجج والاعتراضات ذاتها التي كان اللسان الفرنسي يُفرقِعُها أمس

لتفكيك الأواصر التاريخية للمجتمع المغربي، وشَرْذَمَته لغويًّا وثقافيًّا لإحكام السيطرة عليه. ونحن لسنا في حاجة إلى «الكشوفات العجائبية» الخارقة للعادة، أليس كذلك(!)، بتعددية نسيجنا العرقي واللغوي والثقافي والعقائدي (عرب، بربر، زنوج، يهود) لكي نفهم ونعي ذاتنا الوطنية المُركَّبة، ولكي نقر طواعية أو على مَضض بأن الأصل والصواب لَيْسا هما التعريب ولا التمسك بالعربية، كمظهر من مظاهر الهوية الوطنية والقومية، بل هي التعددية اللغوية أي أبعد من الازدواجية.

إنه في الحقيقة خطاب يريد اليوم، شأن الأمس، أن ينفينا خارج لغتنا، فضلًا عمَّا يطبعه من نبرة استعلائية تتهمنا بالجهل وعدم فهم منافع اكتساب لغات وثقافات أخرى، خاصَّة، أجَلْ خاصة وعصر العولمة يَدقُّ بعنف كل الأبواب. فهل لغة القرآن الكريم، والمتنبي، والجاحظ، وأبي حيان التوحيدي، وابن خلدون، وابن رشد، وطه حسين، وأحمد المجاطي، تصلح في شيء لجلب المستثمرين والصمود في عصر العولمة، أو لغة صَحيفَتَي «يديعوت أحرونوت»، و«معاريف» الإسرائيلية هي الأقوى والأجدر بهذا العصر من اللغة «المنقرضة» التي تصدر بها صحيفتا «العلم»، و«الاتحاد الاشتراكي»؟!

هل تعلمون بعدَ هذا وذاك أن الغيورين الجدد على إصلاح التعليم في المغرب، ومستقبل مجتمعه واقتصاده، يعتبرون التشبث بالعربية (قل العروبة في الحقيقة) ضربًا من السَّلفِيَّة والحنين إلى الماضي الذهبي، ماضي العرب «الزائل» وعنادًا في التعلق بالفكرة القومية، هذه التي يرون أنها أثبتت فشَلَها في كل البلدان العربية. أخشى أن يقولوا إن المغرب ليس واحدًا منها، وهم يريدون بتر لسانه العربي.

سأكتفي بهذا القدر؛ إذ رغم أن الحرب عوان، فالعرب الأصلاء لا يُحارِبون الأشباه والأشباح والمُستنسَخِين أو المُسْتَنبَتِين على طريقة نعجة (دُولِّي)، فحربهم الحقيقية على الأنداد لا مع «صوت معلمه»، والأصوات المستعارة شِنْشَنة نعرفها من أَخْزَم، وإلى أن يتوصلوا لفهم هذه العبارة التي تنتمي إلى ذلك الماضي «الزائل» أسألهم سؤالًا واحدًا، بسيطًا، عميقًا وجميلًا في آنٍ: هل جرَّبْتم مرة واحدة أن تقولوا «أحبك» باللغة العربية؟

١٩/ ٥/ ١٩٩٧م

الديمقراطية في ... يوم مشمس

(١) اقتراح الصيف

لسنا في الصيف بعدُ، وهجم الصيف. اقترحَتْ عليها الشمس أن ترفع تَنُّورَتها أعلى قليلًا فوق الرُّكبتَين، ولم يكن حياءً منها أنها لم تَرتدِ البنطلون القصير، كل ما هنالك أنها أرادت، وهي تريد فعلًا أن تُحسِن تدبير المباهج القادمة: أوَليستِ الشمس اليوم هي الغمر والدفء يتغلغل في الجسد حتى ذلك المقام؟ الوجه وضاح والصدر مُنشَرِح، والنداء مُتراوِح بين زنابق تستهوي العين، وتفلت من بين أي أصابع مَسَّتْها هي الغَوَّاية.

وفاض انشراحها، أيضًا، على ما حولها، فجاء الفَراش الأبيض الذي كان يتطاير حائرًا لِيحُطَّ على خصلات متناثرة من شعرها، وأحيانًا يعابثها وهو يرسم حولها دوائر تدخل فيها وتخرج وما تنفك تدخل، وهي تحاول ألَّا تفكر فيه، فيما حدث لها وما لم يحدث، في لا شيء تقريبًا أو هذا ما يريد. أن تكون هي ولا شيء آخَر قبلها أو بعدها أو إلى جانبها، في ضرب من الحياد المُطلَق يُوحِّدها مع جسدها ليجعله سكناها الوحيد، بلا منازع. عندئذٍ ستسترجع شَرْط وجودها الأول ككائن حيواني مَشحون بالرَّغْبة، طليق، قبل بدء تاريخ القُيود والشرائع وليس للكلام عندها من معنًى، ما دام الصمتُ لُغتها ودليلها الناطق، وهي تضرب في أرض دهشتها الخاصة، لا أحدَ قَبْلها أو بَعْدها أو إلى جانبها.

إنما لا بأس أن تُوجَد الأشجار، وحقل العشب الممتد بين شرود مُقيم ونَشوة مُتوقَّعة. هي متأكدة بحس التجربة أنها حين تفيض تَتألَّق زُرقة السماء مع زُرقة ماء هذه البحيرة، الآن، في غابة بولونيا جنوبًا غير بعيد عن الباغاتيل، فتقفز إلى الماء لتتلَوَّى فيه سابحة كالسمكة قبل أن يقنصها شِبَاك الذِّكْرى. انتبهت فجأة أن دوائر الفراشة المرسومة أمامها

بتعاقُب هي أفخاخ الذكرى، هي حَبْل السُّرَّة زَعمَت أنها قَطعَتْه من تلك الجلسة، مع الجسد الآخر، وظهيرة ذلك الصيف المُتوَقِّد حين تَوقَّف بهما الخُطوُ عند مَدخَلِها تاركًا أصابعه تغوص، وهي تحس أن جغرافية جسدها تَتمدَّد، تتسع ملء الصعود والهبوط بين الأرض والسماء.

وها هي الآن تتصبَّب من العرق، والطريق التي تمشي فيها مُمتدَّة لسانًا من فَحِيح. وأدركتُ أنه أدركها من جديد، لا فِكاك لها منه، وفي كل فصل لذكراه شكل. وفي أول صيف له بباريس تواعَدا في «بارك مونسوري»، قُبالة المدينة الجامعية، مثل مُحبَّيْن أو مُتقاعدَين. أخذَ يدها بيده كصديقين قديمين وظلَّا يمشيان، يمشيان إلى أنْ بَلَغا الباغتيل، قريبًا من البحيرة. هناك خَلَعا جسديهما وغطسَا في الماء. لا، لم يكن إلا مطلع حبهما ثم تأجَّج العمر، وهو يتدحرج. غاب عام وعام آخَر، عُمْر، وصار في سيرة الغياب. وها الصيف جاءها كما في ذلك العام، يدها في يده الغياب، والشمس تشهق في مسامها تلهث ... نشوة.

(٢) محاولة فهم

حين استيقظ الأحد (٢٥ مايو ١٩٩٧م) ألْفَى نفسه مُمدَّدًا في فِراشه القديم؛ أي على السرير ذاته الذي لم يرغب في تغييره منذ عشر سنوات على الأقل. بدَّل بلدانًا وعناوين ووجوهًا لم تعد تصلح لوجهها، خرائط انضغطت فيه وخلفه، المسافات انطوت، والأعوام تلاحقت ينهك سيرها بعضها البعض، وتَعتَصِر العمر اعتصارًا، وإن بقي الشغف هو، هو، وصورة أول عام في حياة المرء مثل صورة أول مكان جدير بالاسم لا تَتبدَّل. لم يشأ اختلاس النظر إلى الساعة وعاد ينحشر تحت اللِّحاف. لم يكن ذلك كسلًا منه ولا رغبة في جَلْب نوم لم يشبع منه أبدًا، وإنما كان شيئًا مُستعصيًا مثل الهبوط إلى قاع بئر أو الدخول إلى سرداب عميق للتَّنفُّس في حلم طفولة هاربة، مزيج من وجه مُدوَّر كبرتقالة، ونَمَش أصهب، وحَقْل قمح خَلْف السكويلة منتشر قبل الحصاد.

وفي الليل سطيحة لا يصعد إليها إلا الجن والأطفال العفاريت، والأصابع تجس الباكور النابت على الصدر فيما يَد أخرى تَمتدُّ إلى نجمة كأنها دانية لتقطفها وتهديها إليها مثل زُمرُّدة لم تَرَها من قبل، ولا تَلمَّسَت الطريق خارج هذه الطريق الوحيدة تعبر القصبة عربات كارو وسيارات نقل مَعدُودة، ذاهبة كلها على ما تسمع إلى المدينة. ما

المدينة (ما) البشر المزدحم فيها، ما البحر، ما الباخرة تمخر عبابه، من أنت وقد خضت البر والبحر مسيرة عقود، وألقيتَ بنفسك إلى التهلكة؟

قفزت من الفراش مذعورًا على إثر يد تجس جسمك تحت اللحاف، رَمَيْته فزعًا، مُنتفِضًا، صارخًا: ماذا؟ مَن هنا؟ كانت هي، امرأة شقراء لم تألف لونها ولا رائحتها. تراجعت عقب صراخك فزعة ومُحْتجَّة باستغراب: ولكنني أنا، «كلير Claire» لا أحد غيري، أم إنك نسيتَ؟ بعد هذا العمر الطويل وتنكرني! ولم تكن قد نسيتُها أو أنكرتُها وَحْدَها. فأنتَ تنكر نفسك ولا تفهم ماذا تفعل هنا. متى جئتَ إلى هنا للمرة الأولى، ولا كيف غادرت ذلك الحقل خلف السكويلة أو تلك السطيحة تحت النجوم. وقالت إنك لستَ محمومًا فما مصدر هذيانك، ولا هو الحنين إلى الوطن لأنك عدتَ منه قبل أيام فقط، وقلتُ إنه تلاشى تقريبًا في بعض الحسابات والجيوب، وذكرت لي بأن واحدًا من أصحابك، ممن لم يُبدِّلوا وجوههم بعدُ، نصحك بعدم العودة؛ لأن جميع الأماكن محجوزة. ومِن بعيد جاءك صوت آخَر، من بيتها، من رائحتها السمراء، من لحمها: أنا فِراشك ولحافك، أَشهَقُك وأَشمُّك، تجيء، تَرُوح، أنت لي، لن يأويك أي مكان غيري ... وقالت كلير آمِرةً: كفاكَ نومًا يا حبيبي، فوراءنا غداء عند «لي مونيي» في «فونتين بلو» ماذا؟ أي نعم ... ولم أفهم!

(٣) لغة الشمس

باريس متبرجة يومها هذا كما لم يعرفها من قبل. يكفي أن تشرق الشمس ليزدان العالم، أما إن ضحكَت فهاك الوجوه الطافحة بالبشر، والأجساد تنطق عندها بعري فصيح، وجميع اللغات تَتوحَّد في استرخاء لذيذ لا يبغي إلا باحةَ مَقهًى أو مطعم مع أقداح باردة وشرائح نكهة. الشمس هنا تحدث، فإذا حدثت، فهي مثل المُظاهرة تجعل الشوارع، والحدائق، والساحات تمتلئ، مُظاهرة ضخمة ليست من تنظيم أي نقابة عُمَّالية أو بإيعاز من أي حزب سياسي، بل الغريزة الكامنة تحت طبقات السُّحُب الرمادية، المنضغطة بالأرض شهورًا طويلة، هي التي تُنظِّمها لتَتفجَّر برغبة البهجة وبهجة الرغاب. أما شعاراتها، فهي الحسناوات يَمشين متهاديات، واهبات أنوثتهن لرغبة الشمس المفرطة.

ورغم أنه قَدم من بلاد الشمس فيها تَفيض أشعتها وحرارتها عن الحاجة، فإنه وَجَد نفسه مع توالي الأعوام يَتعلَّم هنا مَواسمها، ومزاجها ولغتها، لو جازَ له أن يقول ذلك، فلها كلام هو الدفء، ونَبذ القنوط ومغادرة الداخل ذاتًا أو فضاء بيت أو عمل إلى

الخارج الذي يفقد تدريجيًّا التقنين المفروض عليه لتصبح كثير من المحظورات المُتَّفق عليها كذلك مُباحة، والحق أنها قليلة تواضَع على صنعها الناس وهم قادِرُون على كسر هذا التواضع بإرادة يَملكونها، وليستْ مفروضة عليهم بأي حال. فإذا أَشرقَت الشمس وسَرى الدفء في الأبدان راقَ المزاج وأصبح كل شيء ممكنًا. لم يكن هو يفهم في البداية، كلما عاد من هناك أو قال إنه ذاهب إلى هناك، كيف يَغبطونه؟ على أي شيء، يا ترى؟ على الشمس طبعًا cher monsieur تقول حارسة العمارة أو نادل المقهى، أو يا collegue يقول زميل الجامعة الذي يحلم بالفكاك من أدب العصر الوسيط ليرتمي بقية العمر على تلك الرمال الذهبية.

وقد كان عسيرًا عليه أن يُفْهِمَهم بأن الشمس هناك لوثة، آفَة، مَبعث للاسترخاء والكسل، مثل الوقت المَيِّت الذي يمر بلا حساب، ولا يُلْقِي له جُلُّ الناس بالًا كأنه ليس لهم، منهم، يسرق من حياتهم الذاهبة هباء. وفرة من الشمس إذن، من الوقت الفائض، من اللاشيء.

لكن هذا الأحد يوم استثنائي، إنه يوم الانتخابات التشريعية. وقد حسب أن المواطنين — إنهم مواطنون citoyens سيتسابقون من ساعات الصباح الأولى إلى مراكز الاقتراع. وكان قد ظنَّ في وقت من الأوقات، صار بعيدًا الآن، بأنهم مُضْطرُّون لذلك، كما كان يتوهم بأنه يرى رجالًا يَدقُّون أبواب البيوت يُوزِّعون الهدايا أو الوعود، أو يرى أمام عدد من المنازل ومداخل العمارات في حي سكناه طوابير لبشر مَدعُو لولائم روائحها فائحة. ولم يكن مِن ذلك شيء؛ لأن الصباح يمضي هادئًا، وأسواق الأحد المُخصَّصة لبيع السمك والخضروات والفواكه تَنتظم تقليديًّا، كالعادة، فيقتني الناس حاجتهم دون أن يتحدث أحد عن ذلك الموعد أو يكاد، فهو شأن فردي رغم أنه الشأن الجماعي. ولم يكن هو مَعنِيًّا بالتصويت في أي انتخابات هنا، لكن فضوله لم يمنعه من محاولة معرفة هذا الواقع عن كثب. وحين عاين مكاتب الاقتراع حسب أن المواطنين جاءوا للنزهة أو لحضور عرض فني وهم في كامل قيافتهم، ولا أحد من أي جانب يعترض طريقهم أو يهمس لهم بكلمة، أو يَتجسَّس على نواياتهم، أو ينظر إليهم نظرة تحذير أو ترهيب فهي أصواتهم وهم أحرار فيها، يُعطُونها لمن يشاءون، وبمن هم مقتنعون، عن خطأ أو صواب. المهم أنها غير خاضعة للمُساوَمة والابتزاز.

يوم الأحد هذا جميل أكثر من العادة. الطقس في نهاية شهر مايو مزاجي في باريس وضواحيها، وكذا في مطلع يونيو. قبل أيام فقط، كانت السماء مُلبَّدة بكثيف السحب،

وبَرْد غادِر يُناوِشُك في الصباح من حيث لا تدري، مع ريح تترنح لها أعالي الأغصان. وقد عُدْنا نرتدي القطيفة، ويهرع الموظفون إلى أقرب حانة ليحقنوا أبدانهم بجرعات دافئة طردًا لبرد غاشم أو مُتوَهَّم. أما اليوم فطَقْسُه بديع، مُشمِس حدَّ الفرَح، وهو ما يدفع إلى التبرج والنزهة والاسترخاء في باحات المقاهي، ويشجع أيضًا على قُبَل وعِناق بالأحضان، يَطولان في الهواء الطلق.

وكان يومها وحيدًا، شارد اللُّب، لا يجد أحدًا يعانقه. وكان هؤلاء الناس حوله يأكلون ويشربون ويمرحون، وقد أدْلَوا بأصواتهم أو سيُدْلُون بها طَليقِين، أحرارًا، بلا حدود ولا قيود. هذا ما يحدث هنا عادة، فهم طليقون وأحرار.

أدلوا بأصواتهم وهم يخافون عليها، وانتشروا بعد ذلك في الأرض يأكلون ويشربون ويمرحون. أراد في لحظة أن يطلق العنان لخياله غير أنه سرعان ما ارتَدَّ ولجم هذه الرغبة. فلو فعل سيندم، ويَحْسُن به ألَّا يقول بأننا لم نُخْلَق لهذا، فهو لهم وَحْدَهم، هذا ترَف، سيزداد حزنه، سيبكي أكثر من البكاء التاريخي لأمته، سيندم، ويحسن به ألَّا يقول بأننا لم نخلق لهذا، فهو لهم وحدهم، هذا ترَف بالنسبة لنا، وتكفينا الشمس، أما ذلك الغيث الذي جاءه في مُنتصف ليلة الأحد فهو الغيث، وإليه الرُّجْعى غدًا في بقية من كلام. إذا سمح الحزن، ومُوزِّعُو حصص الكتابة والكلام ببقية.

٧/٦/١٩٩٧م

غزال المسك

(١) غزال المسك

«... هكذا تذهب إلى تلك الـ «فرنسا» وتنسى ... كأن الذي بيننا شيء يُهان ويُنْسى.» وتدافعت، أم حسبت الريح تمحو، وقد عبرت إلى هناك في غفلة من نعاس عبيري؟ هكذا أنت يا الواعدني بخلود ذكرى البنفسج. وكانت جدائل الموج عند خليجها، تنفك الواحدة تليني أخرى، إثر سماع صوتها المُندَلق بين شِقَّي مروري العميق فيها، هي المخفورة في صمت بعيد.

لم أصدق، لم أكذب، فالكلمات مُنسابة وَحْدَها، لا فَمَ يرسلها ولا لسانَ بها ينطق. حين أسمعها أقبض عليها وأكتفي بها ولا تكتفي بغير العتاب؛ لأن الريح الخَفِيَّة تحت النعلين دائمًا ترج خطوتي وتطوح بي في الغياب. وماذا أملك من أمر الأجساد كالحدائق المُعلَّقة تحتي، والأعوام قد اصطفَّت كالمرايا تشعل في الشيب فتيل الكواعب، ويدي على مَلمسها مَبْسمها حنين مثل غيمة ماطِرة أو فَيء يأويني من هذا الهجير. ماذا أملك غير العبور العسير في دهاليز الأسرار، كم هو عذب سرك تحت شمس هذا البلد الفاضحة! لأمضي قُدمًا في ارتدادي إلى أُلْفَة تلك القبلة اليانعة، لم أَنَلْها، فأغدقيها، إذن، يوم الوحشة على رأسي الشاهدة.

في سديم مُزرْكَش بِعبَث الألوان، ماذا يبقى أو يعني ممَّا أنسى أو أتذكَّر؟ الريح التي نسيَتْنا هنا وتَمنَّعت على الهبوب، أم العاصفة الغاضبة ضد اتجاهها الصحيح، إلينا، أم القول المفرط في البلاهة والتَّهتُّك حد انهيار قانون الجاذبية، أم الوجوه مثقوبة الأشداق العيون فيها مَغارات الليالي الموحشة، والألسنة؟ ويَحْكم اللسان لا عظم فيه وكل ما فيه لعاب يسيل! أم المدن التي وُجِدَت للمدينة بيعت في مزاد هذا اللعاب؟ قيل، والله أعلم، من

أجل مدنية جديدة يسودها القردة والدببة والفيلة وذوات الثدييات، وغدًا سيُرْجَم فيها كلُّ مَن يملك حِسَّ التذكر. يحدث هذا كله، هل تعلمين؟ وأنا لا أتقزز. أَحسُّني في خِفَّة شيء منعدم أو كان يذكو مسك الليل خلف سياجه يسهر المحبوب في سهاد الحبيبة.

أنا لا أتقزز؛ لأن سفالة العالم، وما في الأرض وهذه الأرض من قُبْح، مَرَّ من الجانب الآخر، من حيث تصدر «تلك الرائحة». فقط، سأزمجر قليلًا، إذا لم تسعفيني بتلك ... وهذا كل ما في الأمر.

لا، هو بعض الأمر يا سليلة الغواني، في دمي دم لا تفنيه، رغم البعد غَنَّتْك الغانية ... آه، سوف تأتي يا حبيبي ... آه، سوف تجدني فتحت لك المدينة سلفًا لتدخل تحت الأبراج مُكلَّلًا بالبنفسج ... آه، ولن تمضي لأني خليج الجنوب الذي جذبك من تلك الـ «فرنسا» كيف تنسى؟ ها نحن نطفئ جمر كل الرجال حتى لو كنت أنت المحال، وفيه الذي لا يُسمَّى كما نسميه في اللغة العارية، بين الرِّجس والرفد، شيء كما تعلم، آهِ، من حتى.

ولم تزل عيناك تنظران وتنتظران إلى أن يهل من الأفق غَزال المِسْك في وَثْبِه اللعوب كالمرتمي في فتكة زماني.

(٢) وبرشيد يداوي

ولَمَّا كان الأولاد صغارًا فإنهم لم يفهموا أبدًا لماذا كانت بلدتهم تُعَيَّر بالحُمْق. هم لم يروا فيها ما يوحي بالشذوذ، لا في سلوكهم أو سلوك الكبار، أيضًا. ورغم أن أعمارهم الصغيرة، والفَتِيَّة، تسمح لهم بكثير من الرعونة والنزق إلا أن كل شيء منهم يبدو مقبولًا في حدود العمر، ولا يتنافى بتاتًا مع منطق الحياة في تلك المرحلة من أيام أولاد حريز.

الأولاد يذهبون في النهار إلى السكويلة الوحيدة في القصبة. يَتعلَّمون في الصباح الفرنسية وبعد الظهر العربية. يفطرون بضرب مسطرة الحديد على أيديهم من يد النصراني حقًّا أو باطلًا، ومع العصر يَتثاءبون حين يعتلي الفقيه المعروفي منضدة الفصل لا تفوته صلاة العصر. وفي الليل اجري عليَّ نجري عليك، وسواها من ألعاب العفاريت. من المؤكد أن سكانها ضرَبَهم، الله يستر، الجنون وأصبحوا لا يفقهون وراحوا يَعبثون. لو حصل شيء من ذلك مثلًا لخرج إليهم الباشا الذي لا يستطيع الذبَّان أن يقترب من سوره العتيد، ويكفي أن ترى لَمخازنية واقفين، والكلاطة مُعلَّقة على الكتف، ليعود لأي «عروبي» رشده، يكون قد فَقَدَه في «سوق الاثنين»؛ لأنه دفع ضريبة «الترتيب» مثلًا، ولم يَبقَ له ما يشتري به لُحَيْمات للكسكس الفَوَّار. ورغم أن الدراري شاهدوا غير مرة

لمخازنية يسوقون رجالًا مَجْرُورين من أيديهم بالحبال، يقال عنهم، بالحق أو بالباطل، إنهم تَرامَوا على أرض الغير، وقد نُقِلوا إلى القصبة من القرى والدواوير التابعة لها. رغم أنهم رأوا ذلك وأكثر، فإنهم احتفظوا بتوازنهم جيِّدًا وهم يسمعون المسويطة تسلخ ظهورهم إلى أن يسيل دمهم وهم «ينحطون» احنا متايبين لله، عُمرنا ما انعاودوا أسيد.

وكان من حق الدراري أن يطير عقلهم ويتقبلوا بعد ذلك بدون انزعاج أن تُعيَّر بلدتهم بالحُمق، وهم يرون وقد أُطْلِق سراحهم من السكويلة، وراحوا يمرحون في الحقول التي خلفها، تطول عيدان السنابل الصفراء المثمرة قاماتهم وقد أَتَوا على ما تَخلَّلها من كرنبوش وبلعمان، وبدا العام واعدًا بصابة زينة، والمطامر غادية تعمر، وأولاد حريز عن قريب ستقوم قيامتهم؛ فها هم في أيام معدودة، بعد الحصاد والدراس، سيحصدون غَلَّة العام في المأكول والشراب، والزَّهو ولقصارة، فهم أهل نخوة، ومدبرها حكيم لما تَبقَّى من شهور العام. وكان الدراري يتهامسون فيما بينهم بأن هذه ربما إحدى لوثات آبائهم الذين يفيئون في أيام الشُّحِّ إلى ظلال الماضي القريب، يسترجعون تباريح الشيخات فيما أسطح البيوت لا ينقطع منها ترجيع الطعاريج. وهم أيضًا فقهاء وَرِعون، يُقْبِلون على الدنيا والآخرة في وقت واحد. وترى فيهم من لا يَجِد غضاضة في الجمع بين المتناقضات، وما ذلك إلا لغلبة الفطرة على سلوكهم، وبُعْدهم عن التَّكلُّف ونبذهم للتطرف ... إلا في محبة الحياة، وفي ذلك كان هلاك كثير من أولاد حريز، الذين سارت بذكرهم الرُّكْبان، وهي لوثة جميلة في سِجِل أيامهم.

كل ذلك، ولم يُعْرَف عنهم أنهم من «زبناء» السبيطار. فالدراري كانوا يسمعون، وبطريقة ما يعرفون أن سبيطار لمهابيل موجود في برشيد ... هناك جنوب البلدة. هناك خلف «سوق الاثنين» وشرق «ضاية دويس» في مفترق الطرق الذاهبة شمالًا إلى «فيني» وقصبة بن أحمد، ويمينًا إلى سيد العايدي، وسطات التي سمعوا أنها تسطي، تجنن مثل كثير من مدن البلاد التي ترسل مهابيلها إلى عاصمة أولاد حريز، تعيد إليهم، بعون الله، عقولهم الطائرة.

وقد كبر السبيطار فيما بعد، واستشرى الجنون في البلاد وبين العباد، بينما ظَلُّوا هم قابضين على رءوسهم حارسين لعقولهم، ينظرون دَهِشِين لتبدُّل الأحوال، ولا ينكسر فيهم عود الرجال. وقد كبر الدراري، وتَفرَّقوا في الأرض، ولكن أرواحهم وحبهم لبلدتهم ظل سترًا لها وصونًا من صروف الدهر وعبث أولاد الحرام، وهم كثر، والعياذ بالله، في

هذه الأيام. يفسدون في الأرض ولا يصلحون ... إلا في برشيد، فقد كانت وستبقى لهم بالمرصاد، وصدق من قال: «سطات يسطي وبرشيد يداوي»! ربما.

٢٨/٦/١٩٩٧م

«اسْطيحة» راشيل وأح...

مثل قط ينط السلالم درجةً درجةً، وهي من خلفه تارةً وقدامه تارةً أخرى، مثل قطة تنط درجةً درجةً. السلالم المؤدية إلى السطح ليست طويلةً، درجات معدودة ليس إلا، تصعدها لتدلف بعدها مباشرةً إلى سطح البيت، البيت السفلي ذي الحجرات الأربع مع المرأب الخارجي، فهو متوسط العلو، لهذا قلتُ لها دائمًا حين تطلب مني الحضور إلى بيتنا، والصعود خاصَّةً إلى «السطيحة» لنلعب، أن علينا أن نَنتبه كثيرًا ونحن نصعد الدرج، فهو صعيب صعيب، يا ...

غالبًا ما كانت تأتي في العصر، وقت تكون فيه الدار هامدةً؛ أمي إما راقدة أو في زيارة إحدى الجارات أو الخالات، وأبي يحكم في المحكمة، والخدَّامة تصقل الأواني أو تهش بعض الذباب عن وَجْهِها بتثاؤب في الكوزينة المُعْتِمة ... وأنا أبقى سيد المكان، وسيد اللعبة، أيضًا. أما هي فقد كانت حَذِرَة رغم أنها تبدو وكأنها لا تبالي، هي التي تلح في مطلب اللعب أكثر من مرة في الأسبوع، وكلما وجدنا الغفلة، إلا في يوم السبت المحرم عليها بتاتًا. أبوها الإسكافي لا يعود من حانوته إلا مع غروب الشمس، وفي العصر تبقى أُمُّها دينا مُكِبَّةً على ماكينة الخياطة لا تغادرها إلا إلى المطبخ عشيةً حين قُرْب عودة زوجها نسيم. تُغافِل البنت أمها، وخاصَّةً حين تحس بها شبه غافية وقد تهاوى رأسها على الماكينة من الإجهاد والصهد، فتتسلل على رءوس أصابعها منفلتة من الباب الخارجي للبيت نصف الموارب، فلم يكن أحد تقريبًا يغلق بابه في القصبة. الناس يعرفون بعضهم ولن يسرق أحد أحدًا، وسبيطار المهابيل وحده أبوابُه مَوصودة.

لم تكن لي ساعة إلا نبض قلبي يَدقُّ بوجيب غير طبيعي وكأنه يَتحسَّس موعد مغادرتها أو قُرب وصولها، وحين يعلو بشدة أكون واقفًا بباب بيتنا وأراها آتيةً من نهاية الزقاق رَكضًا، لا تتوقف إلا ويدها في يدي فأسْحَبُها معي عابرين السطوان الضيق، وعند

نهايته مدخل السلالم، مثل قط أنط فوقها درجةً درجةً، وهي من خلفي تارةً وقدامي تارةً أخرى، مثل قطة تنط درجةً درجةً.

حين نصبح في السطيحة، يدي في يدها ولا نجرؤ أن ننظر إلى بعضنا إلا خِلْسةً، إذا تضامَّت نظراتنا تَورَّد وجْهُها وصعد قلبي إلى جوفي، والغُميضة هي لعبتنا، ومن اكتشف صاحبه قبل الآخَر فاز ... فاز بقُبلة أطبعها على خَدِّها أو تطبعها على جبيني، وأنا أريد أن أضمَّها إليَّ ولا أعرف ماذا أفعل بها.

بعد أعوام ... وكان نسيم ودينا قد رحلَا من القصبة مع مَن رحلوا من الدار البيضاء إلى تلك البلاد التي كانت عربيَّةً ومعهما را ...

بعد عقود كنتُ أهم بدخول «الغاليري لافاييت» بشارع هوسمان الباريسي، فصادفَتْني امرأة لا أرشقَ ولا أجمل. بهرني خروجها ولا أعرف إنْ بَهرَها دخولي، لكننا معًا تَوقَّفْنا في منتصف الطريق، عيناي في عينيها في عيني، دق قلبي بذلك النبض والحمرة القانية القديمة.

خِلْتُها هي، فهل خالَتْنِي أنا هو، في منتصف الطريق بقينا واقفين في زمن كأنَّه دهر ستتلوه دهور، يدها إليها ويدي مرتعشة غير ممدودة، إلا كلمة واحدة فَلتتْ منِّي تَكَهْرَب لها جسد المرأة الأرض الأجمل.

– هل أنت راشيل ...؟!

– وهل أنت أحـ...؟

٢٤ / ٩ / ١٩٩٧م

سبب آخَر للحنين

ابْرِ قَلمَك، وعُدْ إلى القلم. الصفحة البيضاء كأنها لم تعرف أبيض قبله. فَكَّرت في بعده وأردت أن تستريح قليلًا من حركة الحروف خيلًا وثَّابةً، والصهيل منها مُرَجَّع بين «قوس النصر»، و«طوق الحمامة». عبثًا تدحرجت، فوق منحدرات السكينة الهاربة، وحين أوشكت على الوصول إلى السفح صعدت إليك ذاكرتُك تُذكِّرُك بفوات أوان النزول، وتُخبرك أن القِمَم التي في الأعالي، مثل صنين أو نظرتها الماخرة عُبَاب المتوسط إلى أطلس قلبك، ما زالت بيضاء رغم الصيف، مُكلَّلَة بثلج غامر من زَبَد الشفتين، بضوء من ليل هو سهاد العينين. عُدْ إلينا، عُدْ إليها قالت الصفحة وهي تشير إلى مَن أسدلت على وجهها الوشاح الأبيض، الشفاف، في انتظار خطوتك القادمة سواء كنت الموعود بها أو في صدفة العبور. الوشاح المُخَرَّم، المُطرَّز بحروف حسبتها، ولم تكن رأيتها، انسكاب الليل فوق غرفتها أو رقصة للحاجبين. وسواء تخطتك أو تخطيتها، الحروف بينكما ظلَّت مشرعة بالسؤال عن الكلام المرتعش في اليد، وهي تعيد الوشاح يغطي خفقان الوجه في لحظة شاردة وباليد الأخرى أمسكت يدك وهي بَعْدُ تبري القلم، وعلى صفحة السماء خطَّتْ حرفا ثم آخَر ثم اسمك ثم غابت، بعد لأي وأنتَ تلهث، كَتبَت: سأبحث عن اسمك حتى لا نهايات الأسماء!

إنني في حاجة إلى هذا المَجاز، وإن استحال المَجاز لأعْبُر من ضفة إلى ضفة، ومن الغياب إلى استحضار غيابي، ومن الصَّمْت الملغوم مثل أنين مكتوم إلى الكلام الذي لا أكتبه إلا وهو يكتب أمامي. أي أنين أفعل ما لم أنوِ أو أقصد. وليس من عادتي أن أقصد شيئًا محددًا بالذات أو ربما تَوهَّمْت أني أفعل، وحين أشرع في تنفيذ التوهم تُخْرِج لي الكلمات لسانها، وقد ثَقَبَت طوق الغرض وامتطَت أسرع مركبة فضائية مُغادِرَة نحو أبعد تُخوم لا أعرفها، باتجاه المجهول الذي يدهلزه المجاز، وتتناسل فيه كائنات تمتنع عن ارتداء السراويل والقمصان قصيرة الكُم، ولا يغريها وضْع طاقية الإخفاء؛ لأنها هي

في الأصل خَفاء، مثل همس المعنى، وتسريحة شعر الغَسَق، أو تلك الشُّخوص الغامضة مثل ديناصورات هائلة اعتلَت قُبَّة السماء، تراها في الأفق رابضةً غيومًا كثيفة بين الجبال، لن تمطر إلا تكوين جبال أخرى ليست للصعود بتاتًا. هي فقط للنظر، شأن هذا المجاز الذي لا يُجاز. شأن ما أَبْغِيه من قول ويُفلِت مني إلى نقيضه أو ليُطِلَّ من شرفات الصدر على الشوارع الداخلية حيث تلك الكائنات أدارت ظهرها للزحام، انظروا لكل هذا الزحام اللامُجْدِي! وهي تتناسل لإكثار سُلالة نَقْض المعنى المبذول والكلام المُرَتَّق حدَّ لباس الدراويش. هذا هو الشيء الوحيد، الواضح أمامي الآن مقدار إمكان انغلاقه على غيري، والسبب بسيط ومُعقَّد في آنٍ، فالكلام في حاجة لأن يغلق على نفسه — وهذا سر الانغلاق — ليبتعد عن الابتذال، عن الشمس المُفرِطَة في الشروق والغروب، عن الأشكال المدوخة من القَماءة والدُّونِيَّة، وابتغاء صَون السِّرِّ الذي يسكن إليه، يَلُوذ به، وقدِ افتَضحَت كل المعاني، ليتم العبور من وإلى المجاز، إلى وجهها المَخْفِي، المنسدل عليه الحرف تلو الحرف، خلف ذاك الوشاح.

لكن المضي في هذا السبيل، وعلى هذا النحو سيوصلنا — إذا وصلنا — لا محالة إلى سوء تفاهُم، إلى فِراق لا قدَّر الله ونحن نبغي استمرار الاتصال، بل الوصال لو وجدنا إليه سبيلًا، وسأشرح الأمر بطريقة مختلفة: سماحة وجهها، لون بشرتها، هلال حاجبيها، ليلُ شعرها، الآه المزموم بين الشفتين، وصولًا إلى الدغل الخبيء. هناك طالَعني الوجه مرَّة واحدة، وفي مُنحَنى النظر امتدَّ القوام فأحسَسْنا بشغف باكر، أحمر اللون لو تعلمون، فكان علامة على أن المُديَة ستُشْحذ طويلًا قبل أن يسيل دمي، حتى في الأشهر الحرم، على صوت حرون يعزف إيقاع دوام غيابها مُلوِّحًا، تارةً بمنديل الجنوب وأخرى ألوان الغجريات اللواتي احتَرَفْن سَبْي الرِّجال وحَمْل حَطَب الهوى إلى مَضاجعهم، وإشعال النار فإذكاء الحريق بصوت الغياب، ثم يَشْقُقْن منهن الصدر، ويَتعَرَّيْن واهبات مَفاتن الجسد للبحر حين يَجزر وحين يحسسن بالمَدِّ يلهث في أحشائهن يَستبِدُّ بِهن الوَلَه فيرفعن الأذْرُع لاحتضان الرجال، وعندئذٍ لا يصلهن سوى ملح البحر يشوي أجسادهن، ومكان الحطب الذي وضعن في البكاء، والندم، لِيُعاودن الكَرَّة مرَّات بَعزْف إيقاع دوام الغياب. لم أكن في ذلك الرماد، وحَريقي سابق على النار وما احتْطَبَت سيدة الشَّغَف الأحمر، وكل الغجريات أو الغانيات، سواء تَغَنَّجْن بعطش الجنوب أو كَرَعْنَ لإطفاء عطشي كُلَّ أقداح الشمال، عبثًا أسترجع، لا أذكر من الوجه إلا الصوت، ومن اللون الظل، ومن القامة الطريق الذي لا يصل إليها، ومن المعنى ضده، والشكل سعيره، ومنك بقاياك، ما أَتوهَّمه أنتِ ولستِ

أنتِ، ولن تكوني من الآن إلا ما أَصنَعُكِ، ما أُبدعكِ بهذا المَجاز، وأنتِ لا داخل ولا خارج المَجاز.

أنا ما ضَيَّعتُك بل نفسك ضيعت، وعندي شغَف أَغْزَر يمطر حولي وعليَّ أسئلة وعتابًا ومحبة ورغابًا واستفسارًا وفُضولًا مُحبَّبًا: لماذا تَوقَّفت؟ متى ستعود؟ انتظرناك ولم تظهر، أم اختلطت عندك الفصول؟! لا تَقُل إنك تَعِبتَ وتريد أن تُلقيَ السلاح (أي سلاح؟) لو سكتُّم جميعًا لن نسمع إلا العواء والنباح، وهل يرضيك أن يغرق خيالنا في الجرائم خارج الحدود ونسكت عن الجرائم التي تُقْتَرَف ضِدَّنا كل يوم هنا؟ حذارِ أن تأسرك غوايات الضفة الأخرى وتنسى ضفتك الأصلية، ترابها فَناسها وأهوالها، حيث عِشتَ وتَمَرْمَدتَ في وحلها مثلنا جميعًا. هو التزام منك لا تستطيع أن تنقضه إلا بنقض ثقتنا فيك، وهو ما لن تقبله أو تضيع.

يزداد الطَّرْق والطَّلَب والسؤال مِلحاحًا ولا أحار جوابًا كما لا يرتاح مَن حولي إلى سكوتي. تحرجني هذه الحفاوة التلقائية الصادرة عن أناس طيبين حقًّا، أي غير خُبثاء، حاذقين، ومَصَّاصي دماء الأسماء، أي غير مُحْتَرِفين، مُتقادِمين في صولات الكلام ولا نصر. يحرجني الاستفسار الوَدُود الذي قد يَفْرِش لِسواي أَسِرَّة الغُرور والتنطُّع، ويُحوِّلُني إلى شبه مُتلبِّس بجرم لم أرتكبه، فلا أعرف كيف أدافع عن نفسي، أو أنزع عن عنقي ما يسميه البعض طوق الفَخَار، ولا فَخَار.

سأكتشف أن سكوتي سيريح البعض، سيزيح عن كاهلهم عبء بقائي الذي لا يدَ لي فيه إلا بإصراري على الإفلات من شَرَك المكيدة ولإيماني بغيرهم، الأنقياء الأصفياء، البسطاء. سأكتشف أن سكوتي، ولو لحين مُؤقَّت، سيُروِّع المتربصين بصمت المتألمين، لا يعرفون مُكابدة العاكف على نفسه، الرحالة في أصقاع العالم والوحدة ورحاب كلماته وسِعَ كل الرحاب وأكثر، ويَتصوَّرون أن طول العكوف على الذات هو لِحُبِّك مؤامرة كبرى للإطاحة بأمجادهم الوهمية. أتلَذَّذ بهذين الاكتشافين معًا. هنا أزهو وأرقص فرحًا، أقول هنا طاح الريال. ثم أنْتَبِه أني أبطأتُ، وسأتأخر كثيرًا إن استسلمتُ لهذا اللجاج، لهذه المُماحَكة، فثَمَّة ما هو أهم، لحِسُن الحظ، ما هو أجمل وأبقى؛ أن أستحضر بإلحاح أن الالتزام مع الآخَرين ومِن أَجْل الآخَرين مسئولية وخُلُق لا يَصِح العَبَث بهما، وما ينبغي أن يُصْبِحا حالةَ مزاجٍ أو موضِعَ أَخْذٍ ورَد.

لأجل هذا، يستحسن أن يبقى مَطويًّا، ودافئًا بين الضلوع، أعود لأَبْرِي قلمي، ومعه أحس أن يدي ترتعش، يا لي ويا لهولي، كأنني سأفعلها للمرة الأولى، كأَن أبواب الإيمان

واليقين سُدَّت في وجهي، وها أنا ذا مُتَبتِّل أرجو الشفاعة. الدُّنو من الكلمات كالدُّنُو من النار، واللَّفْحُ يسري من الآن في وجهي، لو كنت مُحبًّا لعُذِرْت، ما أحوجني إلى الحُب. غير أني، وفي انتظار أن تأتي النار على ما تَبقَّى مِنِّي، لن أترك أي وصية، ولن أَعِد أحدًا بشيء كما لن أُقرِّر إلا الاحتمال الوحيد، الممكن، وهو أنني لا أَمسِك بأي حقيقة مُطلقًا، ولن أُخاطب أحدًا بعينه، ولا أَتحمَّل أن يخاطبني أحد في شئون اليُسر والعُسر. واهم، بل جاهل مَن يتصور وُجود كاتب لجميع الناس، وأسلوب للخليقة كلها. وكلاهما إعجاز عندي؛ مَطْلَب بائعة الدجاج مِنِّي، أو الحوات الذي غدَر به البحر صيف هذا العام فلم يَجِد سمكًا يبيعه، ومُنادِم النجوم الذي أجهز الغيمُ على سمائه فجأةً فبكى طالبًا قصيدة أهديها لمحبوبته. ولَنْتَّفِق على شيء أخير، فاللَّفْح احْتَدَّ والنار ستذكو: من لم يكتب عن ذاته، من ذاته، لن يكتب عن الآخرين، للآخَرِين. تراه يَحتال، يُلَفِّق، يَستَنْسِخ المكتوب، ويُتاجر بِنَفْسِه والجميع، وهيهات أن تَمَسَّه النار التي تَطُوح بالغجر بَيْن الضِّفاف، تُصبِح فيها حَنين احتراقها عسى أن ... وهذا سببٌ آخَر للحنين.

٤/ ١٠/ ١٩٩٧م

لما تَبقَّى من شرف الكلمات

كنتُ أنوي استدراج القريب، من المكان والزمن، حيث الذكري بعدُ طَرِيَّة، والعيون لَمَّا يَزَل ومِيضُها في عيني، والشَّرْق الذي يُشكِّل ضفة بمفرده، هي بدء ومنتهى الضفاف.

كنت وعدتك، بعد أن أنشدنا فاتحة فتنتك، واصطلينا بنارها، ألَّا كلام أسطره بعد الرحيل المُؤقَّت عن شميمك، أحببت أن أقول الرُّضاب ولكن أخاف أن يقال، يا لتعس هؤلاء الذين حولنا، يحشرون مكبوتهم في كل شيء ... حتى في رفيف قُبلة، مثلًا. دعونا من هذا الآن، أووف!، لا كلام إلا بكِ يبدأ وإليكِ يُفْضي، أنتِ مجهولة الطريق، وأنا محال المرام.

ولكنها الحاجة تلح، والقلم يتململ بين أصابعي، كأنه ليس مني، كأني سأخط رسالة حب إلى أول بُنَيَّة رمَتْني بسهامها، وأنا أعبر جسر «الرصيف» إلى حي المخفية، قريبًا من دار الحاج التهامي في «دفنا الماضي». كأني ... سيطول بي الأمر لو أردت شرح تفاصيل الرغبة، وتعليل علة هذه الأصابع وهي تتململ بالقلم ليؤجل خطب شوق الحاضر الملحاح، مائلة به نحو الحاجة الأشد إلحاحًا، رغم أن المكان واحد، هو لبنان في الصيف الماضي، وبيروت القاصية–الدانية، في الصيف ما قبله.

ربما كنتُ مطالَبًا أن أفسِّر الأمر للقُرَّاء، بمعنى أن «أضعهم في الصورة» — انظروا إلى هذه العربية العظيمة لأيامنا الخرفاء!، أن أفسر وأبرر هذا «الانزياح» المتواصل عندي — فالكاتب العربي مُلزَم بأن يشرح إلى حَدَّي الفناء والخواء ما يكتب لكيلا يُخَوَّن أو يُرْجَم بحَجر البعد عن الالتزام، أن أشرح لماذا أرحل نحو ضفة أخرى بعيدًا عن هذه المياه حولنا، والكذب الأبلق الجاري أمامنا، حتى أجلب من هناك مادة حديثي، وأجد المدخل المناسب لقولٍ أظُنُّه سيعلن للمرة الأولى، وما هو إلا مُعاد من القول مَكْرُور.

حسنًا، الحكاية وما فيها أني في الصيف ما قبل الماضي اتَّفَق لي أن زُرت لبنان، وكان طقس الوقت أيامها في قَيْظَين: قيظ الصيف، وهو معلوم، حارٌّ جدًّا، رطب في بيروت ولياليه شهية رغم كل شيء. وقيظٌ آخر، لا بل هو قيظ الانتخابات البرلمانية (يسمونها هناك الاشتراعية). وقد سمعت غير مرة، وقرأت تقارير وتعليقات عن أجواء وظروف الانتخابات في عدد من البلدان العربية، ومن جانبي كنت أكف عن أي تعليق، لا لأن اللسان — كما يقال — يعجز عن التعبير، وإنما لكوني أحس وأنا أبادر إلى هذا التعبير، بأن كِمَامة أُلْصِقت بفمي من حيث لا أدري، ويهبط بصري إلى بطني فأراها منتفخة لا أفهم كيف تَورَّمَت فجأة، أنا المعتدل في أكلي وشربي، ثم ما ألبث أن أسمعها تغرغر فإذا هي أمعائي تضج بالقهقهة، فقلتُ هذا جن الانتخابات العربية سكنني — كأني لستُ مسكونًا بغيره — وهو يكيد لي نِكاية بنواياي، العياذ بالله منها.

في صيف العام قبل الماضي وجدتُني محشورًا للمرة الأولى في قلب انتخابات عربية بالمناسبة، فإن ذاكرتي ممحوة بالنسبة لنظيرتها المغربية، ربما بسبب طول اغترابي، والله أعلم، هو ذا لبنان في قلب الصيف، يعني في نهايات شهر أغسطس يتطلع حكومةً وأحزابًا وطوائف ومذاهب وحماة وشخصيات سياسية وفكرية لانتخاب برلمان جديد، وطبعًا من أجل إرساء وترسيخ دعائم الديمقراطية (كذا). لم أكن طرفًا في هذا الموضوع من قريب أو بعيد، رغم هيامي التاريخي بحبيبتي الديمقراطية التي انتظرتُها طويلًا، عبثًا، نظير انتظاري طيلة سنوات الطفولة لسيدنا قدَر، في تلك الليلة التي هي «خير من ألف شهر». وفيما أجول في الشوارع من منطقة «الحمراء» إلى «جونيه» وأنتهى مع السفح عند «الدامور» صعدًا في جبل الشوف الدُّرزي، أحيانًا أخاصر الساحل فأصعد شمالًا إلى طرابلس أو أنزل جنوبًا إلى صَيْدا وصور.

ولا تفوتني مَعاقل «حزب الله» ولا أحزاب الجان ... حيثما ذهبت، ومن أيما جهة أُبْت أراني قد عَبَرتُ كلمترات من المُلصقات واللافتات، موكبي مَحفوف بلغة الضاد متبرجة في أبهى حللها وزينتها، ووعود الديمقراطية والخير العميم تَرفُل في ثوب قَشيب. أظن أني فكَّرتُ وقتها مع عدد من المصروعين مثلي، من الذين فاتَهم رَكْب هذه الحبيبة، ويجلسون كل مساء ينفخون النرجيلة في مقهى «الروضة» قُبالة «الروشة» تَحسُّرًا على زين الشباب «أبو فراس» الذي لم «يُمتَّع» بالديمقراطية. والحاصل أننا، وقد انسطلنا بمباهج اللغة الانتخابية، فكَّرْنا في وضع قاموس عربي جديد. وللوهلة الأولى حسبنا مهمتنا يسيرة، وإذا بنا، ونحن في عز «الانسطال»، اكتشفنا، ومعنا جهابذة من تلامذة الشيخ عبد الله العلايلي،

أن بضاعتنا اللغوية الجديدة — أقصد بضاعة النواب المرشحين الأفضل — تَرْبُو عمَّا في «لسان العرب»، و«تاج العروس» فتَهيَّبْنا الأمر، وفكَّرْنا من جديد أن من الأفضل بَذْل هذا الجهد فيما يمكن أن يعود على ذواتنا النرجسية بما لذَّ وطاب، وهذا سبب استمرار «انسطالنا» إلى ... ربما يوم الدين!

رأيت وقتها أعمدة الكهرباء، والجدران، ونوافذ السيارات وواجهات المقاهي، وشاشات التلفزيون، لعَلِّي رأيتُ البحر والأنهار رؤيتي لصفحة السماء في النهار وضياء القمر في الليل. كما ظفائر غابات الأرز والصنوبر، وسحنات الماشين في الأسواق من أَجْل الرِّزق أو على غير هدى مِثْلي، وصولًا إلى الأرصفة والإسفلت المطليين؛ رأيت كل هذا وأولئك وذاك تنوء بحملها وهي تبدو منتفخة الأوداج، مُتكَرِّشة البطون، لغتنا العربية الفخمة تزهو، وهذا بعض ما قرأتُ أورده اعتباطًا، وبلا ترتيب: «الشرف/العدل/المساواة/الكرامة/نصرة الحق/الدفاع عن المحرومين/تطهير المجاري/إنصاف المهجَّرين/حافلة لكل مواطن/عمر بن الخطاب الجديد/من أجل استئصال شوكة الفساد/إبادة مافيا الرشوة من الكبار خاصة/ظهر الحق وسيفوز نائبنا عبد الحق/النائب عبد الباقي هو درعنا الواقي/القضاء على الأمية بالرغيف والبندقية/نحنا أولاد البلد، نعاهدك يا عبد الصمد، نائبنا إلى الأبد/عالبطاطا، البطاطا، يا زعيمنا بلَّاطه/الشجاعة. مثال الفروسة/الإقدام/البسالة/المرشح الهِزَبْر/المغوار/فريق الشدائد، معكم في الشارد والوارد/نائب ضيعتنا أبو الجد، نحن أعطيناك العهد، من المهد إلى اللحد/واق واق يا رفاق، يا بطل الانعتاق/البطولة/المروءة/حل جميع المشاكل/عروسة حلوة لكل عازب/زوج فَحْل لكل عانس/بيني وبينك. كل شيء إلكْ/لا صهيونية، لا استعمار، مرشحنا، بن ضيعتنا عبد الجبار، هو هو ابن الدار/كلنا ضد الكفار والنصر بكره للثوار/صوتك هو الحق، وأنت عبد الحق، فليسقط البق/.../بق/... بق».

في زمن آخر، في بلد آخر، استيقظتُ وفي رأسي دُوَار أو إحساس بفقدان الجاذبية، ضرب من المجاز، ليس إلا، وكنت قد نسيت جميع الأسماء واللغات والكلمات والشعارات. الحق أن البَقَّ لم يُبْقِ لي وقتًا لقُدْرَة التَّذكُّر، فقد هجم عليَّ يهرش جلدي هرشًا، ويمصُّ دمي مصًّا.

كنت في زمن آخَر، في بلد آخر، ويدي لا تطول صدري لتَهرُشَه فكيف بظهري، يدي المبتورة مني مثل صوتي — هل الكتابة صوت لمن لا يسمع؟ له اليقين دائمًا، مثلما لي يقين مُطلَق بأنه، أبدًا، لن يسمع — يدي لا تطول شيئًا للهرش، فقد تكاثر عليَّ، وحولي، يا

للمفارقة، برق، بق جميل، منير، فوَّاح، صدَّاح، نَوَّاح، بَوَّاح، ثم صَيَّاح: «المغرب لنا، المقعد لنا، المجلس لنا، الغرفة لنا، البورصة لنا، اليخوت، الشوارع، مواقيت العبور من وإلى، وحديث ينبغي أن يتم الحشد والحشو، ومنه ترتيب صفقة دخولكم إلى خدر حبيبتكم المغناج، تلك، نحن غنجناها حتى حاشاكم، حتى عهرناها لتفتنكم، ولتبلونكم، أيكم أحسن ... طبعًا، طبعًا، هذا كله منا وأنتم إلينا. المغ لنا، المق، المج لنا، والغر مثلكم مثلنا، طبعًا لنا، يا أنا، يا أنا، فقط أنا».

في صيف بيروت ذلك العام، رغم القيظ ورطوبة جو سرعان ما يُذِيب، من حسن الحظ، مساحيق الكلمات، كان صوت فيروز — وأنا أحسو صوتها، نشوانًا، في تلال «بيت الدين» تقتنصني نَشوانًا — يمسح عن المتكلمين والمترشحين والمتوشحين، دعك من المُتوحِّشِين كلهم، خطاياهم، مؤقتًا لا غير ... يا صوتها.

في هذا المكان، وهذا زمن الخريف ولا لون للخريف، لم أَخْشَ على أحد، على شيء مثلما أخشاه الآن في وقت انعدام الجاذبية القريب — نحن نفهم بعضنا يا أولي الألباب ويا أصحاب الألقاب! — ما أخشاه هو على زادنا نحن الذين لم نَصطَف في «الصف» لأننا لا نعرف إلا صف الكلمة، آهِ، لو عادت تلك البَحَّة منك يا نعيمة سميح آه، لو صوتها فيروز ... هنا لَنِمْت وتركتكم، قرير العين، مُستريحًا ألَّا أحد غدًا سيخدش ما تبقى ...

١٨ / ١٠ / ١٩٩٧م

وقت من رماد

«لأنني أُصدِّق عيني، لعلَّني صدَّقْتُهما. بلى، هو ما أرى حقًّا وتحقيقًا. صرتُ أميل كثيرًا إلى التشبيه. أنجر إليه انجرارًا بلا قصد، دون سابق تدبير. وحين ينتهي السبك أحاول أحيانًا أن أفهم لماذا أفعل هذا. فهل هي خاصية أسلوبية باتت لصيقة بهذه الكتابة فلا تجد عنها فكاكًا، أم إن أدوات التشبيه تنحشر بيني وبين ما أرى، ما أريد قوله ووصفه لتنهض حاجزًا دون الاستئثار الكامل بالمرئي، بواقع مُفترَض أقول زعمًا ومكابرةً إنه لي، أنا فيه، وأملك أن أستردَّه متى وحين أشاء. أم أن كل شيء فات وأمسى في محال التحصيل فلم يَعُد إليه من سبيل غير اجتراح لعبة التوهم؟ أوَليس التوهم أفضل من الفقدان الكامل؟

ذلك ما قدرت وأنا أوجه بصري إلى الطاولة الواقعة في عمق المقهى: مقهى «لي زاركاد». في العمق الأقصى، من جهة اليسار، الملاصق للزجاج السميك، المدخن قليلًا، الذي يفصل الداخل عند الباحة الخارجية، ويفصلنا حين نجلس متقابلين أو متجاورين حول الطاولة عن «الروبوان»، أي في نقطة التقاطع بين زنقة «سوفلو» التي تنتهي في أعلاها بالمبنى الشامخ للبانتيون، يظلل إلى الأبد العظماء الساجين تحت قبته، وبين شارع «سان ميشيل» من الجهة التي ينفتح فيها على المدخل الرئيس لحديقة اللوكسمبورغ، وما وراءها وبداخلها مما تراه مرة واحدة أو مرتين، وتحتاج بعد ذلك إلى أكثر من عمر؛ لتكتشف بأنك ربما تراه للمرة الأولى.

ليس غرضي الوصف، أو إنجاز أية طوبوغرافية تَذكُّرِيَّة، لا حاجة إلى ذلك في زمن تُوفِّر فيه الخرائط عنك كل هذا العناء، وتلعب الصورة دورًا حاسمًا في رسم الفضاء وتحديد المسار، والمساعدة على علوق كليهما بالذاكرة. لكنَّ للوصف دَورًا آخر، وظيفة حاسمة، حيث تنتقل من الموصوف أو المرصود لذاته، إلى المعاينة الوصفية وهي تندرج ضمن عملية التخييل في محلول واحد. هذا ما علمنا فلوبير، على الأقل، وهو ينقل المنظور

الواقعي، والبلزاكي تحديدًا، إلى مرتبة أدبية تعيد تركيب الواقع والسمو به و«شعرنته» من زاوية وصفه وبلاغة نقله فيكون هو بذاته وشيئًا آخر فيه كثير من ذوات الذين يشغلونه، بل ليس إلا المُحصِّلة المادية والشعورية لما هم فيه. حين نصل إلى بروست ستكون العين الواصفة قد قَطعت أشواطًا طويلة في مراكمة جماليات البصري، كتابةً وتشكيلًا وأخطر ما في ذلك الوصول إلى تَحوُّلها إلى بوتقة ينصهر فيها الشعور باللاشعور، وهما يقومان بالاستشراف والاسترجاع، بالفعل في انتظار رد فعل مشمول من خلال «النظرة le regard»، وزاوية النظر، و«الشيء المنظور l'objet du regard»، وهو يحاور ناظره مُحرِّكًا فيه عالمًا من التداعيات شخوصًا ودفقًا من المشاعر، ووقائع صغيرة وكبيرة هي لُحمة الرواية وسداها إلى أن يصبح الشيء المنظور في ذاته هو مِهْماز الرواية وقد تَسلَّمها أكبر وريث لفلوبير، أعني الآن روب غربي، ليعيد للوصف مَجْدَه الأول وقد أركبه فوق هودج العصر الجديد لما بعد الحرب العالمية الثانية.

ليس غرضي التنظير للوصف، أو استدعاء أي ثقافة نقدية لا تجلب إلا عكرة المزاج، وخاصَّةً إن أنت استخدمتها في قراءة رواية عربية ما، غالبًا ما تعود عليك بالندم، وتبعدك عن الطريق السَّوِي، من الذي رغبت في خوضه منذ البادية. منذ اقتربت من تلك الطاولة وألقيت بها ببصرك، وكأنك تصدق. لعلك صدقت. بلى، لقد صدقت وإلا لم تَوجَّهْت نحوها هي بالذات، تسبقك الابتسامة المنشرحة للأيام الخوالي، فاتحًا حضنك، مادًّا ذراعيك كالعائد من سفر سيستقبل صديقًا قادمًا لاستقبالك هو الآخر بالأحضان:

– ياه، ماجدالينا، أنت هنا؟! ... ياه، كأنك ما غادرت هذه الطاولة أبدًا كل السنوات التي مضت!

حضر النادل فأضاف قَدْرًا من البلبلة ما أظن أننا كنا بحاجة إليه: وإذن، أيها الشباب سابقًا، مثلي، أُحْضِر لك أنت شايك الساخن كما تحبين، لك أنت قدحًا من ذلك المشروب المعلوم الذي تهوى، يعني كسائر العشيات.

ومضى مِرحًا يدندن بلحن العشيات، شجي لجاك بريل، هكذا هو، «أرمان»، يحب الناس دفعة واحدة أو يمقتهم إلى الأبد. حين عرفته قبل حوالي عشرين عامًا، وأنا أطرق محاضرات السوربون الأولى، عاملني، في البداية، بلامبالاة، لا، بل إن عينيه كانَتا تُلْقِيان صوبي، خلسة، نظرات حذرة، وحين لاحظ أن وجهي غاطس دائمًا في كتاب مَيَّزت اطمئنانه إليَّ دون أن أفهم سببًا لتحوله المفاجئ، إلى أن وضع ذات عشية فوق طاولتي مشروبًا. قال إنه يتبرع به، فأنا على الأقل، في نظره، لستُ من العرب الذين يعيشون على مطاردة العجائز. في مرة أخرى، وقد أصبحت ماجدالينا لَصْقي، أو أجلس قُبالتها بيننا

بُخار شاي أو حبب جعة، همس في أذني كمن يقدم النصح: أنت أيضًا ستقع في تلك البلوى، ستحبها وتحبك، وتذهب ثم تندم، آهِ، لا أحد يرعوي في هذا العالم! كنت أَعبُّ الفصول عَبًّا من خلال الزجاج المدخن، وحديقة اللوكسمبورغ تهب لنا مفاتنها ونحن نمشي فيها. أكون محمومًا بجسدي الناحل وأذهب إليها. مثل طفلين نتراشق بندف الثلج، ونحن بعدُ طلاب لا نملك تلك المَعاطف السميكة. لا أهمية لذلك؛ فقلوبنا مَجامِر ملتهبة. وما أن يقرصنا برد يناير اللاسع، إلا ويجدنا قد تقدمنا بخطوات لاهثة لنغشى غُرفتي القدسية في زنقة موفتار، جالبين معنا الطعام والشراب بالدين. إلا الحب فقد كان مبذولًا بسخاء، وبلا حساب، لم تطلب مني ماجدالينا أن أتزوجها أبدًا، صنيع كل العربيات، ولم يخطر ببالي أننا قد نفترق، إذ أمسى الذي بيننا أقدس من الزواج وأمْتَن من عُراه.

ياه، كنا إذ ذاك شبابًا، نحب ونحلم بغزارة، مثل مطر باريس المؤلهة، مثل المطر الحقيقي. مثل الاشتراكية التي تدفقت في عروق المدينة، ونحن نندفع في تيارها الجارف إلى أن ارتمينا شمالًا عند أعتاب البانتيون، تندلق على مسامعنا تاسعة بتهوفن. قبالتنا، مثل إله إغريقي، ميتران وصحبه يُلوِّحون بالوردة، حمراء كانت الوردة مثل ذلك النشيد البعيد الذي يغرغر في مسمعي قادمًا من حفلة الجراميز في كشفية برشيد، غداة الاستقلال، وهم ينشدون، والشعب جميعًا ينشد:

الراية الحمراء تزهو والحمد لله رب العالمين
الراية الحمراء تزهو ولعنة الله على الخائنين

ياه، ماذا أصابك يا رايتي الحمراء، هل أنتِ التي شَحبتِ أم أنا الذي تَضبَّبت في عيني الرؤية؟ أما ماجدالينا فقد كانت ترى الأحمر في كل شيء، وهي تفكر في بلدها الأمريكي-اللاتيني. كانت تحكي دائمًا عن أولئك الجنرالات الذين يحكمون البلاد بالدبابات والاختطافات. عن الطغمة العسكرية التي تكاد تفني الشعب. وقصورها ومضاجعها هي والطبقة النَّهَّابة التي صنعت، تقوم على الجثث والجماجم وأكباد الأمهات. وبينما يشربون الأنخاب يسمع في الليل عويل لموتى مُكدَّسِين في الأنفاق يطلبون قبورًا علنية لموتهم السِّرِّي، ماجدالينا تَهَبُ لي جسدها كله لتبقى رُوحُها مُعلَّقة مع الأرواح الخلفية. قالت وتاسعة بتهوفن تجري دموعًا على خديها: لا بُدَّ من العودة إلى هناك، فربما فعلتُ شيئًا يجعلنا نستحق الوصول إلى هنا من جديد. فهمتُ، نصل إلى هذه المدينة بحجة الدراسة، نحن طلاب وباحثو العالم الثالث، ونحن في الحقيقة إنما نهرب من أنفسنا، من بلدان بائرة

بحثًا عن آمال مُحتمَلة، وإن بدت لنا بعيدة. هؤلاء القوم شوارعهم وشرفاتهم مزينة بآلاف الورود، فمتى تَيْنَع عندنا نحن وردة واحدة؟

لا أذكر متى غادرت ماجدالينا، ولا كيف قرَّرتْ أن أغادر بدوري. لم تكن دراستها للحصول على شهادة علم الأحياء إلا تَعِلَّة، هي المسكونة بالموتى في مدينة مُتخَمة بالحياة. ولم يكن وصولي إلى هنا للحصول على شهادة عليا إلا زعمًا أُناور به للبقاء في مكان تستطيع أن ترى فيه الفصول تتوالى بانتظام، وبأمِّ عينك ترى الخريف وتجمع أوراقه وهي تتناثر أمامك، كما يقول الشاعر «كتَناثُر العَبَرات». ولا يستطيع فيه أي حاكم، مهما أوتي من سُلطة وشرعية، أن يُؤجِّل وصول الربيع.

في مكان تستطيع أن تطلق فيه حنجرتك بالصراخ. أن تحتل أي ساحة تشاء، مثل ناجي في رواية «أسنان الطوبوغرافي» لفؤاد العروي، وتصرخ وحدك. مثل مجنون، مثل عاقل، مثل إنسان يكتشف دفعة واحدة أنه يسترجع صوته بعد طول فقدان. أن الصراخ حق طبيعي من حقوق الإنسان، لا يعاقب بالزرواطة أو الإحالة على المعزل. في مكان كنتما فيه. بقيتما عددًا من السنين، ولم تَفْهَما أنكما تَغرَّبْتما إلا بعد أن شَددتُما الرِّحال عودًا على بدء إلى مَسقط الرأس حيث تَسقط الرءوس تباعًا. وما حسبتماه قادرًا على أن يفيض، رغم كل شيء بنبع الأمل ... بلا أمل.

– ياه، ماجدالينا، أنت هنا؟!

– ياه، وأنت هنا، أيضًا؟!

– هي ذي باريس، إذن، عادة سيئة، لا نستطيع التخلص منها أم إنني مخطئ؟

– كلَّا، أوطاننا، أو ما حسبناه أوطانًا لنا هي التي تزمن في عاداتها السيئة، ولا تعرف كيف تحتفظ بأبنائها.

– وهل بقي من العمر ما يكفي لنستأنف التِّيه من جديد، أقصد ذلك الجمر المُتوهِّج؟

– أوه، ما زلتَ تُصِر على الكلام بالشعر، لا بأس، سأجاريك، لا أهمية لأي شيء، بعد كل الذي مضى، والوقت الآن كما ترى، وقْتُنا من رماد.»

١٥ / ١١ / ١٩٩٧م

البنيوية في غرفة دافئة

(١) برق غريماس

لو كان للذِّكرَى شفاه تتكلم، كل الشفاه، لانفرجت، وتَجمَّرت بلفظة الحسرة، آه! ولتلك المرابع أن تنطق لانبجس منها الخطو القديم كباقي الوشم، كعين ماء كانت هنا، وها وخز التراب ما زال بعدُ محفورًا بمجراها، لتنهدت: إيه رأيتُه يَعْبُر من هنا، أنا أعني قبل خمس دقائق من الساعة الرابعة ليوم الجمعة، المُؤرَّخ بالخامس من نوفمبر من سنة واحد وثمانين وستمائة وألف. الطقس بارد، كالعادة، وهو بلا معطف، أظنه تَحوَّط له باحتطاب كل دفء الجنوب قبل أن يبلل البوغاز بدمعتين، بعبورين: واحد إلى هذه الساحة، وآخر إليها، ياه إليها، ثانية وأبدًا.

سمعتُ خطوتي تَدقُّ بلاط ساحة الجامعة وأنا أعبر إلى السوربون العتيقة. كنتُ وَجِلًا ومُتهيِّبًا في آنٍ، في هذه العصرية، لا بسبب المكان الذي بدأتُ أتعود على رحابه، ولكن للمجلس العلمي الذي سأحضره بعد قليل، والأسماء العلمية المعتمدة فيه من العيار الثقيل، في قلبها اسم غريماس، وهو عندئذٍ يخيف بالسميوطيقا، في حلقته الدراسية الأسبوعية بمدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية، ويُفكِّك النصوص ويرسمها رسمه للمعادلات الرياضية. كان بعض شبابنا في الجنوب آنذاك إما ينخلون بقايا البنيوية التكوينية، أو يلوكون باعتزاز قُشورًا من زوادة رولان بارت، الذي حصده موت بالصدفة تاركًا علمه أضيع من الأيتام.

صعدتُ الطابق الأول مارًّا بمدرج لوي ليار الشهير، حيث سأشهدني في عام لاحق أدافع عن أطروحتي بأنفة، وحيث شهدت بعد ذلك ريجيس دوبري في محفل علمي وسياسي وهو يدافع عن أطروحته عن علم الميديولوجيا.

دفعتُ باب القاعة الصغيرة التي في عُمق الطابق الأول، جهة اليمين، وظهر لي أني وصلتُ متأخِّرًا، فقد وجدتُها غاصَّة بطلاب باحثين من جنسيات مختلفة، وأكثرهم عرب، حضروا هنا لمتابعة مُناقشة أطروحة لنيل دكتوراه الدولة أعدها طالب بعثة سوري عن شعر السَّيَّاب. طبعًا، كان الإخوة السوريون هم الأغلبية، والمشارقة، عمومًا، كما لاحظتُ مُتضامنون في كل شيء، خلافًا للمغاربة، رغم خلافاتهم السياسية التي شهدت بعضها كأنها نار حرب تُوقَد. أما هنا فقد جاءوا لمُؤازرة الأستاذ عبد الكريم (...) الذي جاء ليدافع عن أطروحته الموسومة «الموضوعية البنيوية، دراسة في شعر السَّيَّاب» ولم يكن ذلك هيِّنًا أمام لجنة مُكوَّنة من غريماس، وميكل، وغيرهما من الصناديد، الذين لا يمنحون ميزة «حسن جدًّا» كيفما اتفق.

قدم الباحث عرضه التقليدي أمام اللجنة بثقة، وبصوت جهوري، ثم افتتحت المناقشة. وجدتُني مشدودًا إلى منصة الأساتذة أنتظر، وأتوقع خاصَّة متى سيحين تَدخُّل غريماس، وماذا سيقول هذا السيميوطيقي المخيف، أمَّا أندري ميكل فصِرتُ آلف محاضراته في الكوليج دي فرانس. هو ومشيل فوكو الذي كان خارج دروسه الصارمة، صموتًا، ويَخْجَل من ظله. مرَّت ساعة وأنا مستند إلى الجدار وقوفًا، فقد شغل «الشعب» السوري جُلَّ المقاعد. كنتُ في عز شبابي وقتها لا أحس بالعياء إلا نادرًا، فصَمدتُ ساعة ثانية. وكالبرق التمعت نظرتها. أصبحنا في الليل، والقاعة مُضاءة، ولم يكن من مطر في الخارج، فهل سيدوي الرَّعد، بعد قليل، إثر هذا البرق، ويهطل المطر خيطًا من السماء أو هو مُجرَّد برق خلب؟ اخترقتني نظرتها للمرة الثانية، فهي جالسة في الصف ما قبل الأخير جهة اليمين، ولا تكفُّ عن تشبيك أصابع يدها بِغابة شَعْرها، فأضاءت القاعة مَرَّتَين بتأثير هذا البرق الذي تقاطع في جنباتها طولًا وعرضًا، ياه، وفي شغافي، أيضًا.

كانوا ستة خلف منضدة المنصة، وجاء دور كوهين، أستاذ اللسانيات وسَمِعْته «يشرح ويملح» في تطبيقات السيد عبد الكريم في هذا الشأن، وأنا أقول يا ويلي من هؤلاء يوم سأدافع عن أطروحتي، مُتمنِّيًا أن لا أتعرض لـ «البهدلة» أمام الحضور، وعندئذٍ لن تشفع «حسن جدًّا» في شيء. ولكن ما بال عينك يكاد منها الماء ينسكب ... لا، هذا خدر، من رَجْع ذِكْرى ربما. لا، هذا شهد يصعد إلى العينين قبل احتساء تينك الشفتين.

انشطرت القاعة نصفين: واحدة لبنيوية عبد الكريم، والثانية لهذه البنيوية الجديدة التي لا اسم لها بعدُ وهي على أهبة الانفراج بين الشفاه. أظن أن غريماس كان في السبعين بوجه صلب ومُتغَضِّن، وقامة احتفظت بمتانة الماضي، والكلمة، الآن، له وكأن على الرءوس

الطير. وعلى عكس تَوقُّعنا فوجئنا أنه قال أو لَم يَقُل كثيرًا أو لم نفهم قوله، إلا بعد لَأْيٍ، وأن تململ الحضور، وعلى الوجوه خيال ابتسامة مريرة، ويصح أن أقول ساخرة منه هو سخرية العالم. قال غريماس بإيجاز شديد، وقد وضع كوعيه على المنضدة، مُسنِدًا وجهه لراحتيه، وهو ينظر إلى السقف، وكأنه يبحث مثلي عن برق ضائع، والكلام مُوجَّه إلى الباحث المُرشَّح: قرأتُ أطروحتك وحسب تجربتي المتواضعة في البحث العلمي، فإني اكتشفتُ أنا الذي كنتُ أظن أني أفهم في البنيوية، بِنْيويَّة جديدة، ما رأيُك لو سميناها «البنيوية الكريمية» نسبة إلى اسم المُناقَش، ثم انصرف لبعض التفاصيل الصغيرة في دقائق معدودة، وظلَّ صامتًا ما تَبقَّى من جلسة المناقشة كأبي الهول.

بعد ساعة زمان انفض المجلس، وقد دافع المرشَّح عن نفسه باستماتة، ونال استحقاقَه العلمي وأَجْر مَن اجتهد، ولم أسمع، بعد ذلك، أو لا أعرف ماذا جرى لبنيويته، فيما قادتني «بنيوية» عينيها، مُذ جَلْسَتِنا تلك، إلى التهلكة، فقد خرجت وأنا أتبعها ككلب وَفِي، وصعدنا معًا أعلى شارع السان ميشال، ثم انعطفنا يسارًا إلى زنقة كلود برنار «وعدَوْنا فسبَقْنا ظِلَّنا» منحدرين، إلى أن انعطفنا في نهاية المنحدر، يمينًا إلى زنقة بروكا. وفي مصعد العمارة رقم ٣٥ ارتقينا لاهثين، ملفوفين بلهفتنا نطرد بها البرد، ونمني النفس بدفء العالم. وحين فَتحتُ باب الشقة وصرنا في الداخل نطق البرق إلى جانبي للمَرَّة الأولى: «الدفء هنا مناسب تمامًا لتعلُّم البنيوية. فتعالَ!»

(٢) محاكمة زفزاف

في سنوات سابقة على هذه الذكرى، كان «محمدوس – مثل الإله زيوس» بطل رواية «المرأة والوردة» لمحمد زفزاف قد قطع البوغاز، وحط الرحال في طوريمولينوس على شاطئ الكوستادل سول الإسباني، أي في هذه الرقعة التي تصورها تجسد الغرب مُطلقًا. رحل إلى هناك بحثًا عن الحرية، والكرامة والهواء غير المُلوَّث، وعن دفء العالم. وجاءته «سوز» الدنماركية هِبَة من السماء أو من الغرب فأطفأت عطشه، وأشبعت جوعه، وكل شيء. ثم استفاق محمدوس كإله روائي وربما حقيقي مع ذاته ليكتشف أن هذه الملكة أفخم من أن تَسوس معه مملكته، وبأن طوريمولينوس ليست أكثر من «حلم ليلة صيف» وأنهم له بالمِرْصاد والسَّوْط قبل وبعد الرحيل، ولدى العودة المحتومة؛ لأن دفء العالم، بالنسبة إلينا نحن أبناء الجنوب، حلم مُمعِن في الهروب وبَرْق خُلَّب. وفضَّل البطل/الكاتب، وهو يعود إلى «جحيم» المغرب بدءًا من طنجة، أن يعزل نفسه في غرفة فندق، ويَنْصب لنفسه،

كضرب من الجلد الذاتي، مُحاكَمة شخصية يستحضر فيها كل شروط ورموز أي مُحاكَمة، عجيب حقًّا أن أي واحد من النقاد الطراطير لم يَنْتَبه إلى أن زفزاف قد استوحى، مثلًا، وبنضج، كافكا في روايته الشهيرة قبل أن يكتب صنع الله إبراهيم «اللجنة» بسنوات، فيا لَتعس مُغَنِّية الحي، ويا لبؤس النقد! ليصدر في حَقِّه حكمًا لا يستحقه، لا نَستحقه جميعًا، أن يَتحمَّل النفي والغربة والحرمان الأبدي في الوطن. تمر السنوات تباعًا والحرمان هو ذاته وأنكى، والأدب المغربي، عربيه، والمكتوب فيه بالفرنسية، لا يُعبِّر سوى عن هذه التيمة أو ما يحوم حولها، وتظل أرواح الكُتَّاب حوامة في هجرة الأطياف المترقرقة، بسعادة أو فرح لا يأتي. لا شيء يأتي. إلا في وَهْم وجوف الممتلئة بطونهم بالقَش، والمخمورة عيونهم بالاحتقار لهذا الشعب. وكلَّما طالت مسافة الحلم كلما تَقلَّص الأمل الذي عِشنا به طويلًا، وما نفعل اليوم سوى مُغالبة اليأس مُتشبِّثين برغبة الموت وقوفًا، مثل أشجار البياتي.

إنما للأشجار عمر أيضًا، وللفجر وقت يبزغ فيه مثل القمر ويمضي، وفَجرُنا نحن دونه الغيم الكثيف. الأعوام تَتوالى وهي تَطرُق باب العمر وتمضي ولا أحد يفتح؛ لأن المزلاج صدئ. ومَن في الداخل أشباح أو عناكب أو ذكريات مهتاجة بالحنين إلى ذكرياتها ولا سبيل. والوقت يا روحي، هو الآخَر، من صدأ، من غضب، من صَمْت، من غبن، من زُور، من دَجَل، من مَقْت ومَرارة، من دار لقمان، ومن كل هذا القرف.

«وبرغم الحزن الساكن فينا ليل نهار» أقول لك، وعام جديد يدق الباب: سأجرب أن أفرح، وحياتك، لخاطرك فقط، وأول ما سأحل ببيروت سأرسل موج المتوسط برُمَّته ليرقص لك ليلة العام الجديد، وسأطلب من الله، ومريم العذراء أن يغمر أيامك، أيامنا القادمة، بفيض المحبة، وأن يكشف عنَّا ما نحن فيه من غُمَّة.

٢١ / ١٢ / ١٩٩٧م

«يا صلاة الزين»

كنت أبحث، كالعادة، عن الاستهلال فجاء، جاءني صوتها، أدَرتُ قرص الهاتف فتعجب الأثير إذ يسمع خرير ماء في الأسلاك. حدث ذلك بالخطأ أو بصدفة محض. كانت تتهيأ قبل المغادرة إلى قصور صباها فتُخوم مداها، وما خطر لها أن يفلت زمام البهاء من يدها وهو بجوارها فيأتي، يأتيني صوتًا قلت هو الميم لا محالة فهو مليح، هو الميم مديد، هو الميم نوم المُحارب ليستريح.

أنا تَخيَّلتُ الصوت وقد جاء نعاسًا. أصبح صورة، هامَةً وقامةً. تَكلَّم وهو ناعس. أو سينعس. يفرش صوته لحافًا، يمده إزارًا، يُرتِّبه وسادةً لينعس. آتي أنا مُتسلِّلًا على رءوس وَلَهي لألثم صوته طويلًا، مديدًا حتى وشك انفضاحي بهبوب الكلام أمام التي رَعَتْني يومًا، فتَنَتْني أبدًا ... وهيَّأَت لي سِرْب هذا اليمام.

أنا اندسستُ في نعاسها، فشاهدتُ البحر والنهر وطفولتي تكرع من أحلامها. كم من الغزلان الشاردة أَوَتْ تحت أهدابها، قالت: لو رأيت عينيها لفزت بالشهادة، وكانت روحي لم يَبقَ منها غير روحها. صار الصوت لي منها ولها ولهًا ياه، لو سجلوا آهات بنيلوب، وهي تغزل بنولها في انتظار عودة عوليس من تِيهِه، لقالوا صوتها. نفس في الأثير تلهث بعده الأنفاس، دافئ كماء المغطس يحوي الجسدين. هبَطْنا إليه، ربما خَليجًا أغاديرِيًّا أو فحيح شهوة زرعت حيتانها فيما بين النهرين. أنا سعيد بأن أطرد في نعاسها، هذه جنة أخرى وصوت الميم تفاحة؛ ولذا سأطرد وأطرد. لو كنت صينيًّا لقلت هو نديٌّ مثل طعم الكرز في مطلع مايو. لو بقيت حيًّا إثره لاعترفت ... ولكني هلكت.

زفرات فوات الأوان

(١) لذكرى ناصر

الولد المتأبط نحولته كخيط ممدود من السماء، لا يدرك الأرض إلا أن تدرك حِسَّه الخافت كتنهيدة مُرَجَّعة «إن مسها ضر مَسَّته أضرار»، يعبر الأزقة الخلفية لحي مرس السلطان البيضاوي لكيلا يُرى خشية أن يَرى نفسه أو صورته في الهمس الذي يفتح له الطريق، بخطوة كأنها تخاف أن تطأ الأرض أو تعلو فوقها قليلًا، لتكاد تصبح رفيقًا للفتى الذي ينهر جسده في ارتعاشات متوالية عساه يضمه ليختلج هو والسر المكنون الذي لم يُبِح به لأحد، ولا لقلبه، آه!

من يعرف قلبه؟ هل كان هو نفسه يعرفه؟ من يعرف منا هذا النبض الذي يرج بين تضاريس الدار البيضاء المهولة؟ أكلَتْنا، طحنَتْنا، عجَنَتْنا بالتراب والنبيذ والغبار والعرق. وحين نلتفتُ قليلًا نرى أجسادنا المنحوتة في حيطانها وأرصفتها المتآكلة تلاحق أشباحنا الضامرة اليوم وهي تَخُوض في ذكرى فوات الأوان، وفي ذكراه. كيف يقصم الموت ظَهْر ما نظنه حياة ليحولها ببساطة، بعبث مُتناهٍ إلى مُجرَّد ذكرى، لكنها معه لم تكن حتمًا عابرة؟ وسأتحير دائمًا لأني حاولتُ مرارًا أن ألمس هكذا بأصابعي، أن أقبض باليد المرتعشة ضحكة منه لاهية تفترش وجهه، وتنتشر حوله، ترقص أطيافًا، وتسبح غمرًا، وتبذل، تبذل كما لم يبذل ذلك الطائي العربي القديم.

عَنَيْتُك أنت ناصر برادة، أنت هنا معي في الحاضر، حاضري، صوتك نَدِي، له خرير ماء سقاية بفاس المعتقة، أراك الآن كما ستكون دائمًا تذكو، وتزهو، وتلهو، وتشرب بحياتك نخب موتنا القديم عسانا نحيا لنعيش فيك لأنك أبقى.

(٢) لذكرى حمودة

كنتُ قد دلفتُ إلى الجريدة ذاك الصباح خفيفًا، رقيق الروح، شجتُّها أيضًا. مثل حاج في الإحرام، أو مثلما يحدث لي وأنا أزور متحف البرادو كلما حلَلتُ بمدريد. أراهم شباب الجريدة مُنْكبِّين على مقالاتهم، تحقيقاتهم، أخبارهم وهموم الناس، ولا أراه هو؛ لأن بصري عادةً ما يمتد إلى الأفق، ولا ينحني أبدًا إلا إذا أكبَّ على نفسه. ربما بدا لي الأفق صباحئذٍ أَغبرَ، مُشوَّشًا، وأنا لستُ موقنًا من شيء إلا يقيني، بعد انحناء الرأس على الصدر، أني رأيتُه، كالصُّدْفة، كالفجاءة، كالهاجس المِلحاح أو فرخ يفقس قِشْرته ليغدو للتَّوِّ أمامك فرخًا مُنتفضًا، خفيف الزَّغَب، رقيق الحاشية، لا يستطيع أن يقوم، فلو توكأ على عظامه لانهدم. لو، وهو لم يفعلها. لم يرَ ما يُعجِب ولا رآني فأكبَّ على ريشه الخفيف وسلَّ منه واحدة، وطفق يرسم العالم ملء المرارة.

حين واراه زملاؤه وأصدقاؤه التراب في «مقبرة الغفران»، المخصصة تقريبًا لفقراء الدار البيضاء، عادوا إلى الجريدة وقد حَسِبوا أنهم تركوا «حمودة» خلفهم، تحت التراب، وأنهم بطريقة أو بأخرى سيستأنفون عملهم اليومي، ملء النشاط اليومي لكنهم وجدوه في المدخل يستقبلهم واحدًا، واحدًا، ثم يقودهم نحو طاولاتهم حيث رسم لهم صورًا ضاحكة. لعلهم فَهِموا ولم يَفْهَموا، هم تَعوَّدوا رسومه الساخرة، ولكنَّهم فُوجِئوا بهذه الروح الضاحكة. وحده عبد الحميد بن داود فَهِم اللعبة فمَسَّد لحيته وهو ينظر إلى داخله كعادته، وانكب على ورقة يحرر أول «فاكس» إلى الآخرة لترعى روح الكاريكاتور حيًّا وميِّتًا.

أما العبد لله هذا، وبعد أن شارك في التشييع وقفل عائدًا إلى عزلته فإنه لم يعرف كيف يبكي ولا كيف يضحك، وإن استغرق في تأمُّل ساخر وَجيز فحواه: أَلسْنا نَسخر مِنَ الآخَرِين، ومن أنفسنا ومن الموهوبين الحقيقيين منا، وهم قلة، حين نَنساهم مدى العمر وهم إلى جوارنا ولا نَتذكَّرهم إلا حين يغادروننا خلسة كأنما ليتخلصوا من نكراننا لينطلقوا في فضاء الموت الرحب ... لنذهب أحرارًا نحن الطلقاء.

(٣) لعبد الرحمن منيف

يعرف الجميع ولا أحد يعرفه، منذ أن قرر «أبو عوف» أن يقطع حَبْل الزور والجور، ويتمرد على أخلاق القبيلة، أدخل نفسه بوعي في نفق المجهول، ها هو ذا يجوب البلدان

والعواصم، أجنبية وعربية، بلا هوية؛ أي بلا بطاقة للتعريف وجواز سفر يحملان جنسيته الأصلية. عجيب أمر هذه الأنظمة العربية تحكم الأرض بطولها، وتتحكم في رقاب البشر، وتُحدِّد مصائر الناس من المهد إلى اللحد، وتريد، إلى هذا، أن تَتدخَّل في إرادة الله التي اقتضت أن يولد هذا المخلوق هنا وليس هناك، فتنزع أو تسقط الجنسية أو تحرم من حقوق المُواطَنة التي لا تملك منها شيئًا وينسحب ذلك على البنين والسلالة كلها. أيُّ استبداد وفظاعة أكثر من هذا؟!

عرفت عبد الرحمن منيف على هذه الحال للمرة الأولى، في بغداد، في نهاية السبعينيات، وما سمعته يشكو من شيء، هو لا يشكو من شيء ولا أحد أبدًا، وإن تألَّم فمن أجل أبنائه فقط، يضطر للتنقل بهم من بلد إلى آخر كلما ضاق العيش أو غامت الرؤية. في سنوات منفاه بباريس توثَّقَت بيننا العلاقة كصديقين. والمرحوم الباهي واسطة العقد بيننا. في هذه العاصمة المذهلة اكتشفت أن عبد الرحمن عثر على إرم ذات العماد، أعني فَنَّ الرواية الذي أصبح له وطنًا، وهو الذي يملي عليه شروط الجنسية وأصولها وأخلاقها وجمالها. كانت رواية «الأشجار واغتيال مرزوق» قد أَمْسَت ذكرى بعيدة، وكذا الروايات اللاحقة بها. وفي «بولوني» بالضاحية الباريسية حيث عاش الرجل بدون راتب، وبمدخرات قليلة شرع في وضع اللمسات الأولى لخريطة وطن أدبي عظيم اسمه «مدن الملح»، بعد انتهائه من وضع الرواية المشترَكة بينه والمرحوم جبرا إبراهيم جبرا «عالَم بلا خرائط»، التي سلَّمَني مخطوطها بتواضع جم كي أبدي رأيي فيها قبل النَّشْر، وأنا مَدين له بهذا الصنيع الذي تَعلَّمتُ منه الكثير. أما «مدن الملح» فهي على ما نعرف جميعًا من شساعة فضاء، وتعدُّد شخصيات ومصائر وتماسُك بِناء وحبكة، وغزارة معنًى، وعمق التزام بالقضايا الجوهرية التي رهن لها أبو عوف حياته كلها وما يزال. لهذه الأسباب فإنه فخر للرواية العربية أن ينال منيف جائزتها الأولى التي مُنِحَت في القاهرة مؤخَّرًا، وحبذا أن يتعلم منه كل مَن يخوض هذا الدرب بأن الرواية نفس طويل عماده الموهبة والثقافة ورحابة الخيال، والتزام الموقف الصادق والأصيل.

(٤) لمحمد الأغضف

اختفيت عن ناظري زمنًا طال عندي رغم قصره، فقد ألفتُ مُجالستك وحاجتي مُلِحَّة لابتسامتك الغامضة، هناك أشخاص يبتسمون دومًا ببلاهة أو بسخاء غير مبرر، أما أنت بأرومتك الصحراوية فتضع لكل شيء ميزانًا ومنه حساب البنية المتينة، إلا هذه المرة، أو

هذا ما خُيِّل إليك، لم يضبط معك الحساب في حين كان عليك أن تعلم أن رواية «مدينة براقش» التي أهديتُك حمَّالة الغاز ومتاعب، بادرت للكتابة عنها فيما تقاعس مَن يَعُدُّون فرْضًا من أولي الاختصاص، وقدَّمْتَ مقالكَ لتلك الجريدة وجلستَ تنتظر صدوره، وفي الانتظار غِبتَ عن الأنظار، وفاتَك أن اسمي منبوذ فيها. فإن ذُكِر فعَرَضًا أو ليَنال منه واحد من الطراطير المختصين بالتهريج النقدي فيها، فاتك أيها العزيز الأغضف أنِّي نبذتُها هي وفصائلها مما يقطر زيتًا وشحمًا وأصباغًا، وما واتتني فرصة إلا وشنَّعْت على عالم دَجَلها ورغبتها في الهيمنة في مشارق الأرض ومغاربها.

لَكَم قلتُ للأصدقاء والمعارف من حملة الأقلام بأننا لا يمكن أن نحمل أفكار التقدم والتنوير، ونضع أنفسنا في وقت واحد للسُّخرة في بيوت الاستعباد والتدجين، ومقابل ماذا؟ لقاء دريهمات؛ أي إننا نحن الكُتَّاب والمثقفين الذي نرهن وجودنا لقيم الديمقراطية والتغيير وكرامة الإنسان دخَلْنا بورصة المقايَضة، وبِتْنا على استعداد لبيع كل شيء بالمال، وأنت تعرف أن بضاعتنا كاسدة، لا بأس ليست للبيع ولا الشراء، وهذا أفضل وأريح. أنا لا ألومك إذ تعمل في تلك الجريدة، فأنتَ صحفي بحق تعرف حدودك ولا تجهر أمام أحد بأنك تريد تغيير العالم، مثل أولئك الصحفيين العرب الذين التقيتُهم في بيروت أو العواصم الغربية، وأراهم كل يوم في حال ومكان، فيَردُّون على استغرابي بصفاقة قائلين ألَّا أهمية للمكان، بل الأهم هو ما تَتفتَّق عنه قرائحهم المدهونة طبعًا بالزيت والشحم والأصباغ. ها أنت تُلاحِظ أن العدوى قد لَحِقَتنا، وأن فضاء الحلم يضيق، ولكن ثِق فرغم صَمْتهم فإن غيلان «مدينة براقش» ستهاجم كل مكان، وثِق بعد هذا وذاك بأن صداقتنا هي الأبقى، أما الزَّبد، كيفما كان لونه، فيذهب.

(٥) لمؤتمر القاهرة

كتبت عن مؤتمر الرواية العربية بالقاهرة، وبقي في نفسي شيء من حتى، هذا الشيء لصيق بشئون الكُتَّاب قبل أن ينشغل بنصوصهم، لستُ وصيًّا على أحد ولا أعتبر نفسي قدوةً لأحد، لكن ثَمَّة مِن الحقائق والظواهر ما يُغضِب، والسكوت عنها تواطؤ وقبول لاستشرائها ومن قبيله نزوع الناس، بل تهافتهم، للحصول على «عضوية» المؤتمرات.

ما أعرفه وأفهمه، بالاقتناع والتجربة، أن يُدْعَى المرء للمشارَكة في مؤتمر أو الإسهام في ندوة فيحس لدى تلقيه الدعوة أنه طرف مَعنِي بها حقًّا، جدير بالحضور فيها، قادر ومؤهَّل إبداعيًّا أو فكريًّا، حسب الموقف فيقف بين رجالاتها بلا غضب، ولا أي إحساس

بأنه ليس أكثر من قطعة للزينة أو أداة للتَّلهِّي، وقد صادفت في المؤتمرات العربية والأجنبية، أيضًا، أخلاطًا من البشر يجعلونك تتساءل إن لم تكن قد أضعتَ العنوان الصحيح، وابتُلِيتَ عنوةً أو صُدفةً بما لا شأن لك به، ومرةً قال لي أحد المسئولين: لماذا تُحمِّل نفْسَك هذا الهم، خُض مع الخائضين وهو يقصد نقرة الصحون والأبواق المتجولة بين القاعات الممرات ومستعرضي ذواتهم مثل بضاعة عَفَى عليها الزمن.

وإنك لتستغرب حقًّا كيف يتجشم بعض الناس مَشاقَّ السفر، والتنقل بين المطارات والفنادق، والازدحام وراء صفوف الطعام وما في جعبتهم شيء، ليتزينوا غدًا بنياشين المشارَكة في مؤتمرات غالبًا ما تُسخَّر لأغراض دعائية. وقد وجدتُ عَيِّنة من هؤلاء في مؤتمر القاهرة، كما وجدت أفرادًا غرباء ملتزمين الصمت واحترام العالم والأديب لنفسه، متسائلين في رءوسهم ماذا يحدث للدنيا؟ وهل هكذا سينهض الفكر والأدب في دنيا العرب؟ ومن حُسْن الحظ أن من هؤلاء بقية، فلِمِثْلهم تُشدُّ الرحال، ويخف الإحساس بالقرف في نهاية المطاف.

في روايته البديعة «عالم صغير جدًّا» يسخر الروائي البريطاني دفيد لودج من هؤلاء الناس جميعًا. أما خوان غويتسولو فإنه يروي في كتابه الأخير «غابة الكتابة» كيف حاوَل أحد مسئولي الثقافة في بلاده إقناعه بالمشاركة في مؤتمر أدبي في الخارج بحجة وجود أربعين روائيًّا في المناسبة، فما كان منه إلا أن تَشبَّث بموقفه مستغربًا كيف يمكن أن يوجد هذا العدد من الروائيين في العالم كله، وإني لألتقط منه الآن هذا الاستغراب، وإن بعد فوات الأوان!

١٤/ ٣/ ١٩٩٨م

زبد آخر للأيام

(١) هوية الهاوية

يمثل البحث عن الهُوِيَّة مُرتَكزًا أساسًا من مُرتكَزات التفكير في الإبداع الأدبي الغربي، والروائي منه خاصَّةً، إن لم يكن عماده الأم. لقد كان ظهور الرواية جنسًا أدبيًّا حديثًا تعبيرًا، من بين أمور أخرى، عن تَوجُّه الكتاب، في خِضَم الانقلابات الكبرى للقرنين الثامن والتاسع عشر، لإعادة تأسيس الهُوِيَّة الجماعية والفردية في آنٍ، بل ولتقديم بعض الأجوبة — وهي مُضمَرة على الأغلب — عن أنماط من التوتر هي بنت التغيرات الاقتصادية والصناعية والاجتماعية، بدت الذات المُفرَدة مسرحًا لها، ومختبَرًا لتفاعل تلك التغيرات جميعًا مع أنا مأزومة أو مُشوَّشة هي، لو صحَّ التعبير، في طَوْر جديد من صُنْع أَنَاهَا، وتحديد هُوِيَّة مختصة بها، أي بقِيَم غير التي كانت سائدة مع الإقطاع وسُلطة الكنيسة والفروسية، وبوسائط فنية لا شك أن الرواية هي إحدى أشكالها المعقدة والمركبة بامتياز.

وإذا كان العديد من الدارسين للرواية الغربية، والكتابة السردية عمومًا، يُبرِزون قُدرَتها التخييلية، أو نزوعها إلى طرح إبدالات عن الواقع قوامها ما هو مُحتمَل الوقوع، كما هو الشأن مع أبرز أعمال النصف الثاني من القرن الماضي، وصولًا إلى ما هو فوق الواقع أو الخارج عن المألوف طُرًّا، كما في نموذج مُعيَّن من روايات كافكا؛ إذا كان الأمر على ما نرى، فإن القُطْب الفكري أو التأمُّلي في الرواية المذكورة يظهر لنا قاعدتها المركزية، ومادَّته على الدوام تقريبًا البحث عن أو في هُوِيَّة مُعيَّنة. أو ليس ذلك هو ما تسعى إلى تشخيصه كتابةً تصور انبثاق طبقة اجتماعية ومالية جديدة، وسعي أفرادها إلى العثور على مكان في العالم وقلق دائم من المصير يُساوِرُهم رغم كل التبدلات المجزية حولهم؛ قلق لا يمكن تفسيره إلا بالرحيل النهائي لكل ما هو طُوباوي. من المُفارِق حقًّا،

لمن يدرس الرواية العربية، وكيفيات تَشكُّلها النصي، أن يُلاحِظ مدى ابتعادها عن هذا النزوع وذاك، وتخبطها في الشأن التكويني أو التَّخلُّقي زمنًا طويلًا دون أن تحسم فيه. وهي لم تكن مَعنِيَّة بسؤال الهُوِيَّة إلا ضمن الشاغل العام للثقافة السياسية والاجتماعية للمرحلة، وليس كسؤال تأمُّلي بعد أن يكون قد أشبع بأسئلة الواقع وأزماته. لا بل على العكس، إن هذه الأخيرة كانت وما تزال في أكبر حِصَّة من الأعمال الروائية العربية، أو التي نصطلح على تسميتها كذلك بقوة الأشياء، هي مدار الاهتمام الأول، وكأن الكاتب العربي قد اصطدم بجنس الرواية في أسوأ حادث من نوعه. والحق أن من ينظر إلى روايتنا بطبيعتها الحكائية ومواضيعها وأزَماتها وتحقيقاتها الواقعية الطويلة، سيدرك أن الجنس الأدبي فيها ليس موجودًا إلا كشكل فضفاض، فضلًا عن خُلوِّها، إلا فيما ندر، من سؤال الهُويَّة الذي يُعدُّ مُتخللًا للرواية، مُستبطنًا لها وليس مفروضًا عليها عنوةً وتفلسفًا.

أستحضر هذه الملاحظات وقد فرغتُ توًّا من قراءة آخر رواية كتبها الروائي التشيكي ميلان كانديرا، وهي مثل عنوانها تثير بالفعل مُشكِل الهُوِيَّة من خلال الحكاية المسرودة، في هذا العمل الجديد الذي يوقعه صاحبه بالفرنسية، ويعرض فيه التاريخ السِّرِّي لشخصين في علاقة حب يعيدان اكتشاف بعضهما في صدفة محض. لا يتَّسِع المجال لسَرْد أطراف الحكاية، فضلًا عن أنه لا توجد أي حكاية بالمعنى المتعارَف عليه، ذلك أن كل ما تبحث فيه الرواية الغربية وتضعه — راهنًا — حبكتها هو غرس علاقة المفارَقة ومحاوَلة النبش في ظاهر اليد للوصول إلى عمق مُفترَض، إلى الهُوِيَّة مثلًا. وبالنسبة لشانتال وجان مارك، فإن كل شيء في حبهما على ما يرام، والصُّدفة وحدها أو الاتفاق شبه الاعتباطي على ترتيب لقاء في عطلة نهاية أسبوع في مُصطاف بحري، هو ما سيدفع الواحد منهما لإعادة اكتشاف الآخر، ومن خلاله اكتشاف ذاته أيضًا.

عمومًا، وكما أسلفنا، فإن مسألة الهُوِيَّة هي مِهْمَاز الرواية الغربية، وعند كونديرا فهي تُمثِّل صُلب مشروعه كله، سواء كمنتج مباشر للسرد، ثم كممارس للتأويل والتنظير للرواية. وقد أمكنني تَتبُّع أعماله كلها تقريبًا، كما كتبتُ عن أغلبها، يُحفِّزني على ذلك مواصلة معرفة كيف يمكن المزاوَجة بمهارة بين إنجاز حفريات في تاريخ الرواية وإنجازاتها الكبرى نظريًّا، وفي الآن نفسه المشارَكة في هذا الإنجاز بِهوِيَّة إبداعية خصوصية. ربما كان الحافز الصامت هو انخراطي الشخصي في تركيب طرفي هذه المعادَلة، وهو طموح موجود عند كثير من الروائيين من كل الجنسيات، وخاصَّةً أولئك الذي ينتمون

إلى ثقافات تعتبر الرواية، إلى جانب كونها حقلًا لخصوبة التخييل، المضمار الذي تتناسل فيه أسئلة الوجود والمصير. أسئلة يعالجها الروائي على طريقته، أي بعيدًا عن التورط النظري والمماحَكة الفكرية السمجة، وبتفاعل حي مع المحيط والمَعِيش اليومِيَّين.

ويخيل إليَّ أن هذين التركيبين قد باتَا إما مُنفصلَين عن ذات الكاتب ومخيلته، أو أن هذا الأخير فقد الإحساس بهما، عدا الإحساس الفاتر، المتراخي والعصابي بنفسه، ما جعل الرواية الغربية وهي تواصل دومًا مسعى تشخيص وتعميق مفهوم مُعيَّن للهوية تفقد هويتها مطلقًا، وضعًا، ودلالة، وشكلًا فنِّيًّا كذلك. هكذا أجدني فجأة أمام كونديرا بلا هوية، هو الذي لم يفعل شيئًا طوال حياته سوى محاولة تأصيلها بضراوة، تمامًا كما أجدني وأنا أنتهي من قراءة أي رواية عربية متسائلًا: وبعدُ، متى سنشرع في طرح سؤال الهوية بطريقة إبداعية حقًّا؟

(٢) هموم أخرى

للكُتَّاب العرب هموم أخرى، وأنا مُقتنع تمامًا بأنهم غير مَعنيين بكلامي هذا، أي بهذا الكلام المكتوب بالعربية التي سئموها حتى باتوا لا يعرفون ماذا يفعلون بها أو تفعل بهم. وبالمناسبة، فإن هنالك شطرًا من الحقيقة فيما أقول، فنحن نفترض سلفًا أن مَن يعلن وضعه كاتبًا أو شاعرًا، أديبًا باختصار، في لغة ما، أنه يجيدها. لن أذهب إلى حدِّ مطالبته بالإحاطة بأسرارها والتمكن من سحر بلاغتها وإعجاز بيانها، فهذا بات مطلبًا مستحيلًا شأن وأقل من مَطالب أخرى، وكل قصدي أن هذه اللغة تسلس له القياد بأيسر السبل لا بأعسرها، وتأتي على اللسان والقلم مطواعًا لا ركيكة، هَجينة، سَقيمة بالعجمة أو محمولة على عكاكيز ما أكثرها.

الحاصل أن لهؤلاء الكُتاب همومًا أخرى وما أراهم إلا حسنًا يفعلون، وخاصَّةً حين يلاحقون العَجزة والحِرَفِيِّين من المستشرقين أو المستعربين أو المستعربات، ومن لَفَّ لَفَّهم ولَفَّهُن مِمن يُحْسَب على العربية لغةً وثقافةً وأرومةً، مستعطفين، مُتغَزِّلين، مُناشدينهم بكل أنواع التوسُّل والتَّسوُّل، طبعًا عبر إظهار فذاذة عبقريتهم وطول باعهم في كذا إلخ ... لكي تفتح لهم عن طريق هؤلاء — الترجمة إلى اللغات الأجنبية — الطريق إلى الشُّهرة، ورأسًا لتداعب جائزة نوبل نعاسهم ليلة بعد ليلة حتى ... ولقد رأيتُ في غير مؤتمر أدبي عربي هذا المستشرق أو ذاك المستعرب، لا تراه يفهم في لغتنا وثقافتنا، ودَعْك من هُوِيَّتنا، إلا النَّزْر اليسير، إلا أنه مُحاط بكل الإعجاب، وأي قول أو رأي يدلي به تجده محطَّ تنويه،

وخَلْفه حاشية تلتقط كالدجاج ما يتساقط من «دُرَره» أملًا في دخول اسمها إلى سِجلَّات الخلود بعد الحصول على «رخصة» الترجمة. في تلك الجلسة النقدية التي خُصِّصت في بلد عربي لمناقشة بعض أوهام الرواية العربية وقَفتْ كاتبة عربية لا يُحْمَد عُقبى مَن يواجهها بالخير قبل الشر، لتعلن بأنها لن تقبل أي رأي نقدي من العرب بعد أن ترجمت روايتها — أظن مقاطع من روايتها على الأرجح — إلى الألمانية ... وأنا قال لي مترجمي الألماني ... وأن الألمان هم الذين يفهمون الأدب وفي الأدب وليس مثلنا — أي نحن الحمير الذين لا نفهم إلا في قلة الأدب — وأنا كنتُ أريد أن أسألها، وأمثالها، متى سيُتَرْجَم كلامها إلى العربية ... أجل إلى العربية.

١١ أبريل ١٩٩٨م

قُبُلات كالفَرَاشات

(١) طريق البنفسج

سأجترح صَمْت مَن تَولَّه بك، وراح يسكب الْتِيَاعه في ورَع زائف، لست صاحبه. بدت الطريق طويلة من ذلك الربع الشمالي الذي كنته، كنت فيه، لا يزال الطريق لسانًا يمتد مني كسفينة تمخر العباب، هذا العباب، ولا ترتضي غير اسمك مَسراها ومجراها، والمَرسى أين؟ الذهاب والإياب، فألف ذهاب آخَر كيلا أجد غير الإياب إليك، الألفة المتيسرة فيما سلف قد استعصت فيما خلف، وها الروح تنوح ولا تدري أين المقر.

ثم هي الطريق أقصر ممَّا تتصور العين في نظرتها المُجرَّدة. ظهرت الشجرة للسائق بغتة في الطريق، ينقل جسده حملًا أبدًا كما ظنَّه، فإذا هو أضمر من برد بشار، ذلك الشاعر القديم قِدَم أوهامي. كان ناقلًا بقية نعاس مُتخمِّر هي أعتق ما في دِنَانه، ذاهبًا من رباط فارهة الارتخاء إلى الدار البيضاء التي ستبقى كلفًا بها رغم وحشيتها الجديدة، باتجاه برشيد، إحدى عواصم العالم كما أزعم، رغم أن الدنيا لا قامتْ ولا قعدتْ بسبب كتاب، مُجرَّد كتاب واحد، لم يصدر عنها، لتعداد مناقبها، كما يحدث مع مدن أخرى!

في الكلية كان المُدرَّج بانتظاري، وهو لي بالمرصاد حيثما حلَلتُ. عليَّ أن أواجه طلابًا شغوفين بالحياة، مُتطلِّعِين إلى غدٍ مجهول يدعى دار المستقبل أو «المستقلب» كما رأيتُ أطفالًا يعبثون عن صواب بلافتة في الطريق تحمل هذا الرسم. كنت ذاهبًا إليهم في صباح ربيعي شائق، عن يميني ضفاف بوزنيقة، على شمالي تلال خضراء تختفي خلفها سهول بن سليمان الخصبة، وفي الوسط ذاكرتي وهي تكاد تتفجر بالذكريات والأسماء. من يقود السيارة؟ من يقعد خلف مقودها؟ لا أعلم بالضبط أنا أم شخص آخر؟ أظن أني هو وآخَر، بل إنهما في منتهى التعدد، دَيدَنُهما التكاثر حتى لا نهايات العد. ولم أكن أعرف

مَن هو الذاهب اليوم لإلقاء المحاضرة، والوقوف في المُدرَّج قُبالة طلبة شغوفين بالحياة، وأي علم سيحمل إليهم هو الذي يكاد دماغه ينفجر بالمَشاهد والأسماء، وفي المقعد الخلفي للسيارة حزمة كتب، لمقاطع في كتب ينبغي الاستشهاد بها، وأنا لا أعي بالضبط كيف ينبغي أمام هؤلاء الناس أن أُرتِّب أسماء الأعلام؛ الجاحظ، ابن خلدون، ماكس فيبر، ثم باسكال بروكنر في هذا المبحث العام الذي نخوض فيه عن سوسيولوجيا الثقافة. وتَفطنتُ أني نَسيتُ ما حسبته أهم من هذا كله، أي ما سأقدح به زناد روحي لكي تشتعل هذا الصباح وتقول أمام الطلبة ما ينبغي أن يقال ويُدوَّن، ولا شك أنهم سيُمْتَحنون فيه غدًا — يا للغرابة — وغَدُنا جميعًا مُعلَّق في المجهول، أقصد غدهم. أما أنا فقد كنت أتخبط في أمواج الماضي. لا أمل من ترداد عبارة فيتوريو غاسمان، الأثيرة لديَّ بأن «مستقبلي ورائي». ثم فَكَّرت بأن مثل هذا الكلام قابل للتأويل بالابتئاس، والشباب لا قِبَل له بالبؤس والمبتئسين الخائبين. أراهم في الحديقة المنشرحة للكلية، وقد عادوا من العطلة، تطير القُبُلات منهم بين الشفاه والوَجَنات كالفراشات. أغبطهم، بل أغبطهم بشدة، وأخشى أن أقول إني أحسدهم. لم يحصل شيء من هذا لنا في تلك الستينيات الموحشة. عرفتُ طالبًا كان مَتيَّمًا بزميلة له يكاد يفعلها في سراويله إذا التقَت عيناها بعينيه، أما القُبلة فلَكَ أن تطول السماء السابعة ولا تطولها، أخشى أن يكون هذا بداية شعور بالتقدُّم في السن، وهو شعور منبوذ لدي؛ لأنني كلما هرولتُ في الغابات والطُّرق السيارة أحس بأن العمر ما زال ممتدًّا أمامي، والجمال، وأنا، أيضًا أنال نصيبي من القُبلات.

وباغَتَتنِي في الطريق الشجرة، دفعة واحدة، نطق الربيع بجميع اللغات، اختلطت اللغات، لا بل تَجاسَدت وتعانَقت ملء السمع والبصر والإحساس بها فوق لحمي. لحمي الذي احتَرَّ بغتةً مثل خد عذراء طَبَع عليها الحبيب أوَّل قُبلة، ولاذ بعدها إلى الأحلام، هي شجرة البنفسج، البنفسجية. يا ويلي منها، يا خوفي عليها. كانت هلاكي الأول في مراكش الشمطاء. حين أينعَتْ وشَعشعتْ بلونها استعادَت المدينة شبابها، هي شبابها. في حذر أغصانها وأوراقها وفروعها طرق علينا اللون الباب، ودون استئذان بالدخول شملنا بالبنفسج، فنمنا، واحترزنا، وحلمنا بجميع اللغات. حَسِبتُني نسيتُها، حَسِبْنا اللون ينسى، ومنذ وقت لم أَشَم عن قرب رائحة ذكراها، وها هي ذي الطريق تعيدني إلى وضع البنفسج. كانت السيارة محشورة في حرش من العشب البري النافر بعد أن انزاحت هي وصاحبها عن الطريق. لا، بل، إنها أوغلت قليلًا داخل الحقل إلى الجانب. اقتادت سَيرَها وحْدَها فلا أظن أني قُدتُها، كأنما هي مشدودة إلى جاذبية، وتوقفت أخيرًا بدون تدخُّل

منِّي على مبعدة مترين تقريبًا؛ أي على تَماسٍّ من الظل الخفيف الوارف من الشجرة. فتحتُ باب السيارة بلا وعي. هذا ما أتذَكَّره اللحظة أثناء كتابة هذه الكلمات. بلا وعي تَقدَّمتُ نحوها، أعني نحو اللون. بهيبة، بخشوع، كالداخل إلى محراب، المتأهب لطقس قرباني. لا أملك من قربان غير بقية من دم في عروقي، ولفحها الذي لا يزول حتى وقد تباعدت وتعالَت مُتخفِّية خلف سحابة وحدها تملك سِرَّها. ولم أدهش حين رأيتها هي والبنفسج يخرجان من بعضهما، وأنا أصطحبهما في رقصة لا أذكر متى بدأت، والأكيد الوحيد أنها ما زالت تدور، وكل ربيع وأنت بنفسج.

(٢) «لصوص الجَمال»

هذا كله، والأسماء الراقدة بالمقعد الخلفي للسيارة تُواصِل مناوشتي، وأنا أحاول التوفيق بين تباعدها الظاهري على الأقل وبين حقل الجمال الممتد أمامي، وقد خطر لي للتَّوِّ أن أفضل طريقة لتذكُّر الأشياء هي استبعادها لحينٍ فما تلبث أن تراها تسلس لك القياد. أظن أن ما كنتُ أفكر فيه من البداية، أو أحاول القبض عليه، والزمن المُمْعِن في هروبه ومعه تنطوي، أو بالأحرى تغتصب كل الأسماء والعلامات والأشياء الجميلة. ثم أفكر في القوى الرهيبة المتسلطة، العَلنية والمُبْهمة، المُتسَلِّطة على بني البشر تمارِس بهم وعليهم مختلف أشكال الانتهاك. أوه، كلَّا، لا أحاول بناء أو استقراء أي فلسفة، فإن ذلك خارج مدار اهتمامي. حسبي الرَّصَد ونعم الوكيل.

حسبي الأدب على كل حال، والرواية، اليوم، مجالُه الأغنى والأفسح. والماهر الكامل فيها هو من يقتدر على ضبط الرعشات الخفية والفاصلة في الوجود، ويقدمها في إهاب متقن، وحبَّذا لو كان غير مسبوق. وقد مضى عليَّ وقت طويل لم أضع فيه اليد على هذا الضرب من الكتابة المُضعَّفة، فكيف وقد وجدته وهو يتجاوب مع أكثر من سؤال ينهك الروح، ويُفصِح عن بقاء الانسان، المبدع، وفيًّا لمثل الابداع المكتمل مع مناهضته المستمرة لقوى السرقة والاغتصاب. وهذا ما أفلح فيه إلى حد بعيد الكاتب الفرنسي باسكال بروكنر في روايته الجديدة les voleurs de beauté لصوص الجمال، دار غراسي الباريسية، والفائزة نهاية العام المنصرم بجائزة «رونودو» للرواية.

في هذا السفر الحكائي البديع — علينا ألَّا نملَّ من تكرار ألَّا رواية بدون حكاية فذة مروية بتماسك — يختصر لنا بروكنر، هذا الروائي الذي من زماننا وجيلنا، إحدى أزمات أو مُعضِلات العصر في صورة ما يَتعرَّض له جَمال الآخَرين، السالف والأحياء،

من سرقةٍ إبداعًا وجسدًا. ذاك ما تمثله من جانب شخصية بنجامان الذي سينسج رواية كاملة بانتحال أعمال الآخَرين وافتضاض أرواحهم، وصولًا حتى إلى العبارات المُوحية والكلمات المُنِيرة. هَمُّ بنجامان أن يصبح كاتبًا بأي ثمن، وهذا حال لو تعلمون كثير. وسيطبع كتابه (= روايته) ويتوفَّر له حظ مِن الشهرة المبنية على الزيف والغش، التي ستنطلي على الجميع زمنًا إلى أن يسقط في حبائل هيلين، ضمير الإبداع والجَمال اليقظ، فتبتزه بدورها ابتزازًا خاصًّا مقابل السكوت عن جريرته، بأن يصبح عشيقًا لها، وفي مرتبة التابع، باعتبارها الأصل وهو الناسخ، السارق.

وما لن يخطر ببالهما معًا هو وجود قوة رهيبة أعتى في السطو وأبغى في تدمير الجمال، المتمثلة في شخصية جيروم، المحامي الستيني، المنكفئ بعيدًا عن باريس في مُنتجَع جبلي للثلوج، هو وتابعه القميء ريمون، العبد المطيع، المتواطئ والمُنفِّذ لكل خططه الجهنمية وفرانسيسكا زوجة جيروم بوصفها المشرفة على الخطط، وبالخصوص واضعة فلسفة و«أيديولوجيا» نَهْب الجَمال وإتلافه، منظورًا إليه كقوة مُدمِّرة شأنها شأن أي قوة شريرة في الحياة.

هؤلاء الثلاثة دَيدَنهم اختطاف أجمل الفتيات والحسناوات، وسجنهن في الأنفاق تحت المنتجع زمنًا طويلًا في وضع بالغ الازدراء والعسف إلى أن يذوي جمالهن، ويتحولن في وقت وجيز إلى عجائز وأعمارهن الحقيقية لم تتخط سن الشباب بعدُ. وهو ذاته المصير الذي سيحيق بهيلين صديقة بنجامان. هذا الذي سيحمل القصة، الحكاية بأكملها، ليرويها للطبيبة النفسية في حراستها الليلية بالمستشفى الباريسي، بعد أن أضاع كل شيء، هيلين، والجَمال ويقينه، وأضاعت هي بدورها صديقها، فردناند الذي يكمل حلقة التسلط والبغي في إتلاف كل ما هو جميل.

عبر الطبيبة ستسرد الرواية بكاملها، في تكويناتها المتعددة، وتمفصلاتها، وسيناريوهاتها المتراكبة ذات الخانات المتصلة–المتخاطبة، وسيقف القارئ، وهو يسمع إلى المريض السارد، على أبشع الصور والمواقف المثيرة في تدمير الجَمال، ومن ثم، وعَبْر هذا الفعل، إلى تحويله إلى جمال مُضاد. بهذه الوتيرة يمسي «المسخ» الكافكاوي شكلًا مُبدَّهًا في الحياة الحديثة حيث عقيدة القبح أو «أيديولوجيته»، تُمعِن في طغيانها إلى درجة تشييد مفاهيمها وقيمها و«جماليتها» جاعلة منها القاعدة وغيرها الاستثناء والشذوذ. إن الرداءة في الكتابة، والإبداع المُلفَّق، والأساليب والسِّجلات المتناسخة، وبورصة العلاقات المحاباتية لترويج السلع الأدبية الضَّحْلة، وما شاكل، هي جزء من هذه «الأيديولوجيا» الهجينة التي

تُدان إضمارًا عند بروكنر، وعند كل الكُتَّاب الأصلاء، ولكي تحصل الإدانة على شرعية بلا منازع، فليس أمام الأدب إلا أن يعلي مقامه بفذاذة جَمال خالص، بالموهبة المصقولة في اليد الصَّنَاع، إذ تعيد تشكيل العالم ثانيًا وثالثًا، وتزيح عنه أقنعة الدمامة و«نكهة الفجاجة.

وحْدَها عادت السيارة خارجة من حقل العشب كأن أحدًا غيري يقودها، وسواي يواصل الطريق وهو ينظر إلى الساعة توشك على بلوغ التاسعة إلا عشر دقائق، وفي الدقائق الخمس الأخيرة كان يجتاز حديقة الكلية مُتجهًا إلى المدرج، خلفه وفي عُقر قلبه، ذلك البنفسج، وحوله وفوقه، القُبُلات تطير كالفراشات.

١٨/ ٤/ ١٩٩٨م

تعالَ معي إلى جبل الحبيب

(١) جبل الحبيب

هو في مكان ما يقيم، خلف جدار، تحت سقف، سحابة، النجوم فوقه أم الشمس مقيم وله أمكنة الغياب والحضور. يسعف بالظهور حين يشاء، يمن به تاركًا خفايا منه تتلألأ كاللُّجين، أو تلتمع في عيون طال منها التطلع إلى بعيد هاتفةً بنشيد الانتظار. كلما تذكَّرْته اختصرتُ المسافة إليه وطويتُ الشوق في أحشائي استعدادًا للمغادَرة إليه. أُعَيِّن بِتصوُّر من عندي مكانًا له. أَرسم جغرافية الحرائق المُسَيَّجة بموقعه. والدروب المتناسِلة في محراب أحسبه يثوي فيه، أطيب هواء سيأخذني في سبيله. أتوضأ برحيق من ذكره. الكائن، المتكون، المتكاثر في تعداده على لساني لأخشى أن تفيض الأرض بِعَدَده فيضيع مني أنا الصانع له، المصنوع منه.

بشر هو أم طير خفَّاق في الأعالي، أم حين دعانا إليه اختلفت علينا الأسماء لتَتكاثف بعدَ لأْي في صورة لا تدرك إلا صورته. ونستأنف، عَودًا على بدء، صعود مدارج هواه، كأنَّنا لم نعشق أبدًا أو كأن عِشْقه وحده يختصر تاريخ الهوى، وقد انضمَّ إليه نفَس يُطَقْطِق كالجمرات، ولُهاث شَبقِي يَئِزُّ تحت العجلات، وحيوانات جميع الغابات تَحفُّ بنا نحن الذين لَسْنا سوى اثنين، أنا الشوق الغامر إليه، جالِبُه في الألفة المفاجئة التي تَملَّكَتها خطوات العابرين، ورعاة مُستغرقون في جمع الغِلال الباكرة مُنْدهِشين لغلة أبكر يستلذون طعمها، لا يرونها مثلما لم أرَ أحدًا سواها، وهم لي حجاب وأتباع. بأيديهم المَزْهَرِيَّات كما البخور يتخلل نسيج الأفق. الغاديات، الرائحات، السنابل الضامرة، الثامرة، بها الريح راقصة. تارة حاملات على أكتافهم صُرر ورد شَرِبْن منه والعطش بعدُ قُدَّامهن يلفح، وطَورًا ينادينه يا الحبيب، أوَمَا كفاك تَشقُّق أقدامنا من المسير إليك؟ وانظر، لو

نظرت إلى وجوهنا أضحَتْ صحراء تحت الجفون. قطر واحدة، نقصد أن تهل، ولو في غفلة، في نومنا، تُمسِّد بأصابعك المائية جباهنا، تُلاطِف الخد تلو الخد، والشفتين، تَحوم حول النهدين، وإن شئت، بدا لك أن تغوص حتى ... فغص، غص يا الحبيب.

إذا يَمَّمت شطر تطوان تاركًا العرائش خلفك، هي التي تستأنف دومًا في الخضرة المتخاصرة منحدرة من تخوم الجبال إلى ما دون النَّهْدين، فغُص، غُص يا الحبيب، فما نبغي بعدك سوى شهقة التهلكة. إذا يمَّمت ورأيت الطريق بدأ يضيق، وهو في عمق روحك يَتَّسع، وكنت قد تهت العمر كله بحثًا عن طريق تأخذك إليه، فستوهب ما لا يوهب، أي عن يمينك حين ينتهي السفح وتبدو الأرض وهي تنهض كأنها صاعدة إلى السماء. ستوهب بيمينك، ستسمع، عن قُرب وبُعد، زغرودة بيضاء تحط فوق كَفِّك حمامة تطير للتَّوِّ، تحط فوق كتف الجبل منه تنسدل على عري التل النهد، الحمام، الحمام، لا تعرف أيكما يطير ... أسربه مَن يعير جناحه لعلي ... قبل أن أفرد الجناحين نبَّهَني صاحبي، يرافقني دومًا مثل صحو ضميري لا أبغي عنه بديلًا. نَبَّهني: يا صاحِ، انظر إلى الأعلى — أنا الذي تَسكُنه الأعالي — إنه «جبل الحبيب» فوالله لا أعرف وقتها كيف سمعت البيوت البيضاء المُعلَّقة على كتف الجبل وهي تهدل: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

(٢) جبل غورغيز

كانت تطوان عندئذٍ قد أمْسَت ذكرى، أنا ذاهب إليها بعد مرور عقدين من الزمن ونيف، وهي ليست أكثر من ذكرى، تأمَّلوا معي هذه الاستحالة في علاقة الكائن بالمكان. أعصابه مُنغَرِزة فيه، اللحم والدم، بالقبضة الحارَّة يمسك الأشياء، يستنشق هواءه ملء رئتيه، يأتي من جنوبه كواحد من سكان «الداخلية»، ليجالس في مقهى من شارع محمد الخامس عُصْبة من المعتوهين مثله، كانوا يحلمون، أي مثله بتغيير العالم، ويدعوه إلى قِنِّينة كوكاكولا شاب تطاوني وديع، كان مُولَعًا بالنقد الأدبي وأكل «الزريعة» قبل أن يصطفيه خوان غاوتيسولو إلى جواره، وبعد أن تم له «الدنو من المعتصم». وحين تحتقن الظهيرة يقوده صاحب عمره إلى زنقة «الكابتان» حيث يهبطان درجًا أو درجين دالِفين إلى بيت الصداقة يطعمان ما اتَّفَق، وما ألَذَّه ذاك الذي اتَّفَق. حتى إذا أرخى الليل سدوله — أظن أنها البلاغة العربية — وكان شيخنا قد قضى من «سقيفة بني سعد» في «الجنان البجوقي» كل حاجة، وكاد النهار يستحيي من طول مُكث وقد أوْرَق نجم الليل رأيتنا بزعامة رأس فحول الشعراء، شيخ المشايخ أحمدنا المجاطي، نقتحم تطوان على غِرَّة، وهي

السادرة في شارعها بغنج الذهاب والإياب، فلا نتركها إلا بعد جفاف الضرع فيا لقسوتنا. ثم يا لجوع ينهب بعد ذلك نداريه ببقايا طعام تالف في محطة كان اسمها «الخنسيا» وكان لساننُا فيها إنسان لطيف المعشر قبل أن يصطفيه ابن خالويه، ونفطويه، وسيبويه خاصَّة إلى جواره.

تأمَّلوا معي هذه الاستحالة: ما كنا، ما صِرْنا، وما هو كائن، ما أشبه اليوم بالبارحة! ومع ذلك فليس إلا الوهم وازع تقريب الزمن، وطي المسافة. وليست إلا الرغبة للتخفيف من غلواء الزمن الذي طحننا، لأقول مثلًا وأنا أَعبُر أمام «أوطيل ناسيونال» في ٢٠ / ٤ / ١٩٩٨م ياه، أنَّا لي غرفة هنا مع حبيبتي أو زوجتي — أقصد، ذاك بالأمس، قبل عشرين سنة على الأقل — ثم إني خرجتُ لشراء علبة سجائر، أو للسباحة في مرتيل، ومن ثم لأغطس رفقة شيخ المشايخ في بحيرة أحمد شوقي، تلك التي اسمها «الفضة الذهب» أو ربما لأدخل «المكتبة الوطنية» سائلًا عن محتد وعنوان تطواني أصيل اسمه المهدي الدليرو، فيفتح لي خزانة أدب الشمال المغربي، ما حوت من سرد قصير وطويل، فكأن صَدًى لصوت منه يعود: غُص، غُص أيها الحبيب.

ولم تبق الحبيبة هي، ولا تحت سقيفة «مرتيل» مَن يجيب، وما حفَّ الكأس من حبب لونه خُلَّب، وطعمه فاتر بعد رحيل الشيخ، وعند نفطويه الخبر اليقين. أم إن تطوان استئناف اللوم، حرج وقع العتاب على الأحبة، الحفيف المرتعش خلسة في جلبة جيش الغزاة، أم لعله الهمس مثل حرج الكاعب الحسناء، بلا دِمَقْس ولا حرير، تضيق به جنَبات الساحات المُغْتصبة، وأسماء طائرة، عربية أو مُعرَّبة، ملفوفة بربطة الدجل أو العنف حتى نهاية حبل الكذب. الهمس يتحمل كل شيء إلا أن ينوب عنه عنوة من لا يملك في عروبيته المزعومة غنمًا ولا عزمًا، وماذا إلا لأن تطوان أصيلة. فتراه يأخذه صاحبه إلى مدشر اسمه «أسيفان». وفي الطريق ينبه الواحد الآخر أني تهت عن حبيبتي تلك، عن طريقي، عن جنون ذاك «العمر الجميل» الذي أصبح شاعره جديرًا بالرثاء.

اصْحَ يا صاح: انظر إلى الأعلى — أنا لن أسكن إلا العالي — إنه «جبل غورغيز» فوالله لا أذكر وقتها كيف صرتُ حمامةً بيضاءَ حلَّقت حتى «مرتيل» حيث نَقَرت شُبَّاك مهاجر فاسي اسمه عز الذين التازي، وهي تهدل في أذنه: اترك القلم، اترك هذا الهراء الذي اسمه الأدب، إنه يورث بعدُ الفقر، النقرس وبرود الحس، وتعالَ معي لأفاجي على خاطرك، لأُريكَهُن، وأُريكَها هي بالذات، الكاعب الحسناء: تطوان.

٢٥ أبريل ١٩٩٨م

فيل يزحف على ماتنيون

ألوان …

بدأ توقيت آخر حين وضعتُ قدمي على تلك الطريق. لم يكن ما حدث أو أحسستُ به من أثر التفاوت الزمني، الطبيعي، بين ساعة بلد وآخر، فهذا شيء يحس به الناس عمومًا، بتأثيره المباشر على نومهم؛ أي إنهم، على الأغلب، يتضايقون من تَقلُّص مدة النوم وكأنه الهدف الأمثل لما في الحياة، فيما بُغيتي، بل مُنْيَتي البحث عن جميع السبل وأفضلها لإنزال الضربة القاضية بهذا الغول المتربص بنا دومًا، أعني النوم.

كان ليلٌ آخر ورائي، هو الساجي أبدًا ولا أذوق له طعمًا. ينتهي النهار ببساطة، ينقضي اليوم كسائر الأيام، وبعد أن يَتذوَّق الواحد منا قهوة رديئة كما ينبغي له في باحة مقهى أردأ، كراسيها متهالكة شأن أبنائها، يحمل جسده لينقله بتأفَّف ويضطجع به تحت سقف وطيء، مُرخِيًا العنان لأحلام يقظة سُرعان ما تختلط مع أضغاث أحلام. ما يلبث أن يستيقظ بعدها ليجدد أنفاس التأفف في يوم طويل آخر.

بدأ توقيت آخر حين اشتعلت الأضواء أمامي، هي المشتعلة دومًا. قُبالتي مطعم ومقهى وحانة ومرقص «لاكوبول» الكبير، تصعد على كتفيه البناية الزجاجية العالية، حديثة الطراز. خلفي، أيضًا، مقهى «السلكت» وأنا واقف في نقطة الوسط بينهما، أي بالضبط في المساحة التي عَيَّنْتُها، المركز الحساس لجادة المونبارناس. قلتُ سأُسَمِّي اللحظة هذه النقطة مركز العالم، وبعد ذلك سأُعَيِّن الخرائط والاتجاهات كما يحلو لي. والآن يحلو لي كثير، كأن أقف حيث أنا، شبه مُمَغْنَط، شبه مضروب بعيشة قنديشة، أو من يلهث وهو واقف خلف بطلة دريوسكو في روايتها الآبقة «ترويزم»، التي باعت قرابة مائتي ألف نسخة، وهي لا تحكي سوى عن انبعاجات إيروسية عادية جدًّا في ذَوقي — على كلٍّ، فهي

لم تضربني بأي صعقة شبقية — كأن أضرب حذائي على الإسفلت نفسه الذي ضربه أندري بريتون سنة ١٩٢١م، وهو يؤجج نيران ثورته السوريالية — على العموم، ومن جِهَتي، لم تكن لدي عندئذٍ أي نوايا ثورية بعد كل الذي تعلمون، وخصوصًا أيضًا، أنها أصبحتْ من الأمور المعيبة، أليس كذلك؟! — وقد ضربت قدمي مُستنفِرًا صدري، رافعًا هامتي كمن يريد أن ينطح السماء، السماء التي كانت مختفية في سُحب مُلبَّدة، مُكبَّدة. قررت وقتئذٍ مقاطعة إحدى عاداتي الليلية لأنكب، فقط، على شرب الضوء، ضوء الليل، مُرسِلًا دعاء حارًّا أن يبعد الله النهار إلى أقصى، أقصى الأقاصي.

... الليل ...

ذاك سر، لن أبوح به لأحد، بلا نجوم، بلا قمر، ببريق العيون وحدها استَضْأنَا، وذهب البوح إلى أخيه، وانكتم السر بين اثنين، شَقَّت علينا الوحدة، فقرَّرْنا أن نُبعْثِر حب رمانة الأحزان. لا حاجة إلى الكلام في الليل، لا حاجة إلى الهمس نفسه، فقط إلى الاستماع إلى المسام وهي ترشح والعالم كله يشهق ويتصفَّد من جسدين. أحتاج إلى كل هذا الطيران والمسافات من أجل ليلة واحدة، أصبح سيد البهجة وأفنى، وأنا أبعث من جديد وسأظل أفعل إلى أن ينقضي الليل الذي لن ينقضي.

... والنهار

تفهمون أني استيقظتُ مُتأخِّرًا، أو نَبذتُ النوم مُطلقًا. فقد كنتُ، صرتُ وجسدي في مكان توقيت ينبذان النوم. غير أن الأبيض المُظلَّل، شبه المخبوء تحت عريشات الأخضر وضَعَني في الصحو الخارق، صحو الكشف والنبوءة. في ساحة إدغار كيني، غير بعيد عن مركز العالم. رُصِفت طاولات مستديرة ومستطيلة صغيرة، امتدَّت طولًا وعرضًا من الجانبين واحتشد أصحابها، قُل صويحباتها أكثر عند مدخل المترو وهُنَّ يُهلِّلن لبضاعتهن بأصوات أعلى من الإصاتة ودون الضجيج: يا لهذه الزنابق الوافرة في هذا الصباح، زنبقة واحدة من يدي وترضى عنك الحبيبة هذا اليوم، أو تغفر لك خطايا العمر كله.

وحدست، بل فهمتُ، أنا الذي ينظر إلى ما حوله الآن بالعين الوسنى، إنَّنا أصبحْنَا في فاتح مايو، وهو عيد الزنابق قبل عيد الشغل، أو إنه يرافقه إما ليخفف من آثار عام كامل من الكدح أو ليفتح طريقًا أخرى للأمل، بأبيض الزنبق المحتشم خلف الأخضر كدمعات

بلورية تضيء في عيني امرأة ترى حبيبها يُودِّعها مسافرًا إلى بعيد، خائفة من أن يكون الوداع الأخير.

لم يكن عندي لا مَن أُودِّع ولا مَن أَستقْبِل، أو أني، بعد أن كادت رمال النسيان تطوي ذكر محمد الباهي، الحبيب الصحراوي الذي كان شيخ باريس طُرًّا، قرَّرتُ أن أطوي صفحة كثيرٍ من الأسماء متشبِّثًا بوحدة شامخة بلا حدود، حارسًا لحماها وحافظًا لها العهد، وهو ما دفع بي إلى طاولة إحدى السيدات، مُشمِّرات السواعد، لأقتني منها غُصَينًا ضممته في يدي كالوجيدة وهرولتُ مُنحدِرًا من زنقة «الأدويسة» وهو اسم حقيقي لا مُفتَرَض، حيث البيت الذي أقطن، أما الحقيقي فعلًا فهو الإلياذة الكاملة التي عاشها جِيل عربي بِرُمَّته في الديار الباريسية، حصد فيها المنافي ومُرَّ الغربة، ونكهة الحرية المؤقتة، وطلاوة العيش أحيانًا.

قلت، إذن، من حق هؤلاء القوم أن يستقبلوا الصباح بالزنابق، ولهم أن ينزلوا، كما يطيب لهم إلى الشوارع وأن يَتجمَّعوا مثلًا، بدءًا من ساحة المونبرناس، ليبدأ الهتاف وتشتغل الشعارات كالنيازك، أعرف أني في نقطة من واحدة من آلاف، وحاولت أن أسترجع أمامي صورة، صورًا للمدينة في تشعبها الشراييني، وامتداداتها الثعبانية بالطريقة التي تتناسل بها الأزقة والشوارع إلى ما لا نهاية، والناس، السكان، المواطنون — التسمية هنا ضرورية وتحمل معناها بامتياز، فهل نحن من المواطنين حقًّا؟! — في غُدوٍّ ورواح ضاربين موعدًا مع عيد لهم، ليس طارئًا ولا مُستوردًا، يحسون معه أنهم في عيد، والجحافل تستطيع أن تفعل بهذه الأرض ما تشاء؛ لأنها ملكها، بملء حناجرها تهتف، تصرخ، تُندِّد، وتفرح، أيضًا، ولن يَتبدَّد الصراخ، فللرجال قاماتهم كما للكلام تاريخه وسِجلَّاته.

كنتُ منجرفًا مع السيل العرم، فأحسستُ بوحدتي المتوحِّشة، النافرة الأعصاب، المستفِزَّة للآخَرين، تتآلف مع وحدات أخرى وتتعانق. دخلنا تدريجيًّا في مهرجان للقُبل يستحيل على مِقصِّ أي رقيب أن يمتد إليه ليغتصب روح الإنسان — هذه المُختنِقَة عندنا في كل مكان — كانت رائحة الشواء تَتبعنا، والقناني تندلق، والظمأ يزداد احتراقًا فيما الأيادي تُطوِّق الخصور، والرقصات حبال تلتوي فوق الرءوس. ولم تكن إلا واحدة من طُرق مُتعدِّدة لطرد الضجر، وصقل ما في النفس من صدأ، ذلك الصدأ الوجودي الذي لا تعرفه الطبقة العاملة في البلدان الغابرة. لم أكن في أي يوم كائنًا احتفاليًّا، ولا قِبَل لي بالنزول في المناسبات العامة، في الاحتشادات المُنظَّمة المُؤطَّرة بكلمات ورموز الضبط

والانضباط. يُخيَّل إليَّ أن هناك دائمًا من يجني ثمرة المناسبة، أي مناسبة. ويذهب إلى إحدى طاولات المُفاوَضات أو الجلسات الطقوسية ليتحدث باسم الجميع، ونيابة عن الجميع. لتنتبه في الأخير أن الكثرة ما هي إلا الشكل المُصطَنع، المُبهْرَج الذي يتقلص إلى واحد، واحد أحد، سيزعم لنفسه في الأخير أنه يختصر الجميع، تُلاحِظون بوضوح أني أُغنِّي خارج السرب، وأني بهذه الطريقة أسعى للحفاظ على فَرادة الغناء، وسلامة النوع أيضًا.

لهذا السبب ربما وجدتني أبتهج أكثر من أي وقت مضى، أي وقت عرفت في حياتي وعلاقتي مع أوضاع ومشاهد الفرجة، وجدتني بهذا الإحساس قبل فاتح مايو، غير الرسمي للعمل، أي قبل المناسبة. أي في يوم ٢٩ أبريل، وأنا أخرج من متجر «الفناك» الضخم لبيع الموسيقى والكتب في شارع «رين» في مطالع الدائرة الخامسة عشرة، بعد أن قضيت فيه أزيد من ساعتين أتملى في الكتب والتسجيلات التي لم أَعُد قادرًا على اقتنائها للهب أسعارها. نويت وأنا أغادر المتجر إلى أقرب محل «هومبورغر» لأُسْكت جوعي، ومن ثم لأدلف إلى السينما في موعد مع الفيلم الجديد لجاك نكلسون، هذا البهلوان الستيني العظيم. فجأةً تلاشى الجوع، واختفَت رغبة الفن السابع؛ لأني وجدتني دفعة واحدة في قلب مشهد سينمائي ضخم لا تنقصه إلا الكاميرات لتخلده.

بداية شارع «رين» أصبح مقطوعًا، فالمواطنون هنا يستبيحون الشوارع تقريبًا متى وأنَّى شاءوا، والحقيقة أنها ملكهم وبضرائبهم تُعَبَّد وتُصان ولا يحق لأحد أن يحتكرها دون الجميع. بدت المسيرة من أعلى الشارع؛ أي متقدمة من جادَّة «دومين» المنحدرة من الدائرة الرابعة عشرة، هكذا قَدَّرْت وفَكَّرْت أنها زاحفة أصلًا من ساحة «أليزيا» إن لم تكن قد انطلقت من «بورت أورليان». وفهمت أن الزحف سيمتد قريبًا ليجعل مركزه السان جرمان بعد قليل، أفادت اللافتات والشعارات والمزامير أن قِطَاع التعليم في ضاحية «سان دوني» الباريسية ما زال مُتشبِّثًا بمطالبه بعد انصرام شهرين على الإضراب. أفادت كذلك أن القطاع لن يستسلم وسيركب رأسه إلى أن يرضخ الرأس الكبير وزير التربية الوطنية كلود أليغر للمَطالب. بغتةً توقَّف الموكب وزعيق زمامير السيارات يعلو، وانفتح زقاق جانبي عن دخول شاحنة ما لبثت أن ربضت تدريجيًّا. كنتُ مطمئنًّا تمامًا، وقد انضممت إلى المتظاهرين، بأن أحدًا لن ينزل منها مدفعًا ويشرع في إطلاق النار علينا ليأتي غدًا من يحفر الأرض ويدفننا في مقابر جماعية، وقد فتحت بوابة الشاحنة من الخلف. ومن بعيد لمحت كتلة هائلة تتحرك، وخطوة، خطوة، اتضح لنا بالعين المجردة أنه فيل. حتمًا

لم نكن في الهند، ولم يكن معنا أي مهاتما. وبدأ الفيل يتقدم بمفرده يرمي الخطوة إثر الخطوة، فصِرْنا على إثره وفي ركبه. تدريجيًّا صِرنا متظاهرين وجماهير يقودها فيل. تَعدَّدت التفسيرات للمشهد، للسبب في إشراك أو تشريف الفيل للمظاهرة، وأوضحها الشبه بين وجه وزير التربية الوطنية ومزاجه بالفيل. لكن هذا التفسير لم يقنعني، على الأقل لم يَحُلْ بيني وإطلاق العنان لخيالي الخاص كي يُوجِد ما يطيب له من التأويلات التي استرحت لها كثيرًا، ولن أبوح بها لأحد؛ لأن الحشمة والخوف ضروريان أحيانًا.

المهم أن الفيل كان قد تقدم يسارًا إلى أن انتصف في ساحة السان جرمان قريبًا من الكنيسة، ثم دلفنا يسارًا لنَتمَطَّط في الشارع بين صراخ وهتاف واحتجاج وغناء ورقص وقُبَل أيضًا، وأخذ المواطنون الأحرار يتبرعون بالساندويتشات وعُلب البيرة لسعادة الفيل، ونحن نطعم من بركاته. مَررنَا أخيرًا من خلفية الجمعية الوطنية، وفهمت أن البُغْية هي الوصول إلى حي الوزرات في منطقة «الانفاليد» وإلى وزارة التربية الوطنية بالذات. كلَّا، هكذا قرر الفيل، لسان حاله وزحفه قال: لا بُدَّ من «ماتنيون» أي مبنى الوزارة الأولى، مهما طال السفر. فأعجبنا القرار، ورُحْنا نهتف جميعًا، يعيش سعادة الفيل، يعيش وليسقط ماتنيون ... ما حدث بعد ذلك وكله خير طبعًا، فلا ضرب، ولا قمع ولا دم ممَّا يمكن أن يتصوره البعض، كلَّا لا شيء من ذلك — ما حدث هو أن امرأة، فتاة، حسناء، سبحان الخالق، عارية، كما ولدتها أمها، شَقَّت الطريق، تقول كأنها خرجت من تحت الأرض، وقفزت مثل طرزان فوق خرطوم الفيل ثم اعتلت ظهره وراحت تعمل أصابعها دغدغة في الخياشيم، والفيل يرقص تحتها ونحن نغني، وتركتهم.

في اليوم التالي أذاعت «فرانس أنتير» في نشرة استثنائية أن وزير التربية الوطنية، بضغط شديد من الوزير الأول ليونيل جوسبان الذي خاف ربما من ... قد رضخ لَمطالب المُضْرِبين. ولعل الحكاية شاعت، ففي مساء اليوم نفسه كان الباريسيون يشربون نخب الفيل.

١ مايو ١٩٩٨م

أوان عتق الروح

لم يكن شهر مايو لي وحدي، كما حسبتُ وتخيَّلْت، وهو ليس بتاتًا ملك أحد. ربما الزمن وحده يملك الكائنات والأشياء، ويعبث بها كيف يشاء، وأحيانًا تنفلت منه لتزهو بمفردها، في فرادتها، بخُيلائها أعجبه وأبهره. في الخطوات الصاعدة نحو شهر تَتبرَّج فيه النساء بالفتنة السالبة، وتطل جميع البراعم من شغافها، اخترتُ أو بالأحرى ألْفيتُني تحت ضغط الحاجة لأشرع في مسيرة كان حبيبي الصحراوي ينفذها يوميًّا وهو يأخذ الحافلة من «بورت دي فانف»، قريبًا من بيته ذي الشبابيك المغلقة أبدًا اليوم، لينزل بالضبط في محطة «بورت دوفين» بالدائرة السادسة عشرة، ومنها يذرع بعض الأزقة ليصل إلى تلك المؤسَّسة العربية التي كان يعمل فيها مترجمًا. لم يكن يملك غير هذا ليضمن قُوتَه ويُسدِّد ديونه التي تتجدَّد باستمرار، وما قَبِل أبدًا أن يكون من فصيلة التنابل أو «المؤلَّفة قلوبهم» أو المُنبطِحين عند أعتاب السفارات العربية في باريس أو ما شاكلها من مراكز للبث والالتقاط. أذكر دائمًا كيف كان يَتهيَّج في هذا الشهر، وقد هجم عليَّ في جميع الأوقات ليُخرِجَني من عزلتي أو أوراقي أو أوهامي، وكلام منه هو صهيل وهدير: آلشريف، تعالَ معي لأريك الأدب ناهدًا، مُتنهِّدًا ويمشي على قدمين، تعالَ لأريك باريس حيَّة تُرْزَق، وحيَّة تسعى. فلا أملك إلا أن أتبع شهية الصحراوي الفائرة. ومرة، مرة، يخضني خضًّا، وقد وقع بصره على ما يحب من بهاكن شبه مُتجرِّدة: وشوف، شوف شوف!! كان ذلك في زمن، ليس قريبًا ولا بعيدًا. هو زمن استقل بنفسه رغم انضوائه على الأغلب في شهر مايو، ورغم ظني أنه محفور في الذاكرة، وناره ملتهبة في القلب أبدًا، إلا أنه، وتلك بعض فرادته، تراه يحتفي بذاته، ويُهلِّل بملء أصوات الدنيا كلها، فيما هو صوت كالعابد المُتبتِّل، يتطلع إليَّ وإليه مُلتمِسًا عفوًا عن ذنب، آهِ لو جناه.

لنُعِد الكَرَّة إذن، فها هي ساحة «أوتاي» تستدير مثل فسحة للأشواق، كل اتجاه منها ينادي شوقًا ويهفو إليه. لو ذهبت أقصى اليمين فمدينة «بولوني» الضاحية، هي المثوى المنبسط. عند مدخلها شمالاً مستشفاها حيث خفقَت آخر أحلام محمد الركاب قبل أن يُسْلِم الروح إلى باريها، وتحت ظلال أشجارها حيث جلستْ طويلًا برفقة عبد الرحمن منيف قبل أن ينتقل منها إلى الشام ليكتوي بغربة جديدة ... آهِ يا أبا عوف من حُرقتك بعد رحيل شيخ الصحراء. فإن التفتَت يمينًا دائمًا، وأنت تنظر صعدًا، امتدَّ لسان الطريق المشجَّر. ما أشك أن كلود موني مرَّ من هنا، فكأنه مَن وضع ريشته تضاريس وألوانًا، وكلما عَبَرْت به أذهلني جمال يُمجِّد كمال الخالق، وقلق الروح الشِّعْري أمام ما لا يفس، والاستعارة ملاذه الوحيد.

وكما لا حياة بدون جمال، فإنه لا جمال بدون شِعْر، وإعجاز الشاعر هنا أن يبدع الأجمل؛ أي أن يتحدى الطبيعة، وبذا يستحق بجدارة اسم «المبدع le créateur». وراء ذلك كله تقبع، تَتأَلَّه غابة بولوني بتيجان أخضرها وأصفرها والغمام السفلي المرتعش تحت رفيف اليمام. عجزتُ عن ملاحقة هذا الذهول كله وحُبِّب إليَّ المكوث في موطن الدهشة الأولى لا أبغي عنها بديلًا، آهِ لو قدرت، إذن لما تَحيَّرت بين أرض وسماء، وما بينهما من خليقة. هكذا طَويتُ السِّر طَيَّ السِّر، مُشِيحًا عن يمين الساحة ويسارها معًا لأخوض في الشارع المستقيم، المُتغَنِّج رأسًا وصولاً إلى أهداب «بورت دوفين» منعطفًا بعده إلى اليمين في شارع فوش الأرستقراطي، حيث يقطن عدد من الرؤساء المُنقَلَب عليهم، وآخرون ممن حصَدوا ملايين الدولارات في رمشة عين. أما أنا فما أنْفَكُّ أحصدُ سيولًا من الحُب العَرِم، ظلَّت تجرفني إلى أن أوصلَتْني أمامك أيتها الشجرة الفاردة أغصانها أجنحة مصنوعة من ضفائر الأخضر والبنفسجي، فكأنما من بهائهما اللون يزغرد، وله ظلال وضِفاف وتسمع له ابتهالات. عنيتك أنت رفيقة البنفسج مذ وشَّحنا قبالة قصر البديع المراكشي ذات ربيع، ذات شهر مايو، يا الربيع الدائم، حتى إذا أدركت حدائق التويلري جنوب ساحة لاكونكورد أوشكت الروح أن تفيض من بنفسج ذكراك، ذاك، «أحلَّ سَفْك دمي في الأشهر الحرم.»

يا لهذه الرومانسية، المثقلة بالذكريات والأحزان، كفى! مايو ضاجٌّ هنا، هذا العام، بما هو أجدَر وأقوى. باريس تتذكر دومًا، وتحتفل بماضيها لتطرد عنها كل شيخوخة محتمَلة، هي ذي تستدرج الخمسينيين ليحتفلوا في طقوس باهرة بمرور ثلاثين عامًا على أحداث شهر مايو ١٩٦٨م الشهيرة؛ ليُحلِّلوا، ويفككوا ويغربلوا رمل الزمان ذرَّة ذرَّة.

الذين وُلِدوا بعد الحرب العالمية الثانية كانوا جميعًا هنا وجهًا لوجه مع الذين وُلِدوا فيما بين الحربين. نحن الذين كنا في الغيبوبة تقريبًا تصورناها في البداية ثورة طلابية خالصة، بينما مايو ٦٨ كان حركة تَمرُّد اجتماعية كاسحة تكاثفت فيها جميع شرائح المجتمع الفرنسي التي بلغ تَذمُّرها الزُّبى، وأحسَّت أن صرحًا قديما لا بُدَّ أن ينهار بسياسته ورموزه وقيمه وجامعته وثقافته. أن ينهار وكفى. دون أن يتوفر بالضرورة بديل أو بدائل مُبرمَجة، مُخطَّطة حتمًا له.

لذلك، ورغم الانتفاضة الطلابية والعمالية العارمة، فإن النظام السياسي والبنيات المكوِّنة له هي التي قُدِّر لها الاستمرار بعد أن أخرج الاستفتاء الشعبي الجنرال ديغول من معقل الإليزيه. بينما عربد الطلبة والشبيبة اليسارية بالشعارات اللاهبة في مُدرَّجات وساحة جامعة السوربون وأزِقَّة الحي اللاتيني، وعربدت قنابل الكوكتيل مولوتوف على طول شارع السان جرمان حيث انتفض الإسفلت، صنع منه الطلاب الممتلئون غيظًا وغضبًا من كل شيء، متاريس ومقالع حجارة للضرب والتحطيم، كيفما اتفق.

ثلاثون عامًا مضت الآن على تلك الأحداث التي دَشَّنَت في فرنسا عهد انقلابات فكرية وأدبية وذوقية وسلوكية واجتماعية وسياسية أيضًا، أو بالأحرى كرَّسَتها. وكلما تَجدَّدت الذكرى، راح أبناؤها والمتناسلون منها يعيدون طرح الأسئلة على بواعثها، ومن خلال ذلك نراهم يصنعون مجتمعهم وتاريخهم وثقافتهم على مَحكِّ النقد المُسائل والمرتاب.

بيد أنه خلافًا لما قدَّره عدد من السياسيين والمحللين الفرنسيين، فإن أحداث مايو ١٩٦٨م لم تكن ظاهرة عالمية، فالعالم آنئذٍ كانت له شواغل كبرى أخرى من بينها نهايات حرب فيتنام مثلًا. اللهم إذا اعتبرنا فرنسا ومتروبولها قلب أوروبا الغربية بلا منازع، وهو ما لا يرضي كثيرين وإن تهافَت عليه الفرنكفونيون. وما ينبغي أن ننسى بأن الأيديولوجية التي شحنت الطلاب الغاضبين جاءت من خارج المتروبول لترشق بجِمَارها الأيديولوجيات المُبطِّنة للمؤسسات القائمة، رسميَّة وغيرها، ومنها على الأخص الحزب الشيوعي الفرنسي في صورته الستالينية البغيضة، وتماهيه التام مع مواقف موسكو، أَوَليس جديرًا هنا أن نتذكر ربيع براغ الشهير؟!

راودتني أفكار وخواطر شتَّى وأنا أحاول الإجابة على أسئلة من صحفي شهير بمجلة «لونوفيل أو بسرفاتور» عمَّا تعنيه الذكرى بالنسبة إلينا نحن المغاربة والعرب عمومًا. والحق أنه لم يسبق لي أن فَكَّرت في الموضوع بكيفية مباشرة ومركزة. وهنا اكتشفتُ بالصدفة وجود خَلل أو مُفارَقة مثيرة؛ نظرًا لاعتقادي أن عدم طرح القضية طرحًا واضحًا

من جانب الأنتلجنسيا المغربية، أو قسم منها على الأقل، مصدره تَبعيَّتنا شبه التلقائية للمتروبول المذكور، ووضع التطابق المفترض لنُخبَتنا مع نخبة «الآخَر» المُعشِّشة في وعيها الثقافي وأناها الأعلى. وهذا في زعمي ما أدَّى إلى انشغالنا واستعارتنا لمفاهيم وشعارات ومناهج وقضايا شتَّى، غير مُنبثِقة من صميم بيئتنا الثقافية أو على علاقة تَطوُّر طبيعي مع مجتمعنا، ما أدَّى إلى حدوث طفرات زوبعية وغير منهجية لو صح التعبير، هذا المُجتمع في ازدواجية لا يجد منها فكاكًا.

حين كان طلبة فرنسا يثورون ضد جامعتهم ومناهجها وسدَنَتها وحَولِيَّاتها كنا نحن في المغرب بصدد بناء جامعتنا وإعداد برامجها وتكوين أساتذتها الذين كانت أغلبيتهم الساحقة من سلك المساعدين. كنا ننتقل بهدوء، بل بحياء وارتباك لا حدود لهما، من تعليم تقليدي إلى آخَر ينشد العصرية قبل أن يُدرِك فحواها وطرازها جيدًا. وباستثناءات قليلة ما أظن أن التعليم الجامعي مضمونًا وتكوينًا كما كان يعطى في كلية آداب ظهر المهراز بفاس، اختلف كثيرًا عن سابقه في جامعة القرويين، ولا نحن الجيل الذي التحق به أَحسَسْنا برغبة عميقة — رغم سأمنا اليومي — في الثورة عليه. فلكي تثور ضد شيء ينبغي أن تستنفد كل إمكانات التعامل معه، وأن تمتلك الوعي بذلك، وأن يتوفر لك نموذج بديل للانتقال إليه. ولم يكن شيء مُحدَّد فعلًا من هذا، بل الأدهى أن قسمًا كبيرًا من الخريجين بات همهم هو استنساخ النموذج الأصلي وليس تغييره بما ينسجم مع حاضر ومستقبل عِلْمِيَّيْن جَديدَيْن، دَعْك ممَّا يحتاجه المجتمع كله من تغيير، بقدر ذلك الوعي الذي هز باريس هزًّا في عواصف مايو الشهير.

قلتُ شيئًا من هذا لسائلي، وأضفتُ بأننا في ١٩٦٨م كنا ما نزال نُكفكِف دموعنا، ونَتقلَّب بالجراح التي أدْمَتْنا في هزيمة يونيو ١٩٦٧م، وقبلها هزائم وفجائع وما لا تتصور من ضروب القمع والتنكيل والحرمان، ولهذا ربما لم نَنتَبه لثورتكم أو تَمرُّدكم وأحلامنا منشطرة بين خساراتنا ومَن سبق من شهدائنا وبين الثورات الأخرى التي كان مسموحًا لنا، نحن العرب، بأن نسمع أخبارها في الراديو فقط دون أن نخرج من صلبها.

الحق أن مُحاوري أراد أن يسترسل لكني ضَجرتُ من هذا الحديث، من هذه الذكرى وحسها، وكان السان جرمان الذي بدل جيلًا بجيل، وزمنًا بآخر، قد شرع يستعد لليلة جديدة، لسهرة فريدة، فأستأذنتُ جليسي قائلًا: دقَّت ساعتي، وهذا أوان عتق الروح، وكل مايو وأنتم بخير، أما نحن فـ ...

١٠ مايو ١٩٩٨م

لو فاس عادت إليَّ!

(١) باب الخوخة

شمس تتكسر قطعًا من لهب سائل. عرفتُها توًّا هذه اللفحة لمدينة ترقط بها جلدي. كانت الظهيرة على أشدها في الحر المتأجج بين الإسفلت وعجلات السيارة، والمدى ساكن في الأسمنت الأبيض العالي بات سياجًا لها يخفي أسوارًا للتاريخ كانت مَنيعة. القيظ يدق الآن ساعته ليعلن دخولنا في صيفها، وقد أَوَتْ ظلال مبعثرة على أرصفة استظلت بها بقايا أشجار ... كنا قد مشينا أو تعانقنا تحتها منذ زمن بعيد.

ها كل شيء قد أمسى بعيدًا مع أعمارنا المنهكة، المنتهكة، والمدن لا نَستردُّها إلا بالشوق المُمِض أو النظرات المتهالكة على قِشرة المرئي. هو وليس، ما كان ولن، الذي مضى وما لا يجيء، حتى الغصة في الحلق، واحتباس الدمع في العيون. هذه دائرة الشمس على مدار أرضٍ مطحونة تحت الشمس، عارية الكَتِفَين، ومن مَشْيِي فيها صنعت لها أردافًا يوم رحلت عنها تبدَّلت وترَهَّلت، وما عاد يسعفني لطلاوة فيها غير التذكر، أنا الآن في مدخله والطريق منسحبة أمامي لا خلفي، فلا صلة لي بهذه الـ «عين الشقف»، ولا يهمني كيف قام هذا العمران الأصم المُتراص في انحدار زَلِق نحو «ساحة الأطلس»، التي سكنها الأمين الخمليشي وحده، رافضًا عن جَدَارة المَنفى القسري للطلاب «الآفاقيين» في ظهر المهراز. وطبعًا، فإن مقهى «الرونسانس» و«تور دارجان» على حالهما، و«جيلدا» ما أشك أنها في مَثوًى آخَر بعد أن غيَّر «المستشرق» مجلسه ونُدمانه، وبقيتُ وحدي أتعقَّب خطى «الكائن السبَّئي» عساه يَدلُّني من أين يحصل على «الإستبرق» في دار الدبيبغ، أو كيف يثقل الشعر عنده بعد في زمن الكلام النزق.

بصري يحب أن «يحوف» نحو العميق؛ أي الشغاف التي قَمَطتْني مذْ كنت ألهو وأتلعثم بـ «النحو الواضح» بين حي الدوح ووادي الصوافين، أو أهبط أعمق من ذلك متدحرجًا مثل كُرَة في «عقيبة الفيران»، أظن أني في منتهاها سأقصد جميع العناوين ومأوى الحرف، ولا يكون عندي من مقصد سوى عبور سوق «الرصيف» الذي يحبه الشيخ السرغيني أيضًا، فأقف عند الحوانيت ممتعًا النظر بالقوق البلدي والبوبال، وهل الفول طيَّاب هذا العام، وليقامة رائحتها فواحة، والورد يشرح الخاطر بعد أن يرفل في الأعطاف، أم هل شَمَمْته مفروكًا تارة بين أكُفِّ العواتق وأخرى مُتورِّدًا من خدودهن. ومن حيرة، وقد صَرَعْن لُبِّي، تَضيع مِنِّي طريق الجامع وقد أوصاني أبي بالصلاة في القرويين التي لولاها لَمَا عمر قلبه بالعلم وحب الله، فلا أهتدي إلا بعد حين لأَجدني عند عَتبة مولاي إدريس، فأقول شاي الله أرجال لبلاد وقلبي يدق، يدق، يدق.

النبض القديم عاد إليك بجِدَّته، فيا لكَ من فتًى لا يشيخ. بلغت ساحة «لافيات» في نهاية الشارع الظليل، ومبتدأ مُفترَق طُرق عليك أن تختار منها ما سيحدد المصير. أجل فالمسألةُ على هذه الدرجة من الأهمية. تَصوَّر أنك لو غادرت الساحة وانحدرْتَ إلى أقصى اليمين، دائمًا يمينًا، فواصلت صعودًا وهبوطًا إلى نهاية الطريق، لو فعلتَ هذا لوصلت إلى «باب الخوخة»، أي أنك ستدخل مدينة أحد أبوابها خوخة، وافترِضْ أنك وجدتَها، فإنك بلهجة فاس سوف «تزبَّطها». ذلك العفريت الذي اسمه محمد شكري يحب أن يفعل ذلك باشتهاء كبير مع زغيبات الخوخ قبل أن ينزل فيه لحسًا وامتصاصًا، أما أنا فقد دخلتُ إلى الجوف ولم أخرج أبدًا منه.

بلى، خرجت، لكن لأعود من أبواب أخرى. ربما فتوح، عجيسة، المحروق، باب السلسلة. هاه، هنا، قُبالة دكان يُعِد أَلَذَّ بيصارة في العالم. فما بالُك بأبواب الأقاصي: «بورت دورليون»، «بورت دي سان كلو»، «بورت دي شامبيري» لتدلف من هناك إلى جنة نويي سورسين؟ كلها لا تُنسيك الباب الأول في زقاق لحجر — أم حدث هذا في حي «التدلوس» — حين دفعته، وأنت ابن الثانية عشرة دفعًا رفيقًا، وتقدَّمتَ مدفوعًا في ممر ما أعتَمَه يَقودُك خيط ضوء في نهايته. فهل هو تيار كهربائي صعقك أم جِنٌّ طوَّح بك سبعًا وسبعين ألف فرسخ، ثم رماك في أغرب تكوين لتلقى نفسك، وكأنك نِمتَ مائة عام، وسط حلقة من نساء بها كن يتخللهن صبايا خيزران يتراشش بما زهر، ومن الأقواس الخلفية يهب العود لقماري يَتطيَّبن به وسحابه مغمور فيهن. فلعمري ما عرفت إن كنت في الجنة أم في الجنان حين قُمْن يَتعابَثن بماء النافورة، يتراشقن به، قطرات منه تصيب

وجهي، ثم تندلق فتَبلِّلُني حتى … حتى شَرعْن يُمَسِّدْن وجهي، وأناملهن تُدغْدِع أطرافي صعودًا ونزولًا، وهن في آنٍ طَعمنَنِي قريشلات وكعب الغزال، وبين ذلك يَضمُمْنَنِي لاهثات إلى صدورهن أنا اللاهث، أضعت رشدي.

«حفنا» طويلًا إلى فاس، وتَسلَّقت زُنَيقاتها ودُرَيباتها، مآذنها، وقِبابها، زليجها، وسقاياتها، ملح العشابين، وروائح دار الدبغ، وقرع مَطارق الصفارين، وأبلاك الزيت، وأنا كنصبح وإلى عشت نمسي، و«أمبرنك»، وحريرة بوعياد بعد الخروج في الخامسة من ليسي مولاي إدريس أطيب من طعام الدنيا كلها، والهروب من لهب الصيف فيك هو الوقوع في أسر عيون الحسان، ولو رشقْنَك بنظرة واحدة تُهْتَ العمر كله ولن تسترجع رشدك أبدًا، ففاس لا يبرأ من هواها أحد، وسوى ذلك بطر. بَعْد عُمْر آخر نزلنا فاس والمدينة شاردة بين صوت وضوء، قدم فوق «زلاغ» وعين إلى زلاغ ينشر مهابته علينا.

فقلنا للطيف الذي كان يرفُّ حولنا كاليمام، تعالَ رافقنا، سَنحوف إلى هناك لنجني بعض أطاييب الذكرى، ثم إن الزيارة تحيي الحب وهو رميم، فسمعنا الطيف مُتعجِّبين يجيب: كيف أرافقكم وأنا لا أحمل أية هُوِيَّة؟! ورغم أن الطيف استجاب بعد إلحاح لطلبنا فرافقنا إلى حيث لا نَدِمْنا ولا نَدِم، إلا أن المدينة باتتْ ليلتها تلك لم يغمض لها جفن يؤرقها سؤال سيدة الرَّفِيف أو تُنكره بحق: ومَن غير فاس يعطي الهوية؟!

في طريق العودة إلى الرباط سألني الطيف إلى جانبي ونحن نقطع الأوطوروت الجديد: إلى أين ستقود هذه الطريق لو امتدَّت؟ لم يعنني الجواب، ولكن تعجبت للسؤال. طبعًا، طبعًا ستقود إلى قلبي، أيها الطيف الذي أطل خلسة … ورحل، تاركًا في القلب جرحًا. آهِ، فعلتها وأنت تعرف أنه لم يَبقَ لي إلا التَّمنِّي، سوى: لو فاس عادت إلي!

(٢) «دفء أخطائنا»

ربما كنت من بين قلائل لا يعيدون قراءة ما ينشرون، أخاف من نفسي في هذه اللحظة، أخاف عليها من الغرور طبعًا، والنَّرْجسية؛ أي الاستهواء الذاتي بما كتبتُ وكأنه لا أجمل. بَيْد أن العزوف عن إعادة قراءة ما يُنْشَر شيء، وقراءة ما يصدر في صحفنا شيء آخر. فما أظن أني فرحت لي ولغيري أيضًا بمقالة خَلَت من خطأ مطبعي — إلا في النادر الذي لا حكم له – إلى درجة بِتُّ مقتنعًا فيها أن هذا هو الصواب عينه.

هكذا أنتشي كلما رأيت الأخطاء تترعرع وترعى كلأ الجريدة كالقطيع، و«ثغاؤها» مسموع من كل السطور. لم يَعُد يعنيني على مَن تعود المسئولية، على الراقنات والراقنين

أم على المُصحِّحين؟ وماذا عن القُرَّاء المساكين الذين يتزعزع عندهم كل يقين؟ أم لإصراري على الكتابة بعربية فصحى غير نزقة ولا متردية؟ من كثرة عشرتي بهؤلاء وأولئك يئستُ منهم قبل أن أيأس من الجميع، قَبَيل هلاك محتوم.

وأزيد قائلًا بأن قراءة الصحائف اليوم أمر مهول، وتشبث بعض الناس بالكتابة، بالحق أو الباطل، هو الأهول، وإلا فأي حق يجيز الإجهاز على همزة القطع، فنكاد نقول إن عندنا جيلًا يناهض هذه الهمزة، كما كنا نناهض المَيْز العنصري، أو يستخف بمواقع الهمزة — دعك من علامات الوقف — استخفافًا لا يَقِلُّ عمَّا تفعله إسرائيل في تهويد القدس. لا تَسَل بعد ذلك عن العبث بحروف الجر عبث الجنرالات الأفارقة بحقوق الإنسان. أما العجمة التي تسللت إلى الألسنة ويرزح تحتها الورق فأراها باتت سيفًا يحز رقاب اللغة في كل باب كأنها قدر مقدور.

والحاصل أن ما جَرَّني لأنكأ هذا الجرح خطأ «مطبعي» قرأتُه في مقالة لي صدفة، وقد بلغ عندي من الطرافة غاية. فقد كتبتُ جملة نهايتها: «في دفء أحضاننا»، فاستُبْدِلَت بقدرة قادر أو قادرة إلى «دفء أخطائنا». عَوِضَ أن آسف أو أغضب لهذا «المصاب الجلل» رأيت في هذا التحريف أو التصحيف أو التخريف مناسبة للدعابة والاستمتاع بصورة بَلاغِيَّة عزَّ نظيرها، فأيُّ خيال مُحلِّق هذا الذي يحول الحضن إلى خطأ ثم يبث الدفء في الخطأ؟!

ومن اليوم أعلن على رءوس الأشهاد بأني لن أغضب أو أراجع أي كلام كان، مخطوطًا أو مطبوعًا أو منثورًا كيفما اتفق في صحائف هذه الأيام، وخاصَّةً في شهور القر، أما ونحن في مدخل شهور اللَّهَب فحبَّذا لو انتعشنا بقليل من «برد أخطائهم»!

٢٧ يونيو ١٩٩٨م

تباريح مؤجَّلَة

(١) هلام مرح

(١) مثل الهلام، حين تكون قد تَجرَّدت من كل شيء، وبعد إزاحة ثقل رازح عليك، مكتسب، تنوء به بحق لا بادعاء.

مثل هلام. خفيفًا، مرحًا وهواء وملاكًا لم تره أبدًا، كدت تطير.

لا شيء يمنع من ذلك سوى نفضة خفيفة للجناحين كي تحلق السماء قريبًا، مستعيرة منك الأجنحة لتواصل هي الطيران، أما أنت فرفرف بها في الأعالي.

لست في حاجة سوى إلى بعض الخفقات، كأن أنبش رمادًا، أو أستخرج منه قلبي محترقًا بحُب قديم أو جديد، سيَّان، أو تضرب لي طفلة كان اسمها الثورة موعدًا في أمس تأجَّل حتى صار عندي ما لا يدرك هو اليقين. ماذا لو رنين هتف؟ مثلًا، خليج من أغادير أرَّقَه سهادي المبعثر، أو أغنية من أسمهان تعيد «للبراق عينا» فأرى، لا بأس من خفقة أخرى أسدل بعدها القمر على كل هذا الظلام؛ لأرى.

قال العائد من حجاته: البقاء أو الرحيل عندي سِيَّان، تعبتُ من الطيران، وقد باتت السماء تحت جناحي هي ما يخفق، التحقوا بأحلامي أو اتركوا هامَاتكم، كالعادة، مُمرَّغة في التراب!

(٢) من حق الناس، جميع الناس، أن يختاروا أصدقاءهم ... أما أنا فأقرر أعدائي.

واحدًا، واحدًا، أفتح لهم شغاف التراب الذي سأعود إليه لأريهم موتي القادم سلفًا، ثم أنشر أمامهم كفني ليقيسوا لي، باختيار محض، قدر كراهيتهم المتربصة لي وللعالم، في أول عاصفة حب مني. ومن العالم قبلي.

(٣) في الطريق بين «الصخيرات» و«بوزنيقة» بعيدًا عن الطريق الساحلي، إذا سِرْت على مهل بَدا لك سرب ماء، مثل قطعان ضباء غير مستنفرة.

حقًّا إن للغزال لون الرمل، بينما البحر أزرق. وتلك الطريق لونها آخر، وحدي أراه كل صباح، ها، ها، ها، يترقرق!

بدمي فقط، لوجه الله يا أعداء أو أصدقاء، والعكس صحيح بتواتر، لا تتعجلوا، عن قريب سنخلي لكم الأرض كلها، سبخها مرعاها لتحولوها إلى مجزرة. من قال إن البحر أزرق، البحر دومًا كان أحمر، والشمس في الشفق الأخير من المغيب.

(٢) وجهة قراءة

١

انتابتني دهشة حقيقية بعد أن انتهيت من قراءة ذلك الكتاب الذي وصلني بالبريد من كاتب ذي اسم مرموق في دنيا الأدب. لم أتمهَّل حين وصلني الظرف البريدي. دفعت يدي بجُمْعِها فيه بعد أن قرأتُ اسم المرسِل وجهة الإرسال. وقد تَحسَّست الحمل. حدستُ أنه كتابه الجديد يَخصُّني به غِبَّ إصداره، وتأكد تقديري وأنا أقرأ الإهداء الطيب الذي أنعم به عليَّ، كواحد من خلصائه وقُرَّائه المنتظمين، وذيل الإهداء بعبارة: «أرجو أن يعجبك، أيضًا». وقد وجدتها عبارة ملغومة، متراوحة بين الاعتذار، والإغراء، والتحريض على الكتابة وإبداء الرأي. وآثرتُ ألَّا أحسم في أي تأويل، ومنه إلى القرار، قبل الانهماك الفعلي في القراءة.

عندما تجلس لقراءة عمل صادر لكاتب معروف، وذي «سوابق» بتعبير الشيخ محمد السرغيني؛ أي صاحب رصيد أدبي انتظم في أعمال روائية، مثلًا، صار مشهودًا لها، وباتت عَلَمًا على صاحبها، وعلى الفن الذي يكتب فيه، فإنك تُقبِل على الكتاب الجديد الصادر له إقبال المُتهيِّب. تتوقَّع كثيرًا، وتدير في رأسك حسابات شتَّى ليس أقلها أن أليفك سيحمل إليك زادًا جديدًا كما عودك في المرات السابقة، ولن تراه إلا سيَبزُّ نفسه قبل غيره. هكذا تجلس إلى الكتاب منفعلًا، نَهْبًا لأفكار وأحاسيس شتَّى، قارئًا له قبل أن تقرأه حقًّا؛ أي مُستحضِرًا أعمال صاحبه، والمصنَّف، أيضًا، في بابه من الجيد عند سواه.

وتتابعت أوراق الرواية، أطوي الصفحة تلو الصفحة وأنا أنتظر. أكشر، أستهجن أو أبتسم بسخرية ومرارة فيما البرود الشديد هو ما يَتلبَّسني. أعود إلى الخلف، صفحات

أخرى إلى الوراء مُتَّهمًا نفسي بسوء الذوق والفهم. أُمسِّد جبهتي قائلًا: إني اليوم مُتبلِّد الإحساس، لعلَّني إن بلَّلتُ الريق بما قد يُسَرِّي عني أصبح قادرًا على استعادة حماسي للقراءة.

عبثًا، أُسْقِط في يدي من جديد. لا شيء، كأني أقرأ حكاية متهافتة، وأستعرض صورًا مرتقة، ولغة شاحبة، ولا تَجُوس أمامي سوى الأشباح أو خيالات الظل، فأكاد أصرخ. أظن أني طَوَّحتُ بالكتاب بعيدًا عني وكأني أقول لصاحبي اغرب عن وجهي، أصيح فيه: فَعلتها، إذن! ... من حقك ولا خيار لك في أن تَشيخ عُمًرا، لكن هل من الحق في شيء أن تترك لنا ذكرى كتابة تشيخ؟ وإذا كنا نرجو من الله أن يقينا أرذل العمر، أفليس جديرًا كذلك أن نستعيذ به ليحفظنا من الوقوع في أرذل الكتابة؟!

٢

واعترَتْني دهشة أخرى بعد أن انتهيت من قراءة مقالة لأديب شابٍّ. مد إليَّ ورقته بحياء، ببعض التَّردُّد، وفي دخيلته باطنية يريد أن يحتفظ بها حجابًا دونه وتلوث المدينة. مقالة لشاب، هذا شيء مُفرِح، مثل فراشات الربيع الأولى، قُبْلَة مختلسة بين حبيبين تحت خَمِيلة. في هذا المقام أُقْدِم على الكلام المعروض عليَّ بسجيتي. لا مادة رمادية ولا كومة قراءات تسبقني، والمشاعر مُؤجَّلة أو مكبوتة، في انتظار تَخلُّل السُّحب العابرة لصفحة القمر واستوائه أخيرًا مدوَّرًا، مُنيرًا. أو جسد امرأة سيتفجر نضجًا حين ستكمل العاصفة نحته بالرمال.

أقرأ المقالة، إذن، فتُعجبني فِكرتُها، رؤيتها، مأساوية الحالة التي تثيرها. ثم ما ألبث وقد أنهيتها من الانتفاض ضد إعجابي.

ومباشرةً أشرع في البحث عن السبب: هل هو التسرع، أم الانخداع أم ربما الغيرة؟ كلَّا، لا هذا ولا ذاك، جاءتني الفكرة بعد «السكرة»: هذه المقالة كانت ستعجبني لو سطرها قلم في الثمانين. إنها مُحمَّلة بمشاعر آخِر العمر، الخطوة الأخيرة قبل الرحيل، كلام أشبه بحشرجة الموت، المصير الذي ينتظرنا جميعًا في مكانٍ ما. ثم إن معانيها، بعد هذا، تحيل فعلًا إلى كاتب خَبَر الحياة، وعرَكَته مِحَنها، وكتبَ بإسهاب وجودة عن هذا العراك، وفي آخِر المطاف قرَّر أن يصمت، وهو لَعَمْري قرار محمود. لكن ما بالُك أنت أيها الشاب الحيي، الجديد، الذي تحتاج إليه الحياة لتحس أنها حية، لم تلتفت سوى إلى هذا

الطريق المسدود؟ في عمرك أنتَ كنتُ العاصفة والإعصار والطوفان، فتنة زماني، وحيثما مررتُ وكل ما كتبت هو الهدير. الموت لم أُفكِّر فيه أبدًا، قرأتُ عنه وسمعتُ في الكتب فقط رغم أن بيتنا كان قريبًا من مؤسَّسة لنَقْل الأموات. أقول كنتُ، وما زلتُ، رغم أن للزمن وصبوات العمر أحكامًا.

انتفضت ضد إعجابي؛ لأني انتظرتُ منك، كقارئ، أن تهجم عليَّ بشبابك لا أن تنتصب أمامي كلماتك ملفوفة بعباءات الشيوخ. الكلمات المغموسة في إدام الحياة، المعروفة بتفاصيل اليومي الحارة، لا وقت عندها بين الشهيق والزفير، كما بين «الصحو والمتاهة».

أرفض المُجازَفة بالأحلام، شأن اعتلاء منصة الوصاية على الأجيال، لكن الشاب المشاكس أبدًا في داخلي يأبى منِّي السكوت على المُحال، ومن ضربه أن تكون شابًّا، أديبًا متحسسًا، مُغوِيًا، تقف متغزلًا أو مُتحسِّرًا على الثمالة فيما الأنسب أن تذوق الكأس من أوَّلِها، كأس الحياة، حُلوها ومُرها، ولك أن تشيخ بعد ذلك، فلا شيء أهون من الشيخوخة.

١١ يوليو ١٩٩٨م

عسل سوس، لو ذُقتَه!

لو طلبت الفرح جئتك به. فورًا أو بعد هُنيهة. لو مهرجانًا أردتَ، أخرجتُ لك الثعابين من كل غارٍ عميق، لا بأس إن مددتَ يدك إلى أقرب جليس إليك، ربما هو صديق لك من فصيلتها ليقفز معها إلى حلبة الرقص، فالمناسَبة أكثر من مواتية، وثَمَّة زامر وضارب طبل، وقِرَدة أخرى طوق الفرجة على أهبة الدخول إلى الحلبة كُلَّما اقتضى الأمر استبدال رقصة بأخرى، أو أن يسلخ الثعبان جلده القديم، أن ترتدي الحرباء لون النهار الجديد.

مكتمل هذا المكان، مكتمل الهواء، السماء هاوية حتى ديدان الأرض، الصيف أجساد تلعلع بشبقها، استمع إلى هذا العواء الذي لم يَعُد أي أنين يتخلله كما كفَّ الماء عن الاندلاق بين نَهْدَي حبيبتك التي لم تُولد أبدًا، حلمت بها في مهرجان الربيع الفائت وقرَّرت بعدها ألَّا فرح إلا في أمس. من استرخاء السنابل عند المغيب أَجدِل لك، إن شئت، حبالًا تصعد بها رأسًا إلى نجمة أمانيك، وتبقى هناك ترى مباهج كل هذه الأرض أو فضائحها، وعندك بهجة لو قلت على سبيل الغبطة سلَا موطنها ما قصرت، أنا الذي لا يبغي سوى التهويل من طقوس الفرح والإكثار من نسل الفرجة في هذا البلد، وعند والد وما ولد.

فخُذ ما أعطيك وما لن أبوح به إلا أن يأتيك، واستَطِب لذَّة مُزْجاة كما لو أنك ظمئ وستشرب من كَفَّي عذراء من قاع فاس. لن تطلب حسنًا آخر بعد أن تراها؛ لأنك ستغلقهما وكل تاريخ بعدها، بعدهما أو حدائق أو شجرة واحدة هي ضعف الغابة سيرسم، لو علمت بالحاجبين. هذا كله لا تريده، كأنك ذقتَ الدنيا من نبع الآلهة! وعسل سوس يا هذا، آه، لو ذُقتَه!

لا هذا ولا ذاك، تبغي الصعب يا صاحِ. تطلب الشجن، ومن ضربه الكلام الشجي، والأصل فيه عرق ودم واحد، وقد ابتُلِيت مثلك بما لا يُطاق، وأخشى ألَّا يعود لي قرار غيره فأُنْبَذ في القبيلة أشد من نبذي لها. لا أستطيع أن أتشاجى رغم كل ما أغص به ويستسيغه

الآخرون فأرسم لك، مثلًا، وقت الهباء بكلمات مُطرَّزة أو مُتألِّقة بدموع بلورية. في زمن آخر كان البكاء يسيح على الخد مثل رذاذ شتوي منشرح، وحين يبلغ الكظم فينا مداه بعد أن غصصنا به طويلًا تستر الأمهات أحزاننا بسربال الدعوات، أو نَتنَهَّد من عياء في عطف ذكرى الحبيبة. شوق لك وأشواق عليك. كنت أسبح في حمى دمي، وأطوي المدن تلو المدن تحت خطوات صاهلة تتقدمها خطوات المتعبين قبلي، وأنا البعد الذي لن يعرف حزنه أو يحس به طبيب للقلب، سيجس النبض أو يقيس الضغط بحساب الجسد الفاني والأرقام الفجَّة.

انظر كم هو مكتمل المشهد بالفجاعة، بالسماجة، بالتورُّم، بالخرداوات تعلق ربطات، بينما النعناع في الحوض إما يابس أو ما عاد يضوع، والبحر مضطر لمواصلة غربته الشاردة إثر غزوات منتظمة لمُسْتَحِمِّين يقايضون السمك بالحب، وقربهم عجائز يَنكُشْن خزَّ المحيط لشراء خبزة مع قليل من الزبدة فقط، أي حزن أفجع من هذا؟! كلَّا، المدن باتت صماء من كثرة الكلام المخصي، وأذان المغرب أو العشاء يسمع شاحبًا؛ لأن لا عين تَتَرَقْرق بالدمع إثره، ولا حبيبة تفكر بأن تطلق لي سوالفها كي أصعد بها إلى تلك القباب ومنها أمسد بيد حلمتين وبالأخرى، لخاطرك، أرعى فيافي الروح.

عبد الله بومهدي

ثباتًا، لمطلوب مني، أيضًا، ما لا طاقة لي به. مطلوب مني أن أرعى حقول الموتى، ليست مقابر. المقابر لأحياء مزعومين، آسف كثيرًا كيف أن الموت لم يدهمهم بعد لتصبح الحياة أكثر احتمالًا. أقر أنه مقت من جانبي، لكن من ينكر أننا نعيش جُلُّنا تحت وطأة مَقْت جماعي.

أمس مررتُ قرب مقبرة الشهداء الرباطية. توقفت فجأة أمام مدخلها المقابل للبحر؛ أي للمُطْلَق، وللمرة الأولى أدركتُ لماذا تبقى بعض القبور فارغة، فأصحابها، بعد أن نادَموا النجوم طويلًا، واكتشفوا بأن الخارج غاص بأحياء زائفين، اهتبلوا فرصة سلا فيها القمر فطارُوا مشرعين نعوشهم في البحر.

نويت الوقوف قليلًا عند شاهدة أحمد المجاطي لأتذكر أن المغرب كان له شعراء ونفح طيب ورجال لا يقبلون الضيم والانمساخ إلى عبيد، فراعني أن أقرأ حاشية على الشاهدة تقول: «قل لعبد الله بومهدي أن يلحق بي قريبًا إلى البحر، فليس له بعدُ مثوًى في الدار البيضاء.»

لم ألحق بصديقي الأستاذ أحمد السطاتي لأنقل إليه وصية صديق عمره الآخر؛ لأنه كما أعلمني كان يشارك في تشييع جنازة عبد الله بومهدي، مُعتقدًا أنه وصحبه ينقله إلى مثواه الأخير.

المسيح عُلِّق على خشبة، في يوم الجمعة الحزين. وبومهدي عَلَّقوه شهورًا، وشَجُّوا رأسه، وحرَقُوا أعصابه في البناية الشهيرة بدرب مولاي الشريف. سنحتاج إلى كل الأعمار كيلا ننسى. وحين ظل بومهدي يجلس طويلًا في مقهى الإكسلسيور بساحة محمد الخامس البيضاوية، فإنه كان شهيدًا يوميًّا يسأل بصمت ملحاح: تُرى من سيثأر لذاكرتي؟

ثوانٍ فقط

لا أكثر ولا أقل. ثوانٍ فقط لن يراك أحد. ولن تراني. سأرسم المشهد رسمًا. سأبنيه على مذهب التصور. قابِلٌ للتصديق والتكذيب معًا، قابل لإلغائي متى شئت بحركة عشوائية لمخرج نزق أو بممحاة لاهية.

سأفترض المكان وحده، أما الزمن فلا خيار لي فيه لأنك تسكنه، ولو بعضه، كلي. وسأفرض المكان ثانيًا، هنيهة، فلا مساحة تسعك، وإلا ما بها الطرقات تنهب بعضها من دوار من حيثما مررت أو تخايل طيفك بالأريج الذي يسكبك.

وقت مختلس قلتُ لك. تكون قادمًا، مثلًا، من «باب السويقة» وأنت تَتهيَّب أو تتهيأ للعبور نحو شارع محمد الخامس، في مدينة كانت تُسمَّى رباط الفتح، ولَمَّا تصبح بعدُ رباط قلبي — ليكن كلامي واضحًا، فأنا لست هنا لأني لستُ في أي مكان. أطل فقط من نافذة على أماكن تائهة تعبر حولي وقدامي، طبعًا، إني لاهٍ عنها وعمَّن حولها. نجمة واحدة في السماء تبادلني اختلاس النظر كي تحميني من كل هذا الهدر!

وإذن، أفترض أنك ستعبر. لا تلتفت إلى يمين أو شمال، فمثلك يرى من أجل أن يكتشف العالم دهشته، كأول الخلق، ويمضي قدمًا نحو ضلالي أو يقينه.

أي يقين يا أنت؟! سأفقد صوابًا لا أملكه لو تحقق نَزْر من هذا، ولن أفقد المشهد التالي: ساق، ربما، أو قدَم ترتفع، قل الأرض هي ما يرتفع إليها. إسفلت الشارع كأنما عبثًا أن يتحسس وقعها الوشيك، عند وشك هذا التماس لا بُدَّ لي من التوقف أو سأغامر بمصير القمر، حياة كلها، اسمها، بلا قمر، قبل أن ينشد صوتها الكروان.

في المشهد المتزامن، وحدي وسط الصف المجاور في رأس الشارع المقابل، حيث لا أقع إلا افتراضًا. كدت أفضح اسمك دون كل الأسماء لولا أن غضضت حياء من فرط حيائك.

يثنيه خوف أم ريب الخطوة، تلك، مُعلَّقة بين أرض وهواء حيث تَعلَّقت عيني بالخطوة الموشكة قادمة نحوي من الرصيف المقابل لي، من نهاية «باب السويقة» في حركة هي الرسم والنحت والشعر والموسيقى، واسم له منه أو منها حرف مُدوَّر رسمه كالرغيف قوتي، كالرحم ملاذي، أو مغشاي، ياه، يا لهبوطي العميق فيه.

في حساب الزمن لن تتعدى هذه الحركة خمس ثوانٍ. في حساب لا عَدَّ له هو فوق الأعمار. لم يحدث شيء من هذا، وذلك ببساطة؛ لأن الأبرياء ينامون باكرًا ملء العين ليستقبلوا غدهم بقلب فرح، فيما أواصل انتظار مروره بقلب واجف، وأحلم عساني أراه يمر في خمس ثوانٍ فقط!

١٨ يوليو ١٩٩٨م

رسالة من الآخرة

«العزيز عبده، أُبلِّغك أطيب التحية وأصدق المودَّة، مُتمنِّيًا لك، وللطيبين مثلك، طول العمر ورخاء البال. وقد كنت أريد مكاتبتك شخصيًّا ومباشرة ولكن صاحبك هذا ألَحَّ عليَّ شأن العبد الملحاح أن يكون هو والقراء وسيطين بيننا لكي يغنم الجميع، كما قال، بعض العبرة من قولي. والسبب الثاني خوفي عليك من هلع مُحقَّق لدى توصلك بالبريد من شخص تقوم قرائن قوية على وفاته، وإن كنت بيني وبينك لا أعرف على وجه التحديد ما هي هذه القرائن ولا نوعيتها، وكيف تنسحب عليَّ أنا بالذات لا على غيري، ومعرفةً مني بحبك للخير والإنصاف والحياة، فكرت أن بإمكانك مساعدتي في تحديد هذه القرائن وإقناعي بها لأستريح بصفة نهائية وأريح، ولا تعجبن لمطلبي هذا يأتيك من العالم الآخر، فكما تعلم ثَمَّة عوالم الله وحده أعلم بعددها. ثم إن الأعمار كانت وستبقى بيد الله، يحيي ويُميت وإليه المصير. أعرف بعد هذا أني أكلفك ما لا طاقة لك به إذ ليس لي ما أساعدك به لتحقيق طلبي، ولو بفائدة واحدة أو خيط واحد، كأن أعرفك باسمي الشخصي أو العائلي، أو لقبي. ذلك أنني — حفظك الله ووقاك من كل مكروه — لا أملك أي هوية محددة. وعليه فسأترك لخيالك القصصي أن يجهد في نحت ملامحي، وتصوير شخصيتي. ولعلك إن أخذت القضية جدًّا في جد ساعٍ إلى تشكيل لجنة لتَقصِّي الحقائق حول زعم وجودي. فبما أنني لا أملك أي هوية فإن ثَمَّة احتمالًا كبيرًا ألا أكون قد وُجِدتُ بالمَرَّة، أو أني موجود فقط بقوة تصوري لهذا الوجود. وثِقْ أنك ستُسْدي لي خدمة عظيمة ستنال بها أجزل الأجر يوم القيامة إن أنت وصلتَ إلى أي نتيجة أنال بها السَّكينة النهائية في آخرتي. هذا وإن ظهر لك بعض الخلط فيما أقول، لا بعض الهرف، وتنكب جادَّة الصواب، فاعلم أيها العبد لله أنه ما بيدي ولكن بيد عمرو؛ لأنني اختفيتُ وما زلتُ في الخفاء عن عالمكم، ومُتَعكم وسيرة أيامكم. في ظروف أقل ما تُوصَف به أنها غير معروفة، عندكم طبعًا، عند

بعضكم على الأقل لا عندي. فإن أنت تقدَّمت قليلًا في هذا المسعى، أيضًا، فربما أرسلتُ إليك في مناسبة قادمة صورة تذكارية سرقتُها من أرشيفٍ سِرِّي مرصود على الجان والأرواح وحدها، قد تفيدُك في كشف ظرف من ظروف الاختفاء الغريب.

وبما أن الشيء بالشيء يُذْكَر، فاعلم أخيرًا أن روحي هي مَن يحدثك. وما أنا بالذي يتحايل أو يُشَعْوذ لأني كنت أُفَضِّل أن أخاطبك حيًّا، مِن لحم ودم أو حتى ميتًا بلحم وعظم، غير أني لا أملك من أمري في هذا شيئًا، فجُثَّتي هي الأخرى اختفَت في ظروف غير معروفة، وقد فُصِلَت عني عنوة، وطال الزمن بيني وبينها، ما زاد في ضياع هُوِيَّتي أنا الذي كنت ضائعًا قبل ذلك.

وإن روحي لتصرخ مستغيثةً ليلًا ونهارًا تسأل عن جثَّتها كي تأوي وإياها إلى التراب وتستريح من هذه الرؤيا، ولست بالذي يجهل أن الرؤيا، كما علَّمنا شيخنا ابن خلدون، «حقيقتها مُطالَعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات. فإنها عندما تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل كما هو شأن الذوات الروحانية كلها، وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية»، فاحسم في رؤياي أيها العزيز، ودمتَ للحب وللحياة.»

٢٦ يوليو ٩٨

استهلال الغائب

يغيب. يختفي. أحاول أن ألحق بأثره. أكاد أفعل ... لم أفعل شيئًا. قدَّرْت أني مُدركه. قدَّرتُ ذلك وهْمًا وعبثًا. سأحقق ذلك غدًا إن أنا تخلصت من سديمي. من محنة البحث عن وجوده الغائب. قبل مواصلة رحلة الوهم بدأت أشعر بالتطير. إن أمسكت شعرة واحدة منه ستتكاثف عليَّ أدغال غيابه، سأجدني في ورطة لا قِبَل لي بها؛ هو مُتعدِّد وأنا حالة واحدة تفيض عن حاجتي، بقدر ما يختفي تلحقني عدواه، كلَّا، بتاتًا، ليس الإلحاح على حضوره ما يُؤرِّقُني، ثمة أجساد مرمية، مترامية الأطراف كالصحاري، كالنعاس. في تلك البلدان، لم يَقُل إنه غاب ... سيغيب. ربما قالَها لفظًا. ربما همس بسِرِّه لعابر، الأصدقاء الخلصاء أنفسهم لا يحفظون سِرًّا. كيف بالعابر، إذن؟! صار الأمر حقيقةً بقوة الإشاعة، تنفسوا الصعداء وقليل منهم انتابه بعض الحنين. أخيرًا قرَّر تبديد سوء التفاهم بنفسه، حمل جسده الظاهر وتجوَّل به في شوارع معلومة، جلس به في مقاهٍ يعرفها وتعرفه، طلب من النادل أن يُوزِّع صورًا شخصية استنسخها على جميع الطاولات. كان حاضرًا تمامًا. كان يقظًا لمكر الغياب المفترض، قام ببعض الحركات المُتشنِّجة ليلفت الأنظار إلى حضوره، إلى جسده الحي. كما يحدث أحيانًا لبعض النواب الذين لا تسعفهم العبارة أو تَتجاوزهم. الحقيقة، إذن، هي الإشاعة. الغياب، أيضًا، هو الحقيقة الوحيدة الممكنة. مثله تمامًا. هو حاضر دومًا، لكن أين؟ لن أبوح بسره لأحد؛ لأني اقتفيت أثره؛ لأني انضويتُ في غيابه.

يحدث أن يكون الجسد على موعد مع جلسته في السادسة والنصف مساء، كعادته، بمقهى «لوفلور» قُبالة مزار «ليب» أبدًا في الباحة، تحت السقيفة، من خلف زجاج الواجهة تتبرج الشجرة المقابلة بنضارة اصفرارها المبرقش. هنا كلام غزير يندفع من الباب، يثقب الزجاج وينبثق من الطاولة وفنجان القهوة الأثير ليحاصر الجسد بكلام الزمن، متناسيًا

فكرة أو إحساس الغياب بالمرة. ذلك أنه أو أنهما معًا ليسا على وفاق. لم يحدث هذا قط في أي يوم، إذا حصل شيء منه أضحى الكلام لاغيًا. أما الكتابة فستُمْسي تفريخ كلمات بلا ضرورة، بلا روح. لهذا السبب تتكاثر الكتب وتشح الكتابة.

لم يستخف بمن حضر، لكنه كان خارج الدائرة المفترَضة؛ لأن الجسد كان جالسًا اللحظة ذاتها في ملاذه الغابر بزنقة «بروكا» بالدائرة الخامسة، في الطابق السادس حيث يطل على مخاض شجرة ستلد الخريف، قَبْلئذٍ في بلده الأعجف ما عرف إلا فصلًا واحدًا، حياةً وموتًا واحدًا.

الورد ما شَمَّه والبحر ما حنَّ إليه، الورد لا يُوصَف، وحسنها تهدَّل مع شعرها الوفير فمخضه جسدها في زنقة «لونيفرستي» أعوامًا في الدائرة السابعة، ثم أدخله بويضة في الرحم ورَكِبا المترو في الاتجاه الذي لا يعرفه وضاعَا في رحيلها؛ لذلك لن يُحاوِر الجسد أحدًا. ربما لا يراه الجالس إلى جواره؛ ببساطة لأنها تحمله في رحمها، منه ينظر إلى الخارج وهو فيها لا يقبل إلا بهذا الداخل. هنا فقط يستطيع قياس دبدبة الهرج الخارجي الفاحش، استلذاذ البراءات النادرة، التقاط هَمْس إيقاع عابر في الدم، المحافظة الضرورية على شعرية عنفه، القهقهة حتى السعار في وجه النذالة اليومية.

سيحتاج إلى أظافر مشحوذة ليكشط بها جلده. ليستنفر من جديد هو المستنفر دومًا. ليتذكَّر أنه هنا في مَقهاه الأليف، يحتسي قهوته الأثيرة، كل شيء يحدث كالعادة، الخريف وصل في موعده كالعادة، الروايات ودواوين الشعر والأبحاث وكتب أخرى من الهراء صدرت بدورها، وهي تتنابز بالألقاب، وغدًا ستُعلن الجوائز كالعادة. مَزَار أو مقهى «ليب» أوه، ليست إلا ذكرى. واحدة من ذكريات باهتة، لن استنفر جسدي أبدًا لعبور الشارع إليها، وعلى كلٍّ فإن متجر الموضة الرفيعة الجديد بجانبها مسح آخر بقعة دم كانت تلطخ واجهتها.

أظن أني سارعتُ قبل حضور عُمَّال النظافة، وانتزعت من البقعة قطرة جامدة وضعتُها فوق كفي. أظن أني استعملت قطارة وزرعتها في عيني. أظن أني لم أفعل شيئًا من هذا، بل بقيت على كفي، وبعد أن تعبت طويلًا من الطواف سائلًا عن صاحبها لُذت بركني المفضَّل في «لوفلور»، حيث نسيتُ أني كنت جالسًا منذ وقت طويل. حيث تركتُ جسدي وغِبتُ لبعض الوقت.

فجأة دخل مع ريح كانت تترنح في الخارج مُسقِطةً في عَصْفها الخريفي الأول بضع وُرَيْقات ذات صُفرة حربائية من تأثير الإنارة المنعكسة على الرصيف، فبادَر العابر لتوِّه بالتقاطها وضمها في الحين داخل محفظة جيبه مثل ورقة نقدية غالية، وتابعته وهو

يمضي معولاً حَتمًا على شيء دار أو يدور في رأسه، ولم أنتبه إلى الداخل مع الريح إلا بعد لأْي ليقين أو وَهْم مسبق مني أني تركتُه جالسًا في حي عشوائي، بشرًا وسكنًا، اسمه «أكدال» في تلك الرباط، وهو يتبادل أطراف الحديث مع صديق جديد له حول «الزمن الضائع» أو بيروت، أو لعلهما يعيدان تشكيل الفضاء: واحد «من جهة سوان» والثاني «من جهة غرمانتس»، وطبعًا فإن ذلك كان هو «العبث» في درجة المطلق أمام طابور لا ينتهي من المتسولين، وباعة السكاكين، والمروجات لمعجون الأسنان «وما جاوره». إلى أن عاد ينبهني شبه مُنقَضٍّ عليَّ هذه المرَّة، إذ أحسستُ بجسده ينتفض تحت ثيابي فذكرني بأنه لي لا لشخص آخر، وما لبث أن تدفَّق في العتاب، وهو يلغو بكلام لم أفهم كُوعَه من بُوعه: هل أنت مسكون أم ماذا؟! قبل قليل مررتَ بأكدال، بالمكان، إياه، رأيتكما معًا، أنت وعبد المجيد تشربان عصير الزمن الضائع، وأنتما تطلقان ضحكًا مُجلجِلًا في الهواء الملوث. حاولت أن أخمن على من أو ماذا تضحكان؟ ولولا معرفتي بغرابة طباعكما لواصلتُ بحثي. وقد تأكد لي ظني حين التحقت بكما أو بالأحرى به. وجدته جالسًا وحده ينظر إلى فنجان مليء بالقار أمامه. حين سألته إن كنت ستعود بعد قليل، نظر إليَّ دهِشًا بسِيما مَن لا يفهم. ولما ألححت نبهني أنني ربما أعاني من عقدة نفسية اسمها ضمير أو عُصاب الغائب، أما هو فلم يحضر، إلا في ظنك، أو في دلالة مُفترَضة عندك، وربما أسعفك الحظ فصرتَ تعيش رؤيا باهرة ... عِش رؤياك يا أخي، هكذا خاطبني أخيرًا، اتركه في حاله، واتركني أنا أيضًا أشرب هذا القار.

حاولت أن أهدئ من روعه. طلبتُ له مشروبًا مُجرَّبًا في حالات الضغط العالي، جسدي مني، خلعتني وأوصيته بنا خيرًا، زاعمًا أني عائد إليه بعد هنيهة، وفي كل الأحوال لا مناص لي من المادة لكي يستقر داخلي في معنًى ثابت. لم أكن موقنًا تمامًا من هذه التخريجة، فها هي باريس مكسوة بغلالة الخريف، أمشي فيها بخطوات وئيدة على (وليس ب) عينين معلقتين بغمام أصفر يخضب أعالي الشجر وانحناءه المائس. لكن هذا وحده لا يكفي ليوجد الفصل رغم القشعريرة المتناوبة على العظام. هناك ما هو أقوى ندفعه نحو الشجرة كأنها تنبت للتو، والأصفر المدلهم نحن فتكته، ومن فرلين، لو شئت إلى ميشو، ليست أوراقه إلا ظفيرة استعارات مجدولة في قصائد الشعراء والعابرين في بحبوحة التَّخفي والجرح الصامت، بعد تكاثُر اللغط باسم الجراح المُعلَنة. تركتُ عنده جسدي هنيهة زعمًا ودلفتُ إلى المكتبة المجاورة لأقتني «صمت الدواب»، الكتاب الذي لن ينتبه له الذين تغرغر أفواههم بالكلام من الصباح إلى حتفهم. ارتعشتُ وأنا أَلتهمُ وقوفًا

مُقدِّمة الكتاب، مُستطِعًا المدخل إلى عالَم كائناته محسوبة على الصمت فيما هي هادرة بكل اللغات والخطابات المباشرة والمشفرة ... وبالمقابل هناك الكائنات الأخرى، الموسومة بالناطقة ومن طبعها الكلام. فما هي حقًّا الحدود الفعلية والحَرِجة بين الصمت والكلام؟ وعلامَ يدلُّ النطق أو لا يدل؟ وما هو كنهه؟ وحَلَمْتُني، بل رأيتُني دابَّةً هوجاء وأليفةً في آنٍ من يوم أن نَبتَ زغبها الأول ابتلع المدن، تلو المدن، تستبطن شوارعها وميادينها شغاف صمتي وأتكاثر بكائناتي المدلهمة في تضاريس الأنياب والمغارات، والسماء على كفي أُرقِّص نجومها أو سُحُبها، وهذه الأرض، كل الأرض تجر تاريخها تتبعني إلى أول حَتْفٍ حقيقي ستلقاه.

لن نتبادل بعد اليوم لا الصمت ولا الكلام، لا الإبهام ولا الوضوح، إلا المُعيَّن وليس المَجاز. لا يوجد شروق ولا غروب، أنا غائب إذا وجدت، وموجود فقط حين ألتمس غيابي. لا يعني كلامي تحديدًا، ومُدرِك أن صمتي يحتوي على قرابة ألف سنة على الأقل من الكلمات، فضلًا عن نظراتي الفاغرة أمام مواكب البلاهة اليومية. وبالمقابل في ملاحقة فراشات قزحية ومن أجل استحضار مُتجدِّد لأمة تقتات من النسيان، ماذا تستطيع الكتابة أمام الكثافة القصوى للغياب، وإزاء جراحنا النازفة بـ «صمت الدواب»؟ مرَّت قرون على السؤال والجواب دائمًا متقدم في لعثمة الكلمة الآتية. مر عام آخر على تَبعثُر أشلائي بين الضفتين. سأقتطع من جسد الغياب أشلاء جديدة، نيئ من أجل حضور مُفْترَض لكلام قد يصل وقد ...

١٠/ ١٠/ ١٩٩٨م

استهلال الغياب

يشتد الامتلاء ليتكاثف كتلةً صماء، النظرة تطوي المسافة لتتوالد منها عيون فزاعة منصوبة على طول الطريق. تَغطَّت بنظارات مؤقتة وبقيت تنتظر. شيء مثل الرادار موضوع خفية في مكان جانبي لتسجيل حالات المخالِفين، وضبط ذبذبة مُعيَّنة. ما هو منفصل كلية عن فضائه ومرصود له مطلقًا. في السماء هنا غيم كثيف. في الأرض هناك شح ووبال وفير. العين لا مرمدة، لا صافية، العين بلاستيكية مُزوَّدة بجهاز قياس دقيق، غير موصولة بأي خيط من داخل أو خارج، عدسة موضوعة في محجر، نتوء محفور، ثُقب مصنوع بحياد، ببرود، بيد صانع مأخوذ باللامبالاة، وهو ينفخ سيجارة في الهواء. ينفذ عملًا طُلِب منه ولا يهمه أن يسأل عن معناه. هو منفصل تمامًا عن صنع يده، يده وحْدَها تعمل وفق تصميم مُحدَّد، لا يتذكر هل رسمه هو أم غيره؟ المهم هو الإتقان والسرعة في الإنجاز.

ينبغي أن تحفر بسعة محجر كبير، لكائن أكثر بقليل من القامة العادية، شريطة ألا يكون عملاقًا. اغرس فيه بعد ذلك هذه العدسة، شكل العين، لا تهتم بباقي الأطراف، فنحن الذين سنحضرها ليكتمل الكائن، لا يأخذك تفكير، لا تستسلم لأي غفوة طارئة، سِنَة من حلم عابر، الحلم فخ، الفخ ينهض دائمًا على قاعدة الخديعة، مثل هذا العالم، هذه الحياة. نحن جميعًا وقعنا في الفخ؛ لأن هناك مَن فكر وحلم بالنيابة عنَّا، فأكمل الخلق واستنفد الأحلام، فأصبح كل شيء جاهزًا، كامل الترتيب، وليس عليك سوى أن تنفذ. رغم كل المحاذير دارت بذهن الصانع فكرة طائشة، أن يلعب، ويراوغ ويَتحرَّر مؤقتًا من قيد الطلب. وقد تساءل: عِوَض جُحر واحد سأحفر اثنين، وبدل عين واحدة سأثبت خمس أو سِت عدسات، والقامة سأُعَمْلِقُها طول صومعة الكتبية أو برج إيفل، ومن الطين سأعجن كائنًا غير مسبوق الخلق ليشرف على العالم وما بعده، والخيال، أيضًا، لا حدود له، قبل

أن تنتقل القدرة المزعومة إلى إزميله، بله قبل اكتمال الفكرة في ذهنه أحس بقبضة خَشِنَة تلتفُّ حول عنقه وتُطوِّح به إلى بعيد، بعيد مجهول ما انفك يدور فيه وهو يسأل بهلع ولهفة: أين أنا؟ مَن أنا؟ ولماذا ألقيتُ بنفسي إلى التهلكة؟ كان للقبضة لسان مُخْشَوْشِن يقول: أنت الآن في مُطلَق الغياب؛ لأنك جرؤت على التفكير فيما لا يعنيك، فيما يدخل في طاقتنا نحن وحدنا، نحن أصحاب العين الذين نملك حق الحضور دون باقي العالمين.

لم يكن وحده مَن صُعِق بهذه اللوثة، عشرات غيره، ربما مئات، وعلى كلٍّ، فالتقييدة طويلة ترجع إلى عهد جَدِّنا آدم عليه السلام. لم يُرَ لحامل اللوح وَجْه أبدًا، يده وحدها تخرج مرة، مرة، من دهليز وتخط اسمًا جديدًا على اللوح بِمِداد أبيض على مساحة كاغد أبيض. وبينما اليد تكمل الخط تتهادى في السماء. وهي سقف من صفيح صدئ — أشباح في شكل عفاريت — لم يثبت أن أحدًا رأى العفاريت بالعين المُجرَّدة، ولهذا فاحتمال وجودها في كل مكان وارد، فوجب التنبيه — تُرى، ونحن لا نعرف مَن يراها، وهي تَسْحَب من كيس مهترئ شبحًا صغيرًا، وطبعًا لا شكل ولا لون له، وتقوده جهةَ الدهليز من حيث يُخَيَّل إليه أنه يسمع أصوات ترحيب مخلوطة بسُعال صدئ، وبُصاق من دم. يُجَرُّ إليها بقوة جاذبية خفِيَّة. تضمه إليها في عناق حارٍّ، تتلمس وجهه الهلامي وجسده المحو. تَحُك من عظمة نَخِرة فيها أنفًا يحاول أن يَتشمَّم الهواء والتراب وبقول الأرض، تحاول أن تعرف — محال أن تعرف في سديم الديجور — إن كان في الخارج بعد بقعة ضوء. وما إن كانت السماء ما تزال، كما تقول الأشعار، مُرَصَّعة بالنجوم، والورد تُراه يضوع دائمًا في المشاتل، ومسك الليل يفيض عبيره في الليل، أصوات مهجورة، مقرورة، مخلوعة، مكدودة، مدعوسة، أصوات مُغتصَبة، مُفْتضَّة، خطوط أو أسماء ناقصة الحروف، مبتورة الأطراف، تالفة الذاكرة، مُعلَّقة كخيوط العنكبوت بسقف المجهول تسند انهيارها بجدران صخرية هي الدليل الوحيد على وجودها المادي السابق.

بعد مُضي شهور، فأعوام، ففَنَاء، انفتح باب الدِّهْلِيز على مصراعيه، وانشقَّتْ سماء سقفه عن سماء حقيقية، بدَت ربيعية الزُّرْقة. ومن علٍ تَدلَّت حبال بأفواه كبيرة وهي تنفخ: يا أهل العالَم السفلي، نطلب التسليم! الأرض تناديكم، والكل في انتظاركم، وقد أعددنا لكم في الخارج، في الحاضر، خيامًا وعرائس وركابًا، وسنطوف بكم البلاد، السهل والجبل، في مواكب مُزْدانة بحَلَمات الصبايا وسوالف الكواعب، وليس لكم إلا أن تباركوا لنا هذا الزمان، وشرابكم من الآن أصفى من قَطْر النَّدَى. ظلت الأفواه تُردِّد النداء طويلًا دون أن تسمع الجواب. انفتح الدهليز واتَّسَع أكثرَ فصار بمساحة بلاد بأكملها: السهل

والجبل، والوديان والفيافي، ومن سقفه المُشْرَع على الزمان الربيع تَهاطَلت سلالم من حبال مَفْتُولة، ومظليون، ومشايخ تتدلى من أعناقُهم سُبحات غليظة وبأيديهم مَباخر، وعَكَف كلٌّ على شغله وخاصَّةً المشايخ الذين غطسوا في تلاوة التعازيم والجدبة: الله حي، الله حي. ربما خسفت الأرض بعد ذلك بقليل، ربما غادرت الأصوات لموقعها صاعدة إلى السماء في دخان المباخر. ربما انشق الفضاء عن صوت مزمجر يرغي ويُزْبِد: ألم أَقُل لكم، إن الدهليز أولى بهم وبكم جميعًا؟ أغلِقُوا الأرض إذنْ، وسُدُّوا السماء، وربما عثر أحد النَّبَّاشين على ورقة مدعوكة كُتِب فيها كلام خير لي ولكم ولباقي المسلمين ألا يهتك سرها، والله أعلم.

وقد حدثنا عبد المجيد الواسطي عن صديقه زكريا، عن صاحبه عبد المالك الطوارقي، عن صاحبهم المسترشد بالله، المشهور بلقب «كافكا بالله» لكثرة الحالات العبثية التي يلاقيها في زمانه، ويخوضها كما لو كانت جدًّا في جدٍّ، فإنه كان، دأبه كل أحد، أن يتلف الوقت في الجوطية، مُبحصِصًا هنا وهناك أملًا في العثور على تحفة نادرة يضيفها لُمقتنَياته. وبينما هو كذلك إذا به يرى رجلًا يفزع عن دكانه، مُرسِلًا صيحة هزَّت جنبات المكان، وكان قريبًا منه فعثر فيه، فعَوْذَلَا معًا وبَسْمَلَا، وثَبَتا ينظران جامِدَيْن جهةَ الدُّكَّان، وما لبث قوم آخرون أن انضموا إليهما ليصبحوا حلقة اتجهت حَذِرَة، وقد أصبح المفزوع محاصرًا فيها، فسألوا الرجل ما بك؟ فما ردَّ، فلما أعادوا الكَرَّة قال اطلبوا الكُتُبِي، صاحب الدُّكَّان ينبيكم بالخبر، وما هي إلا لحظة ورأوا فيها مَن هبَّ من القعر أشعث أغبر، تقول إنه من سُكَّان القبور. لم يفهم سِرَّ الجَلَبة إلى أن لَكَزَه أحد الفضوليين مُطالبًا بِسِرِّ الصيحة، تعَجَّب من الطلب ودعاهم إلى استنطاق صاحبهم ليقر بما ينبغي فهو الهلوع وليس أنا، فوافقهم مَنطقُه والتفَتُوا إلى هذا الأخير الذي استنكر ادعاء الكُتبيِّ مُتَّهِمًا إياه بالدَّجَل والشَّعْوَذة، وثالثة الأثافي، أضاف، تخزينه العفاريت والأرواح في رفوف الدكان، ودعانا إلى الدخول للوقوف على جلية الأمر، بعد أن أصبح مَحمِيًّا بنا، فدلَفْنَا إلى مَمرٍّ مُعْتِم، رطب، فُتِح في نهايته على غرفة تَكدَّسَت فيها الكتب علو سقفها الوطيء، وبحركة مباغِتَة انقض على كتاب مفتوح مُطلِقًا صيحته السابقة: هذا، هذا، مسكون بالأرواح، بالجن والعفاريت!

فعندئذٍ حَسِبْنا في الرجل صَرَعًا فرششناه بماء زهر حمَله البائع على عجل فما زاده ذلك إلا هياجًا: يا قوم صَدِّقُوني، إني فتحتُ الكتاب على الصفحة ٧٠ فسمعتُ عويلًا وأنينًا وصَدى مزاليج. وعلى الصفحة ٨١ قرأتُ كلمات ما لبثت أن شَخَّصَت أمامي خليطًا من

رجال ونساء وأطفال، وهم يَجرُّون أقدامهم جرًّا في مُستنقَع راكد وفوقهم غَمام كثيف لا هو أسود ولا هو أحمر، وقد استحالَت أجسادهم أفواهًا صغيرة تَتلعْثَم بكلمات مهموسة لا تُلْتَقَط. وفي الصفحة ٩٨، وهي لا شك تتحدث عن أمر جرى في بلاد الهند؛ لأنه ورد فيها ذِكْر لقب المهراجَا، التاسع والتسعين بعد الألف، بمناقبه العظيمة التي جمعت المجد من أطرافه، وذيوع الخير في زمانه حتى ما بقي ابن امرأة إلا ودَعا له صباحَ مساءَ. في الصفحة ٩٨ خرجت من الكلمات هياكل عَظْمِية تمشي مثلي ومثلك، وكلامها همس من فمٍ لأُذن، وهمست في أذني بِعضَّة خفيفة — وفعلًا رأينا أثرًا على شحمة أذنه اليمنى — بَلِّغْهُم أنهم واهمون لو تَصوَّرُوا أنهم طَمَرُونا في الغياب، نحن السابقون وأنتم اللاحقون! فوالله صدقنا الرجل، وقد استولت علينا رهبة عظيمة، فتهافتنا على ما حولنا من كُتُب نفتحها، نقرأ الصحائف كيفما اتفق فيظهر لنا من الخفاء، ومن بين السطور العجب العجاب، ومنه امتلاء الغرفة حتى لا مزيد، بالمئات، بعشرات الآلاف، ولا باب للدخول أو الخروج بعد أن سُدَّ الممر المُعْتِم، حتى صارت بسعة البلاد، والناس في هرج من أمرهم ومرج، وإنْ أَطْرَقْنا بين الفينة والأخرى نسمع مَن يُرتِّل بخشوع ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

يقينا أن المسترشد بالله كان سيجلجل بالضحك من خلف نَظَّارَتَيه الغامضتين، هو الذي خبر علوم الأوَّلِين والآخِرين، لو فتح آخر كتاب اقتناه الواسطي من جوطية يوم الأحد، وقرأ في مدخله عبارة هيدغر، لا فُضَّ فُوه: «الكلام هو مأوى الكائن.» وإذن، هذه هي الحكاية وما فيها، وهل كانت في حاجة إلى هذا السحر والتَّلْغِيز كله. ففي بلاد ما وراء الزمن، الواقعة جبرًا ما وراء البحار والقبور، كان الكلام وما يزال هو المأوى إلى حدود ارتفاع السيف عن الرقبة، وهو في هذه الأرض مُحال وإلا ثبت المطلوب، مما لا يحتاج معه المرء إلى فلسفة أو إلى فيلسوف من عيار هيدغر. ومن جانب الراوي الذي تَشابكَت بين أصابعه خيوط الحكايات، فقد اتسع الخرق على الراتق، وهو فيما جمَع ودَوَّن، رَوى وسَيَرْوي في مُستقْبَل الأيَّام، محكوم بضمير الغائب، فضلًا عن شريعة الأنام. لهذه أول وليس لها آخِر، كما هو الشأن مع سكناي الكلام، في مُطْلَق الغياب.

١٧ أكتوبر ١٩٩٨م

استهلال الرؤيا

إن أقررتُ اليوم بأني مررتُ بتلك «الحالة» فلن أجد مَن يصدقني، رغم وجود شهادة تُثْبِت الأمر لصالحي، ومن الصعب أن تكون مُزوَّرة؛ لأنها تحمل في أعلاها اسم مستشفى مشهود له باختصاصاته وأسفلها توقيع طبيب ذائع الصيت يُؤكِّد فيها أن حامل الشهادة فَقَد ذاكرته، وعلى الجهات الرسمية والدَّهْماء أن تأخذ بالاعتبار هذه الواقعة في تعاملها مع المَعنيِّ بالأمر. هذا ولم يَرِد في الورقة ما يفيد بتوقيت الحادث، إن حصل في الماضي أو قبل قليل، وما إن كان أثره سيمتد إلى يوم القيامة. وهو ما يخلق ارتباكًا للآخَرِين ولي أنا أيضًا، فهم لا يعرفون إن كانوا مُلزَمِين أن يتعاملوا معي كشخص فَقَد ذاكرته مؤقَّتًا، أو لن يستعيدها بتاتًا، وبذلك يتحدد بيننا منطق مُعيَّن. وإذا كان عندي من نصيحة أزجيها لأحد، فهي أن يمسك رأسه جيدًا بين يديه وهو يتابع حكايتي التي لم تبدأ ولا أَعِدُه حقًّا أنها ستبدأ؛ إذ كيف لي أن أتذكر؟!

ربما أحسستُنِي بعد ارتطام رأسي بالطوار مباشرة أغيب، كأني ما وُجِدتُ ولا حَيِيتُ. لا أَستغيثُ بأحد. نفسي لا تستغيث بما تَبقَّى من أعضائي، لا أَتشبَّث بشيء، كما لو كنت أرى دون فُوَّهة بركان أصابع جَمْرٍ تهبط دوني مثل حبال تَقمطُني تعلو فوقها أصابعي تثقب الإسفلت، لعلَّه التراب مغموسًا في دم تكبد وهي صاعدة، باستماتة من يرغب في أن يترك وراءه علامة شاهدةً تُعَيِّن مكان قبره قبل أن يختلط بقبور أخرى، فإذا سأل السائل حفَّارِي القبور لا يرى لهم أشكالًا، بل هم كُتُل مُكوَّرة في الظلام؛ لأنه سِتار وستر وسِر؛ لِيزدَاد تَكوُّرهم حين يلاحقهم السؤال مُلِحًّا أو استغاثة تتكسر على الحجر. حين تكاد الأرض تميد يجيبون أخيرًا، هنا لا بُدَّ من هذه القبور وإلا تميد الأرض لِتقتات بالأموات، والأموات ببقول الأرض. وإذا ما غامَر أحد مُحتجًّا: لكننا لسنا موتى، أُلْقِمَ

سريعًا بالجواب: بلى، لقد مُتَّم من زمن بعيد ولم تَجِدوا أحدًا يتبرَّع بدفنكم لينالَ الأجر، وإن كان عندكم شك فيما نقول افتحوا أعينكم واسعة، واقرءوا المكتوب في هذا اللوح ... أو، الجو تَعفَّن، إنها رائحتكم. ونحن الآن نَتبرَّع بدفنكم بعد انتهائنا من مهام عظيمة في أماكن أخرى قضينا فيها سنوات من الخدمة نُنْجِد الناس بالدفن، وهم ليسوا مثلكم آثِمين، جاحدِين، بل مُستعطِفِين إنِ اعْتِقُونا بحسِّ الموت، وكانوا ألفًا بل وآلافًا، فحفرنا بالليل والنهار، ولعلكم أنتم آخِر مَن بقي في انتظار السُّلالة القادمة إن شاء.

قبل أن يهوي سَرَح الطرف فبدَت له في مدى النظرة رءوس تَتحرَّك في دوائر مُغلَقة بنوع من الطيران الغريب. رءوس بأجنحةٍ فوق حراب لا يُمْسِك بها أحد، فهل رأيتَ من قبلُ تحليقًا لا يحدث طيرانًا، ولكن أصواتًا بلغات ترجع صداها بين صَمْت وهدير، وترى الكلام يدفع بعضُه بعضًا مثل الموج.

رءوس مُحلِّقة هذا التحليق المتكلم لغات مرموزة لا يفهمها إلا مَن هم في حالة لا هُم أحياء، لا هُم موتى، أصابع تَتشَبَّث بالبقاء في الخارج مُشرَعة كالشمعدان.

ثم ها أنا ذا أهوي عميقًا، آخِر ما تَبقَّى من وجودي أصابعي، عندئذٍ تَيقَّنْتُ أني فقدتُ الذاكرة، وإن كل ما رويت سلفًا هو من أثر ارتطام رأسي بالطوار.

فأنا لا أذكر، أو ربما بسبب الإشعاعات القوية التي خضع فيها دماغي لفحص جيد. وشد ما أخشى أن يكون تسلل مع الإشعاع كائنات سِرِّيَّة مثل تلك التي نسمع أنها تجوب الشوارع ولا يراها أحد لما تَتمتَّع به من مهارة في الاختفاء، وأساليب في التَّنكُّر من إنس إلى برغوت، ومن قِطٍّ إلى وطواط، ومن خَفِير إلى صرصار، ومن جُعَل إلى شاعِر. ومن ضَبَاب ما أستعيد من تلك الجلسة، وهو ما لا أستطيع الحسم فيه، كيف رأيتُ — ورأسي يدخل في جهاز أسطواني — شخصين لا يُشْبِهان الأطباء بلباسهم الأبيض، يرتديان على الأغلب بَذلَات رمادية؛ سمعتُهم يسألون إن كان هو فيأتيهم جواب مستفسر أيُّ هو تعنون؟ هو الذي سَمِعْنا عنه هنا. آه، ربما تقصدان الذي أُحْضِر لنا للتو وحِرْنا في تفسير أمره؛ وتشخيص ما حلَّ به، أو هو الذي أعلمنا أنه فَقَد الذاكرة بفعل سأتأكد من حقيقته.

ولكنَّ فاقِدِي الذاكرة كُثُر؛ لذا من الصعب أن نعطيكم جوابًا حاسمًا، ثم إن الشخصين طلَبَا من الأطباء الانسحاب من قاعة الأجهزة، وأَخْرَج أحدهما ورقة من جيبه زعم أنها تصريح خاص من جهات أكثر خصوصية تسمح بإجراء فحوص استثنائية خارجة عن الاختصاص الطبي؛ لأن الموضوع — على حدِّ تعبيره — فريدٌ من نوعه، بل فرصة نادرة لاستكمال معلومات لها علاقة بالأدمغة والأرواح الشاردة. وصِنْف من الناس بدأت تنتابهم

في السنوات الأخيرة أعراض من الغيبوبة والاختلال بحيث يكون الشخص ولا يكون، يقول الشيء وضده، يبكي ويضحك، يُغْمَى عليه وهو يقظ يدخل في الكلام ويخرج بلا مُناسَبة. وبالمناسبة لو اقتصر الأمر على هذه الأحوال لَهانَ إلا أن تصل إلى وجود الواحد حيًّا وهو ميت، فمَيِّت وهو حي. والخطر كله في الاشتباه فيه بين وضعين مجزومين للحياة والموت. وفي حدود معلومات الرَّجُلَين أن الأطباء لم يسبق لهم أن عايَنوا أوضاعًا مماثلةً وهو وَبَال عظيم لا بُدَّ من معالجته بطُرُق فريدة.

في ضباب رؤيتي، ورأسي مُنضَوٍ داخل الجهاز الأسطواني لَمحتُهما يُخْرِجان من كيس آلات تصوير، ومشارط، وبعض الأعشاب وما يشبه جلودًا للضفادع والثعابين، وشرَعا في تَحسُّس أطرافي التحتية، والتقاط صور لأماكن مُحدَّدة منها، ومقارنة جلدي بجلودهم. وقد غشيني خوف رهيب نجم عن إحساسي بأني شُطِرت إلى نصفين: نصف أسفل أخذ مني، ونصف أعلى منه رأسي، سمعتُ مَن يقول احتفظوا به؛ فبداخله مؤامرة كبرى. وحين أشكل الأمر على الجميع جاءت العرَّافة وهي ترى أصابعي آخِرَ ما تَبقَّى منِّي تنفع في الغَد كآخِر شيء مسموح به، وانقلبت إلى الأسفل كي تنضم إلى هاويتي، غمغمَتْ ودمدمَتْ ثم قالتْ: سأقرأ لكم السِّر، أفكُّ الطلسم. ستسمعون ما لم يُسْمَع من قبل. تَرَون ما لم يَرَه أحد ولا في مَشاهد القيامة، فإن كان قادرًا فأنا أقدَر، وعارفًا فأنا أَعْرَف، فتَّاكًا فأنا أَفتك به، مُتحايِلًا على نواميس الحياة والموت فأنا أَشدُّ منه احتيالًا؛ لأن الحوادث التي وقعتْ له هي من الصحة لدرجة تُذهِل العقل، وتشرد باللُّبِّ، وهي على قَدْر من الإيهام والتلفيق تبلغ بالسامع مع العارف حد الانبهار. فالحذر في الحالتين أوجب، جدير بي وبكم وبكل مَن يخطر بباله القدرة على قراءة كفٍّ لا هي أرض، لا هي سَفْح، وفيها خرق هو العُمق والمهوى، جاءها صوت منها أو مِنِّي: خَبِّرينا فقد ذُهِلْنا من حالنا، لا نعرف إن نحن في الأرض أم في السماء أو في الْمَابَيْن، وقد أنذرتها إن تأخرت أكثر سأنقلبُ عليها فأغيبُ كما اعتدتُ أن أفعل دائمًا، ولن أُبْقِي منِّي سوى الحيرة، ولن تَجِدوا بعدي أحدًا دليلًا على أنكم وجدتم حقًّا يومًا. فمَن أنتم بدوني، أنا الكائن الوحيد الغائب الحاضر، الميت الحي، المستيقظ الْمُغْمَى عليه، الحامل لملامح البَشَر الأول الذي انقرض أو هو في طريقه إلى الانقراض، أو لا علم لي بأني وُجِدتُ معكم، بينكم، شاهدتُ عالَمكم قبل انقراضكم فيه؛ لأن العقل ذهب، والذاكرة غابت، وكلَّما حدث فعل غياب.

استهلال المحبوب

لو جئتَني الآن لأجلستُك حيث لا أجد. لفَرشتُ لك ما لم أجد. وغَطَّيتُك، ورَحَلْنا. سمعتُ أنامِلَك الرقيقة تَدقُّ على باب القلب، فهُرِع إليك سريعًا ليفتح فلم يَجِدك. كنت بداخله، هو المعمور بك، فلم يسمعك. من غباء سألك يومًا عن اسمك، هو الذي يعيش بين تأرجح الأسماء. وكنت أنت، وآخر، وجميع من لم يُخْلَق بعد، من يعز على التسمية، عالية، ملء الرحابة، الضوء كله حتى لا نهاية للشُّعاع، البرق وقد استقرَّ وشاحًا لسماء فوقنا مُظلِمة. الشمس ومنك تأخذ ما به تَقتات، اسم كيف يُسطِّره حِبْر أو قلم. الورق الأبيض لو خَطَّ عليه جُنَّ. ورق ذاهل، هارب في الشوارع، هل تخطفه جِن أم هي مُجرَّد كلمة؟ لكنهم سمعوه جميعًا يهذي. الراغبون فيها، المُكتَوُون بها، سعيرُها فيهم ولا من يطفئ الغُلَّة. ورق مُهتاج. تَغيَّرت سحنته. غاضَ ماؤه. تَورَّمت أجفانه، السُّهاد سُكناه ووقته كله. لازمتها تلزمه، نعطيك غيره، غيرها، لا، نعمر مضجعك بالغانيات، الفاتنات، ربَّات الحِجَال، لا ولا، الجِنَان الموعودة وما حملت، ألف لا. لا أحد سواها عِوضًا. ورق يطوق الدمع. يصخب كالمُتظاهر في زمن الصمت الصَّمُوت، والألفة المُبْرَمة بمواثيق الدم المغدور، أين رأيتم شيئًا من هذا؟ هنا. أين يوجد هنا؟ في هذا الهُنا الفارد جناحيه علينا، انظروا، من أعالي البحر إلى قيعان الفيافي حيث لا رُكن يَلُوذ به عري دمه. الناطق باسمه وحده يعرفه، المتأبِّط دمه أيضًا، أيضًا، إلى أن تسعفه جثته. لن يسعفه أحد منا، فاتَ أواننا، توافقنا من وقت بعيد على محو الأسماء، وشيَّعْنا نسياننا في اضمحلال الذاكرة. إلى أن ينتشر اسمه في كل الأوراق فتهرب الكلمات الميتة. عناوين العهارة. تواريخ المقايضة المُضَمَّخة بالخيانة. إلى أن ترسل السماء صيحة واحدة، فتنشق الأرض ونرانا نهوي كما زلنا عسانا نلتقط آخر الصدى، ربما حيث هو، ربما.

لو جئتني الآن لوجدت النهر في انتظارك. ما إن تهلين يخشع لرؤيتك. هو السين. أجل، إنما لك وحدك. سيهجر المدينة التي أنشأها الرَّبُّ مَجْدًا للعَراقَة والجَمال ولن تشفع بتاتًا لُمدن القبح والمَقابر المَيِّتة الأخرى. لك، اختاري وَحْدَك مِن أين لك أن تَمْخُري عُبابه. لن تَتِيهي عن منبعه، لا مجراه أو مَصَبه؛ فحيث تنظرين يكون. المدائن القديمة ستنهض من رفاتها، سيتحلَّل التراب قليلًا من إدمان الأبدية، العناصر الخمسة سَتتوَحَّد في صحوة كأنها كمال القصيدة، الأحلام التي تلاعبت بخيالات طفولاتنا. افتراض أسراب لا تتوقف عن الطيران، قبائل اقتتلت مدى الدهر ولا دية تعدل ثأرها المفقود أبدًا. النَّدى جمع هو مفردك يُمَسِّد وجنة البرعم، تماثيل هن ملائكة حدائق التويلري ارتعشت في أطرافهن أرواح الأزل، فطَفِقْن يمشطن سوالفهن انتشرت ضبابًا خفيفًا في هواء التروكاديرو، قريبًا منهن النهر تحت جسره يحسب ماؤه أنه يَعْبُر دونه هو الذي يجري فيك. فخفقن بأَجْنحَتِهن حولك سرب حمام أو يمام، وعُيونهن البلور تَقود خُطْوَتك الخطوة في انتظار الصور الفائتة قبلها كلها تنتظر إقبالك، إقدامك على ارتداء النهر، السين حنين، وباريس تنزع ثيابها قطعة، قطعة، تعرى. غيرى. وَلها تَولَّه حين غدا في بُؤرة المُشاهَدة. قلتُ: هيام، فأوشك الكلام على الرفيف. أوشكنا معًا على احتساء الغيمة الماطرة قبل العبور نحو هذه الضفة المُحرقة. لم يكن غيم هنا حين وصلنا. تراب كالح، ووجوه أكْلَح منه. تناسخ للعمر من صفرة الوقت. ازدراء هذا أم زمان مَقبرة لطمر رماد الأنام. علَّ الريح قليلًا تستريح من عُواء لها في حصاد الخواء.

رائِحَتانا، لو تَعْلَمِين، ما زَالَتا على الجدران مُعلَّقة. في شقتنا بـ «نويي سورسين». مُبْهَمة مثل نظرة الجوكندة، نافرة، جَمُوح ولا فتكة الجرنيكا. مَبْصُومة فوق المنضدة، وفرشاة الأسنان، ورنين الهاتف أو جرس الباب قبل أن يَكفَّ؛ إذ يَتدلَّه بسماع الصوت. ك. وعلى الستارة لو أزحتها تدفَّقَت ألوان حديقتنا التي تُحبِّين، غرسناها سويًّا، وهبنا للأغراس أسماء الشعراء، ولكل مشتل نعوت الحقب الأدبية، الفصول وحْدَها لم نَكن نُسمِّيها؛ لأنَّا كناها، وأجمل ما فينا، منا، الخريف بداهة. الربيع طبعًا يَغار من الأصص عند مدخل الدارة. أسلس من الهواء يحف بثوبك يصبح. ترتفع الأصص إليك وماء الإبريق يَنْدَلِق عليها سقياها من عينيك كي ترينها تراك. الشتاء في «نويي سورسين»، كما في باريس الضاجَّة، سبع سموات طباقًا من الرماد، حبال غليظة ممدودة من السماء تلف الأعناق. لكنه رماد مَفْرُوك وصائت. غبش ملح في الصباح لكن مضيء في الدواخل. قدح من نبيذ لشريحة في الظهيرة. وفي الليل يكفي كونسيرتو لدخول خدر الحبيبة، فما أجمله من

رماد. وأعرفه رغم هذا الحسن يَغار من فحيح سيسمعه بعد قليل، متلصصًا من العتبة. جهنم الداخل، هنا، أبرد أسلم، من حريق تلك البلاد. رويدًا، رويدًا، تَسلَّلت النغمة من أقصى الردهة. هذه نغمتنا وحْدَنا من إهداء شوبان كل مساء قُدَّاسًا نُهْدِيه رُوحَيْنا لتَتشبثا بالأرض ما أمكن، طالما لا أشرطة أو حواجز تَمْنَع العبور إلى السماء. وهو أمر مختلف عند جارتنا الفتنامية سونغ، التي تعزف دائمًا شيئًا لِبَاخ تَرحُّمًا على ابنها الذي افترسته الإبادة الأمريكية. طبعًا، كان ذلك قبل أن يصبح البيت الأبيض هو الوكيل الشرعي لتحرير الشعوب من العبودية والدكتاتورية، وهلم جرًّا(!) — تقول، عَزْف آتٍ من العالم الآخَر، لو عرفناه. وفي الخارج للريح صَفِير بعد أن تعوي، وهي تُمهِّد، صوت مثل نَحِيب مُتَلاشٍ. وبوسعنا هذه الليلة، في كل ليالي الشتاء، أن نَجُوب دهاليز العالم السفلي، وأن نصقل لآلئ رؤانا بنظرات مُرتَبِكة منها إليَّ مِنِّي مثل يافعين يجترحان أول قبلة. هكذا ينزل الصمت.

اطْرُد كل مَن حولك يلغو وأنت تقرأ هذه الكتابة بصَمْت. القصيدة تبدأ من هَديل الصَّمْت، فإن لَغَت فلا شِعْر لها، وهذا أحدُ وُجوه الخلاف بيني وبين الصراصير. يقينًا أن للشِّعْر ربًّا يحميه، لكني بتُّ أخشى من طول المفسدة. وخروج أنياب الأَرَضة. أعط للكلام شساعة في صدرك، تَنَفَّسه كأنه رِيحُ الصَّبا، وهو كذلك، وليس له من الدَّبُور إلا انتهاء هذا الهالك فيه. وأفسح له في المجلس.

حبيبي تعالَ هنا، فهذا مجلسك. زَيَّنت الميدة المهاجرة إلى السين بصحينات ملؤها زيتون، وفُسْتُق، ولوز، وحَلَمات رُمَّان، ومذاقات صينية، فرَخَوِيَّات كانت مُحبَّبة للإمبراطور ألفريدو. وحملت مبخرة ضاعَ منها المِسْك والعَنْبَر. ولم يكن ينقص كاحلها، وهي تغدو وتروح، غير خلخال زهيرو، ثم إنها انْتَبذَت ركنًا ففتحَت الكِتَاب المعلوم، مِن عجبٍ فَتحَتْه على صفحة بيضاء وهو المكتوب، وقالت: ابْرِ قَلَمَك قبل أن أغلقه، وتعالَ اكتب كَلِمَتك الأبقى قبل أن يَعْبَث به العابثون، فوالله ما إن أوشكت على فعلي أو فعلت حتى فاضَت مهجتي أو مُهجَتُها وغادرت مكانها، رغم أني واصلت بعد ذلك رؤيتها وهي تغدو وتروح أمامي، تارةً، تارةً مُفْرَدةً، مُتجَرِّدةً، أخرى مُتماهيةً مع باريسنا لا فِكاك لنا منها ولا مِنِّي، وطَورًا طيفًا بكل ألوان الطيف واختلاجاته، له مُطلَق الحلول حضر أو غاب. له صفاء الصورة، رِقَّة الأثير، شطحة الرؤيا، جذبة المأخوذ عن نفسه، تقاسيم قلبي، انسياب السين، ها، بلادي، غُربتي، الشمس أبدًا، المطر، حتى يهلكني الطوفان.

والآن وقد طاف المنادي بالأحياء، يَستنفِرُهم قبل الأموات، مُعلِنًا، حولنا ما تَبقَّى أو ما هلَك من الأسماء، أعود إليك وما فارَقْتُك قطُّ، أستخرجك نُطْفة الدم الأولى التي وُلِدت

بها ولا رآك أحد إذْ رحلتَ. وهمًا طويلًا، انتظرتك في مقهاك. يجلب لي النادل الفنجان تلو الفنجان فأرى صورتك فيه، وأُكلِّمك، وتخاطبني بعِزَّة البلاد، وكرامة الناس، والسيف على الرقبة متى ينزاح. وتضرب لي موعدًا قريبًا فلا أَتزَحْزَح من مكاني. يعود إليَّ النادل، وقد طال مكوثي، هامسًا قُمْ أيها السيد، سنغلق الآن، وانتظارك له هنا بلا معنًى؛ لأني رأيتُ المشهد بعَينَيَّ هاتين، ومُحال أن يأتي، وهو على كل حالٍ ليس «غودو». فكَّرْت أن أُنَبِّهه أننا نحن المسلمين، أو بعضنا، تربَّيْنا ونعيش دائمًا في انتظار «المهدي»، لكني أحجمتُ، فلا هو سيفهم عني شيئًا ولا أنا سأصل إلى مُبتغاي، إن بقيتُ هنا. فقمتُ مُطوِّفًا طول السان جرمان، وعرض الأزِقَّة المتفرعة عنها. فعلتُ هذا في شبابي وما زلتُ والرأس مني يشتعل شيبًا. ما همني أن يلتحق الأغرار بشجرة الأنساب، ولا أن تموء القطط اشتهاءً للعفن. بدت الطريق التي أخذتها نحو نسب الغريب طويلة مبتداها في عروة الستينات، بظهر المهراز، في فاسنا تلك، ومدها بالدار البيضاء، في زمانها الغجري، فصعدًا نحو الشمال الذي أدفأ قلبي وأخرج حلمي من سُباته. هكذا بِتُّ أحلم به. صار شيخي ومولاي أنا المولى ... وفي كل حظوة يغدق عليَّ مِن وَلَه البحث عنه، فأسلك إليه خرائط كل المدن — باريس قلبها — وكلما رأيت قبوًا أو قبرًا أو مطمورةً أو نفقًا أو مبانيَ مُحصَّنةً أو جنائن معلَّقةً أو خيلًا مُسْرجةً أو جموعًا محتقنةً أو موتًا محدقًا أو فرحًا محلِّقًا أو متاريس شاهقةً أو بنادق مُصوَّبةً أو جماجم مُعلَّقةً أو شوارع لأسماء ملفقة أو خيالات أرواح مُعتَّقة أو دمًا هو لي يهرب مني يبغي افتداءه ... قلت هو.

سأظل أقول هو، الضمير الحاضر ما غاب قط سيظل أَناي، ومثلها أنا هِيَة، تلك الغاوية، هي ناري فما أحْلَاها الحامية. سأظل أقول هو أنا هو. هذه سيرتي ومذهبي إلى أن يكتب لي الحب اللحاق به، ولا شفيع لي في العيش بدونه غير قول شَيْخِي أبي الطيب المتنبي في مدحه:

«لا الحلم جادَ به ولا بمثاله   لولا ادِّكار وداعه وزيا له
إن المعيد لنا المنام خياله   كانت إعادته خيال خياله»

٣١ أكتوبر ١٩٩٨م

استهلال الاسم الجريح

(١) الاسم والصفة

أَيُّهما أَجْدَر بالواحد، بالثاني إن شِئْنَا، وألصقُ به، الاسم أم الصفة؟ ما من شكٍّ أن الموصوف يَتقدَّم على الصِّفَة في القاعدة المضطردة، لكِنَّنا نعلم أن الأدباء، والشعراء منهم خاصة، يَخْرِقُون ما طاب لهم من القواعد، وهو حظٌّ حسن وإلا لأصبح الأدب وصفةً مُعدَّة لكل عابر سبيل. هكذا يُعَد الانتهاك القاعدة الذهبية للإبداع، خاصَّة إذا امتلك تَحَدِّيات تماسكه وبهائه؛ ولذلك فهو نادر وفَتَّاك بنُدْرَته، وذاك الجمال، في الخليقة، في الطبيعة، وفي النفوس أيضًا.

على أن مبعث التساؤل عندي فيما سلف يتعدَّى مُحاولة حصر الجميل في دائرة الاستثناء ليقترب بل وليقترن بشرط وجود الشيء، والاسم هنا هو المطلوب بسببه أو بماهِيَّته التي تُحدِّده، وبدونهما يُمسِي لاغيًا أو مُجرَّد فضلة مبذولة في الطريق. ليس الأمر مختصًّا بأي تفلسف يطحن أو يقترن بالمجرَّدات، ولا هو رهن بتهويم تنفصل فيه اللغة عن مراكز جاذبيتها، عن الواقع، والجغرافيا والتاريخ، والذاكرة، والمخيال الجمعي، والخيال الفذ للمبدعين النَّادِرين. لا يحدث ذلك عمومًا إلا عند الذين تَعلَّموا اللغة من الكتب، وأصْبَحوا عبدةً للنصوص الكبرى، والصغرى بدورها. تَسكُنهم وتَتكلَّم فيهم وتعود لتتناسل مُجدَّدًا من أقلامهم بانفصال شبه تامٍّ عنهم، ودون أدنى تَدخُّل منهم.

هذا ما يجعل، مثلًا، القسم الأوفر ممَّا يسمى زعمًا بالحداثة الشِّعرية العربية منفصلًا عن زمانه، لغوًا أو استنساخًا أكثر منه كتابةً، علكًا لسجلات مُقتناة أو مُستعارة أبعد ما تكون عن نسغ وجودها وجَمْرَتها الأولى، وباختصار مفتقرة إلى بذرة الحياة، وبتعبير

البلاغة العربية لا ماء فيها ولا رواء، شأن باقة من الورود الاصطناعية، بإمكاننا رؤيتها، تتصدر صالونات هذه البورجوازية التي لا صفة لها — فهي أكثر من هجينة — وفي الخارج الطبيعة خلَّابة، واللغة مثمرة من شفاه الصبايا.

حين تقترن الصفة بالاسم، وينضوي هو تحتها، لا نقول بأن اللغة عندئذٍ تدخل في علاقة الواصف بالموصوف والعكس صحيح، بل هي تُوجَد كما لو قلت للمرة الأولى، شأن الاسم كشفًا، أو ابتكارًا أو علامة على نبوءة، ما يجعل الإبداع مَرْكَبة جامحة لا يمكن لجيادها أن تُسْلِس قيادها أبدًا لأن مِن مكوِّنات الإبداع رفض سكون الاتصاف، وقَلْب العلاقات باستمرار باتجاه إثراء اللغة/الاسم، بالمحو بالإلغاء، بالنَّسْخ، بالافتضاض، بالإخصاب، بالإنجاب. ما يفتح الطريق للتداعيات ويَقْدَح زِناد توالُد الدلالات النَّاهِضِين على قاعدة تأسيس جديد ليس للكلام وحده بل للمعنى كمُرادف لصيغة الخلق وحمولته. والرُّؤْية المُجددة، المنفردة، هي ذي رسالة أخرى للمخلوقات الخالقة العابدة لإله الخيال، المُمعِنة في جحودها بحكم انتهاكها له في أول مناسَبة لها تِعنُّ. والحق أنها لا جاحدة ولا مُنكِرة، وما هي إلا مُجرِّبة وجودها بتجاوزه، مُمتَحِنة صلابة عُودِها بالارتماء في أول مَهوًى. فالهش والنافل والعرضي وما في حكمه ينبعي أن يزول، ونقيضه وما في معناه منذور للبقاء.

كلَّا، فلا أحد، لا شيء، يبقى، وهو ما لا علاقة له مطلقًا بأية إحالة أخروية أو نزعة عدَمية أو حس تدميري، ومثلها من البراديغمات والمراتب السننية في التاريخ المعلوم؛ لأن ما لا يبقى يستدعي في مسلسل زواله ما يفنيه؛ أي علامات ضموره وأشكال انحطاطه، يليه نتيجة كيمياء واقعية وسحرية وجود آخر تمنحه الصفة للموصوف. وينبثق هذا الأخير ممَّا اقترن به كالفُجَاءة، كالدلالة ليس لها غير دالٍّ واحد، وحيد، منطقي ومَجازي في آنٍ، وهذا بعض الإعجاز.

بَيْدَ أنه الإعجاز الذي يَخِر صريعَ ما هو أكثر إعجازًا منه، وتلك سِمَة أخرى للإبداع. وانظر إلى الاسم كيف هو اسم كامل، مُتَماهٍ مع ما فيه، مُشِعٌّ في هالته، مُفحِم بذاته، ثم وهو جريح كأنه غَضٌّ لم يكتسب من الحياة أيَّة مناعة بعدُ لطراوة عُوده أو غرارة تجربته، أو لِمَكْر الزمن/التاريخ. حين سنَعِي ذات يوم نواميس هذه الكمياء، مُخْتَبِرين بدقة وأناةٍ محاليلها ربما أمكننا فَهْم تاريخنا الثقافي ومنه الأدبي، وربما وعينا لماذا تَتعطَّل عندنا الحداثة لتَتنطَّع شعاراتها، وتعمى الأبصار عن كلِّ حَدَاثة مُمكِنَة.

(٢) «المقهى الأزرق»

وأنت لو نظرت إلى المقهى لوجدتَ الكلمة ذاتها في كل مكان، بالمعنى الذي تُحِيل إليه وهو لا يَتغيَّر، لكن الكاتب المغربي، إدمون عمران المليح يضيف إليه صفة أو نعت «الأزرق» فتراه هنا أصبح اسمًا، دالًّا يحيل على مدلول شامل.

فضاء مكوناته الجغرافيا والتاريخ والرمز والاستيهام، وأنا لم أنسَ الأَهَم من ذلك كله، أعني الإنسان؛ ولذلك يضيف المليح في عنوان كتابه الجديد طباعة وكتابة Le café bleu، يضيف عنوانًا فرعيًّا هو zrirek (ازريرق)، الذي هو صاحب هذا المكان الفريد في «أصيلة». ولو كنت «زيلاشيا» لما وجدت أصدقَ ولا آصَلَ من هذا الاسم، ولا من هذه الصفة، حيث السماء فضاء أزرق منتشرة بأريحية فوق المحيط الأزرق. ومن حيثما دخلتَ إلى الدروب والأزِقَّة انحنى الأزرق يحييك باحتشام، وغَزَل أحيانًا، من الأبواب والنوافذ والكوى، فإن بقي لديك شك من سطوة هذا اللَّون فإنك مُلاقٍ صاحب المقهى نفسه أزرق العينين؛ ولذلك لُقِّب زريرق.

كان ذلك في الماضي؛ أي قبل رحيل صاحبه، وأيام كانت له عادات وطقوس. ورغم استمرار المكان ودوام تلك الطقوس، كأنَّ الزَّمن تَجمَّد هنا إلى الأبد، فإن ما رحل لا يتجدد، ولا شيء غير الحنين يحاول أن يناوشه أو يستعيده حتى وهو يبدو جزءًا من حاضره، مقيمًا ومُعمرًا لفضائه. كلَّا إن ذلك مستحيل، شديد القسوة، فإن تَوهُّم عمران المليح، وهو يقظ في وهمه، متوهم في يقظته، فكل ما سيصل إليه وربما يريده هو أن ينكأ الاسم الجريح، وما أكثرها الأسماء الجريحة. لقد أتلفت الكائن، وهي تتشبث بذاكرته، بمجامع روحه، لتتلف الكاتب وبذا تسمع الدقة الأخيرة للنهاية، كأني بإدمون يتمثل القول الشهير للمعرِّي وهو ينقل خطوات خفيفة الوطء، في المقبرة اليهودية لأصيلة حيث دُفِن آخِر يهودي، ومعه، طبعًا، وُورِيَت، ذاكرة جماعية بأكملها. لكن المليح هو الآخر يهودي مغربي، مغربي يهودي، وهو حي، هو لم يَمُت وما زال يعاني المقبرة ويحمل في جنباته كل الذكريات، وكتابته عن هذا العالم هي الذاكرة بعينها، حتى وهي مَشحُوذة على حد الزمن الآفل، والمرارة المجترحة، ومن دفق الحنين أنينها مسموع، فكيف يتفق ذلك؟!

بلى يتفق وأكثر، ذلك أن الحس المأساوي هو مِهماز التجربة الأدبية، بَلْه الوجودية للمليح. ثم إن إنعاش الذاكرة واستحضارها على صعيد الحنين المحمول بالاسم الجريح، والجرح المسمى (مقهى، مقبرة، ترحيل الشعب المهجر ...)، هذا الإنعاش يَتوقَّف على تجميع أنقاض الحياة والعمر الشخصي والجماعي لتكوين تجربة اسمها الفقدان، فقدان

كل شيء: الأرض، التاريخ، الثقافة، المجتمع، تفاصيل اليومي اللذيذة، الجوار المغربي بتضاريسه الباطنية. فكما في أعمال وكتابات أخرى (المجرى الثابت، إيلان أو لَيْل الحكي، ومداخلات وشهادات عديدة من أهمها في نظرنا الشهادة التي ترجمناها بعنوان «ضد النسيان») انظر («الاتحاد الاشتراكي» بتاريخ ١٨/٨/٩٨)، نجد الشيخ المليح يُوغِل السِّكِّين في الجرح؛ أي وضعية الاجتثاث التي لحقت باليهود المغاربة، فَاقْتُلِعوا من جذورهم بفعل مؤامرة كبرى تواطأ فيها الاستعمار الفرنسي، والأيديولوجية الصهيونية. الأول، الذي بتر لسانهم الأم، أي العربية المغربية والأمازيغية، ثم نفاهم في الثقافة الفرنسية بتغريبهم مُجدَّدًا عن الثقافة الوطنية والشعبية المغربية، ومن ثم سلخ عنهم روح المواطنة بإدماجهم القسري في سلك السُّخْرة والعمالة، بينما تدافع رسل الأيديولوجية الصهيونية وعملاؤها يحاصرونهم بالدعايات والأكاذيب والأوهام، ثم يشحنونهم بعد ذلك كالدواب مهربينهم تحت ضغط دعاوى زائفة إلى «أرض الميعاد».

يستحضر الشيخ المليح هذا الفقدان فيما يعيد تأسيس الذات اليهودية المغربية من داخل اجتثاثها، ومن حفريات أنقاضها، صُعُدًا إلى أركان بنائها، ليصل إلى جوهرة وجودها بين بزوغ وأفول، حضور وغياب، أي بين حَدَّي حركية الجاذبية والانقطاع الآيل إلى الزوال، والمتماهي في النهاية مع الذات الكاتبة. ذات تكتب نفسها، وهي تعيش وتَعِي تغربها في لغة ليست لغتها. لو شئنا تسميتها لقلنا إنها لغة النزع الأخير، بفيضها ولهفتها ثم نزوعها لقول كل شيء خارج الهندسات الاستطيقية المألوفة، لا يقول المليح، إن الفرنسية «منفاي» أو ما شاكل هذا من الهرطقات التي ألفنا سماعها، وخاصَّةً من لدن مَن استخدموا هذه اللغة بلا موهبة أو حس إبداعي بين إنه يكتب بها وكفى، مدركًا للأشواط التي انتزعته من غيرها ومن نفسه، أيضًا، وتراه بدل الانغماس في مرثيات بائسة بهذا الشأن يقوم بما يشبه التَّبنِّي لها، وذلك بنقلها إلى سِجلٍّ كتابة مختلفة، وهكذا لم تكن قضية صاحبنا هي تملك هذه اللغة وإظهار عبقرية استثنائية فيها، بل طرح سجل لكتابة دَوالِّها الأليغورية، ومدلولاتها المحمومة والمتشظية مَقدوحة كلها بزناد فُقدانٍ ثابت، لا يبرح، لا يورث الفجيعة ليتوقف عندها، ولكن لِيتمَدَّد ويتناسل في سلسلة من الانشطارات الناجمة عن جرح ينز ولا يتوقف. لا بُدَّ أن تصبح الكتابة، والحالة هذه، مساحات ملغومة بالمناورات والاختبارات، لا اعتراف فيها لقوانين الدليل المعهودة، وقانونها الجديد ينهض على مبدأ نسخ ما سبقها ونقض ما تُؤسِّسه بنفسها. فلا تَستغرِبنَّ من صاحب «المقهى الأزرق» تسفيهه لمفهوم الجنس الأدبي أو انزلاقه بين المفاهيم المحتملة لكل تجنيس جديد،

فالكاتب، حين يكون كذلك، وليس أي كاتب، أكبر من الرهانات الظرفية للأدب، وهو يطول قامته دومًا بتجاوزها والتطاول على كل شيء. له لغته المفردة بين جميع اللغات، وله بلاغته كعلامة مائزة لشعريته التي لا يمكن بأي حال أن تكون مشوشة أو بين بين. وله، بعد هذا وذاك، رؤيته ورؤياه، بها يكون أو لا يكون الشيخ المليح سيد هذه الخصال، ومبدع فيها بجدارة، وإن أردت معرفة بعض السر في هذه المكانة فاعلم أن مرجعها نهله المستمر من اسم جريح، وللجرح أشكال وألوان وتجليات لا تنتهي.

(٣) آخر الأسماء

... أو تنتهي قليلًا، قليلًا. مُنسحِبَة من ضجيج العالَم، ومَواقع الرَّكاكة والسَّفالة اليومية؛ لهذا أجدني مُتضامنًا بقوة مع قوة الانسحاب الإيجابية، والفورات الداخلية المُحتَقِنة بِغضَبها تنظر إلى ما حولها بازدراء شامخ: إني أراهم وأسمعهم لكن بصري وسمعي يرتَدَّان إلى الخلف، إلى أعماقي حيث أحباب قلبي وكلهم كبار، وسادة، ولا أحد فيهم وضيع. هؤلاء ماتوا أو يصمتون ناشرين حولهم ابتسامة جميلة منفردة بلغاتها وتأويلاتها. هم جميعًا ما طلبوا شيئًا من أحد، ومن لحمهم ودمهم صَنَعوا سلالم المجد للآخرين، يا لهذا المجد(!)

وإني لأسمع أصواتهم تستغيث، وهي في شغاف السماء، ألا اتركونا نستريح في سكينة موتنا، ولا تطوفوا بنا في البلاد، حتى لو كانت، إرم ذات العماد، وبيس من يعلقنا اليوم على صدره أو بيته شارةً، وقد كُنَّا عنده بالأمس عاهةً. ها، انظر إلى جرحنا فهو ما زال لزجًا في الأيدي، حارًّا على الألسنة، وفي شفاهنا أطيب من العنبر، اتركونا في موتنا، واذكرونا، رجاءً، فقط، بهذا العنبر.

١٤ نوفمبر ١٩٩٨م

استهلال دجلة

قلتُها، أعدتُها، وأنهكني القول، لم أسمع مَن يستجيب لقولي، من يَتشرَّبه، من يتفتح من مَسامِّه، منها ينبت بالسنابل، فنحن والله عِطَاش، ويَضُوع بعدها بالرياحين. شُغِفتُ بالماء منذ صباي، واستهللتُ به دائمًا بعد البسملة، وإلا فكيف تتم الطهارة بغير الماء؟! لم يكن هذا افتراضًا مني، ولا احتمالًا أدفع فيه واحدة من رغبات انعتاقي، ولا هو نزوع للتطهر من «أدران» متلاحقة؛ إذ لا معنى أن تعيش في حياة كهاته ولا تَتدَرَّن. الاحتمالات أسكنها في عُش من أعشاش الليل حيث تبيض بهدوء وسكينة، وفي النهار أطلقها كي تقارع الكوابيس والأنذال. وأظل أستجمع صوتي بين هذا وذاك، مبحوحًا أو مُحشرجًا، إنها حشرجة الحياة لا الموت المُقمط جثث العابرين، اللاهثين خلف ظلالهم المكسورة ابتغاء مرضاة الفضائح اليومية المُعلَنة. أستجمع جسدي المنشر أذرعًا متقاطعة بين القارَّات، المنتشر مكتومًا في القناني المُغلَقة بين بحار الدنيا وأنهار البلدان، ألاطم بين الموج والانسياب، دافعًا بمجاديف فتنتي المُطلَقة النهر ليستحم في البحر، وهذا لِتتلألأ زُرقتُه تحت الأهداب المكحولة لحُبَيباتي — هن سَمَّيْنني، غسلنني، نفينني، غربنني. وحين استويت على سُدَّة الوجد صَرَعْنني، «وهُنَّ أضعفُ خلق الله إنسانًا». لكنهن ما لبثن أن عُدن ليمددنني بإكسير الاستهلال، وقد هَلَّلن على أطياف ورد، فطَوَين النهر، تلو النهر تَسارَرن به، وفي غفلة من جسدي خَفقَت منهن الصدور واهْتزَّت الأرداف، فما ملكتُ إلا أن بايعتُهن أميراتٍ عليَّ، وربَّعتُهن في المقام الذي لم يوصف بعدُ، واللغات، البلاغات، حَيْرى راعشة، خاشعة أمام مقامه، وإني، مذ ذاك، والله عالم بعطشي، سادِر في غواية الماء الذي ما انفك يراودني عن مائي ويُطوِّح بي بين الضفاف.

بدأ ذلك في عام بات بعيدًا، في العقد السبعيني الأبعد. حين كان للوقت بُعْد طَيِّب ولون وهدير. لم أكن أعرف من الماء غير بحر لمدينة سُمِّيت قديمًا بالدار البيضاء، وبحر

آخر في شمال البلاد قُرْب تطوان، سبحتُ فيه مِرارًا على مرأى من المجاطي الحذر، وهو منشغل بدوزنة التفعيلة. ثم بحر آخر في شمال الآخر، حيث رأيت للمرة الأولى نساء منحوتات من العاج والمَرْمَر فذهب بي خيالي أنهن خارجات من الجنة إلى أن ابْتُلِيت لِأُوقِن أنهنَّ من هذه الدنيا الفانية.

وفي الطفولة الأبعد جدًّا كانت العائلة تكدس في سيارة الستروين الكحلة، وينقلنا السائق عَبْر الطريق الزراعي من برشيد إلى أزمور لزيارة مولاي بوشعيب، ومن الضفة تحت السور نركب القوارب للعبور نحو عائشة البحرية؛ أي قرب المكان الذي يذهب فيه النهر لِيَستَحِم في البحر. كنتُ أَعبُر ولا أعرف بعدُ كيف أنظر، كيف أبصر، لا أدرك ما الماء، ما زرقة البحر والسماء، من أين يبدأ هذا، إلى أين ينتهي ذاك، فما الأصل والفرع منهما؟ نهر أم الربيع تحتي، حولي، وعلى امتداد ناظري يتوضأ ليصلي للمرة الألف وكأني لا أراه. بعد وقت فطنتُ إلى أن برشيد، من دون رحمة الله، كانت خِلوًا من أي ماء. وحده النصراني السيد دويس وجدت عند مدخل مزرعته بركة كنا نحن، الأطفال المشاغبين، نجرؤ على السباحة، أو بالأحرى الخبط في مائها الموحل، قبل أن يَتهدَّدنا الحراس والخماسون بمداريهم مسبوقين بنباح كلاب مُفترِسة حقًّا. فَطنتُ بعد ذلك إلى أن الشاوية كلها وفي شرقها لمداكرة وامزاب، وجنوبها أولاد سعيد، وفي قلبها برشيد. طبعًا. ليس فيها وادٍ ولا نهر واحد، وفكَّرْت أن الحروشية أو ذلك النوع من البداوة المتأصلة التي تطبع سكان هذه المناطق ربما تعود إلى هذا الغياب. وما هَمَّتْني صحة هذا التأويل بقدر ما قضيتُ زمنًا مشدودًا إلى عيطة شعبية تَتردَّد فيها هذه العبارة: «را من الواد الهيه، كاع راشق ليه.»

أما ما كان من علاقة أولاد حريز بما يُسمَّى بـ «الرشوق» فلا يختلف فيها اثنان، فيما بَقِيتُ أبحث عن الوادي وأرسم له في خيالي ألف شَكْل وموقع إلى أن هداني من الأصحاب عبد الرحيم لمزابي، المعروف باسم «ولد العلوة»، والذي يُعْتَبر مقطوعة «الغابة وامَّاليها» من إبداعات الموسيقى العالمية؛ إلى أن هداني إلى سواء السبيل قائلًا: «إنك في وادٍ، والقوم في وادٍ آخَر، والرجوع الله أولد الفقيه!» فكان له ما أراد لأني، تدريجيًّا، رجعت إلى ما ينبغي لي، بعد نزولي طويلًا بوادٍ غير ذي زرع، وانتقالي إلى ذلك «الهيه» حيث الكل «راشق ليه»، لكنه رشوق من نوع آخَر.

قلت إن ذاك بدأ منذ العقد السبعيني الأبعد، حين كان للوقت طعم الحب والنَّخْوة والعرب، رغم انكسار الأرواح على أرصفة البطش والهزيمة. حَللتُ ببغداد ليلًا فرأيتُ

الفَرْقَد أو الفرقدين. عجبًا كيف يَتَّفِق هذا وأنا في بلاد ما بين النهرين، أهي الكرة الأرضية انقلبَتْ رأسًا على عَقِب أم تراني المُنقَلِب؟ لا هذا ولا ذاك، فقد رأيتُهما، وحفَّا بي في سيري، واحد عن يميني والثاني عن شمالي، وارتَجَّ بصري مِن تنقله بينهما، ووالله منذها ما زلت أهتدي بهما إلى طَوْر هذا العمى والظلام المنتشر حولنا.

فلو سألتني كيف؟ أجبتُك أن نهرًا اسمه دجلة عَلِم بخبر عطشي وتَكهَّن بوصولي، وكان قد توضأ واستخار، فحمل مَجراه كله من جنوب وشمال وغَمر الأرض كلها لكيلا أمشي إلا فوق مائه، وما قصده الطوفان ولكن إغراقي بِحُبِّه. وقد غواني واستهواني حتى بِتُّ إذا شطَّ المَزار، واشتدَّت الصَّبَابة، لا أكرع إلا من هواه، وبَعْدَها صار لي الفَرْقَد أهتدي به في المدى الأجدب. وعن شماله وردة الطيف رأيتُ سوالفها تسرح بحي الوزيرية، فتَثَنَّت وانْحنَت تحتي جدولًا، ولامَسَتْني كصوت الخرير. فهل كنت، كان يريد احتساء دجلة أم عبور النهر أم امتشاق النظرة، أم هي الأزِقَّة السُّفلية لهذه المدينة تلوب في أضلعه، وتخيط بين أرصفتها، وصخبها الجنوني، وبين مَسامِّه، سلالم للعبور، نحو ماذا؟ هو لا يعلم، فهذه المدينة الشهوانية، الغَجَرية، الدموية، العباسية، الممتدة مثل غابات خرافية، وأحلام بلا نهاية، بعُنْفِها الوردي، وأشجانِها الهادرة، منفلتة دائمًا حتى لو حَسِبْتَها مضمومةً في جُمْع يدك تَمتلكُها، فما هي إلا هُنَيهةً لتنتشر رعودًا وتدور في الأجواء. ثم عادت فأشاحت النهر عن وجهها وتَرنَّحت بين نهريها «وحِرتُ عند مُشاهدة جمالها، وشغلني حُسنها عن السلام عليها وسؤالها، فوقفتُ ذاهلًا، وقد أصبح سحبان بياني باقلًا، فابتدرتني بالتسليم، وابتسمَت عن مثل الدُّر النظيم، وقالت: كيف وجدتَ نفسَك بَعْدَنا؟ وهل شكوتَ بعدنا أم هل عندك شيء ممَّا عندنا؟ وهلا أحسنتَ تلقينا؟ وكيف دُهِشتَ حين قدمنا؟ وهل عدمت الجلَد كما عدمنا؟ وهل غلبك الهوى فلم يجسر لسانك؟ أم هل استولى عليك الوَجْد فسلب بيانك؟ فخبرني عن ضميرك واشرح لي كُنْه أمورك».

وكان قد مضى عقد آخَر، تَلَتْه عقد وغصص، وتَغَضَّنَت الروح وطَفَت على جسدي وجسد الأمة القُروح، فلم أَعُد أعرف كيف أخبر ولا بماذا، ولا عن أي ضمير، وأي كُنْه وقد أصبح كل شيء جرحًا مفتوحًا وفضائح في وضَح النهار.

وهبْ أني فعلتُ فمَن يسمع قَولي؟ وما مقامي بهذه الأرض إلا كمقام عيسى بين اليهود، فإن أزحتُ ستارة الغبار، وستارة الحسرة، وستارة الغشاوة، فلن يَتكشَّف لي المدى سوى عن النهر الدامي وقد غاص في لُجَّته الفَرقَدان. كيف لي أن أنطق بغداد بأسمائها وأنا واحدها، أو أُكَفْكِف الدمع عن عَينَي دجلة وأنا مدرارها؟ الغضب اكتمل، والحقد

تَجمَّر، وصوتي سعير ولا مَنفَذ. في بلاد العربان كلها لم أَجِد له منفذًا، ولا استطعتُ أن أعثر لجميلتي على مَلاذ يأويها ريثما ... أوه، ريثما تَتكسَّر أجنحة الغربان، ويلمع في الأفق شهاب. أوه، أدرك أني أهذي وحدي، و«أُغرِّد» خارج أسراب الشَّحَّاذين، والقَوَّادين، وسماسرة الكلام والنَّخْوة البائسة. أُدرِك أني سأظل وحدي لا أقتات من اليَباب، وأن الوفاء للماء مُهْلِكي حتمًا، ولذلك علقت مثل التميمة بين الضفتين، وأعرف أن أكثرهم يَحْثُو التراب ويَلْعَق الأحذية ليبقى أو يكون في وَهْم البقاء. ليس عند العرب، إذن، بِحار ولا أنهار. هي مُستنقَعات وجداول آسنة من عارٍ. تَنكَّرُوا للماء فنَسِيَهم، ولذلك تَنكَّر لي السين حين أشرفتُ عليه قبل أيام. كان كعادته يُواصِل جريانه، فتَلعثَمت بين أشلائي وقد ترامت، وطلبتُ البوح فعَيِى لساني، ومن قرارة فمي المختوم داهمني: «فإن أنكرتُ أمرًا فَسَل قلبك فهو عارف، أو استقللتَ دمعًا، فشاهده دمعك الذارف وقد عرفت حالك أيام البعاد فلا حاجة إلى التعداد».

أبو بادية، أقصد أخي الشاعر حميد سعيد، لم يكن في حاجة إلى أي تعداد، كان هنا عندنا، بيننا، قبل قليل، أبو بادية لا ترحل سريعًا، لا تَخشَ على الفُرات فهو في دمك. وصلَ وجلس ولم يَنبِس ببِنْت شَفَة ثم نشر ابتسامته مُزْنَةً ما أحوجنا إليها في هذا الجفاف. طيب، خبرني: وبادية شلونها؟

– زينة والحمد لله.

– وابنك مصعب؟

– ممتاز، صار أستاذ بطب الأسنان، تَصوَّر!

– وحفيدك إبراهيم؟

– هذا خرافي، في الرابعة ويُميِّز بين عَزْف موزار وصوت القبانجي!

– وأنت اشلونك؟

– صَمت، صمت. ثم، كلش زين والحمد لله.

– أقصد البيت، الأهل، كيف تُدبِّر أمورك في زمن الحصار، وأنت لا تستطيع أن ترد الأفواج التي تطرق دائمًا بيتك؟

– تعرف، إذا كان على هذه الناحية، بسيطة. تعرف، نحن نغمس خبزنا في الألوان والأشكال والصور. أنت تعرف بيتنا زين، تذكر هاي اللَّوحة اللي على يمين الصالون، بِعتُها وعِشْنَا بها شهرين، وبِعتُ الثانية والثالثة، وأم مصعب تزعل. وقلبي أيضًا، لكن شنسوي، هاي هي، ومستورة والحمد لله. ولم يكن أبو بادية يُكابِر. ما عرفْتُه مُكابرًا أبدًا،

هو هو. ما أغواه الجاهُ ولا المال وقد فاضَا أنهارًا حوله، ففاض على الناس بدلًا من نفسه وشعره، هو الذي يمتلك أسلحة الحب الشامل.

بعد دقائق أو بعد ساعات، لا أذكر، انتبهتُ أني لا أُحدِّث إلا نفسي، وأواصل بالحق والحجة هذياني، وأن حميدًا طيف هنا وعربي كان مُتعجِّلًا من أمره يخاف أن يفوته سماع الأذان في بغداد وليس إلا بغداد، ورأيتُني بعدها أَصُب في قَدَحي شيئًا من دجلة ثم أَتَّجِه حيث مرجانة لأنتصب مكانها أو لعلها هي من أتَتْ وصَبَّت لي في القدح بدَل الجِرَار المثقوبة ... «فحين بلغتُ إلى هذا المقام ... رَعَدتْ راعدة ... فانتبهتُ ولا مَحبوبة ولا مُدام، ولا أس ولا خِزام، فعجبت من قوة الخيال، واستمرار هذا المحال».

٢١ نوفمبر ١٩٩٨م

آخر استهلال وَرَدَ على البال

(١) سبب الوصل

لم يكن ذلك مني لهوًا، ولا تَزْجِيةً لوقت وكلام. كان الصيف قد انتهى، أو بَدا أنه قد تراجَع في بلد آخَر، من حيث أَتيتُ في الشمال، والغابة ذاهبة إلى البحر أو عائدة منه، وأنا أيضًا لا أتعب من لعبة الذهاب والإياب، بل هي الورطة نفسها. هنا كنت أمشي فوق خشخشة الخريف أقصد استهلاله وقد حن الشجر إلى ألوان مشاعره المكتومة فأسرعت الخطو لأتخلص من عُصاب الذكرى.

ها أنتَ ذا ستسقط مرة أخرى صريع ماضيك، والحاضر المغشوش يفتح فاه ببلاهةٍ ومَكْر. أسرعتُ عساني أجد خريفًا آخَر في انتظاري فأخبرتُ بأن الفصول هنا تُطِيل مقامها ولا تُغَيِّر جِلْدها إلا بصُدْفة أو قرار مُبَيَّت. أخبرتُ أيضًا بأن الشمس عازمة على أن يَمتدَّ ضَوؤها أطول وقت ممكن في مساحات السماء الزرقاء، وهي التي عاشت عقودًا مَديدة تَتعرَّض لغزوات قادمة من كواكب مُظلمة. لم أكنْ مُتحمِّسًا كثيرًا لشمس تَطول فوق رأسي، فرغبة التبديل كانت وما تزال تَحكُّ جلدي، وهي الرَّغبة ذاتها التي تَعتَريني وأنا على أهبة الكتابة: كمَن سيبدأ من البداية وهو الذي اجتاز البدايات كلها، سَهْلَها وَوعْرَها. كمَن أوكل إليه إعادة ترتيب بيت الأبجدية وقد عَبَث فيها العابثون، وتَطاوَل في جَنباته المفسدون، ومن شأنه الهسيس صار اليوم يبغي الصهيل، ويعلم الله أن الحناجر ليست سواسيةً حتى لو كبرَت الأشداق وانتفَخَت الأوداج، ووُضِع عمرٌو مَقام زيدٍ، فيا لَبؤس الأبجدية بين البداية! وها نحن أمام فرجة النهاية، ألا بئسها!

فات الصيف والخريف معًا، والشمس حيث هي لا تتزحزح ونحن ضجرنا من هذا الثبات، من هذه الرءوس واللحوم المتراكمة كالكُثْبان، من زمن يُشبِه بعضه ولا يشبه ما

نحلم به، أحلامنا تَبدَّدتْ، وها عادت تشبه أحلامها. سنُزَحزِح الكتابة إذن، لابوهم تغيير العالم من حولنا. أوه، هذا أفق حالِم آخر، ومضيعة وقت. ولكن من أجل تَوهُّم أقرب إلى القبول والإدراك. من أجل التَّوهُّم في أننا حين لا نكتب الشيء ذاته، وننسج أفكارنا ومشاعرنا بطريقة مغايرة تتغاير؛ كلما أقدمنا على هذا الفعل «الوقح» فإننا حينئذٍ نَنتصر على العدم، أعني التشابه المُقرِف للزمن والوجوه والمعاني والهياكل والحكايات والأكاذيب وأنواع الاحتيال، وأساليب التآمر، ولغات المَكْر والمُخاتَلة، وترقيع الأباطيل بأطقم وسبحات ناصعة مُعدَّة لكل مناسبة. هنا تتدخل الكتابة، وهذا مكان مناسب لتدخُّل اللغة، لا أقول في معركة وإنما في مناوشات لا ينبغي بأي حالٍ أن تكون محسوبة العواقب. المعارك الآن صارت من اختصاص الدجاج والدواجن بصفة عامة. ماذا تعني يا هذا بالدواجن؟ لكلٍّ أن يختار المثال والموقف الذي يناسبه وعندئذٍ سيظهر الجواب يسيرًا، وسيصبح الانحياز إلى هذا الموقع أو ذاك مفهومًا. هنا يمكن للكتابة، أيضًا، أن تلعب لعبتها بصَمْت مريب، ومَكْر مُتستِّر، وصبر كالحديد لا يلين أو تدخل في فصيلة الدواجن، وهو مُحال عندي على الأقل.

من هنا جاءت فكرة الاستهلال، في أحد جوانبها على الأقل، سأترك للقراء وللذين يقدرون ويهابون فداحة احتمالات القراءة الْتِمَاس الجوانب الأخرى. لو بُحْت بها كاملة لخُنْت ما كَتَبْت كله، لَعَرَّيْته وهو منسوج بصيغة الستر، لفَضَحْته بينما يرتاح أن يمشي في مسالك الخفاء ترافقه رعشاته، بل ولأَضعتُ سبيلي إليه؛ لأننا لا نلتقي إلا في انقطاع سبيل الاتصال، وسبب الوصل، والمراد الوحيد بيننا هو في بقاء تواصلنا مرموزًا في معلومه، ومهموسًا حين يضج القوم، ويلغطون. ها إني أسمع صراخهم ونقيقهم. يظن بعض الناس أن مَعارك حقيقية قد نشبت فيسترقون النظر بِحَذَر من خصاص النوافذ، فتراهم يتراجعون لا خوفًا ولكن من دهشة: هكذا إذن، إنها معركة الدواجن. لا ضرورة لكتابة كاملة، لنصف كتابة ولا حتى لأقلها. لتكن الكتابة استهلالاً فقط، وعليها أن تدحض ما قبلها ولتشي بما بعدها، عليها أن تتشبث باللحظة التي ترمي فيها قذيفة دون أن تراقب مسارها، فهي انفجار متداوم سَلفًا، وكل حاجة لاختبار هذه البديهة يُعرِّضها لتشكيك يضرب هويتها فلا تبقى، لم تكن بتاتًا، ومن هنا أيضًا أصالة الاستهلال، ولنا موعد مع إغراءاته الخَفِيَّة في عامٍ آخر.

(٢) صحفيون وآخرون

في عام بات بعيدًا؛ أي في مطلع المسيرة الخضراء (١٩٧٦م)، وكانت الأمهات بعدُ حبالى بمن سيصبحون جيل المسيرة، وبين عشية وضحاها سيحسبون كل صيحة عليهم. من الرباط انطلقَت القافلة الأولى المُكوَّنة من السياسيين والخبراء والصحفيين إلى مراكش، القاعدة الأولى للانطلاقة. وصل وقتها عدد كبير من الصحفيين العرب والأجانب إلى المغرب، وانضم إليهم المغاربة الذين لم يكونوا بالكثرة العارمة لهذه الأيام، ولا بهذه الوجوه القابلة لتبديل ملامحها في كل حين. المهم أننا وصلنا جميعًا إلى مراكش، حيث نقضي أو ينبغي أن نقضي مُعْظَم الوقت نتسقط ونَتحَسَّس الأخبار والتكهنات في مواقع حساسة بها، ونعود مساءً إلى القرية السياحية للمكتب الوطني للكهرباء لنَتبَلَّغ ببعض القوت ونَبيت الليل. بعد مرور كل تلك السنين ما زلتُ أتذكر كيف كان الصحفيون الأجانب يعودون إلى القرية مُسرِعِين فيقصدون غُرَفَهم لينكبوا على صياغة أخبارهم أو تحرير مقالاتهم عن التَّوقُّعات المحتملة، يفعلون ذلك كلما تأتَّى لهم، لا يلهيهم جوع ولا عطش، ولا نُعاس، إن غلب، فإن بقيت لهم فضلة من وقت نزَلُوا إلى المطعم ليجدوه قاعًا صفصفًا، ولو بعد ساعة واحدة من نشر خُوانه.

كنت أراهم من نافذة غرفتي أو أنا غير بعيد عنهم يعودون خائبين وهم لا يفهمون كيف تختفي مئات الطيور من دجاج وفراخ ولحوم ضأن وعجول في ساعة واحدة، وليس في المكان غير الصحفيين، غير هؤلاء الصحفيين العرب القادمين من كل حدب وصوب، وكنتُ أسمع الأمريكي بيتر يُردِّد بسخرية: «لا شك أن المقالات السمينة التي سيكتبون سيُسْمَع لها شَخِير حتى تلك العواصم!» كان منظرًا مضحكا حقًّا أن ترى يدًا تمسك بصحن تتسلطن فوقه دجاجة كاملة، واليد الأخرى تمسك صحنًا آخَر مُغطًّى بالخضار والفواكه والأجبان، وبينهما الصحفي العربي يرقص أو يترنح كأنه يحاول السيطرة على توازن المسيرة التي كانت في مرحلتها السياسية وخطوتها الأولى. وفي مؤتمرات وندوات وملتقيات وانتخابات عربية في مختلف العواصم المشرقية والمغربية، ما عدتَ تُصادف تقريبًا سوى هذا الخلط العربي الهجين من كُتَّاب وشعراء مزعومين، مُتْخَمِين حتى الرقبة، وفيهم مَن يحاول التعرف على أُنثى الذُّباب مِن ذَكَرِها، وهم يَشقُّون ببطونهم مسيرة من نوع جديد تُغْني عن كل ما عرفته الأمة من قبل من أمجاد وفتوحات.

وبالأمس القريب كنت في سفر في وفد عظيم، ولمهمة جليلة حقًّا. والأرجح أني لا سافرت ولا اختلطت بأي وَفْد، فهذا ممَّا بات يشق عليَّ ولا أتحمل عواقبه، دليلي أن الوفد

اشتمل أو اختلط به رهط من الصحفيين، وما أنا إلا كاتب قد قدرت عليه هذه الكتابة التي ليس من ورائها طائل. وقد رأيتُهم والأرجح أني تخيلتهم وقد وصلوا إلى محجهم انصرَفُوا كما ينبغي لهم إلى مَهامِّهم يُتابِعون المهمة في تفاصيلها الدقيقة، ويعالجون ما يرون ويسمعون بأوراق مُتمَكِّنة، مهمتهم التعرف على البلد الجديد، وقادته وسياسته، وعلاقاته ببلدهم، لا يشغلهم عن ذلك شاغل من تُخْمة في الطعام، أو الشراب، أو لهو وعبث أو تَبضُّع، أو أي رغبة عارضة من قَبيل التَّعرُّف على نوعية «اللحم» البلدي إلخ ... ثم عدتُ فرأيتهم وتخيلتهم على شاكلة أخرى، أي إنهم وهم في الوفد العظيم، ومن أجل المهمة الجليلة كان سفرهم، لا اتصلوا بهذه المهمة ولا عالَجوها بأي صورة، وكان شغلهم الشاغل حقًّا على خلاف ما يمكن لأي امرئ طبيعي أن يرى في الحالات الطبيعية من تدبير الله لخلقه. والحقيقة أنهم بَلَغوا حظًّا من الشيطنة لا بأس به إذ اختاروا واحدًا منهم ليكون عينًا على ما يجري فيسرد عليهم في حلبات الطعام والشراب الطويلة أهم ما التقطته عينه الفاحصة، وبلغ إلى سمعه «المرخى»، ومقابل هذا المجهود تزويده بكمية من المشتريات وحصة من البضائع كيفما كان نوعها وثمنها، والتي تُعَد في الواقع الدُّرَّة المكنونة للسفرة الميمونة، وبذلك تحصل الفائدة للجميع، وتتحقق أهداف التعاون والتبادل بين بني البشر بأيسر السبل. وقد تَخيَّلت بعد ذلك أفرادًا عديدين من وفد حملة العلم والقلم قد ضاعوا في المتاجر، والمخازن، وبين السلع والبضائع. ومنهم من كان غليظ القلب فصار بقدرة قادر ناعم الملمس كالحرير، بل ويهذي بالحرير الحريري، والحق لا أعرف أي الصُّورَتين أُرَجِّح. ما رأيتُ أو ما تَخيَّلتُ. ما كان أو ما قَدَّرتُ، وعلى كل فهذه إحدى خواتم وفَواجِع هذا الاستهلال الذي لم يخطر على بالٍ.

(٣) سحبان الصيني

وآخر استهلال ورَد على البال ما أوحى لنا به هذا الولد القَوَّال الذي تَعرَّفْنا عليه في الشرق الأقصى، أي في زيارة قُدِّرَت لنا إلى بلاد الصين، ورأينا فيها عجائب وغرائب نأمل سردها في يوم قريب إن شاء الله، والغاية العاجلة إطلاعكم على سعادة غامرة مشوبة بدهشة ما عرفنا كيف نخفيها ونحن نَتلقَّف كلام الفتى الصيني، وهو يتوسط بيننا وبين كبار المسئولين والعلماء، والباحثين ومحافِظي المتاحف، وبين دنياه كلها، فينقل إلينا قولهم وعلمهم ومنطقهم وتحليلهم ودبلوماسيتهم ورموزهم، ينقلها إلينا نقلًا وفِيًّا، مُعلنًا ومُضمرًا، مُعينًا ومَجازًا، كما ترد عبارتهم وحيث يُحَلِّق مَجازهم أو تطفو دعابتهم فنرد

منه ومعه الورد الخصب، ومِن فيه الرُّواء الصافي بعربية لا أنقى، ولا أعذب ولا أبلغ ولا أحكم، حتى تقول إنه أفصح من سحبان وائل والعربان الذي يستمعون إلى وساطته هم الأَعْيَى من باقِل. وقد كانوا كذلك حقًّا وأتعس؛ لأن فيهم مَن لم يكن يَتذوَّق جمال هذه الوساطة، وفيهم مَن يُعلِّق عليها بلغة أخرى غير لغته لم يعرف منها سوى فضلاتها. أظن أن الفتى الصيني الأصيل حضر لِيُترجِم إلينا مِن لغته التي لا يَتكلَّم أبناء بلده الأصلاء غيرها إلى لغتنا نحن أو ما افترض أنه لغتنا، أو لأنه افترض أننا أُصلاء، واحترامًا لنا لتاريخنا لأمتنا، واحترامًا للسيادة أيضًا ... لهذا كله جاء ليحدثنا بالعربية، نحن الذين كنا قد انقرضنا وأضعنا الوجه واللسان، وهذا ما كان يجهله شوان أو ربما يعرفه جيدًا، ولذلك ظلَّ يستمتع وهو يقهرنا بعربيته الفصيحة الرشيقة، فما أنبَلَه! وما أَتْفَهَنا!

١٣ ديسمبر ١٩٩٨م

سُرَّ مَن رأى هذا الخريف ... خريفي

خريفي تأجَّل، خريفي تأخر من أجلي

ليس تخمينًا، فهذا احتفال يعتريني ليهيج في حواسي. لا، بل حواسي وحدها تهيج من فرط الرُّؤية، من فرط اللون، من فرط ورق الشجر، الذاهل خارج أي نظام.

كان وقته قد تَقدَّم، وتباعد قليلًا، فنحن اعتدنا أن نلتقي، أو على الأقل أن نَتهامس بين طرفَي مسافة البعد الممتدة بيننا. نعرف سلفًا أننا نمشي ونبسط اليد، الواحد للآخر، مُتصافِحين في البدء بلياقة، فما نلبث أن نختلس بالتبادل نظرات مهتبلة، كنا قد ترامَقْنا أو تَصادَيْنا لبعضنا إثر تراجُع الصيف الكاسح، وتَملْمُل الظل الوارف نحونا. هذا وحده لا يكفي، هَمْهمَت ظلال راقدة في انتظار لقائنا.

شيئًا فشيئًا، وقته، مثل حَنين مُباغِت، وصل، غير أن الصيف الذي تَقطَّعت به السُّبل لم يكن قد غادرني في ميقاته المعهود. استطاب الإقامة عندي، مُتنقِّلًا بين ثلاث سموات، لا تسلم أي واحدة منها إلى الأخرى إلا بقدر ما أسلم لها جسدي بالتناوب: أولى، تُحلِّق أو تتمطط، مثل قطة كَسْلَى، في بلدة اسمها «أصيلا» فُطِمَت على الأزرق، فأمسى كلُّ داخلٍ إليها أو خارج منها يَتلفَّع بالأزرق، ولا يعرف كيف عنها قد رحل أو سيرحل؛ ثانية، تهبط تصعد من أعماقي فأنظر إليها وهي تنزل وتعلو مني طوال سنين من ازدهار العمر خلت، وهي هنا لا تبرح، تطل مُشرَئِبَّة فوق لهفة الصباح وقدح المساء، فتظل تنوء على كاهل باريس بثقل الغيوم، بحرها تخوض فيه السفائن، ألحاظها أم هي أنهرها حيث سبَحت ومن ياقوتها طعمت، ما مضى من العمر وما أتى سيأتي تحت تلك الثالثة، لها اسم نهر، سماء دجلة رَبَّتَت على دهري أناملُ مائها السوالف مَمْشُوطة، رغم لهيب الحرب نفسًا ترسل إلينا من أشواقنا ومن أجلها «جبت هَجيرًا يترك الماء صاديًا».

هذه ثلاث سموات، ولن يتطابق عندي الكلام، سِيَّان الذي فات أو فِي قدوم: هكذا الفصل لن يمضي إلا في لغة أقولها، وهو يأتي دومًا كلما أعلنتُ سأقولها.

قبل أن يدركني شُرودي في هواها سمعتُ الطَّرْق على باب القلب، وعند الطَّرْقة الثالثة سكن الحر قليلًا، فأَخَذَتْني الأرض إلى أعطافها وهي تدعوني إلى الوليمة القادمة.

كنتُ شبعانَ رَيَّان إلا من وجهه، من اغتراف شوقي إليه في أهدابه، من كل ما بي وفيه، فحملت خطوي لرحابه ووقفت ها هنا مثل قامتي الفارعة اعتليتها أستشرف قدومه أو مجيئها على وشك انصرام صيفنا ... الذي طال، ومنذئذٍ تمادينا في الرحيل.

خريفي تأجل، خريفي تأخر من أَجْلي

خمسة عشر عامًا مُتتالية قضيتُها هنا؛ أي تارة في الضفة اليسرى لنهر السين، وهو يخترق باريس من الرأس إلى الأخمص، بعد أن يلتوي بها وتلتوي به خصرًا يَتَغنَّجان، وتارة أخرى في الضفة اليمنى، عندما أسميه شفاه السين، وهي تبوح لسنديان وشجر غابة بولونيا الكثيف بحبها، وأنا شاهد على البوح كل صباح.

سمعتُهما يَتباوَحان بما حسبته يعنيني أو هكذا خمنت:

– هو ذا صاحبنا غادَر بيته في شارع فيكتور هوغو، وإني لألمحه وهو يُحرِّك خطوته في الهرولة الأولى.

– لا شك أنه قادم باتجاه الغابة؛ أي نحونا، أليس كذلك؟

– تلك عادته كلَّ صباح مذ قطن في نويي سورسين، ولا أرى لماذا سيُغَيِّرها اليوم.

– لكن اليوم ليس زمنًا عاديًّا، سنَراه يهرول ويعود ليتوقف ثم يستأنف الهرولة، وهو يملأ خياشيمه بالهواء الجديد.

– تقصد بهواء الفصل الجديد.

– مُؤكَّد، لكن الخريف عنده نظر، أراه فيه يفتح عينيه على وسعهما.

– أجل وهو يسلو جريان الماء، ويَهْوَى التطلع إلى الأشجار، إليك أنت بالذات.

– هو لا يراني، هو يبحث عنِّي وحين يجدني يكتشفني، ثم نراه نحن كالذاهل.

– ذاك طبعه مع أوراق الشجر، أقصد ورق الخريف، في نهايات سبتمبر وصعدًا.

– أما أنا فشاهدتُه مُغمًى عليه أكثر من مرة خلال نوفمبر وفي نهايته يختفي، كما نختفي أيضًا، تحت الماء والغمام.

ذاك الصباح رأيتُ سحابة غريبة، مُمتدَّة في شساعة الحقل الفاصل بين النهر والغابة، عندما نجتاز جسر نويي الكبير باتجاه بولوني وسان كلو، سحابة معلقة، أي فوق الأرض ودون السماء. لونها رمادي ولها عريشات وأغصان، وفوقها يُحلِّق سرب نوارس قادم من جهة الغرب يقترب منها حتى يكاد يختفي فيها، لا تُمَيِّز بياضه، أو تحسبه ظمآن، هبط إلى شغاف السحابة ليرتوي ثم يستأنف تحليقه ذاهبًا أو ذاهلًا مثلي بين أشجار وألوان هذا الفصل المجنون.

تذكرت السحابة السحرية خلفي مستعيدًا نفس الهرولة — وفي خِضَم حركتي نحو ملعب Longchamp لسباق الخيل وصلني بقايا تهامس:

– أَعِدْ أيها الشجر المعشوق كامل مَفاتنك، فهو آتٍ إليك.

– وأنتَ أيها النهر امشط سالف مائك ليصحو في صباحة محياك بعد أن يتدله وقتًا بوجهي، وبألوان هذا الورق الماجن.

– هذا أقل ما يوصف به الخريف هذا العام يا صديقتي، آه مجون القصف والاشتهاء.

– إش ... ش ... ش. حذارِ أن يسمعنا، فهو زهواني، إن كنتَ لا تعلم!

تركتُ نصف عمري خَلْفي حين غادرتهما. النهر والغابة وعُدْت إلى «تلك البلاد» وهي غير بلاد صلاح فائق في ديوانه المعلوم، وفيما يشبه صدفة حَنين تأجَّل، أدركتُ حين بَلغتُه أنه فاتَ، فصِرْتُ مثل تاجر مُفلِس أَعُد أيام غِناي السابق من غير أن يكبر في عيني حاضر أي ثورة مُحتمَلة. نظرتُ أمامي فلم أرَ أحدًا ولا شيئًا؛ لأن عَينَيَّ انقلبتا ورائي تبصران ما يطيب لهما باستعادة زمن لا أعرف هل فاتَ حقًّا أم إنه آتٍ. منذ ١٩٩٥م وإلى حدود نهاية القرن لم أعرف كيف أسميه، وحِرْت بعده إلى أن أنجدني أخيرًا، أخيرًا جدًّا صديقي الروائي الآن روب غريي، وهو يهديني روايته الجديدة La reprise، بعد أن تناخبنا في صحتها شَردْتُ لحظةً أفكر كيف نُتَرْجِم هذا العنوان بالعربية؟ قلتُ إن أول ما يَرِد على الذهن هو «الاستئناف»، لكن غريي يساعدنا ويحذرنا من البداية في عَتَبته المأخوذة عن الفيلسوف كيركغارد، فألان لا يلهو بتاتًا، ولا يترك أي شيء للصُّدْفة أو هوَى التأويل المزاجي؛ تقول العتبة باختصار بأن هناك نوعَين من التذكر: واحد مُلتفِت إلى الوراء، وثانٍ بمثابة تَذكُّر مُتَّجِه صوب الأمام. هذا الأخير هو ما تَنزع إليه الرواية. أنا أسميه «الاستدراج» أي أكثر من الاستئناف أو الاسترجاع.

هكذا وجدْتُني مرَّة أخرى مع تَغيُّر في الزمن والفضاء الذي يُؤويه ويؤويني، أُواصل الهرولة وإنْ بسرعة أهدأ بكثير من الماضي؛ قُل بحركة من يدفع جسمه في قفزة خفيفة

إلى الأمام كَمَن يثب، أو يجعل من الوثب المُسترسِل رياضته المُفضَّلة. صحيح أنني الآن في الأسبوع الرابع من شهر نوفمبر من سنة ٢٠٠١م، وفي Champ de Mars (حديقة أو حقل مارس) بالدائرة السابعة بباريس، بين «المدرسة العسكرية» التاريخية جنوبًا و«برج إيفل» شمالًا. من المؤكد أنه وقت آخَر، لكن المكان والفصل يُحيلانني إلى زمن آخَر لا أقول مضى. كنت قد وصلت إلى هنا قادمًا من «تلك البلاد» حيث الشمس قرَّرت الاعتصام في السماء إلى ما لا نهاية، بضوء يُعْمِي الأبصار، والأرض ترابها عاف لونه وخطَّت فيه تجاعيد.

الأيام هناك عارية، وبلا ألوان، والليالي ظلام بلا أحلام. كالمُتعطِّش إلى البحر، ولهفتي هي للخريف، نزعت ثيابي بعد وصولي من المطار إلى البيت توًّا، واستبدلتُها باللباس الرياضي. في ثوانٍ عبرتُ الشارع لأصبح في قلب «حقل مارس» ها ... ها ... هكذا! نظرتُ إليَّ في مرآة الزمن والطقس فرأيتُ شخصين يخرجان منِّي ويعودان مُقتربين من جديد ليندمِجا في الجسد الوحيد الذي أحمل: ثلاثة هم: الأول، من «نويي سورسين» والثاني من «هناك» قادم من فجوة الحنين الفائت، والثالث جماعهما، وهو الذي يستنشق الهواء ملء خياشمه الآن وينظر مفتتنًا بما حوله.

هو الذي رأى

لا أفكر في هيئتها، ليس في هندامها أو شكلها، في التعبير الذي تعطي لوجهها فقط، وكأنَّها تعرف ما في خاطري فتداورني أي تلاعبني: ها أنا ذا في حديقة مارس أهرول بخفة. أهرول رشيقًا بعيني لا بقَدمي. ساقاي ترتفعان بالتناوب من على الأرض وتهتزان واثِبَتَين ولا أعرف متى نَزَلَتا إن هما نَزَلَتا حقًّا، فاللون بل الألوان تسرق بصري. قلتُ لك يا الفقيه عبد الرحيم إن النور شعشع ذلك الصباح. أقرب إلى الأصفر وليس هو. أشحب من البرتقالي وليس هو. يوشك أن يجاور الليموني ويبتعد. يشبهه الذهب وهو أصفى وأرق. فيه بعض صُفْرة من حاجب الغروب قبل أن يَتضرَّج بحُمْرة الخجل. كنتُ أهرول بعيني فوَقَعَتا عليها: هيفاء، فرعاء، مصقول عوارضها، والصباح في أوله، فتداهمه وتزاحمه بلون أوراقها شجرة تضيء النهار فيأخذ لونها تباعًا إذ تعدي بقية الأشجار. وأمامها عُمَّال الحديقة يمشون الهُوَيْنى وهم يقومون بتقليم الأغصان وحلق رءوسها لتستوي من علٍ، فتوقفوا وقد انتفضت فوقهم بعض الأغصان بعصفها. وحين مررت أمامهم تبادَلْنا التحية بأصفر الغروب وألوان قُزَح. لعلهم فَهِموا رغبتي في أن أتمرَّغ فوق سجاد الخريف

الورقي، اليوم وغدًا أيضًا. أجلت هذه النزوة لعام آخَر وطَفِقتُ أمسك بورقة من هنا وثانية وثالثة من هناك. بعيني أمسك لا بيدي، فاحصًا اللون، مُتشرِّبًا الوشم الأحمر المتخلله. ظهرت لي أساريره منشرحة، وداخل السياج المحيط بحديقة الأطفال وقفت في الوسط متبرجة بينما الصِّبْيَة العفاريت يتراشقون بالرمل، وهي لاهية عنهم بكسوتها الثملة.

أنا متأكد من أنني شاهدت ما أصفه الآن في نوفمبر الأخير هذا، وليس سنة ١٩١٠م حين رسم كلود موني ... نيلوفر. وهو ما لا يمنع من أني رأيته مُقبلًا نحوي بعد أن عبر جسر الكونكورد، متمايلًا تحت البرج وبين ألوانه المرتعشة بفعل ريح خفية، وحين أصبح على مبعدة خطوتين قُبالتي حرَّك قُبَّعته بإزاحة لطيفة ومضى، ثم ما لَبِث أن توقَّف ليفاجئني بقوله:

– ياه، ألم نَلتقِ قبل اليوم؟ بلى ... لكن أين؟

– أوافقك، ربما في الكابستان.

– آه، طبعًا في مطعم الكابستان، سنة ١٩٩٢م وفي الكورنيش، من جهة حي العنق بالدار البيضاء. أتذكر، وكان الفصل خريفًا.

– لكنك نسيت الأهم يا مسيو موني!

– كلَّا، كيف أنساها، وأنت جالس قُبالتها، وطلبتَ من النادل أن يجلب كمقبلات مويجات إلى صحنها، وأنتما تَتعشَّيان تحت لوحتي، أقصد في ظلال عريشة تتهادى فيها إحدى نسائي فوق الأرجوحة.

– ونحن أيضًا نتهادى في تضاريس ألوانك حجبت كل ضوء غير ضوئك.

وبينما أنا على وشك الانتهاء من دورة الهرولة الصباحية، مقتربًا من جدار السلام الزجاجي، المنصوب منذ عام جنوب «حقل مارس»، أي قُبالة المدرسة العسكرية، الرمز النقيض لحضارة الطين التي ينتمي إليها إنسان مغربي قديم من بلدة كولمين يدعى علي أنوزلا، عاش بين الألفية الثانية والثالثة وعرف بإعجابه الشديد بالبناء الصلب لهذه المدرسة؛ بينما أنا كذلك لَمحتُ روب غريبي بقامته الفارعة وقد تقوَّس ظهره قليلًا تحت كاهل الثمانين عامًا، وهو يُطوِّق بذارعه الطويلة زوجته كاترين، الضئيلة بقامتها القصيرة. مرَّا أمامي فما رأياني ولم نتبادل أي تحية وانصرفَا كما في حلم.

حاولت أن أتأكَّد من ملامحهما فإذا هُمَا فعلًا ألان وكاترين لا سواهما، رغم أنهما موجودان الآن في منطقة النورماندي يُصْلِحان من حال ضيعتهما الجميلة بعد هَوْل تلك العاصفة الشنعاء.

داخَلني الخوف من أن أكون قد أصبحتُ في لا مكان ولا زمان، ولا فصل، لولا أن ألوان موني شرعت تتساقط من كل ناحية.

هنا، مرة يسقط المطر، ومرة تتساقط الأشجار بقطرات أوراقها. المطر ينزل إما عموديًّا أو مائلًا، مائسًا إن شئت. أما الأوراق فتراها في الحقيقة وأنت لا تراها؛ لأن الإشعاع الصادر منها يُشوِّش الرؤية الطبيعية، فتتوهم أنك رأيت بينما أنت مُلاحِق الضياء الذهبي المنتشر.

غادرني الخوف حين رأيت «ألان» يخرج من الرواية ويعتذر عن مروره السابق بدون تحية، ثم يعود فيدخل إلى الرواية، ويظل متراوحًا بين دخول وخروج، صِغَر وكِبَر، ماضٍ وحاضر، ثم مستقبل فماضٍ، في تلاعب بهلواني (وهي صفة غير قدحية) بأزمنة الصرف، فأضرب براحتي جبهتي التي تبلَّدَت وكأني سأفهم للمرة الأولى معنى «الاستدراج». أظن أن الكلمة في حاجة إلى شرح إضافي؛ لأنها ليست مُفرَدة ولكن حالة، وهي حالة وجودية، وفكرية، وكينونية وتاريخية وسيكولوجية وروائية أيضًا؛ أي مبنية على اللعب، قائمة على مبدأ الخدعة (Le canular) أيها الناقد الألمعي عبد الفتاح لحجمري، وهو واحد من أسباب لتسمية بطل روايتي «الهباء المنثور» أو الرمز إليه بحرف خاء؛ لذلك فإن غريي جَمَع كل أزمنته الروائية وتجارب سروده السابقة — حتى العناوين، وحتى التجارب الشخصية خارج السردية وعجنها بمهارة لا يضاهيه فيها أحد، وبالمناسبة فهو آخِر عمالقة الرواية الفرنسية، ليصبها أخيرًا وكأنها جديدة في شخصية هنري روبان (أي روب)، وقلبها كما قلب معها جميع الأزمنة ليعطي لكل شيء معناه ونقيضه في آنٍ، وبالإمكان عندئذٍ استدراج الزمن والحياة واستعادتهما وهما يتقدمان إلى الأمام، دائمًا إلى الأمام، رغم أن ألان روب غريي يحتفل هذا العام بعيد ميلاده الثمانين، بل وربما لهذا السبب الجوهري دون أن يسأم نظير ذلك الشاعر القديم.

لذلك فالخريف هو خريفي هذا العام وفي الأعوام القادمة.

لا أعرف حقًّا هل شَتات عمري ما كنت أجمع في حقل مارس مع آخِر الأوراق الصفراء المتناثرة، أم بقايا غياب الأحبة، أم هذا الإفراط عندي في الرحيل. لا أعرف لماذا تمادى الخريف في جماله هذا العام، نكايةً بي ربما لسبب يعلمه وحده أم ليذكرني حتمًا بعهد بيني وبين الأشجار والألوان ... ألا أخون الشعر أبدًا، أما الشعراء، لو وجدوا، فذاك شجن آخر.

سمعت محسن مخملباف، المخرج الإيراني في فيلمه الأخير «قندهار»، يَحثُّني على الالتحاق بموكب نسائه، الحائرات، الهاربات، التائهات، القاصدات قندهار في نهاية

المطاف. يدفعني في ركاب غانياته المخفيات، مُلْتَفَّات تحت ألوان طرحاتهن الفاتنة، لا في ركاب الأمريكان ... فاهتاجت حواسي ووثبت خفيفًا، مرحًا، إلى الأمام، وأنا أغني بالأصفر، والأخضر الأمرح، والليموني والعكري، وغنج حب الرمان. وعاد عمال حديقة مارس إلى نشاطهم بعد أن أنهكت الريح ستائر الأشجار، وتهاطلت الأوراق مِدرارًا، معها كنتُ أهطل بين الشعر والمسامِّ، ودفعوا مكنساتهم الآلية وأمامهم عربات كاسحة، ودون أن يبالوا بعمري ولا بمحبتي ...، ها أنا ذا أعترف أخيرًا، وبحماس لا نظير لي به راحوا يحملون رفات الخريف — أم رفاتي، لينقلوه إلى حيث لا أعلم — ليس للخريف مَثْوًى أخير؛ لأنني سأظل لهم بالمرصاد، سأرجع قبل أن أكمل ما في خاطري من أغراض القول. نهنه في وجهي صديقي الذي ظل يرافقني من بداية الهرولة، أقصد كلبي، المخلوق الجميل الشهير باسم البروفيسور «طانغو» أي آخر طانغو في باريس، نَهْنَه، فتبعته أو لَعلِّي تبعتُ صَدى أغنية في بدايتها، لم تَبْكِ رحيل الخريف، واكتفَتْ في صوتها الرقيق بصب هذا الرحيق: «... رجعت الشتوية»(!)

باريس ٥/١/٢٠٠٢م

بِرَسْم الختام: رماد سيرة

حين تسألني عن سر الغياب، أحسبك تفترض الحضور لازمة تَتردَّد مثل نبرة اللحن في كل حين. تلح في السؤال لماذا من وحي حضور قديم تغيب إلحاح فواته وانطواء ذلك الزمن الذي كان يجمعنا حول الألم؟

تمعن في طلب العودة مثل استجداء طويل ومرير، وكأنك تريد استحضار بداهة احتفظَت دائمًا بصفائها وخِفَّة حضورها. لا تفكر من أين وإلى أين، دَعْكَ من كيف، ولأجل ماذا ينبغي أن ندفع أجسادنا لتقف من جديد كأعمدة الكهرباء، فارعة على طول الشوارع وتُسَمَّى أنا وأنت وآخَر، سواء استَحَقَّت أو ابتَزَّت التسمية.

أحاول أن أسترجع هذا الصوت، صوتك، كمن يدفع يده لينبش في صرة تحتوي خليطًا من أشياء قديمة ليعثر، دون أمل يذكر، على حاجة ضاعت منه ولن يعثر. في هذا الوقت، مثل ما لم يحدث أبدًا، تباعدت يدي عن يدي. والصرة كالعمر، كحياةٍ عاثَ فيها التلف، واحتجت أن أكتب هذا:

أخرج مني كي أراني
أضرب صدري برأسي
كي أحس قليلًا بالوجود.
أو بانعدام الكثافة عمدًا
كيلا أراني.
ربما كنتُ سأُوجَد في هذا الافتراض
عندما أرسم وجهي بشكل الهلام.

ليس جسدي مني، ولا وجهي، لا يدي لتبحث في ضِياعها عمَّا ضاع، ونريده قسرًا أن يعود. هذه ليست صورة في بلاغة، ولا ضربًا آخر من مَساحيق الكلام. افترشناه أزمنة وتهَدَّلت من لحمنا خمائله. يجلس في داخلي من حيث أرى قفصي الصدري حاجزًا بقضبانه بيني وبينه. ليس فصامًا البتة، فهو حقًّا جسدي، على الأقل كما عرفتُه حين حَمَلني أو تَحَمَّلني في ماضٍ لا يستعاد. أنظر، فخلافًا لما تأمل لا استئناف عندي. أنظر فلا أحد يتبعني، ولا ظلي؛ لأن هاوية عميقة تفصلني دون خطوات القادمين.

بذا أنفرد بنفسي لنتواجه، وننظر Sans état d'âme إلى الهيكل العظمي لبعضينا، وقياس طول قامَتَيْنَا ونبصم معًا بهدوء وبرود شديدين على قرار التَّغْيِيب الاختياري لذاكِرَتَيْنا: نداؤك لن يصل، وقبله حروفك ستَتَبَعْثر تَبَعثُر أشلاء أُمَّتِك، من حيث بدأت وإلى حيث لم تصل.

أراه مُستقِرًّا بثبات أمامي، في هيئة نحت صلب لرودان، برِقَّة خرساء، كمن يدفع عنه تهمة الوجود في المكان والزمان. لا يتكلم وينطق بإعلان الهَجْر، له أم لي؟ كِلانَا يراوح في اللايدري، فإن درَى آثَر البقاء مُعلَّقًا إلى شعار التَّرقُّب. لا نَكفُّ عن تبادُل النظرات حتى ما ندري أَيُّنا هو الآخَر.

أخشى أن أبوح له يا سليل هواي، وجنون طبعي وارتجاجي الصاعق في المسافات، فألجم لساني، مَعقودًا إلى مَهوى قلبي تهتك بالصبوات، ليتعتق في خمر لغاته — يقيني أنه لن يملك فصاحة هذا الهول العارم.

سأدعوك أنت لتأتي، أما أنا فواقِف أو مُقْعٍ ككلب تحت هذه الشمس العربية الفاضحة، المفضوحة. سأدعوك أنت لتخرق قفص صدرك وتتقدم نحوي فتتسع فسحة النظرة العاشقة، وتوجد كالأول، مثل ما لم يُوجَد بعدُ، مُحلِّقين فوق كل العقائد والمهالك، مُعلنين البدء، هكذا، خذ مثلًا ...

لا تتكلم، ومِن صَمْتِك تهدر الألغاز، بينما الحروف ترميها عيناي على الأديم والجدران فأعجز، أعجز مُطلقًا عن تشكيل فسيفساء الخلق المرغوب/المرغوبة. أخشى أن تكون لغتي قد هرمت، فضاق تَنفُّسها في رئتي، وضعف نبضها في قلبي ولذا هجرتني، ستهجرني وتذهب إلى أبَدِها أو إلى سواي. نظرتي اليوم إلى الأشجار مُحايِدة. الألوان التي رأيتُ بالأمس صامتة الآن. الخريف فاتَ. الرَّبيع حَل، ثم الخريف القادم آتٍ. ربيع هذا العام أخرس. سَمْعي مثله أصمُّ ولساني مَبتور. لغتي أيضًا حروفها متشابهة، ونَبراتُها مُتناظرة؛

ولذا فهي لا تعين ولا توحي. ربما أومأت إلى أوضاع ومَشاهد شاخصة في الفضاء وفي مَرمى البصر.

يقينًا، ربيع باريس لن يغفر لي سلوانه بعد أن عَوَّدته على الغزَل والمداعبة. كَلْبي الجميل والفَطِن «البروفيسور طانغو» لا يفهم ما يجري لنا معًا ونحن نَتجوَّل بِدعَةٍ في «حديقة مارس» كعادتنا كل صَبيحة. أَلِف مِنِّي مناجاة بعض الأغصان، وأن أهمس بكلمة حُنوٍّ إلى برعم سيتَفتَّح، تاركًا له إما التَّبوُّل برشاقة على عشب الحديقة، مُطارَدة حمام يتهادى، وهو يلتقط فتافيت منثورة من أصابع مُتقاعدِين ونساء وحيدات أَزْمَنَّ في التَّرمُّل. لا يرى «طانغو» شيئًا ممَّا أَلِف، فيفلتُ مني مُلاحِقًا زوج حَمَام ربَّما إلى قمة البرج؛ برج إيفل طار إليه بصري، بينما الشيطان قَوَّس عَجِيزته مباعدًا قائمتيه الخلفيتين ليفعلها «ساخنة» عند العمود الجنوبي الشرقي للبرج ويوقعني في ورطة، كالعادة، مع الحارسة المارتنيكية الشَّرِسة.

لا أستطيع أن أتذوق لا من أطاييب النهار، ولا من فاكهة الليل. تفاح سيزان وحده إفطار مناسب لشهية تَشِيخ، لكن ما أبدعه هناك في «المتروبوليتان» النيويوركي، وفتنتهن من الكمثرى والإجاص، الحسناوات، البيضاوات، السمراوات، المتجردات إلا من استدارة الهواء.

عجبًا، فجأةً. كل شيء تولَّى، والمسافة اتَّسعَت أو ضاقت سِيَّان. كل شيء تقريبًا إلا عَراقَة الألم يراودها حَفيف ورق شَجَري مُرَقَّط بما فاتَ مِن الندى، أو سيبقى غدًا من آه غبء عبورنا ما لا يقل ألف مَرَّة جسر IÉNA كي نحرق لحمنا في جهنم شهوتنا، وإثر تَجَمُّد أقدامنا فوق جسر الندم.

عجبًا. لا أقول نعم، لا، قد، أعتقد، لا سِيَّما، شخصيًّا سأهديك، القمر مَهرًا، يَحيا، يسقط، بعبارة أخرى، أُمَّة عربية واحدة، قِفَا نَبْكِ مِن، ذات رسالة، صحتي هي العجب؛ قبل أن يموت البَيَّاتي قرر أن تموت الأشجار واقفة؛ عمر بن جلون أشهد شهيد، في المغرب لا أعرف إلا شجرة توت واحدة وشجرة تِين أخرى في الجبل أعلى غفساي، عجبًا ...

في مظاهرة الرباط، بالرباط، من أجل ماذا أو من؟ آه، إذا لم يَخُنِّي الغبن، كانت من أجل تلك ... الـ... فلسطين. سِرتُ مع الناس، في الناس، كل الناس. لم أحمل لافتة، ولا أغطية، أدوية، أغذية مُهْدَاة من أمريكا إلى السيدة العربية الأولى، في الدولة العربية الأولى، لتهديها إلى أطفال غزة كي يَسمنوا جيدًا ثم تأتي الدبابات الإسرائيلية لتُفْنِيَهم جيدًا. اسمي أيضًا تركتُه في البيت، وحيث وُلِدتُ في صُقْع من أولاد حريز، أيام كان الذكور

رجالًا. حريص جدًّا ألَّا أتذكر رغم وجود «المؤسس» إلى جانبي قادمًا للتَّوِّ من جبل ظهر المهراز، حاملًا في صدره بوخزار القديم. بالحنجرة يتوعد صهيون، وبالعينين، رغم الغبن الفاجر، يبكي عبد الناصر. لا أشم شيئًا، أرى فقط ما يكفي لأتَجنَّب العثور في الآخَرِين. هتافات صدئة مثل الصرير لا أسمعها. أنا قديم جدًّا لا أحد يبالي بي، وهذا شيء حسن. كِلانَا (أي مع اللغة العربية) لن يساومنا أحد في الجوطية؛ هذه اللغة إذا أخطأت اليوم في إملائها ونحوها وجهلت بلاغتها وعدمت حسها تصبح أفْحَل شاعر مَخْصِي للعقود القادمة.

في مُظاهرة أخرى قريبًا. ربما في ساحة الباستيل مشيتُ إلى جانب آخَرين، أظن أيضًا من أجل قضية «شمطاء» اسمها فلسطين. لا أسمع، لا أحس، وأعي بقدر الحاجة لركوب المترو. أمس الأول في ساحة «الأوبرا» جاء شباب الضواحي الباريسية، واعْتَلَوا منصَّات نصبوها بحماس، ثم علَّقوا أعلامًا لها ومكبرات صوت انعتق منها صوت فيروز: «بأيدينا سنعيد بهاء القدس ...» وقذف زعيم الشباب «شارون» بأقذع الشتائم والأوصاف، والجمهور من جالية المهاجرين يعطي الصدى ويعيد.

جسدي ووجهي واقفان قُبالة هذا الحشد بلا حس ولا حركة. شمع أنا وجليد وهلام. سأذهب وأنا لا أعرف لماذا جئتُ، والأرجح أنني باقٍ معهم دون أن أعرف لماذا أتيت. بحكم العادة ربما بحكم الزمن. القتل المعتاد. النسيان وقد أزمن. الخيانة بعد أن شمخت، تاريخ الأمة في الغبار، لطخة دم واحدة لكي يصبح المحيط عارًا. بعد المبادرة السعودية مبادرتي أن نجمع آلاف الكلمترات من الأكفان لستر عورة الموتى (= الشهداء) القادمين. «... وبأيدينا للقدس سلام». طبعًا، ردَّدت هذا في سِرِّي وإلا لَضرَبوني بالمنجنيق وهم يزمجرون «الغضب الساطع آتٍ ... آتٍ ... آتٍ ...!»

نتبادل النظرات كَرَّةً ثانية، أظنها مُتجدِّدةً بتفاوت. تنظر نحوي غاضبًا بهدوء. أُصوِّب إليك نظرةً وديعةً بغضب. إن لجسدينا المتعدد-الواحد إيقاع المفارَقة، ليس غير بها يحيا، ودون استمرارها لا مَحالة هالِك قبل الأوان.

يا لها الأحاسيس، ومعها الأشياء، تتشاسع أمامي ولا أفعل أي شيء لوقف فداحة ما يحدث، ومنه رؤيتي ناري تخبو وحدها بداخلي، ولا أتكلف دَفْع النَّفَس النَّزْر، للنفخ في جمرة المبتغى (= البقاء/الوهم المُبتغى). بلى، أحاول أحيانًا، أن أختلس النظر إلى شبابي لألمحه يرمقني، من بعيد، بنظرة ماكرة أو ساخرة فتطقطق أعواد خفيفة حولي لتدفئ مساء ندماني، أسقيهم رحيق عمر، وأرى الصبح ينبلج أمامي فأتركه يعبر إلى ضفة أخرى حيث يليق به المقام.

ضفة أخرى، إذن! ليس لي أن أَتعجَّب، فلقد أدمنت الغربة، وصرتُ صنو الرحيل، وإذا استمرَّ «البرابرة» في الهجوم فسأَتَحوَّل، أيضًا، وبِصَمْت، مُحتَرِف مُظاهرات. أمس فقط، في فاتح مايو الجديد، كانت فرنسا عن بَكْرَة أبيها على موعد مع بَعْث تاريخها، مع نشيد المرسييز وصحوة الجمهورية. اليوم عُطلة؛ ولذا تَغدَّيْنا ظهيرة الأربعاء بِكَسَل وبلا عَجَل، وعلى شاشة التلفاز ذَكَّرَنا مذيع نهاية النشرة أن المظاهرة التي ستنطلق في الثالثة بعد الظهر من «الربوبليك» إلى ساحة «لانسيون» قد حَشدَت الآلاف منذ الثانية عشر. كنت بين خيارين: إما قيلولة لذيذة في يوم مُشتٍ بسماجة، أو مُرافَقة الروائي التركي أورهان باموك في مَسعاه الغريب داخل «الكتاب الأسود».

من الخَلْف هَمَس في أذني صوت مجهول: وهل نسيتَ الخيار الثالث؛ أي حُبك وموعدك مع الجمهورية، الجمهورية الفرنسية طبعًا؟ فاليوم فرنسا ستتظاهر بأكملها، ليس لعيد العمال وحده ولكن ضد الفاشية، وزعيمها الجديد جان ماري لوبين، وصمة عار الانتخابات الفرنسية الرئاسية لسنة ٢٠٠٢م.

كنت سأندم كثيرًا لو لم أحضر، وعُدتُ فنَدمتُ بعض الشيء لوجودي في هذا المَهْمَه البشري: عشرات الآلاف حقًّا من الشباب والكهول والشيوخ. البَشَر من كل الشعوب والجنسيات، مواطنون، المواطنون بكل النبرات يُدِينُون العنصرية والفاشية، ويَهْتِفون للأخوة، وضد أن يعبر لوبين Le Pen وفلول كراهيته العمياء. أنا مع هذا الهتاف كله، واحد بين الآلاف، ولا أحد معي، أبدًا لا أحد معنا.

جسدي الذي حسبته لِهُنَيْهَة استرجع جسده، ما لَبِث أن انفصل عني، فتَقاذفَتْني الأمواج وأنا أسمع أصداء الهتاف الاضطراري: «شيراك ... شيراك!» وأردتُ بدوري أن أهتف من أَجْل الجمهورية فاستحيتُ، ومن أجل زعيم واحد منا فقط، فاحتبست أنفاسي، وتفَكَّكتْ أوصالي، وسحبني زعماؤنا الكبار في الاستهتار من عنقي إلى قرار استبدادهم العميق.

جرَّبْت طويلًا أن أبتعد من أجل أن أقترب أكثر، مني، ومن العالم الذي يغوي حنيني. جرَّبْت الهوى والحياة والموت، اللوعة والحرقة، المرارة والغبن، الشجاعة والغواية، الوطن وأضداده، الأمة وخصيانها، الانتصارات المُؤَجَّلة دومًا والهزائم المتكررة باستمرار، الجمال حتى جُنون الألوان والأطياف، رحيق الصداقة العذب، تساقط العزائم في سوق المقايضة، تاريخ يُحوِّله حكام وزُعران إلى مباءة، فرسان تهافتوا في ذل السؤال.

جرَّبْت أن أحب وأحب حتى لا تتسع الأرض لمسافة الأحضان، وأن أرحل وأداوم الرحيل حتى لا بَلَد يَأويني، وأن أهتاج بالشوق ضِرامًا فكل الحرائق مني مُضْرَمة.

فإنْ وصلتَ إلى هذا الحد من القراءة ونَجَوتَ من كلام حسبته ذا لهب، فاعلم أنِّي صرتُ من رماد، فاجمعني وكَلِماتي واخْتَر موقعًا ينفسح فيه عبور نهر السين، وانْثُرنا هناك لنستجير بالماء، عَسانا نُخَصِّبه فينتقلنا أبدًا من ضفة إلى ضفاف.

باريس في ٢ / ٥ / ٢٠٠٢م

هنداوي